الأصلُ الأول

في العلم وفضله وشرفه، وبيان عُموم الحاجة إليه، وتوقُّف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ٱستشهَد سبحانه بأولي العلم علىٰ أجلِّ مشهودٍ عليه، وهو توحيدُه، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾.

وهذا يدلُّ علىٰ فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: ٱستشهادُهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: ٱقترانُ شهادتهم بشهادته.

والثالث: ٱقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أنَّ في ضمن هذا تزكيتَهم وتعديلَهم؛ فإنَّ الله لا يستشهِدُ من خلقه إلا العُدول، ومنه الأثرُ المعروفُ[1] عن النبيِّ ﷺ: «**يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدولُه؛ ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحال المُبْطِلين، وتأويلَ الجاهلين**»[2].

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة: رأيتُ رجلًا قدَّم رجلًا إلىٰ

---

(١) (ت): «المنقول».

(٢) سيأتي تخريجه مفصَّلًا (ص: ٤٦٣) حيثُ أفرد له المصنفُ فصلًا.

إسماعيل بن إسحاق القاضي، فادَّعىٰ عليه دعوىٰ، فسأل المدَّعىٰ عليه، فأنكر، فقال للمدَّعي: ألك بيِّنة؟ قال: نعم، فلانٌ وفلان. قال: أمَّا فلانٌ فمِن شهودي[1]، وأمَّا فلانٌ فليس من شهودي. قال: فيعرفُه القاضي؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بكَتْب[2] الحديث. قال: فكيف تعرفُه في كَتْبه الحديث؟ قال: ما علمتُ إلا خيرًا. قال: فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه**»؛ فمن عدَّله رسولُ الله ﷺ أولىٰ ممَّن عدَّلتَه أنت. فقال: فقُم فهاتِه، فقد قبلتُ شهادتَه[3].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلامُ علىٰ هذا الحديث في موضعه.

الخامس: أنه وصَفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدلُّ علىٰ ٱختصاصهم به، وأنهم أهلُه وأصحابُه، ليس بمستعارٍ لهم.

السادس: أنه سبحانه ٱستشهَد بنفسه ـ وهو أجلُّ شاهد ـ، ثمَّ بخيار خلقه ـ وهم ملائكتُه والعلماءُ من عباده ـ، ويكفي بهذا فضلًا وشرفًا.

السابع: أنه ٱستشهَد بهم علىٰ أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِه وأكبره، وهو شهادةُ أن لا إله إلا هو. والعظيمُ القَدْر إنما يستشهِدُ علىٰ الأمر العظيم أكابرَ الخلق وساداتهم.

---

(١) كان القضاة (منذ أواخر القرن الثاني) يتخذون لهم شهودًا ثبتت عدالتهم عندهم، فيقبلون شهاداتهم دون غيرهم، وقد ولي الشهادة جماعةٌ من أكابر العلماء.

(٢) (ت): «يكتب». والحرف الأول مهمل في (د).

(٣) أخرجه الخطيبُ البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (٥٧). واقرأ خبرًا آخر في «الطالع السعيد» للأدفوي (٦٩٦، ٦٩٧).

الثامن: أنه سبحانه جعَل شهادتَهم حجَّةً علىٰ المنكرين[1]، فهم بمنزلة أدلَّته وآياته وبراهينه الدَّالَّة علىٰ توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفردَ الفعلَ المتضمِّنَ لهذه الشهادة الصَّادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعلٍ آخر غير شهادته[2]؛ وهذا يدلُّ علىٰ شدَّة ٱرتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهدَ لنفسه بالتوحيد علىٰ ألسنتهم، وأنطقَهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهدَ بها لنفسه إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشر: أنه سبحانه جعَلهم مؤدِّين لحقِّه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به؛ فثبت الحقُّ المشهودُ به؛ فوجب علىٰ الخلق الإقرارُ به، وكان في ذلك غايةُ سعادتهم في معاشهم ومعادهم. وكلُّ من ناله هدًى بشهادتهم، وأقرَّ بهذا الحقِّ بسبب شهادتهم، فلهم مثلُ أجره. وهذا فضلٌ عظيمٌ لا يُدْرِكُ قدرَه إلا الله. وكذلك كلُّ من شهدَ بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثلُ أجره أيضًا.

فهذه عشرةُ أوجهٍ في هذه الآية.

الوجه الحادي عشر في تفضيل العلم وأهله: أنه سبحانه نفىٰ التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفىٰ التسويةَ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وهذا يدلُّ علىٰ غاية فضلهم وشرفهم.

---

(١) (ح، ن): «المتكبرين».

(٢) (ح): «علىٰ شهادته».

الوجه الثاني عشر: أنه سبحانه جعلَ أهلَ الجهل بمنزلة العُميان الذين لا يبصرون، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، فما ثَمَّ إلا عالمٌ أو أعمىٰ، وقد وصفَ سبحانه أهلَ الجهل بأنهم صمٌّ بُكمٌ عُميٌ في غير موضعٍ من كتابه[١].

الوجه الثالث عشر: أنه سبحانه أخبرَ عن أولي العلم بأنهم يرونَ ما أُنزِل إليه من ربِّه حقًّا، وجعَل هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

الوجه الرابع عشر: أنه سبحانه أمرَ بسؤالهم والرجوع إلىٰ أقوالهم، وجعَل ذلك كالشهادة منهم، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأهلُ الذِّكر هم أهلُ العلم بما أُنزِل علىٰ الأنبياء.

الوجه الخامس عشر: أنه شهدَ لأهل العلم شهادةً في ضمنها الاستشهادُ بهم علىٰ صحَّة ما أنزل علىٰ رسوله، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

الوجه السادس عشر: أنه سبحانه سلَّىٰ نبيَّه بإيمان أهل العلم به، وأمَره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ

---

(١) سورة «البقرة» [الآية: ١٨، ١٧١].

﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٨]، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهل العلم، وتحته[1] أنَّ أهلَه العالِمون[2] قد عرفوه وآمنوا به وصدَّقوا، فسواءٌ آمنَ به غيرُهم أو لا.

الوجه السابع عشر: أنه سبحانه مدحَ أهلَ العلم، وأثنىٰ عليهم، وشرَّفهم بأن جَعَل كتابَه آياتٍ بيناتٍ في صدورهم، وهذه خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهم دون غيرهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧ - ٤٩].

وسواءٌ كان المعنىٰ: أنَّ القرآنَ مستقرٌّ في صدور الذين أوتوا العلم، ثابتٌ فيها، محفوظٌ فيها، وهو في نفسه آياتٌ بينات، فيكونُ قد أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: أنه آياتٌ بينات.

الثاني: أنه محفوظٌ مستقرٌّ ثابتٌ في صدور الذين أوتوا العلم.

أو كان المعنىٰ: أنه آياتٌ بيناتٌ في صدورهم، أي: كونُه آياتٍ بيناتٍ معلومٌ لهم، ثابتٌ في صدورهم.

والقولان متلازمان، ليسا بمختلفين. وعلىٰ التقديرين فهو مدحٌ لهم

---

(١) الحرف الأول مهمل في (د). (ق): «وبحثه». (ت): «و محبته».

(٢) كذا في الأصول، بالرفع. والجادة النصب.

وثناءٌ عليهم في ضمنه الاستشهادُ بهم. فتأمَّله.

الوجه الثامن عشر: أنه سبحانه أمرَ نبيَّه أن يسأله مزيدَ العلم، فقال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلم أنْ أمرَ نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه.

الوجه التاسع عشر: أنه سبحانه أخبرَ عن رِفْعة درجات أهل العلم والإيمان خاصَّة، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أخبر سبحانه في كتابه برفعة الدَّرجات[(١)] في أربعة مواضع[(٢)]:

أحدها: هذا.

والثاني: قولُه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

والثالث: قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

---

(١) (ت، ح): «برفع الدرجات».

(٢) سيأتي موضعٌ خامسٌ يذكره المصنفُ في الوجه الثالث والعشرين.

والرابع: قولُه تعالىٰ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

فهذه أربعةُ مواضع، في ثلاثةٍ منها: الرِّفعةُ بالدَّرجات لأهل الإيمان الذي هو العلمُ النافعُ والعملُ الصَّالح، والرابعُ: الرِّفعةُ بالجهاد؛ فعادت رفعةُ الدَّرجات كلُّها إلىٰ العلم والجهاد اللذَين بهما قِوامُ الدِّين.

الوجه العشرون: أنه سبحانه ٱستشهَد بأهل العلم والإيمان يومَ القيامة علىٰ بطلان قول الكفار، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ - ٥٦].

الوجه الحادي والعشرون(١): أنه سبحانه أخبر أنهم أهلُ خشيته، بل خصَّهم من بين الناس بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا حصرٌ لخشيته في أولي العلم.

وقال تعالىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، وقد أخبر أنَّ أهل خشيته هم العلماء؛ فدلَّ علىٰ أنَّ هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النَّصَّين(٢).

---

(١) انظر: «الذخيرة» للقرافي (١/ ٤١).

(٢) (ت): «مجموع النصين». وهي قراءةٌ جيدة.

وقال ٱبن مسعود رضي الله عنه: «كفىٰ بخشية الله علمًا، وكفىٰ بالاغترار بالله جهلًا»[1].

الوجه الثاني والعشرون: أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده ـ يدلُّهم علىٰ صحة ما أخبر به ـ أنَّ أهلَ العلم هم المنتفعون بها، المختصُّون بعلمها، فقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي القرآن بضعةٌ وأربعون مثلًا[2].

وكان بعضُ السلف إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمُه[3] يبكي ويقول: لستُ من العالِمين[4].

الوجه الثالث والعشرون: أنه سبحانه ذكر مناظرةَ إبراهيم لأبيه وقومه،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٩١)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٣٤)، وغيرهم بإسنادٍ منقطع؛ القاسمُ بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من جدِّه، وبذا أعلَّه الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ٢١٠).

(٢) وقد أفردها المصنف بتأليفٍ مستقلٍّ ذكره له عامةُ مترجميه. انظر: «ابن القيم» للشيخ بكر (٢٢١). وفي مقدمة «الكافية الشافية» (٤١ – ٤٧) جملةٌ منها. وفي «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٠ – ١٩٠) بحثٌ حافلٌ حولها، وجرَّده بعض علماء نجد وطبعه منفردًا.

(٣) (ق): «يعرفه».

(٤) أخرج نحوه ابن أبي حاتم في «التفسير» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٩٧) ـ، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٥) عن عمرو بن مرَّة.

وغَلَبتَه لهم بالحُجَّة، وأخبر عن تفضيله بذلك، ورفعِه درجتَه بعلم الحُجَّة، فقال تعالىٰ عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

قال زيدُ بن أسلم رضي الله عنه: «نرفعُ درجاتٍ من نشاء بعلم الحُجَّة»[1].

الوجه الرابع والعشرون: أنه سبحانه أخبر أنه خلقَ الخلق، ووضعَ بيتَه الحرام، والشهرَ الحرام، والهَدْي، والقلائد[2]؛ ليعلمَ عبادُه أنه بكلِّ شيءٍ عليم، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قدير، فقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فدلَّ علىٰ أنَّ علمَ العباد بربِّهم وصفاته وعبادتَه وحده هو الغايةُ المطلوبةُ من الخلق والأمر.

الوجه الخامس والعشرون: أنَّ الله سبحانه أمر أهلَ العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خيرٌ مما يجمعُ الناس، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وفُسِّرَ فضلُ الله بالإيمان،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٦٣)، و«العلل» (٢/ ١٩٠ - رواية عبد الله)، وابن وهب في تفسير القرآن من «الجامع» (٢٧٤)، وغيرهما من طريق مالك عن زيد بن أسلم، قال: «بالعلم».
وانظر: «المدخل إلىٰ السنن» للبيهقي (١/ ٣٠٤)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٨). ولم أجده باللفظ الذي ذكره المصنف.

(٢) يشير لآية المائدة: ٩٧.

ورحمتُه بالقرآن، والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النافعُ والعملُ الصالح، وهما الهدىٰ ودينُ الحقِّ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عمل.

الوجه السادس والعشرون: أنه سبحانه شهدَ لمن آتاه العلمَ بأنه قد آتاه خيرًا كثيرًا، فقال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابنُ قتيبة والجمهور: الحكمةُ إصابةُ الحقِّ والعملُ به[1]. وهي العلمُ النافعُ والعملُ الصالح.

الوجه السابع والعشرون: أنه سبحانه عَدَّدَ نِعَمه وفضلَه علىٰ رسوله، وجعَل من أجلِّها أنْ آتاه الكتابَ والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه الثامن والعشرون: أنه سبحانه ذكَّر عبادَه المؤمنين بهذه النِّعمة، وأمرهم بشُكْرها، وأن يذكُروه علىٰ إسدائها إليهم، فقال تعالىٰ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (٢٢٧)، و«زاد المسير» (١/ ٣٢٤)، و«الكشاف» (١/ ٣١٦)، و«التوقيف» للمناوي (٢٩١)، و«المفردات» للراغب (٢٤٩) وتحرَّف في مطبوعته: «إصابة الحقِّ بالعلم والفعل» إلى: «بالعلم والعقل»، وورد على الصواب فيما نقله اليوسي في «زهر الأكم» (١/ ٢٦).

الوجه التاسع والعشرون: أنه سبحانه لما أخبر ملائكتَه بأنه يريدُ أن يجعلَ في الأرض خليفة، قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، إلىٰ آخر قصة آدم وأمرِ الملائكة بالسجود له، وإباءِ[1] إبليس، ولَعْنِه، وإخراجه[2] من السماء.

وبيانُ فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه ردَّ علىٰ الملائكة لما سألوه: كيف يجعلُ في الأرض من هم أطوعُ له منه؟ فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأجاب سؤالهم بأنه يعلمُ من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليمُ الحكيم، فظهرَ من هذا الخليفة مِنْ خيار خلقه، ورسله، وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصِّدِّيقين، والعلماء، وطبقات أهل الإيمان= من هو خيرٌ من الملائكة، وظهرَ مِنْ إبليس من هو شرُّ العالمين.

فأخرَج سبحانه هذا وهذا، والملائكةُ لم يكن لها علمٌ لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرضَ من الحِكَم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهارَ تفضيل آدم وتمييزه فضَّله[3] وميَّزه

---

(١) (ن): «فإباء». (ح): «فأبى».

(٢) (ت، ح، ن): «واخرجه».

(٣) (ق، ح، ن): «وفضله». وهو خطأ.

عليهم بالعلم، فعلَّمه الأسماءَ كلَّها، ثمَّ عرضهم علىٰ الملائكة، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلقَ ربُّنا خلقًا هو أكرمُ عليه منَّا[1]، فظنُّوا أنهم خيرٌ وأفضلُ من الخليفة الذي يجعلُه الله في الأرض، فلمَّا ٱمتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة أقرُّوا بالعجز وجَهْل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فحينئذٍ أظهرَ لهم فضلَ آدم بما خصَّه به من العلم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، فلمَّا أنبأهم بأسمائهم أقرُّوا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما عرَّفهم[2] فضلَ آدم بالعلم، وعَجْزَهم عن معرفة ما علَّمه، قال لهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، فعرَّفهم سبحانه نفسَه بالعلم، وأنه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض، فتعرَّف إليهم بصفة العلم، وعرَّفهم فضلَ نبيِّه وكليمه بالعلم، وعجزهم عمَّا آتاه آدم من العلم، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعلَ في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضلَ من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه [أن] يُظْهِرَ لملائكته فضلَه وشرفَه، فأظهرَ لهم أحسنَ ما فيه، وهو علمُه، فدلَّ علىٰ أنَّ العلمَ أشرفُ ما في الإنسان، وأنَّ فضلَه وشرفَه إنما هو بالعلم.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١/ ٤٦٣)، و«التاريخ» (١/ ١٠٠) عن قتادة والحسن والربيع بن أنس، وحكاه قتادة عن ابن عباس.

(٢) (د، ق، ح): «لما أن عرفهم».

ونظيرُ هذا ما فعله بنبيِّه يوسف عليه السلام، لـمَّا أراد إظهارَ فضله وشرفِه علىٰ أهل زمانه كلِّهم، أظهرَ للمَلِك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجزَ عنه علماءُ التعبير، فحينئذٍ قدَّمه ومكَّنه وسلَّم إليه خزائنَ الأرض، وكان قبل ذلك قد حبَسه، علىٰ ما رآه من حُسْن وجهه وجمال صورته، ولـمَّا ظهر له حُسْنُ صورة علمه، وجمالُ معرفته، أطلَقه من الحبس، ومكَّنه[1] في الأرض؛ فدلَّ علىٰ أنَّ صورةَ العلم عند بني آدم أبهىٰ وأحسنُ من الصورة الحِسِّيَّة[2]، ولو كانت أجملَ صورة.

وهذا وجهٌ مستقلٌّ في تفضيل العلم، مضافٌ إلىٰ ما تقدَّم، فتمَّ به ثلاثون وجهًا.

الوجه الحادي والثلاثون: أنه سبحانه ذمَّ أهلَ الجهل في مواضع كثيرةٍ من كتابه:

فقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فلم يقتصر سبحانه علىٰ تشبيه الـجُهَّال بالأنعام، حتىٰ جعلهم أضلَّ سبيلًا منهم.

---

(١) (ت): «مكن له».

(٢) (ت): «الصورة الحسنة».

(٣) في تسعة مواضع: الأنعام: ٣٧، الأعراف: ١٣١، الأنفال: ٣٤، يونس: ٥٥، القصص: ١٣، ٥٧، الزمر: ٤٩، الدخان: ٣٩، الطور: ٤٧.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، أخبرَ أنَّ الجُهَّالَ شرُّ الدَّوابِّ عنده، علىٰ اختلاف أصنافها، من الحمير، والسِّباع، والكلاب، والحشرات، وسائر الدَّوابِّ؛ فالجُهَّالُ شرٌّ منهم. وليس علىٰ دين الرسل أضرُّ من الجُهَّال، بل هم أعداؤهم علىٰ الحقيقة.

وقال تعالىٰ لنبيِّه ـ وقد أعاذَه ـ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال كليمُه موسىٰ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وقال لأول رسله نوح: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حالُ الجاهلين عنده، والأولُ حالُ أهل العلم عنده.

وأخبرَ سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منَعهم علمَ كتابه ومعرفتَه وفِقْهَه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

وأمرَ سبحانه نبيَّه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأثنىٰ علىٰ عباده بالإعراض عنهم ومُتاركَتِهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكلُّ هذا يدلُّ علىٰ قُبح الجهل عنده، وبُغْضِه للجهل وأهله، وكذلك هو عند الناس، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأ منه وإن كان فيه.

الوجه الثاني والثلاثون: أنَّ العلمَ حياةٌ ونور، والجهلَ موتٌ وظُلمَة، والشرُّ كلُّه سببه عدمُ الحياة والنور، والخيرُ كلُّه سببه النورُ والحياة؛ فإنَّ النورَ يكشفُ عن حقائق الأشياء، ويبيِّنُ مراتبها، والحياةُ هي المصحِّحةُ لصفات الكمال، المُوجِبةُ لتسديد الأقوال والأعمال.

وكلُّ ما تصرَّف من الحياة فهو خيرٌ كلُّه؛ كالحياء الذي سببه كمالُ حياة القلب، وتصوُّرُه حقيقةَ القبح ونفرتُه منه، وضدُّه الوقاحةُ والفُحش، وسببه موتُ القلب وعدمُ نفرته من القبيح. وكالحَيَا الذي هو المطرُ الذي به حياةُ كلِّ شيء.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان ميتًا بالجهل[1] فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناس.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) (ح، ن): «بالجهل قلبه».

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ فأخبرَ أنه روحٌ تحصلُ به الحياة، ونورٌ تحصلُ به الإضاءة والإشراق؛ فجمع بين الأصلَين: الحياة، والنور.

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]؛ فضربَ سبحانه مثلًا لنوره الذي قذَفه في قلب المؤمن، كما قال أبيُّ بن كعبٍ رضي الله عنه:

«مثلُ نوره في قلب عبده المؤمن»[1]، وهو نورُ القرآن والإيمان الذي أعطاه إياه، كما قال في آخر الآية: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني: نورَ الإيمان علىٰ نور القرآن، كما قال بعضُ السلف: «يكادُ المؤمنُ ينطقُ بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمعَ فيها بالأثر كان نورًا علىٰ نور»[2].

وقد جمعَ اللهُ سبحانه بين ذكر هذين النُّورَين ـ وهما: الكتابُ، والإيمان ـ في غير موضعٍ من كتابه، كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ففضلُ الله: الإيمان، ورحمتُه: القرآن.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد تقدَّمت هذه الآيات.

وقال في آية النور: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، وهو نورُ القرآن علىٰ نور الإيمان[3].

وفي حديث النوّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إنَّ الله

---

(١) لم أقف عليه مسندًا. ونقله ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٣/ ١٤٥، ٣٦٨، ٤/ ٣٢٢)، والقرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٦٠)، وغيرهما.
وانظر: «الوابل الصيب» (١١٩) والتعليق عليه.

(٢) ورد بمعناه عن ابن عباس عند الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٠١) من رواية علي بن أبي طلحة عنه.

(٣) (ق): «وهو نور الإيمان على نور القرآن».

ضرب مثلًا، صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ كَنَفَي الصِّراط[1] سُوران لهما أبوابٌ مفتَّحة، وعلىٰ الأبواب سُتور، وداعٍ يدعو علىٰ الصِّراط، وداعٍ يدعو فوقه، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والأبوابُ التي علىٰ كَنَفَي الصِّراط حدودُ الله، فلا يقعُ أحدٌ في حدود الله حتىٰ يكشفَ السِّتر، والذي يدعو من فوقه واعظُ ربِّه».

رواه الترمذيُّ ـ وهذا لفظُه ـ، والإمامُ أحمد ولفظُه: «... والدَّاعي علىٰ رأس الصِّراط كتابُ الله، والداعي فوق الصِّراط واعظُ الله في قلب كلِّ مؤمن»[2].

فذكرَ الأصلين؛ وهما: داعي القرآن، وداعي الإيمان.

وقال حذيفة: «حدثنا رسولُ الله ﷺ أنَّ الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرِّجال، ثمَّ نزل القرآن، فعَلِمُوا من الإيمان، ثمَّ عَلِمُوا من القرآن»[3].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه عن

---

(١) الكنف: الجانب والناحية. «النهاية» (كنف). وفي (ت) وبعض مصادر الحديث: «كتفَي» بالتاء، وهي بمعنىٰ المثبت.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢، ١٨٣)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرىٰ» (١١١٦٩)، وغيرهم من طرق.
قال الترمذي ـ كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٦١) ـ: «حسن غريب»، وقال ابن كثير في «التفسير» (١/ ١٦١): «هذا إسناد حسن صحيح»، وقال الحاكم (١/ ٧٣) عن أحد طرقه: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».
ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٦)، ومسلم (١٤٣).

النبي ﷺ: **«مثلُ المؤمن الذي يقرأ القرآنَ كمثل الأُتْرُجَّة، طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيِّب، ومثلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآنَ كمثل التمرة، طعمُها طيِّب ولا ريحَ لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ، ومثلُ المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمُها مرٌّ ولا ريحَ لها»**[1].

فجعل الناسَ أربعةَ أقسام:

الأول: أهلُ الإيمان والقرآن؛ وهم خيارُ الناس.

والثاني: أهلُ الإيمان الذين لا يقرؤونَ القرآن؛ وهم دونهم.

فهؤلاء هم السعداء.

والأشقياء قسمان:

أحدهما: من أوتي قرآنًا بلا إيمان، فهو منافق.

والثاني: من لا أوتي قرآنًا ولا إيمانًا.

والمقصود: أنَّ القرآنَ والإيمانَ هما نورٌ يجعلُه الله في قلب من يشاءُ من عباده، وأنهما أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، وعلمُهما أجلُّ العلوم[2] وأفضلُها، بل لا علمَ في الحقيقة ينفعُ صاحبه إلا علمُهما، والله يهدي من يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم.

الوجه الثالث والثلاثون: أنَّ الله سبحانه جعَل صيدَ الكلب الجاهل ميتةً يحرمُ أكلُها، وأباحَ صيدَ الكلب المعلَّم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٢٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٧).

(٢) (د، ق): «أصل العلوم».

وهذا أيضًا من شرف العلم: أنه لا يباحُ إلا صيدُ الكلب العالِم، وأما الكلبُ الجاهلُ فلا يحلُّ أكلُ صيده؛ فدلَّ علىٰ شرف العلم وفضله، قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، ولولا مزيَّةُ العلم والتعليم وشرفُهما كان صيدُ الكلب المعلَّم والجاهل سواءً.

الوجه الرابع والثلاثون: أنَّ الله سبحانه أخبرنا عن صفيِّه وكليمه الذي كتبَ له التوراة بيده وكلَّمه منه إليه، أنه رَحَل إلىٰ رجلٍ عالمٍ يتعلَّمُ منه، ويزدادُ علمًا إلىٰ علمه، وقال لفتاه: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾[1]؛ حرصًا منه علىٰ لقاء هذا العالم، وعلىٰ التعلُّم منه، فلما لقيه سلكَ معه مسلكَ المتعلِّم مع معلِّمه، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[2]، فبدأه بعد السلام بالاستئذان علىٰ متابعته، وأنه لا يتَّبعُه إلا بإذنه[3]، وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فلم يجيء مُسْتَمْحِنًا ولا متعنِّتًا، وإنما جاء متعلِّمًا مستزيدًا علمًا إلىٰ علمه.

وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعلم؛ فإنَّ نبيَّ الله وكليمَه سافر ورحل حتىٰ لقِي النَّصَب من سفره في تعلُّم ثلاث مسائل من رجلٍ عالم، ولـمَّا سمعَ به لم يقرَّ له قرارٌ حتىٰ لقيه وطلب منه متابعتَه وتعليمَه.

---

(١) كما في سورة الكهف: ٦٠.

(٢) سورة الكهف: ٦٦.

(٣) (ح، ن): «بإذنه وأمره».

وفي قصَّتهما عبرٌ وآياتٌ وحِكَمٌ ليس هذا موضع ذكرها(١).

الوجه الخامس والثلاثون: قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وندبَ تعالىٰ المؤمنين إلىٰ التفقُّه في الدِّين ـ وهو تعلُّمه ـ، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم ـ وهو التعليم ـ.

وقد ٱختُلِف في الآية(٢):

فقيل: المعنىٰ: أنَّ المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلُّهم للتفقُّه والتعلُّم، بل ينبغي أن ينفر من كلِّ فرقةٍ منهم طائفة، تتفقَّه تلك الطائفةُ ثم ترجع تعلِّم القاعدين؛ فيكونُ النفيرُ علىٰ هذا نفيرَ تعلُّم، والطائفةُ تقالُ علىٰ الواحد فما زاد.

قالوا: فهو دليلٌ علىٰ قبول خبر الواحد.

وعلىٰ هذا حمَلها الشافعيُّ وجماعة(٣).

وقالت طائفةٌ أخرىٰ: المعنىٰ: وما كان المؤمنون لينفروا إلىٰ الجهاد كلُّهم، بل ينبغي أن تنفرَ طائفةٌ للجهاد، وفرقةٌ تقعدُ تتفقَّه في الدِّين، فإذا جاءت الطائفةُ التي نفرت فقَّهَتها القاعدةُ وعلَّمتها ما أنزل من الدِّين والحلال والحرام.

---

(١) انظر لها فصلًا ماتعًا في «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٤٨٣ - ٤٨٥).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٢)، و«بدائع الفوائد» (١٦٣٦).

(٣) انظر: «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٧٩)، و«الواضح» لابن عقيل (٤/ ٣٦٧)، و«الفصول» للجصاص (٣/ ٧٥، ٩٤، ١٤٧).

والمنقول عن الشافعي الاستدلال بالآية علىٰ قبول خبر الواحد، مع اعتبار النفير علىٰ بابه نفيرَ جهاد. انظر: «المجموع» (٤/ ٣٠٥)، و«فتح الباري» (١٣/ ٢٤٤)، و«الرسالة» (٩٨٨)، و«الأم» (٥/ ٣٦٨، ٣٨٤).

وعلىٰ هذا، فيكونُ قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ و﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للفرقة التي نفرت منها طائفة.

وهذا قولُ الأكثرين[1].

وعلىٰ هذا، فالنفيرُ نفيرُ جهادٍ ـ علىٰ أصله ـ؛ فإنه حيثُ ٱستُعمِل إنما يُفْهَمُ منه الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّة، وإذا ٱستُنفِرتُم فانفروا**»[2]، وهذا هو المعروفُ من هذه اللفظة.

وعلىٰ القولين، فهو ترغيبٌ في التفقُّه في الدِّين، وتعلُّمه، وتعليمه؛ وأنَّ ذلك[3] يعدلُ الجهاد، بل ربما يكونُ أفضلَ منه، كما سيأتي تقريره في الوجه الثامن والمئة إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه السادسُ والثلاثون: قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكَّر الناسُ كلُّهم في هذه السورة لكفتهم»[4].

وبيانُ ذلك: أنَّ المراتب أربعة[5]، وباستكمالها يحصلُ للشخص غايةُ كماله:

---

(١) انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٨٦٤) عن ابن عباس.

(٣) (ق): «فإن ذلك».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٥٢).

(٥) كذا في الأصول، في الموضعين، من باب الحمل على المعنى.

أحدها: معرفةُ الحقِّ.

الثانية: عملُه به.

الثالثة: تعليمُه من لا يحسنُه.

الرابعة: صبرُه علىٰ تعلُّمه، والعمل به، وتعليمه.

فذكر تعالىٰ المراتبَ الأربعة في هذه السورة:

* فأقسمَ سبحانه بالعصر أنَّ كلَّ أحدٍ في خُسْرٍ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهم الذين عرفوا الحقَّ وصدَّقوا به. فهذه مرتبة.

* ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وهم الذين عملوا بما علموا من الحقِّ. فهذه مرتبةٌ أخرىٰ.

* ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وصَّىٰ به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا. فهذه مرتبةٌ ثالثة.

* ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صبروا علىٰ الحقِّ، ووصَّىٰ بعضُهم بعضًا بالصبر عليه والثبات. فهذه مرتبةٌ رابعة.

وهذا نهايةُ الكمال؛ فإنَّ الكمال أن يكون الشخصُ كاملًا في نفسه، مكمِّلًا لغيره، وكمالُه بإصلاح قُوَّتيه العلمية والعملية، فصلاحُ القوة العلمية بالإيمان، وصلاحُ القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميلُه غيرَه بتعليمه إيَّاه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر علىٰ العلم والعمل.

فهذه السورةُ ـ علىٰ ٱختصارها ـ هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمدُ لله الذي جعل كتابه كافيًا من كلِّ ما سواه، شافيًا من كلِّ

داء، هاديًا إلىٰ كلِّ خير.

الوجه السابع والثلاثون: أنه سبحانه ذكر فضله ومِنَّته علىٰ أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده، بما آتاهم من العلم.

فذكر نعمتَه علىٰ خاتم أنبيائه ورسله بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقد تقدَّمت هذه الآية.

وقال في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في كليمه موسىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

ولـمَّا كان الذي آتاه موسىٰ من ذلك أمرًا عظيمًا خصَّه به علىٰ غيره، ولا يثبتُ له إلا الأقوياءُ أولو العزم= هيَّأه له بعد أن بلغَ أشدَّه واستوىٰ، يعني: تـمَّ وكَمُلَت قوَّته.

وقال في حقِّ المسيح: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال في حقِّه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، فجَعَل تعليمَه مما بشَّر به أمَّه، وأقرَّ عينها به.

وقال في حقِّ داود: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال في حقِّ الخَضِر صاحب موسىٰ وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]؛ فذكر مِن نعمه عليه تعليمَه، وما آتاه من رحمته.

وقال تعالىٰ يذكرُ نعمتَه علىٰ داود وسليمان: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ – ٧٩]، فذكَر النبيَّين الكريمَين، وأثنىٰ عليهما بالحُكم والعلم، وخَصَّ بفهم القضيَّة أحدَهما.

وقد ذكرتُ الحُكمَين الداووديَّ والسُّليمانيَّ، ووجهَيهما[1]، ومن صار من الأئمَّة إلىٰ هذا ومن صار إلىٰ هذا، وترجيحَ الحكم السُّليمانيِّ من عدَّة وجوه، وموافقتَه للقياس وقواعد الشرع، في كتاب «الاجتهاد والتقليد»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[3]، يعني: الذي أنزله.

جعَل سبحانه تعليمَهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا علىٰ صحة[4]

---

(١) (د، ت، ق، ن): «ووجههما».

(٢) لم يذكره مترجمو المصنف ضمن كتبه، وأشار هو إليه في «تهذيب السنن» (٦/ ٣٤١). انظر: «ابن القيم» للشيخ بكر (٢٠٠). وفي «إعلام الموقعين» (١/ ٣٢٦–٣٣٠) بحثٌ حول الحُكمَين المذكورَين.

(٣) سورة الأنعام [الآية: ٩١].

(٤) (ت): «حجة»، في الموضعين.

النبوَّة والرسالة؛ إذ لا يُنالُ هذا العلمُ إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل اللهُ علىٰ بشرٍ من شيء؟! وهذا مِن فضل العلم وشرفه، أنه دليلٌ علىٰ صحة النبوَّة والرسالة، والله الموفِّق للرشاد.

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢-٤]، يعني: وبَعَثَ في آخرين منهم لـمَّا يلحقوا بهم.

وقد ٱختُلِفَ في هذا اللَّحاق المنفيِّ؛ فقيل: هو اللَّحاقُ في الزمان، أي: يتأخَّر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللَّحاقُ في الفضل والسَّبق.

وعلىٰ التقديرين، فامتنَّ عليهم سبحانه بأنْ علَّمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويا لها من منَّةٍ عظيمةٍ فاتت المِنَن، وجلَّت أن يقدرَ العبادُ لها علىٰ ثمن.

الوجه الثامن والثلاثون: أنَّ أول سورةٍ أنزلها الله في كتابه سورة القلم[1]؛ فذكر فيها ما مَنَّ به علىٰ الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها

---

(١) كذا في الأصول. وهو من أسماء سورة العلق. انظر: «زاد المسير» (٩/ ١٧٥)، و«الدر المصون» (١١/ ٥٤).

فضلَه بتعليمه، وتفضيلَه الإنسانَ بما علَّمه إياه، وذلك يدلُّ علىٰ شرف التعليم والعلم.

فقال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فافتتحَ السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم.

وذَكَر خلقَه خصوصًا وعمومًا، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخصَّ الإنسان من بين المخلوقات؛ لِـمَا أودعه من عجائبه وآياته الدَّالَّة علىٰ ربوبيَّته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا ربَّ سواه. وذكر هنا مبدأ خلقه من علقٍ لكون العلقة مبدأ الأطوار التي ٱنتقلت إليها النُّطفة، فهي مبدأ تعلُّق التخليق[١].

ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءة، مخبرًا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل[٢] من الكرم، وهو كثرةُ الخير، ولا أحد أولىٰ بذلك منه سبحانه؛ فإنَّ الخيرَ كلَّه بيديه، والخيرُ كلُّه منه، والنِّعمُ كلُّها فهو وليُّها، والكمالُ كلُّه والمجدُ كلُّه له؛ فهو الأكرمُ حقًّا.

ثمَّ ذكر تعليمَه عمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، فهذا يدخلُ فيه تعليم الملائكة والناس.

ثمَّ ذكر تعليمَ الإنسان خصوصًا، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

---

(١) (د، ت، ق): «تعليق الخلق». وانظر: «تهذيب السنن» (١٢/ ٣١٣).

(٢) أي أن «الأكرم» علىٰ صيغة «أفعل»، التي هي من صيغ المبالغة.

فاشتملت هـذه الكلـماتُ عـلىٰ أنـه معطـي الموجـودات كلِّهـا بجميـع أقسامها؛ فإنَّ الوجودَ[1] له مراتبُ أربع[2]:

إحداها: مرتبتُها الخارجية، المدلولُ عليها بقوله: ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبة الثانية: الذِّهنية، المدلولُ عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطِّيَّة، فالخطِّيَّة مصرَّحٌ بها في قوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، واللفظيةُ من لوازم التعليم بالقلم؛ فإنَّ الكتابةَ فرعُ النطق، والنطقُ فرعُ التصوُّر.

فاشتملت هـذه الكلـماتُ عـلىٰ مراتـب الوجـود كلِّهـا، وأنـه سـبحانه هـو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو الخـالقُ المعلِّـم؛ فكـلُّ شيءٍ في الخـارج فبخَلْقِه وُجِد، وكلُّ علمٍ في الذِّهن فبتعليمه حَصَل، وكلُّ لفظٍ في اللِّسان أو خـطٍّ في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته، وبراهين حكمته، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصودُ أنه سبحانه تعرَّف إلىٰ عباده بما علَّمهم إياه ـ بحكمتـه ـ مـن الخطِّ واللفظ والمعنىٰ؛ فكان العلمُ أحدَ الأدلَّة الدَّالَّـة عليـه، بـل مـن أعظمهـا وأظهرها، وكفىٰ بهذا شرفًا وفضلًا له.

الوجه التاسع والثلاثون: أنه سبحانه سمَّىٰ الحُجَّة العلميةَ سلطانًا، قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: «كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حجَّة»[3]، وهذا

(١) (د، ت، ق): «الموجود».

(٢) (ق، د، ن): «أربعة».

(٣) علقه البخاري في «الصحيح» (٦/ ١٠٤)، ووصله ابن عيينة في «تفسيره»، ومن =

كقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]، يعني: ما عندكم مِن حجَّةٍ بما قلتم، إنْ هو إلا قولٌ علىٰ الله بلا علم.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، يعني: ما أنزل الله بها حجَّةً ولا برهانًا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦ - ١٥٧]، يعني: حجَّةٌ واضحة، فأتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم.

إلا موضعًا واحدًا اختُلِفَ فيه، وهو قولُه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩]، فقيل: المرادُ به القدرةُ والـمُلك، أي: ذهبَ عني مالي ومُلكي[1]، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو علىٰ بابه[2]، أي:

= طريقه ابن أبي حاتم ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٤١) ـ، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ١٥١)، وإسناده علىٰ شرط الصحيح، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٩١). وصححه ابن كثير.

ورُوِي من وجهٍ آخر عند الطبري (١٩/ ٤٤٤)، والفريابي - كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٣٩) -.

(١) (ت): «سلطاني ومالي».

(٢) (ح، ن): «من بابه».

ٱنقطعت حُجَّتي وبطلَت، فلا حجة لي.

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه سمَّىٰ علم الحجَّة: سلطانًا؛ لأنها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحبها واقتدارَه، فله بها سلطانٌ علىٰ الجاهلين.

بل سلطانُ العلم أعظمُ من سلطان اليد، ولهذا ينقادُ الناسُ للحجَّة ما لا ينقادونَ لليد؛ فإنَّ الحجَّةَ تنقادُ لها القلوب، وأما اليدُ فإنما ينقادُ لها البدن، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتَقُودُه، وتُذِلُّ المخالف، وإن أظهرَ العنادَ والمكابرة فقلبُه خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحت سلطانها، بل سلطانُ الجاه إن لم يكن معه علمٌ يُساسُ به فهو بمنزلة سلطان السِّباع والأُسود ونحوها، قدرةٌ بلا علمٍ ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجَّة، فإنه قدرةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحكمة، ومن لم يكن له ٱقتدارٌ في علمه فهو إمَّا لضعفِ حجَّته وسلطانه، وإمَّا لقهر سلطان اليد والسَّيف له، وإلا فالحجَّةُ ناصرةٌ نفسَها، ظاهرةٌ علىٰ الباطل قاهرةٌ له.

الوجه الأربعون: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ وصفَ أهلَ النار بالجهل، وأخبرَ أنه سَدَّ عليهم طرقَ العلم، فقال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ - ١١]، فأخبروا[1] أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون. والسمعُ والعقلُ هما أصلُ العلم، وبهما يُنال.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فأخبرَ سبحانه أنهم لم يحصُل

(١) (ت، ح): «فأخبر».

لهم علمٌ من جهةٍ من جهات العلم الثلاث، وهي العقلُ والسمعُ والبصر، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فقد وصفَ أهلَ الشقاء ـ كما ترىٰ ـ بعدم العلم، وشبَّههم تارةً بالأنعام، وتارةً بالحمار الذي يحملُ الأسفار، وتارةً جعلهم أضلَّ من الأنعام، وتارةً جعلهم شرَّ الدوابِّ عنده، وتارةً جعلهم أمواتًا غير أحياء، وتارةً أخبرَ أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارةً أخبرَ أنَّ علىٰ قلوبهم أكنَّة[1]، وفي آذانهم وقرًا، وعلىٰ أبصارهم غشاوة.

وهذا كلُّه يدلُّ علىٰ قبح الجهل، وذمِّه أهلَه[2]، وبغضه لهم، كما أنه يُحِبُّ أهلَ العلم ويمدحُهم ويثني عليهم، كما تقدَّم، والله المستعان.

الوجه الحادي والأربعون: ما في «الصحيحين» من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من يُرِد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين**»[3]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من لم يفقِّهه في دينه لم يُرِد به خيرًا، كما أنَّ

---

(١) (ح، ن): «أكنة أن يفقهوه».

(٢) (ح): «وذم أهله».

(٣) «صحيح البخاري» (٧١)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٧).

من أرادَ به خيرًا فقَّهه في دينه، ومن فقَّهه في دينه فقد أراد به خيرًا= إذا أريدَ بالفقه العلمُ المستلزمُ للعمل.

وأمَّا إن أريدَ به مجردُ العلم فلا يدلُّ علىٰ أنَّ من فَقُهَ في الدِّين فقد أُرِيدَ به خيرًا؛ فإنَّ الفقه حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادة الخير، وعلىٰ الأول يكونُ موجِبًا، والله أعلم.

الوجه الثاني والأربعون: ما في «الصحيحين» أيضًا من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ مَثَل ما بعثني اللهُ به من الهدىٰ والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلَت الماء، فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء، فنفعَ اللهُ بها الناس، فشربوا منها وسَقوا وزرَعوا، وأصاب طائفةً منها أخرىٰ إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً؛ فذلك مثَلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه بما بعثني الله به، فعَلِمَ وعلَّم، ومثَلُ من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسِلتُ به»**(١).

شبَّهَ ﷺ العلمَ والهدىٰ الذي جاء به بالغيث؛ لِـمَا يحصلُ بكلٍّ واحدٍ منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد، فإنها بالعلم والمطر.

وشبَّه القلوبَ بالأراضي التي تقعُ عليها المطر؛ لأنها المحلُّ الذي يمسكُ الماء، فينبتُ سائر أنواع النبات النافع، كما أنَّ القلوبَ تعي العلمَ فيثمرُ فيها ويزكو، وتظهرُ بركتُه(٢) وثمرتُه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٢).

(٢) (ت): «تزكيته».

ثـمَّ قـسَّم النـاس إلىٰ ثلاثـة أقسام[1]، بحـسب قبـولهم واسـتعدادهم لحفظه، وفهم معانيه، واستنباط أحكامه، واستخراج حِكَمه وفوائده:

أحدها: أهلُ الحفظ والفهم، الذين حَفِظُوه وعَقَلوه، وفهموا معانيه، واستنبطوا وجوهَ الأحكام والحِكَم والفوائد منه؛ فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قَبِلَت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ. فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثير، وهذا هو الفهمُ فيه والمعرفةُ والاستنباط؛ فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء.

فهذا مَثَلُ الحفَّاظ الفقهاء، أهل الرواية والدراية.

القسم الثاني: أهلُ الحفظ، الذين رُزِقوا حفظَه ونقلَه وضبطَه، ولم يُرزقوا تفقُّهًا في معانيه، ولا ٱستنباطًا ولا ٱستخراجًا لوجوه الحِكَم والفوائد منه؛ فهم بمنزلة من يقرأ القرآنَ ويحفظُه، ويراعي حروفَه وإعرابَه، ولم يُرْزَق فيه فهمًا خاصًّا عن الله، كما قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «إلا فهمًا يؤتيه اللهُ عبدًا في كتابه»[2].

والناسُ متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله أعظمَ تفاوت، فرُبَّ شخصٍ يفهمُ من النصِّ حكمًا أو حكمين، ويفهمُ منه الآخرُ مئةً أو مئتين.

فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماءَ للناس، فانتفعوا به؛ هذا يشربُ منه، وهذا يسقي، وهذا يزرع.

فهؤلاء القسمان هم السُّعداء، والأولون أرفعُ درجةً وأعلىٰ قدرًا، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (١٣٥ - ١٤١) والتعليق عليه.

(٢) أخرجه البخاري (١١١).

القسم الثالث: الذين لا نصيبَ لهم منه؛ لا حفظًا ولا فهمًا، ولا روايةً ولا دراية، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعانٌ لا تنبتُ ولا تمسكُ الماء، وهؤلاء هم الأشقياء.

والقسمان الأولان ٱشتركا في العلم والتعليم، كلٌّ بحسب ما قَبِلَه ووصلَ إليه؛ فهذا يعلِّمُ ألفاظَ القرآن ويحفظُها، وهذا يعلِّمُ معانيه وأحكامَه وعلومَه. والقسمُ الثالث لا علمَ ولا تعليم؛ فهم الذين لم يرفعوا بهدىٰ الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء شرٌّ من الأنعام، وهم وقودُ النار.

فقد ٱشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ علىٰ التنبيه علىٰ شرف العلم والتعليم، وعِظَم موقعه، وشقاء من ليس من أهله، وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلىٰ شقيِّهم وسعيدهم، وتقسيم سعيدهم إلىٰ سابقٍ مُقَرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مُقْتَصِد.

وفيه دلالةٌ علىٰ أنَّ حاجةَ العباد إلىٰ العلم كحاجتهم إلىٰ المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلمَ فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث.

قال الإمام أحمد: «الناسُ محتاجون إلىٰ العلم أكثر من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرةً أو مرتين والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدد الأنفاس»(١).

وقد قال تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

---

(١) انظر: «مسائل حرب» (٣٤٣)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩٠)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٤٤).

﴿وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]؛ شبَّه سبحانه العلمَ الذي أنزله علىٰ رسوله بالماء الذي أنزله من السماء؛ لِـمَا يحصُل بكلٍّ واحدٍ منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم.

ثمَّ شبَّه القلوبَ بالأودية؛ فقلبٌ كبيرٌ يسع علمًا كثيرًا، كوادٍ عظيمٍ يسعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنما يسعُ علمًا قليلًا، كوادٍ صغيرٍ إنما يسعُ ماءً قليلًا؛ فقال: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾.

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾: هذا مثلٌ ضربه الله تعالىٰ للعلم حين تخالِطُ القلوبَ بشاشتُه؛ فإنه يستخرِجُ منها زَبَدَ الشُّبهات الباطلة، فيطفو[1] علىٰ وجه القلب، كما يستخرِجُ السَّيلُ من الوادي زَبَدًا يعلو فوق الماء.

وأخبرَ سبحانه أنه رابٍ، أي: يطفو ويعلو علىٰ الماء، لا يستقرُّ في أرض الوادي، كذلك الشُّبهاتُ الباطلةُ إذا أخرجها العلمُ رَبَتْ فوق القلب وطَفَتْ، فلا تستقرُّ فيه، بل تُجفىٰ وتُرمىٰ، ويستقرُّ في القلب ما ينفعُ صاحبَه والناسَ من الهدىٰ ودين الحقِّ، كما يستقرُّ في الوادي الماءُ الصافي، ويذهبُ الزَّبدُ جفاءً، وما يعقِلُ عن الله أمثالَه إلا العالِمون[2].

ثمَّ ضربَ سبحانه لذلك مثلًا آخر، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ يعني: أنَّ مما يُوقِدُ عليه بنو آدم من الذهب والفضَّة والنحاس والحديد يخرجُ منه خَبَثُه، وهو الزَّبدُ الذي تلقيه النارُ وتُخْرِجُه

---

(١) (ت): «فتطفوا».

(٢) انظر لهذا المثل المائيِّ، والمثل الناريِّ الذي بعده: «الوابل الصيب» (١٣٣ - ١٣٤، ١٤٣).

من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يُقْذَفُ ويلقىٰ به، ويستقرُّ الجوهرُ الخالصُ وحده.

وضربَ سبحانه مثلًا بالماء؛ لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلًا بالنار؛ لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآياتُ القرآن تحيي القلوبَ كما تحيىٰ الأرضُ بالماء، وتُحْرِقُ خبثَها وشبهاتها وشهواتها وسخائمَها كما تُحْرِقُ النارُ ما يلقىٰ فيها، وتميِّزُ زَبَدَها من زُبَدِها[1] كما تميِّزُ النارُ الخبثَ من الذهب والفضَّة والنحاس ونحوه منه.

فهذا بعض ما في المثل العظيم من العبرة والعلم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الوجه الثالث والأربعون: ما في «الصحيحين» أيضًا من حديث سهل بن سعدٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لعليٍّ رضي الله عنه: «**لأنْ يهديَ بك اللهُ رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم**»[2].

وهذا يدلُّ علىٰ فضل العلم والتعليم، وشرف منزلة أهله، بحيث إذا اهتدىٰ رجلٌ واحدٌ بالعالِم كان ذلك خيرًا له من حُمْرِ النَّعَم ـ وهي خيارُها وأشرفُها عند أهلها ـ، فما الظَّنُّ بمن يهتدي به كلَّ يومٍ طوائفُ من الناس؟!

الوجه الرابع والأربعون: ما روىٰ مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي

---

(١) كذا في الأصول. مضبوطة في (د، ح). و«الزُّبَد» جمعُ زُبدة، وهي الخالصُ من الشيء. وأصلُها ما خَلَص من اللبن إذا مُخِض.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا إلىٰ هدًى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه، لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئًا»**[1].

أخبرَ ﷺ أنَّ المتسبِّبَ إلىٰ الهدىٰ بدعوته له مثلُ أجر من ٱهتدىٰ به، والمتسبِّبَ إلىٰ الضلالة بدعوته عليه مثلُ إثم من ضلَّ به؛ لأنَّ هذا بذلَ قدرتَه في هداية الناس، وهذا بذلَ قدرتَه في ضلالهم، فنُزِّل كلُّ واحدٍ منهما بمنزلة الفاعل التَّام.

وهذه قاعدةُ الشريعة، كما هو مذكورٌ في غير هذا الموضع[2]؛ قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من دعا الأمَّة إلىٰ غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوُّه حقًّا؛ لأنه قَطَعَ وصولَ أجر من ٱهتدىٰ بسنَّته إليه[3]، وهذا من أعظم معاداته، نعوذُ بالله من الخذلان.

الوجه الخامس والأربعون: ما خرَّجا في «الصحيحين» من حديث ٱبن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لا حسدَ إلا في ٱثنتين: رجل**

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٧٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٧٢٤)، و«طريق الهجرتين» (٧٨٥).

(٣) (ح، ن): «بسببه». (ت): «بسنة الله».

آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه علىٰ هَلَكَتِه في الحقِّ، ورجل آتاه اللهُ الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها»[1].

فأخبرَ ﷺ أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يحسدَ أحدًا ـ يعني: حسدَ غِبْطة ـ ويتمنَّىٰ مثلَ حاله من غير أن يتمنَّىٰ زوال نعمة الله عنه= إلا في واحدةٍ من هاتين الخصلتين، وهي الإحسانُ إلىٰ الناس بعلمه، أو بماله. وما عدا هذين فلا ينبغي غبطتُه ولا تمنِّي مثل حاله؛ لقلَّة منفعة الناس به.

الوجه السادس والأربعون: قال الترمذي: «حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ: حدثنا سلمةُ بن رجاء: حدثنا الوليدُ بن جميل: حدثنا القاسم، عن أبي أمامة الباهليِّ قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان، أحدُهما عابد، والآخرُ عالم، فقال رسولُ الله ﷺ: **«فضلُ العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم»**، ثم قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السموات والأرض، حتىٰ النملة في جُحْرها، وحتىٰ الحوتَ في بَحْره، ليصلُّون علىٰ معلِّم الناس الخير»**[2].

قال الترمذي: «وهذا حديثٌ حسنٌ غريب، سمعتُ أبا عمار الحسين بن

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٣)، و«صحيح مسلم» (٨١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٣٣)، وغيرهما بإسنادٍ فيه ضعف.

وفي نسخة الكروخي (ق ١٧٧/ أ) و«تحفة الأشراف» (٤/ ١٧٧): «حسن غريب صحيح». وفي المطبوعة: «حسن غريب».

ولأول الحديث شاهدٌ من مرسل مكحول والحسن عند الدارمي (٢٩٤، ٣٤٦)، ولآخره شاهد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وسيأتي.

حُرَيْثٍ الخزاعي، قال: سمعتُ الفضيلَ بن عياضٍ يقول: عالمٌ عاملٌ معلِّمٌ يُدْعىٰ كبيرًا في ملكوت السموات».

وهذا مرويٌّ عن الصحابة؛ قال ٱبن عباس: «علماءُ هذه الأمَّة رجلان، فرجلٌ أعطاه الله علمًا، فبذَله للناس ولم يأخذ عليه صَفَدًا[1]، ولم يَشْتَر به ثمنًا، أولئك يصلِّي عليهم طيرُ السماء، وحيتانُ البحر، ودوابُّ الأرض، والكرامُ الكاتبون، ورجلٌ آتاه الله علمًا فضنَّ به عن عباده، وأخذ به صَفَدًا، واشترىٰ به ثمنًا؛ فذلك يأتي يوم القيامة مُلْجَمًا بلجامٍ من نار». ذكره ٱبن عبد البرِّ مرفوعًا، وفي رفعه نظر[2].

وقولُه: «**إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السموات والأرض يصلُّون علىٰ معلِّم الناس الخير**»؛ لـمَّا كان تعليمُه الناسَ الخيرَ سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم، جازاه الله من جنس عمله، بأنْ جعَل عليه مِن صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكونُ سببًا لنجاته وسعادته وفلاحه.

وأيضًا؛ فإنَّ معلِّمَ الناس الخيرَ لـمَّا كان مُظْهِرًا لدين الربِّ وأحكامه، ومعرِّفًا لهم بأسمائه وصفاته، جعَل الله مِن صلاته وصلاة أهل سماواته وأرضه عليه ما يكونُ تنويهًا به، وتشريفًا له، وإظهارًا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض.

---

(١) يعني: عطاءً. وفي «الأوسط»، و«الترغيب والترهيب» للمنذري (١/ ١٢٩، ١٥٧)، و«مجمع الزوائد»: «طمعًا». وفي «جامع بيان العلم»: «صفرًا».

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٧٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧١٨٧) من طريقين ضعيفين عن ابن عباس به مرفوعًا.
وضعَّف العراقيُّ في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٩) إسناد الطبراني.
وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٤).

الوجه السابع والأربعون: ما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من سلكَ طريقًا يبتغي فيه علمًا سلكَ اللهُ به طريقًا إلىٰ الجنة، وإنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالب العلم، وإنَّ العالِم ليستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالِم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم؛ فمن أخذه أخذَ بحظٍّ وافر**»[1].

وقد رواه الوليدُ بن مسلم، عن خالد بن يزيد، عن عثمان بن أيمن، عن أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من غدا لعلم يتعلَّمُه فتح الله له به طريقًا إلىٰ الجنة، وفرشت له الملائكةُ أكنافَها، وصلَّت عليه ملائكةُ السماء وحيتانُ البحر، وللعالم من الفضل علىٰ العابد كفضل القمر ليلةَ البدر علىٰ سائر الكواكب، والعلماءُ ورثةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم؛ فمن أخذَ بالعلم أخذَ بحظٍّ وافر، وموتُ العالم مصيبةٌ لا تُجْبَر، وثُلمةٌ لا تُسَدُّ، ونجمٌ طُمِس، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وغيرهم.

وفي إسناده اضطرابٌ، وجهالة. ورُوِيَ من أوجهٍ أخر غير محفوظة.

انظر: «العلل» للدارقطني (٦/ ٢١٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٤٨) عقب الحديث، و«جامع بيان العلم» (١/ ١٦٢)، و«تحفة الأشراف» (٨/ ٢٣٠)، و«الميزان» (٢/ ٤).

وصححه ابن حبان (٨٨)، وقال ابن حجر في «الفتح» (١/ ١٩٣): «له شواهد يتقوىٰ بها».

عالِـم»، وهذا حديثٌ حسن[1].

والطريقُ التي يسلُكها إلىٰ الجنة جزاءٌ علىٰ سلوكه في الدنيا طريقَ العلم الموصلة إلىٰ رضا ربِّه.

ووَضعُ الملائكة أجنحتها لـه تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لما يحملُه من ميراث النبوَّة ويطلبُه، وهو يدلُّ علىٰ المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضعُ أجنحتها له؛ لأنه طالبٌ لما به حياةُ العالَـم ونجاتُه، ففيه شبهٌ من الملائكة، وبينه وبينهم تناسُب، فإنَّ الملائكةَ أنصحُ خلق الله وأنفعُهم لبني آدم، وعلىٰ أيديهم حصلَ لهم كلُّ سعادةٍ وعلمٍ وهدى.

ومِنْ نفعهم لبني آدم ونُصْحِهم أنهم يستغفرون لمسيئهم، ويُثَبِّتون[2] مؤمنيهم، ويعينونهم علىٰ أعدائهم من الشياطين، ويحرصون علىٰ مصالح العبد أضعافَ حرصه علىٰ مصلحة نفسه، بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريدُ العبدُ ولا يخطرُ له ببال؛ كما قال بعض التابعين: «وجدنا

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده الكبير»، كما في «المطالب العالية» (٣/ ٣٣٢)، و«إتحاف الخيرة» (١/ ٢١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٣١)، ومن طريقه الرافعي في «التدوين» (٣/ ٤٦١).
وخالد بن يزيد ضعيف، واتهمه بعضهم. انظر: «التهذيب» (٣/ ١٢٧). وعثمانُ بن أيمن لم أر من وثقه، وترجمه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣١٨) وخرَّج له هذا الحديث، ولم يَحْكِ فيه جرحًا ولا تعديلًا. وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٢٠٢).
والوليدُ مشهورٌ بالتدليس ولم يصرِّح بالتحديث. ولعل المصنف أراد بتحسين الحديث حُسْنَ معناه وسياقته.

(٢) (ق): «ويثنون على».

الملائكةَ أنصحَ خلق الله لعباده، ووجدنا الشياطين أغشَّ الخلق للعباد»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

فأيُّ نصحٍ للعباد مثلُ هذا إلا نصح الأنبياء!

فإذا طلبَ العبدُ العلمَ فقد سعىٰ في أعظم ما ينصحُ به عبادَ الله؛ فلذلك تحبُّه الملائكة وتعظِّمُه، حتىٰ تضعَ أجنحتَها له رضًا و محبةً وتعظيمًا.

وقال أبو حاتم الرازي: سمعتُ ابن أبي أويس يقول: سمعتُ مالك بن أنس يقول: معنىٰ قول رسول الله ﷺ: «**تضعُ أجنحتها**» يعني: تبسُطها بالدُّعاء لطالب العلم، بدلًا من الأيدي[2].

وقال أحمدُ بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة» له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري، قال: سمعتُ أحمد بن شعيب يقول: كنَّا عند بعض المحدِّثين بالبصرة، فحدَّثنا بحديث النبي ﷺ: «**إنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتَها لطالب العلم**»، وفي المجلس معنا رجلٌ من المعتزلة، فجعل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٧٨)، والطبري (٢١/ ٣٥٧)، وغيرهما عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

(٢) انظر: «التمهيد» (١٩/ ٤٣).

يستهزىءُ بالحديث، فقال: والله لأقْطُرَنَّ غدًا نعلي[1]، فأطأُ بها أجنحةَ الملائكة. ففعَل، ومشىٰ في النَّعلين؛ فجفَّت رجلاه جميعًا، ووقعَت في رِجْلَيْه الآكِلَة»[2].

وقال الطبراني: سمعتُ أبا يحيىٰ زكريا بن يحيىٰ السَّاجي قال: كنَّا نمشي في بعض أزقَّة البصرة إلىٰ باب بعض المحدِّثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجلٌ ماجنٌ متَّهمٌ في دينه، فقال: «آرفعوا أرجلَكم عن أجنحة الملائكة، لا تكسروها»، كالمستهزىء؛ فما زال من موضعه حتىٰ جفَّت رجلاه وسَقَط[3].

وفي «السنن» و«المسانيد» من حديث صفوان بن عسَّال، قال: قلت: يا رسول الله ـ ﷺ ـ، إني جئتُ أطلبُ العلم، قال: «**مرحبًا بطالب العلم؛ إنَّ طالبَ العلم لتَحُفُّ به الملائكةُ وتُظِلُّه بأجنحتها، فيركبُ بعضُها بعضًا حتىٰ تبلغَ السماء الدنيا، مِنْ حبِّهم لما يطلب**»، وذكر حديثَ المسح علىٰ

---

(١) كذا في الأصول، و«المجالسة». لعله مِن: قَطَرْت البعيرَ، إذا طَلَيته بالقَطِران. «الصحاح» (قطر). وفي (ح): «لأقطرن نعلي بمسامير»، وفي طُرَّتها إشارةٌ إلى أن في نسخة: «لأطرقن»، ووردت بمعناها في بعض المصادر.

(٢) «المجالسة» (٢١٥٤). والخبر في «الطيوريات» (١٩٨)، و«بستان العارفين» للنووي (١١٢)، و«مشيخة ابن الحطاب الرازي» (٩)، وفي حاشية الأخير مزيد تخريج.

(٣) أخرجه الطبراني في كتاب «السُّنَّة»، كما ذكر شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٤/ ٥٣٩)، ومن طريقه الخطيب في «الرحلة» (٨)، والهروي في «ذم الكلام» (٤/ ٣٦٩)، والنووي في «بستان العارفين» (١١١).
وقال الحافظ عبد القادر الرهاوي: «إسناد هذه الحكاية كالأخذ باليدين، أو كرأي العين؛ لأن رواتها أعلام، وراويها إمام». انظر: «فيض القدير» (٢/ ٣٩٣).

الخفَّين[1].

قال أبو عبد الله الحاكم: إسناده صحيح. وقال ٱبن عبد البر: هو حديثٌ صحيحٌ حسنٌ ثابتٌ محفوظٌ مرفوع، ومثلُه لا يقالُ بالرأي.

ففي هذا الحديث حَفُّ الملائكة له بأجنحتها إلىٰ السماء، وفي الأول وضعُها أجنحتَها له؛ فالوضعُ تواضعٌ وتوقيرٌ وتبجيل، والحَفُّ بالأجنحة حفظٌ وحمايةٌ وصيانة. فتضمَّنَ الحديثان تعظيمَ الملائكة له، وحبَّها إياه، وحياطتَه وحفظَه؛ فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظُّ الجزيلُ لكفىٰ به شرفًا وفضلًا.

وقولُه ﷺ: «**إنَّ العالم ليستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحيتانُ في الماء**»؛ فإنه لـمَّا كان العالِـمُ سببًا في حصول العلم الذي به نجاةُ النفوس من أنواع الـهَلَكات، وكان سعيُه مقصورًا علىٰ هذا، وكانت نجاةُ العباد علىٰ يديه= جُوزِيَ من جنس عمله، وجُعِل من في السموات والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الـهَلَكات، باستغفارهم له؛ وإذا كانت الملائكةُ تستغفرُ للمؤمنين، فكيف لا تستغفرُ لخاصَّتهم وخُلاصتهم؟!

وقد قيل: إنَّ «**من في السموات ومن في الأرض**» المستغفرين للعالِـم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، والنسائي (١٥٨)، وابن ماجه (٢٢٦)، وأحمد (٤/ ٢٣٩)، والطيالسي (١٢٦٢)، وغيرهم.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه ابن خزيمة (١٧، ١٩٣)، وابن حبان (٨٥، ١١٠٠، ١٣١٩)، والحاكم (١/ ١٠١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٥٩) ـ ونقل المصنفُ عبارته ـ، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٢٣، ٣٠).

عامٌّ في الحيوانات، ناطقِها وبهيمِها، طيرِها وغيره. ويؤكِّدُ هذا قولُه: «**حتىٰ الحيتان في الماء، وحتىٰ النملةُ في جُحْرِها**».

فقيل: سببُ هذا الاستغفار أنَّ العالِمَ يعلِّمُ الخلقَ مراعاةَ هذه الحيوانات، ويعرِّفُهم ما يحلُّ منها وما يحرُم، ويعرِّفُهم كيفيةَ تناولها، واستخدامها، وركوبها، والانتفاع بها، وكيفيةَ ذبحها علىٰ أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان، والعالِمُ أشفقُ الناس علىٰ الحيوان، وأقومُهم ببيان ما خُلِقَ له[1].

وبالجملة؛ فالرحمةُ والإحسانُ التي خُلِقَ بهما ولهما الحيوان، وكُتِبَ لهما حظُّهما منه، إنما يُعْرَفُ بالعلم، فالعالِمُ مُعرِّفٌ لذلك؛ فاستحقَّ أن تستغفر له البهائم، والله أعلم.

وقولُه: «**وفضلُ العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب**» تشبيهٌ مُطابِقٌ لحال القمر والكواكب؛ فإنَّ القمرَ يضيءُ الآفاق، ويمتدُّ نورُه في أقطارِ العالَم[2]، وهذه حالُ العالِم. وأما الكوكبُ فنورُه لا يجاوزُ نفسَه، أو ما قَرُبَ منه، وهذه حالُ العابد الذي يضيءُ نورُ عبادته عليه دون غيره، وإن جاوز نورُ عبادته غيرَه فإنما يجاوزُه غير بعيد، كما يجاوزُ ضوءُ الكوكب له مجاوزةً يسيرة.

ومن هذا الأثرُ المرويُّ: «إذا كان يومُ القيامة يقولُ الله للعابد: ٱدخل الجنة، فإنما كانت منفعتُك لنفسك، ويقالُ للعالِم: ٱشفَع تُشَفَّع، فإنما كانت

---

(١) انظر: «الكاشف عن حقائق السنن» للطِّيبي (١/ ٣٧٢)، و«الميسَّر» للتوربشتي (١/ ١٠٤)، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (٣١).

(٢) (ت، ح): «في العالم».

منفعتُك للناس»[1].

وروىٰ ٱبن جريج، عن عطاء، عن ٱبن عباس رضي الله عنهما: «إذا كان يومُ القيامة يؤتىٰ بالعابد والفقيه، فيقال للعابد: ٱدخُل الجنة، ويقال للفقيه: ٱشفَع»[2].

وفي التشبيه المذكور لطيفةٌ أخرىٰ: وهو أنَّ الجهلَ كالليل في ظلمته وحِنْدِسِه، والعلماءُ والعُبَّادُ بمنزلة القمر والكواكب الطَّالعة في تلك الظُّلمة، وفضلُ نور العالِم فيها علىٰ نور العابد كفضل نور القمر علىٰ الكواكب.

وأيضًا؛ فالدِّينُ قِوامُه وزينتُه وأمَنَتُه بعلمائه وعُبَّاده؛ فإذا ذهبَ علماؤه وعُبَّاده ذهب الدِّين، كما أنَّ السماءَ أمَنَتُها وزينتُها بقمرها وكواكبها؛ فإذا خَسَفَ قمرُها وانتثرت كواكبُها أتاها ما تُوعَد، وفضلُ علماء الدِّين علىٰ العُبَّاد كفضل ما بين القمر والكواكب.

فإن قيل: فكيف وقعَ تشبيهُ العالم بالقمر دون الشمس، وهي أعظمُ نورًا؟

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١١) من حديث أنسٍ مرفوعًا بإسنادٍ شديد الضعف.
وبنحوه أخرجه ابنُ عدي في «الكامل» (٢/ ٤١٢، ٦/ ٤٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٤٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٠٨) عن جابرٍ مرفوعًا بإسنادين شديدَي الضعف.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٢) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.
وأخرجه أبو القاسم التيمي في «الترغيب والترهيب» (٢١٥٧) من حديث أبي أمامة مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف.

قيل: فيه فائدتان[1]:

إحداهما: أنَّ نور القمر لما كان مستفادًا من غيره كان تشبيهُ العالِـم الذي نورُه مستفادٌ من شمس الرسالة بالقمر أولىٰ من تشبيهه بالشمس.

الثانية: أنَّ الشمسَ لا يختلفُ حالها في نورها، ولا يلحقُها محاقٌ[2] ولا تفاوتٌ في الإضاءة، وأمَّا القمرُ فإنه يقلُّ نوره ويكثُر ويمتلئُ وينقصُ؛ كما أنَّ العلماءَ في العلم علىٰ مراتبهم من كثرته وقلَّته، فيفضُلُ كلٌّ منهم في علمه بحسب كثرته وقلَّته، وظهوره وخفائه، كما يكونُ القمرُ كذلك، فعالِـمٌ كالبدر ليلة تِـمِّـه[3]، وآخرُ دونه بليلةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ وما بعدها إلىٰ آخر مراتبه، وهم درجاتٌ عند الله.

فإن قيل: تشبيهُ العلماء بالنجوم أمرٌ معلوم، كقوله ﷺ: «**أصحابي كالنجوم**»[4]، ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارةٌ عن العلماء[5]، فكيف وقعَ

---

(١) انظر: «الذخيرة» للقرافي (١/ ٤٣).

(٢) مثلَّثة الميم. أي: نقصانُ ضوء. والمحاق: آخرُ الشهر إذا انمحقَ الهلالُ فلم يُـرَ، سُمِّي بذلك لأنه طلع مع الشمس فمَحَقَته. «اللسان» (محق).

(٣) أي: اكتماله وتمامه. وهذا التركيب كثيرُ الورود في الشِّعر.

(٤) جاء من حديث جماعةٍ من الصحابة بألفاظٍ مختلفة. ولا يصحُّ منها شيء. وقد حكم بردِّه الإمام أحمد، والبزار، وغيرُ واحدٍ من المتأخرين.
انظر: «المنتخب من العلل للخلال» (١٤٣)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٢٣)، و«تحفة الطالب» لابن كثير (١٦٦)، و«موافقة الخُبْر الخَبر» (١/ ١٤٥)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٥٨).

(٥) انظر: «تعبير الرؤيا» لابن قتيبة (١١٢)، و«البدر المنير» للشهاب العابر المقدسي (٢١٧)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٢٧٧).

تشبيهُهم هنا بالقمر؟

قيل: أما تشبيهُ العلماء بالنجوم؛ فلأنَّ النجومَ يهتدىٰ بها في ظلمات البرِّ والبحر، وكذلك العلماء.

والنجومُ زينةٌ للسماء، وكذلك العلماءُ زينةٌ للأرض.

وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراق السَّمع؛ لئلا يَلبِسوا[1] بما يَسْتَرِقُونه من[2] الوحي الوارد إلىٰ الرسل من الله علىٰ أيدي ملائكته، وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنس[3] الذين يوحي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زخرفَ القول غرورًا؛ فالعلماءُ رجومٌ لهذا الصِّنف من الشياطين، ولولاهم لطُمِسَت معالمُ الدِّين بتلبيس المضلِّين، ولكنَّ الله سبحانه أقامهم حُرَّاسًا وحَفَظةً لدينه، ورجومًا لأعدائه وأعداء رسله.

فهذا وجهُ تشبيههم بالنجوم.

وأمَّا تشبيهُهم بالقمر؛ فذلك إنما كان في مقام تفضيلهم علىٰ أهل العبادة المجرَّدة، وموازنة ما بينهما من الفضل. والمعنىٰ: أنهم يَفْضُلونَ العُبَّادَ الذين ليسوا بعلماء، كما يَفْضُلُ القمرُ سائرَ الكواكب.

فكلٌّ من التشبيهين لائقٌ بموضعه، والحمدُ لله.

وقولُه: «**إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء**»، هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خلق الله، فورثتُهم خيرُ الخلق بعدهم، ولما كان كلُّ

---

(١) (ت): «يشتبه».

(٢) «من» ليست في (ح، ن).

(٣) (ق): «الإنس والجن». وهو خطأ وسبق قلم.

موروثٍ[1] ينتقلُ ميراثُه إلىٰ ورثته؛ إذ هم الذين يقومون مقامَه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقومُ مقامَهم في تبليغ ما أُرسِلوا به إلا العلماء= كانوا أحقَّ الناس بميراثهم.

وفي هذا تنبيهٌ علىٰ أنهم أقربُ الناس إليهم؛ فإنَّ الميراثَ إنما يكونُ لأقرب الناس إلىٰ الموروث، وهذا كما أنه ثابتٌ في ميراث الدِّينار والدِّرهم، فكذلك هو في ميراث النبوَّة، والله يختصُّ برحمته من يشاء.

وفيه ـ أيضًا ـ إرشادٌ وأمرٌ للأمَّة بطاعتهم واحترامهم وتعزيرهم وتوقيرهم وإجلالهم؛ فإنهم ورثةُ مَنْ هذه بعضُ حقوقهم علىٰ الأمَّة، وخلفاؤهم فيهم.

وفيه تنبيهٌ علىٰ أنَّ محبَّتهم من الدِّين، وبغضَهم منافٍ للدِّين، كما هو ثابتٌ لموروثهم[2]. وكذلك معاداتُهم ومحاربتُهم معاداةٌ ومحاربةٌ لله كما هو في موروثهم.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «محبةُ العلماء دينٌ يُدانُ اللهُ به»[3].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجل: «**من عادىٰ لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة**»[4]، وورثةُ الأنبياء ساداتُ أولياء الله عزَّ وجل.

---

(١) (ت): «مورث». وكلاهما صحيح.

(٢) (ت): «لمورثهم». والوجهان صحيحان كما سبق.

(٣) جزءٌ من وصيَّته لكُمَيْل بن زياد. وسيأتي تخريجها عند سياق المصنف لها (ص: ٣٤٨). ووردت الجملة في بعض المصادر: «محبة العلم...».

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

وفيه تنبيهٌ للعلماء علىٰ سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ؛ من الصَّبر، والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان، والرِّفق بهم، واستجلابهم إلىٰ الله بأحسن الطُّرق، وبذل ما يمكنُ من النصيحة لهم؛ فإنه بذلك يحصلُ لهم نصيبُهم من هذا الميراث العظيم قدرُه، الجليل خَطَرُه.

وفيه ـ أيضًا ـ تنبيهٌ لأهل العلم علىٰ تربية الأمَّة كما يربيِّ الوالدُ وَلَدَه؛ فيربُّونهم بالتدريج والترقِّي من صغار العلم إلىٰ كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعلُ الأبُ بولده الطفل في إيصال[1] الغذاءَ إليه؛ فإنَّ أرواحَ البشر بالنسبة إلىٰ الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلىٰ آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير، ولهذا كلُّ روحٍ لم يربِّها الرسولُ[2] لم تُفْلِح ولم تَصْلُح لصالحة؛ كما قيل:

ومن لا يُرَبِّيه الرسولُ ويَسْقِهِ لِبانَ هُدًى[3] قد دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِهِ
فذاكَ لَقِيطٌ ما له نِسْبةُ الوَلَا ولا يتعدَّىٰ طَوْرَ أبناءِ جِنْسِهِ

وقولُه: «**إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم**»، هذا من كمال الأنبياء وعِظَم نصحهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلىٰ أممهم؛ أنْ أزاحَ جميعَ العلل، وحسَم جميعَ الموادِّ التي تُوهِمُ بعض النفوس أنَّ الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا ومُلْكَها؛ فحماهم سبحانه وتعالىٰ من ذلك أتمَّ الحماية.

---

(١) (ن، ح): «إيصاله».

(٢) (ن): «تربها الرسل».

(٣) (ح، ن): «لبانًا له». والبيتان لم أعثر عليهما في مصدرٍ آخر.

ثمَّ لما كان الغالبُ علىٰ الناس أنَّ أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعىٰ ويتعبُ ويَحْرِمُ نفسَه لولده= سدَّ هذه الذَّريعة عن أنبيائه ورسله، وقطعَ هذا الوهمَ الذي عساه أن يخالط كثيرًا من النفوس التي تقول: فلعله إن لم[1] يطلب الدنيا [لنفسه] فهو يحصِّلها[2] لولده= فقال ﷺ: **«نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة»**[3].

فلم تُورِّث الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم.

وأما قولُه تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فهو ميراثُ العلم والنبوَّة، لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسِّرين وغيرهم[4]، وهذا لأنَّ داود عليه السلام كان له أولادٌ كثيرٌ سوىٰ سليمان، فلو كان الموروثُ هو المال لم يكن سليمان يختصُّ به[5].

وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ الله يصانُ عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: «مات فلانٌ وورثه ٱبنُه»، ومن المعلوم أنَّ كلَّ أحدٍ يرثُه ٱبنُه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضًا؛ فإنَّ ما قبل الآية وما بعدها يبيِّنُ أنَّ المرادَ بهذه الوِراثة وراثةُ العلم والنبوَّة، لا وراثةُ مال، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا

---

(١) (ت، د، ق): «فلعله لم».

(٢) (ت): «تحصيله». وما بين المعكوفين يقتضيه السياق، وليس في الأصول.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٣، ٦٧٢٦)، ومسلم (١٧٥٧ - ١٧٥٩).

(٤) انظر: «تأويل مختلف الحديث» (١٨٨)، و«شرح مشكل الآثار» (٣/ ١٢)، و«التمهيد» (٨/ ١٧٤)، و«فتح الباري» (١٢/ ١٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ١٦٦).

(٥) (ق): «مختصا به».

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٥ - ١٦]، وإنما سِيقَ هذا لبيان[1] فضل سليمان وما خصَّه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلىٰ المواهب، وهو العلم والنبوَّة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك قولُ زكريا ﷺ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥ - ٦]، فهذا ميراثُ العلم والنبوَّة والدعوة إلىٰ الله، وإلا فلا يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنه يخافُ عصبتَه أن يرثوه مالَه، فيسألُ الله العظيمَ ولدًا يمنعهم ميراثه[2]، ويكونُ أحقَّ به منهم. وقد نزَّه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله.

فبُعْدًا لمن حرَّف كتاب الله وردَّ علىٰ رسوله كلامَه، ونسبَ الأنبياءَ إلىٰ ما هم أبرياءُ منزَّهون عنه، والحمدُ لله علىٰ توفيقه وهدايته.

ويُذْكرُ عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه أنه مرَّ بالسوق، فوجدهم في تجاراتهم وبِيَاعاتهم[3]، فقال: أنتم هاهنا فيما أنتم فيه وميراثُ رسول الله ﷺ يقسَّمُ في مسجده! فقاموا سِراعًا إلىٰ المسجد، فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذِّكر و مجالس العلم، فقالوا: أين ما قلتَ يا أبا هريرة؟ فقال: هذا ميراثُ محمَّد ﷺ يقسَّمُ بين ورثته، وليس بمواريثكم ودنياكم[4]. أو كما قال.

---

(١) (ت): «سبق هذا البيان».

(٢) (ت): «يرثهم ميراثهم».

(٣) البِيَاعات: الأشياء التي يُتبايَع بها في التجارة. «اللسان» (بيع).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩) بإسنادٍ فيه من لا يُعْرَف. وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (١/ ١٣٤)، والهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢٤).

وقولُه: «**فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**»، أعظمُ الحظوظ وأجداها ما نفع العبدَ ودام نفعُه له، وليس هذا إلا حظَّه من العلم والدِّين؛ فهو الحظُّ الدائمُ النافعُ الذي إذا ٱنقطعت الحظوظُ لأربابها فهو موصولٌ له أبد الآبدين؛ وذلك لأنه موصولٌ بالحيِّ الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطعُ ولا يفوت، وسائرُ الحظوظ تُعْدَم وتتلاشىٰ بتلاشي متعلَّقاتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ فإنَّ الغايةَ لما كانت منقطعةً زائلةً تبعتها أعمالهم، فانقطعت عنهم أحوجَ ما يكونُ العاملُ إلىٰ عمله. وهذه هي المصيبةُ التي لا تُجْبَر، عياذًا بالله، واستعانةً به، وافتقارًا إليه، وتوكُّلًا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقولُه: «**موتُ العالم مصيبةٌ لا تُجْبَر، وثُلْمةٌ لا تُسَدُّ، ونجمٌ طُمِس، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت عالم**»، لـمَّا كان صلاحُ الوجود بالعلماء، ولولاهم كان الناسُ كالبهائم، بل أسوأ حالًا؛ كان موتُ العالم مصيبةً لا يَجْبُرها إلا خلفُ غيره له.

وأيضًا؛ فإنَّ العلماءَ هم الذين يَسُوسونَ العبادَ والبلادَ والممالك، فموتُهم فسادٌ لنظام العالم؛ ولهذا لا يزالُ الله يغرسُ في هذا الدِّين منهم خالفًا عن سالف، يحفظُ بهم دينَه وكتابَه وعبادَه.

وتأمَّل: إذا كان في الوجود رجلٌ قد فاقَ العالَم في الغنىٰ والكرم، وحاجتُهم إلىٰ ما عنده شديدة، وهو محسنٌ إليهم بكلِّ ممكن، ثمَّ مات وانقطعت عنهم تلك المادَّة؛ فموتُ العالم أعظمُ مصيبةً من موت مثل هذا بكثير، ومثلُ هذا يموتُ بموته أممٌ وخلائق، كما قيل:

تَعَلَّمْ مـا الرَّزِيَّـةُ فَقْـدُ مـالٍ ... ولا شـاةٌ تمـوتُ ولا بعـيرُ
ولكـنَّ الرَّزِيَّـةَ فَقْـدُ حُـرٍّ ... يمـوتُ بموتـه بـشرٌ كثـيرُ[1]

وقال آخر:

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ ... ولكنَّه بنيانُ قومٍ تَهَدَّما[2]

الوجه الثامن والأربعون: ما روىٰ الترمذيُّ من حديث الوليد بن مسلم حدثنا رَوْحُ بن جناح، عن مجاهد، عن ٱبن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**فقيهٌ**[3] **أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف عابد**»[4].

---

(١) البيتان لأعرابية في «أمالي القالي» (١/ ٢٧٢). ولـمُلَيْل بن الدهقانة التغلبي في «معجم الشعراء» للمرزباني (٤٤٥)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٦٣٤). ودون نسبة في «الزهرة» (٥٢٧).
وفي (ت): «يموت لموته خلق كثير». وهو كذلك في بعض المصادر.

(٢) البيت لعَبْدة بن الطبيب، من أبياتٍ ثلاثة يرثي فيها سيد أهل الوبر قيس بن عاصم المِنقري، في «الحماسة» بشرح المرزوقي (٧٩٠)، و«الشعر والشعراء» (٢/ ٧٢٨)، وغيرهما، وهي في «شعره» المجموع (١٢).
وقال أبو عمرو بن العلاء: «هذا أرثىٰ بيتٍ قالته العرب». «ديوان المعاني» (٣/ ٩٦٦).

(٣) في رواية ابن ماجه والطبراني وابن المنذر: «فقيه واحد».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٠٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ١٣٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٧٨)، وغيرهم.
ورَوْحُ بن جناح ضعيف، وقد استنكر حديثه هذا ابنُ عدي في «الكامل» (٣/ ١٤٥)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٠٠) واستدلَّ به علىٰ ضعفه. وقال الساجي =

قال الترمذي: «غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم».

قلت: قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطيني: حدثنا عمر بن سعيد بن سنان: حدثنا هشام بن عمار: حدثنا الوليدُ بن مسلم: حدثنا رَوْحُ بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ[1].

قال الخطيب[2]: «والأولُ هو المحفوظ عن رَوْح، عن مجاهد، عن ٱبن عباس، وما أرىٰ الوهمَ وقع في هذا الحديث إلا من أبي جعفر؛ لأنَّ عمر بن سنان عنده: عن هشام بن عمار، عن الوليد، عن رَوْح، عن الزهري، عن سعيد: حديثُ: «في السماء بيتٌ يقالُ له: البيتُ المعمورُ حِيال الكعبة»[3]، وحديثُ ابن عباس، [فيُشْبِهُ أن يكونا][4] كانا في كتاب ٱبن

= ـ كما في «التهذيب» (٣/ ٢٩٣) ـ: «هو حديث منكر».

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٢). وهو وهمٌ، كما بيّنه الدارقطنيُّ في «العلل» (٩/ ١٣٢)، وزاد إيضاحه الخطيب، ونقل المصنفُ كلام الأخير.

(٢) (د، ت، ق): «الدارقطني». والنصُّ - بتصرُّف - في كتاب الخطيب.

(٣) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٤٤)، وغيرهما بطوله.
وقد استنكر الأئمةُ علىٰ رَوْحٍ هذا الحديث، وحكم بعضُهم بوضعه.
انظر: «أحوال الرجال» للجوزجاني (٢٧١)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٢١٩)، و«تاريخ دمشق» (١٨/ ٢٣٢)، وتعليق المعلمي علىٰ «الفوائد المجموعة» (٤٦٥).

(٤) زيادة يقتضيها السياق، وهي في كتاب الخطيب.

سنانٍ عن هشام يتلو أحدَهما الآخر؛ فكتبَ أبو جعفر إسنادَ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ثمَّ عارضه سهوٌ أو زاغ نظرُه، فنزل إلىٰ متن حديث ابن عباس، فركَّبَ متنَ هذا علىٰ إسناد هذا، وكلٌّ واحدٍ منهما ثقةٌ مأمون، بريءٌ من تعمُّد الغلط».

وقد رواه أبو أحمد بن عدي عن محمد بن سعيد بن مهران: حدثنا شيبان: حدثنا أبو الربيع السَّمَّان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكلِّ شيءٍ دِعامة، ودِعامةُ الإسلام الفقهُ في الدِّين، والفقيهُ أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف عابد»**[1].

ولهذا الحديث علَّة؛ وهو أنه رُوِي من كلام أبي هريرة، وهو أشبه:

رواه هانىء بن يحيىٰ: حدثنا يزيدُ به عياض: حدثنا صفوانُ بن سليم، عن سليمان بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما عبد اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّين»**.

قال: وقال أبو هريرة: «لأَنْ أَفْقَهَ ساعةً أحبُّ إليَّ من أن أُحيِيَ ليلةً أصلِّيها حتىٰ أُصْبِح، والفقيهُ أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف عابد، ولكلِّ شيءٍ دِعامة، ودِعامةُ الدِّين الفقه»[2].

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٧٧) في ترجمة أبي الربيع، وعَدَّه مِن أنكر ما حدَّث به.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٣)، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٢) من طريق هانىء بن يحيىٰ، عن يزيد بن عياض، به.

وأخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦١٦٦)، =

وقد رُوِي بإسنادٍ فيه من لا يحتجُّ به من حديث عاصم بن أبي النَّجود، عن زِرِّ بن حُبيش، عن عمر بن الخطاب يرفعُه: «**إنَّ الفقيهَ أشدُّ علىٰ الشيطان من ألف وَرِع، وألف مجتهد، وألف متعبِّد**»[1].

وقال المزني: «رُوِي عن ٱبن عباس أنه قال: إنَّ الشياطين قالوا لإبليس: يا سيِّدنا، ما لنا نراكَ تفرحُ بموت العالِم ما لا تفرحُ بموت العابد والعالِمُ لا نُصِيبُ منه والعابدُ نُصِيبُ منه؟![2]، قال: ٱنطلقوا. فانطلقوا إلىٰ عابد، فأتوه في عبادته فقالوا: إنَّا نريدُ أن نسألك. فانصرَف. فقال إبليس: هل يقدرُ ربُّك أن يجعلَ الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري. فقال: أترونه كَفَر في ساعة؟!

ثمَّ جاؤوا إلىٰ عالِمٍ في حَلْقته يُضاحِكُ أصحابَه ويحدِّثهم، فقالوا: إنَّا نريدُ أن نسألك. فقال: سَلُوا. فقالوا: هل يقدرُ ربُّك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ قال: نعم. قالوا: كيف؟ قال: يقول: كُن فيكون؛ فقال: أترونَ ذلك لا يَعْدُو نفسَه، وهذا يُفسِدُ عليَّ عالَمًا كثيرًا؟!»[3].

= والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٤٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٥٠) من طريق يزيد بن هارون، عن يزيد بن عياض، به، وجعله جميعَه مرفوعًا.

وعلىٰ الوجهين، فيزيد بن عياض منكر الحديث.

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٤). وهو كما قال المصنف.

(٢) في طرَّة (ح): «لعله: العالم نصيب منه، والعابد لا نصيب منه».

(٣) أخرجها الخطيبُ في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٤). وبين المزنيِّ وابنِ عباسٍ مفاوز.
وعلَّقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٩).
ورواها ابن أبي الدنيا عن بعض البصريين. انظر: «آكام المرجان» (٢٠٦).

وقد رُوِيَت هذه الحكايةُ علىٰ وجهٍ آخر، وأنهم سألوا العابد فقالوا: هل يقدرُ ربُّك أن يخلقَ مثل نفسه؟ فقال: لا أدري. فقال: أترونه لم تنفعه عبادتُه مع جهله؟!

وسألوا العالِمَ عن ذلك، فقال: هذه المسألةُ مُحال؛ لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقًا، فكونُه مخلوقًا وهو مثلُ نفسه مستحيل، فإذا كان مخلوقًا لم يكن مثلَه، بل كان عبدًا من عبيده، وخلقًا من خلقه. فقال: أترونَ هذا يهدمُ في ساعةٍ ما أبنيه في سنين؟! أو كما قال.

ورُوِي عن عبد الله بن عمر[1]: «فضلُ العالم علىٰ العابد سبعين درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الفَرَس[2] سبعين عامًا؛ وذلك أنَّ الشيطان يضعُ البدعة، فيبصرُها العالِمُ فينهىٰ عنها، والعابدُ مقبلٌ علىٰ عبادة ربِّه لا يتوجَّهُ لها ولا يعرفُها»[3].

---

(١) (د، ق، ح، ن) ومطبوعة «المغني» للعراقي: «عمرو». والمثبت من (ت) ومطبوعتي «الترغيب والترهيب» للأصبهاني والمنذري.

(٢) وهو ارتفاعُه في عَدْوِه. «اللسان» (حضر).

(٣) أخرجه أبو القاسم التيمي الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢١٤٣) عن ابن عمر مرفوعًا بإسنادٍ شديد الضعف، وضعَّفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٥).

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٣٣): «وعَجُزُ الحديث يُشْبِهُ المُدْرَج».

قلت: وهو كما قال، وقد ورد بدونه من حديث أبي هريرة مرفوعًا عند ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٤)، والخطيب في «الموضح» (٢/ ١٩٦)، وقال ابن عدي: «وهذا بهذا الإسناد منكر». =

وهذا معناه صحيح؛ فإنَّ العالِمَ يُفْسِدُ علىٰ الشيطان ما يسعىٰ فيه، ويهدمُ ما يبنيه، فكلما أراد إحياءَ بدعةٍ وإماتةَ سُنَّةٍ حالَ العالِمُ بينه وبين ذلك، فلا شيء أشدُّ عليه من بقاء العالِم بين ظهراني الأمَّة، ولا شيء أحبُّ إليه من زواله من بين أظهرهم؛ ليتمكَّن من إفساد الدِّين وإغواء الأمَّة، وأما العابدُ فغايته أن يجاهدَه ليسلَم منه في خاصَّة نفسه، وهيهات له ذلك.

الوجه التاسع والأربعون: ما روىٰ الترمذيُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرُ الله وما والاه وعالمٌ ومتعلِّم**»[1]. قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن»[2].

ولـمَّا كانت الدنيا حقيرةً عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة، كانت ـ وما فيها ـ في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنة.

= ورُوِي من وجهٍ آخر مرسلًا، قال الدارقطني في «العلل» (٩/ ٢٦٧): «والمرسل أصح».

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وغيرهما من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة.
وعبد الرحمن فيه ضعف، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٢٦): «لا يتابعه إلا من هو دونه أو مثله» وانظر: «العلل المتناهية» (٢/ ٧٩٦).
وأخرجه البغويُّ في «شرح السنة» (١٤/ ٢٢٩) مرسلًا، وهو أصحُّ.
ورُوِي من أوجهٍ أخرىٰ معلولة.
انظر: «مسند البزار» (٥/ ١٤٥)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٨٩)، و«علل ابن أبي حاتم» (٢/ ١٢٤)، و«جامع العلوم والحكم» (٥٥٩).

(٢) وفي «تحفة الأشراف» (١٠/ ١٣٧)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ١١٠): «حسن غريب».

وهو سبحانه إنما خلقها مزرعةً للآخرة ومَعْبَرًا إليها يتزوَّدُ منها عبادُه إليه، فلم يكن يُقَرِّبُ منها إلا ما كان متضمِّنًا لإقامة ذكره ومُفْضِيًا إلىٰ محابِّه، وهو العلمُ الذي به يُعْرَفُ اللهُ ويُعْبَد، ويُذْكَرُ ويُثنىٰ عليه به ويُمَجَّدُ.

ولهذا خلقها وخلق أهلها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فتضمَّنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليُعْرَفَ بأسمائه وصفاته، وليُعْبَد.

فهذا المطلوبُ[1] وما كان طريقًا إليه من العلم والتعليم فهو المستثنىٰ من اللَّعنة، واللَّعنةُ واقعةٌ علىٰ ما عداه؛ إذ هو بعيدٌ عن الله وعن محابِّه وعن دينه، وهذا هو متعلَّق العقاب في الآخرة؛ فإنه كما كان متعلَّقَ اللَّعنة التي تتضمَّن الذَّمَّ والبغضَ فهو متعلَّقُ العقاب، والله سبحانه إنما يحبُّ من عباده ذكرَه وعبادتَه، ومعرفتَه ومحبَّته، ولوازمَ ذلك وما أفضىٰ إليه، وما عداه فهو مبغوضٌ له، مذمومٌ عنده.

الوجه الخمسون: ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أنس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»[2]. قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريب،

---

(١) (ت): «فهذا هو المطلوب».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٣٤)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف. وأشار الترمذيُّ إلى إعلاله، ونقل المصنفُ عبارته.

وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ١٧)، و«الميزان» (١/ ٦٤٨)، و«المختارة» للضياء =

رواه بعضُهم فلم يرفعه».

وإنما جُعِلَ طلبُ العلم من سبيل الله لأنَّ به قِوامَ الإسلام، كما أنَّ قِوامَه بالجهاد، فقِوامُ الدِّين بالعلم والجهاد.

ولهذا كان الجهادُ نوعين:

* جهادٌ باليد والسِّنان، وهذا المشاركُ فيه كثير.

* وجهادٌ بالحجَّة والبيان، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادَين؛ لعظم منفعته، وشدَّة مؤنته، وكثرة أعدائه.

قال تعالىٰ في سورة الفرقان ـ وهي مكيَّة ـ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، فهذا جهادٌ لهم بالقرآن، وهو أكبرُ الجهادَين[1]، وهو جهادُ المنافقين أيضًا؛ فإنَّ المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظَّاهر، وربَّما كانوا يقاتلون عدوَّهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، ومعلومٌ أن جهادَ المنافقين بالحجَّة والقرآن.

والمقصودُ أنَّ سبيلَ الله هي الجهادُ وطلبُ العلم ودعوةُ الخلق به إلىٰ الله، ولهذا قال معاذٌ رضي الله عنه: «عليكم بطلب العلم؛ فإنَّ تعلُّمَه لله خشية،

= (٢١١٩ - ٢١٢١).

(١) (ت): «وهو أكبر الجهادين مؤنة».

ومدارستَه عبادة، ومذاكرتَه تسبيح، والبحثَ عنه جهاد»[1].

ولهذا يَقْرِنُ سبحانه بين الكتاب المنزَّل والحديد النَّاصر، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فذكرَ الكتابَ والحديد إذ بهما قِوامُ الدِّين[2]، كما قيل:

فما هو إلا الوحيُ أو حَدُّ مُرْهَفٍ ... تُمِيلُ ظُباهُ أَخْدَعَيْ كلِّ مائلِ

فهذا شفاءُ الدَّاء من كلِّ عاقلٍ ... وهذا دواءُ الدَّاء من كلِّ جاهلِ[3]

ولـمَّا كان كلٌّ من الجهاد بالسيف والحجَّة يسمَّىٰ: «سبيل الله»، فَسَّرَ الصحابةُ رضي الله عنهم قولَه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بالأمراء والعلماء[4]؛ فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم.

---

(١) يأتي تخريجه (ص: ٣٣٧) حيث ساقه المصنف بتمامه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣، ١٨/ ١٥٨، ٢٨/ ٢٣٢، ٣٩٦)، و«جامع المسائل» (٦/ ٣١٤)، و«منهاج السنة» (١/ ٥٣١)، و«بدائع الفوائد» (٤١٥)، و«هداية الحيارى» (٢١)، و«طريق الهجرتين» (٦٤٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١٣٠٥).

(٣) البيتان لأبي تمام في «ديوانه» بشرح التبريزي (٣/ ٨٦).

(٤) انظر: تفسير القرآن من «الجامع» لابن وهب (١/ ١٠٠)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/ ٢١٢ - ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٤٩٧ - ٥٠٠)، و«السنة» للخلال (١/ ١٠٦)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ١٢٣)، وغيرهما. وهذا التفسير يؤخذُ من مجموع أقوالهم، لا من آحادها.

فطلبُ العلم وتعليمُه من أعظم سبيل الله عز وجل.

قال كعبُ الأحبار: «طالبُ العلم كالغادِي[1] الرَّائح في سبيل الله عز وجل»[2].

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: «إذا جاء الموتُ طالبَ العلم وهو علىٰ هذه الحال مات وهو شهيد»[3].

وقال سفيان بن عيينة: «من طلب العلمَ فقد بايعَ اللهَ عز وجل»[4].

وقال أبو الدرداء: «من رأىٰ الغُدُوَّ والرَّواحَ إلىٰ العلم ليس بجهادٍ فقد نقصَ عقلُه[5] ورأيه».

---

(١) في الأصول: «الغازي». وفي طرَّة (ح): «لعله: كالغادي». وهو كذلك في مصادر الأثر، ويدلُّ عليه السياق.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٧٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٨١).
ورُوِي مرفوعًا من حديث أبي الردين.
أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٤١ - زوائده)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٣٧) بإسنادٍ فيه من لم أعرفه. وقال ابنُ منده عن أبي الردين: «له ذِكْرٌ في الصحابة، ولم يَثْبُت». «الإصابة» (٧/ ١٣٨).

(٣) أخرجه البزار (١٣٨ - كشف الأستار)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠١)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٧) عن أبي هريرة وأبي ذر مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.
وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٣٥٠)، و«اللسان» (٢/ ١٤٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٨٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ١٧٤) بلفظ: «من طلب الحديث...».

(٥) (د، ت، ح، ن): «نقص في عقله». والمثبت من (ق) و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥٢).

الوجه الحادي والخمسون: ما رواه الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان: حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا سهَّل اللهُ له طريقًا إلىٰ الجنة**».

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن»(١).

قال بعضهم: «ولم يقل في هذا الحديث: صحيح؛ لأنه يقال: دلَّسَ الأعمشُ في هذا الحديث؛ لأنه رواه بعضهم، فقال: حُدِّثتُ عن أبي صالح»(٢).

والحديثُ رواه مسلم في «صحيحه»(٣) من أوجهٍ عن الأعمش عن أبي صالح.

قال الحاكم في «المستدرك»: «هو صحيحٌ علىٰ شرط البخاري ومسلم، رواه عن الأعمش جماعة، منهم: زائدة، وأبو معاوية، وابن نمير»(٤).

---

(١) «جامع الترمذي» (١٩٣٠، ٢٦٤٦).

(٢) ذكر هذه العلة الترمذيُّ في «الجامع» (٤/ ٣٤، ٥/ ١٩٥)، ونقل عنه الحافظُ في «الفتح» (١/ ١٦٠) و«النكت» (١/ ٤٠٣) العبارة التي نقلها المصنفُ عن بعضهم، ولم أرها في «جامعه»، ولا رأيتُ من نقلها عنه سواه.
ووافق الترمذيَّ غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ.
انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ١٦٢)، و«علل أحاديث في كتاب الصحيح لمسلم» لابن عمار الشهيد (١٣٦)، و«جامع العلوم والحكم» (٦٣٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٤١). وأطال الدارقطنيُّ في بيان الاختلاف فيه في «العلل» (١٠/ ١٨٥).

(٣) (٢٦٩٩).

(٤) «المستدرك» (١/ ٨٩) بنحوه ولم يتعقبه الذهبي. وصححه ابن حبان (٨٤).

وقد تقدَّم حديثُ أبي الدرداء في ذلك؛ فالحديث محفوظٌ وله أصل.

وقد تظاهرَ الشرعُ والقدرُ علىٰ أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فكما سلكَ طريقًا يطلبُ فيه حياةَ قلبه ونجاته من الهلاك، سلكَ اللهُ به طريقًا يحصِّلُ له ذلك.

وقد رُوِي من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه ابن عدي من حديث محمد بن عبد الملك الأنصاري، عن الزهري، عن عروة، عنها مرفوعًا، ولفظُه: «**أوحىٰ اللهُ إليَّ: إنه من سلك مسلكًا يطلبُ العلمَ سهَّلتُ له طريقًا إلىٰ الجنة**»(١).

الوجه الثاني والخمسون: أنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمع كلامَه ووعاه وبلَّغه بالنَّضرة، وهي البهجةُ ونضارةُ الوجه وتحسينُه، ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**نَضَّرَ اللهُ امرءًا سمع مقالتي، فوعاها، وحَفِظَها، وبلَّغها، فربَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقهُ منه، ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ أئمَّة المسلمين، ولزومُ جماعتهم؛ فإنَّ دعوتهم تحيطُ مِنْ ورائهم**»(٢).

---

(١) أخرجه ابنُ عدي في «الكامل» (٦/ ١٦٠) مع أحاديث أخرىٰ، ثم قال: «هذه الأحاديث عن الزهري عن عروة عن عائشة بهذا الإسناد مناكيرُ كلُّها، لا يرويها عن الزهري غير محمد بن عبد الملك».

وانظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (١٠/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (١/ ٤٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣١)، وغيرهم بإسنادٍ حسن.

وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٦، ٦٨، ٦٩)، وأبو نعيم.

وانظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (١٨)، و«موافقة الخُبْر الخَبَر» لابن حجر (١/ ٣٦٤).

وروىٰ هذا الأصلَ عن النبيِّ ﷺ: ٱبنُ مسعود، ومعاذُ بن جبل، وأبو الدرداء، وجبيرُ بن مُطْعِم، وأنسُ بن مالك، وزيدُ بن ثابت، والنعمانُ بن بشير[1].

قال الترمذي: «حديثُ ٱبن مسعودٍ حديثٌ حسنٌ، وحديثُ زيد بن ثابتٍ حديثٌ حسن»[2].

وأخرج الحاكمُ في «صحيحه» حديثَ جبير بن مطعم والنعمان بن بشير، وقال في حديث جبير: «علىٰ شرط البخاري ومسلم»[3].

ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحدَه لكفىٰ به شرفًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمعَ كلامَه، ووعاه، وحَفِظه، وبلَّغه. وهذه هي مراتبُ العلم:

* **أوَّلها**: سماعُه.

* فإذا سمعه وعاهُ بقلبه[4]؛ أي: عَقَلَه واستقرَّ في قلبه، كما يستقرُّ الشيءُ الذي يُوعىٰ في وعائه ولا يخرجُ منه، وكذلك عَقْلُه هو بمنزلة عَقْلِ البعير والدابَّة ونحوها حتىٰ لا تَشْرُدَ وتَذْهَب، ولهذا كان الوعيُ والعقلُ قدرًا زائدًا علىٰ مجرَّد إدراك المعلوم.

---

(١) وغيرُهم، وعَدَّه جماعةٌ من المتواتر. انظر: «قطف الأزهار المتناثرة» (٢)، و«مفتاح الجنة» (٩) كلاهما للسيوطي، و«لقط اللآلىء المتناثرة» للزبيدي (٤٨)، و«نظم المتناثر» للكتاني (٣٣).

(٢) «الجامع» (٥/ ٣٣). إلا أنَّ فيه قوله عن حديث ابن مسعود: «حسن صحيح»، وكذا هو في «تحفة الأشراف» (٧/ ٧٥).

(٣) «المستدرك» (١/ ٨٦ - ٨٨)، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) وهذه المرتبةُ الثانية.

* **المرتبة الثالثة**: تعاهدُه وحفظُه، حتىٰ لا ينساه فيَذْهَب.

* **المرتبة الرابعة**: تبليغُه وبثُّه في الأمَّة؛ ليحصلَ به ثمرتُه ومقصودُه؛ فما لم يُبَلَّغْ ويُبَثَّ في الأمَّة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنْفَقُ منه، وهو مُعَرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلمَ ما لم يُنْفَقْ منه ويُعَلَّمْ فإنه يوشكُ أن يذهب، فإذا أُنفِقَ منه نما وزكا علىٰ الإنفاق.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخلَ تحت هذه الدعوة النبويَّة المتضمِّنة لجمال الظاهر والباطن، فإنَّ النَّضرةَ هي البهجةُ والحُسْنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهرُ هذه البهجةُ والسرورُ والفرحةُ نضارةً علىٰ الوجه.

ولهذا يجمعُ سبحانه بين السُّرور والنَّضرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛ فالنَّضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم.

فالنعيمُ وطِيبُ القلب يظهرُ نضارةً في الوجه، كما قال تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطفِّفين: ٢٤].

والمقصودُ أنَّ هذه النَّضرةَ في وجه من سمع سُنَّة رسول الله ﷺ، ووعاها، وحَفِظها، وبلَّغها، هي أثرُ تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه.

وقولُه ﷺ: «**رُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقهُ منه**» تنبيهٌ علىٰ فائدة التبليغ، وأنَّ المبلَّغَ قد يكونُ أفهَمَ من المبلِّغ؛ فيحصُل له في تلك المقالة ما لم يحصُل للمبلِّغ.

أو يكونُ المعنىٰ: أنَّ المبلَّغ قد يكونُ أفقهَ من المبلِّغ، فإذا سمع تلك المقالةَ حملها علىٰ أحسن وجوهها، واستنبطَ فقهَها، وعَلِمَ المرادَ منها.

وقولُه ﷺ: «**ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم...**» إلىٰ آخره؛ أي: لا يحملُ الغِلَّ ولا يبقىٰ فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغِلَّ والغِشَّ، وهو فسادُ القلب[1] وسخائمُه.

فالمخلصُ لله إخلاصُه يمنعُ غِلَّ قلبه، ويخرجُه ويزيلُه جملةً؛ لأنه قد ٱنصرفت دواعي قلبه وإرادته إلىٰ مرضاة ربِّه، فلم يبقَ فيه موضعٌ للغِلِّ والغش؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلِصين[2]﴾ [يوسف: ٢٤]، فلمَّا أخلصَ لربِّه صرفَ عنه دواعي السوء والفحشاء؛ فانصرف عنه السوءُ والفحشاء.

ولهذا لـمَّا علمَ إبليسُ أنه لا سبيلَ له علىٰ أهل الإخلاص ٱستثناهُم من شُرْطتِه[3] التي ٱشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصين﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) (ح، ن): «وفساد القلب».

(٢) كذا قرأ أبو عمرو في المواضع الثلاثة، وهي قراءة المصنف، وبها يستقيم احتجاجه. انظر: «الحجة» لابن خالويه (١٩٤)، و«السبعة» لابن مجاهد (٣٤٨)، و«الحجة» لأبي علي (٤/ ٤٢١)، و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» لمكّي (٢/ ١٠).

(٣) قال الصَّغاني في «العُباب» و«التكملة» (شرط): «والشُّرْطة ـ بالضمِّ ـ: ما اشْترَطْتَ، يقال: خُذ شُرْطتك». ولم أر هذا الحرفَ عند غيره.

سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالإخلاصُ هو سبيلُ الـخَلاص، والإسلامُ مركبُ السلامة، والإيمانُ خاتمُ الأمان.

وقولُه: «**ومناصحةُ أئمَّة المسلمين**» هذا أيضًا مُنافٍ للغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ النصيحةَ لا تجامِعُ الغِلَّ، إذ هي ضدُّه، فمن نصَح الأئمَّة والأمَّة فقد برىء من الغِلِّ.

وقولُه: «**ولزوم جماعتهم**» هذا أيضًا مما يطهِّر القلبَ من الغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ صاحبَه للزومه جماعةَ المسلمين يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكرهُ لهم ما يكرهُ لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرُّه ما يسرُّهم.

وهذا بخلاف من ٱنحاز عنهم، واشتغل بالطَّعن عليهم، والعَيْب والذَّمِّ لهم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإنَّ قلوبهم ممتلئةٌ غِلًّا وغِشًّا، ولهذا تجدُ الرافضة أبعدَ الناس من الإخلاص، وأغشَّهم للأئمَّة والأمَّة، وأشدَّهم بعدًا عن جماعة المسلمين؛ فهؤلاء أشدُّ الناس غِلًّا وغِشًّا بشهادة الرسول والأمَّة عليهم، وشهادتِهم علىٰ أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونونَ قطُّ إلا أعوانًا وظَهْرًا علىٰ أهل الإسلام، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانتَه، وهذا أمرٌ قد شاهدَته الأمَّةُ منهم، ومن لم يشاهده فقد سمعَ منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشْجِي القلوب[1].

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ١٥٤، ٦/ ٣٧٠، ٣٧٤، ٧/ ٤١٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٢)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ٣٥٧ - ٣٦٠، ٣٧٩)، و«أصول مذهب الشيعة» للقفاري (٣/ ١٢١٢ - ١٢٤٥).

وقولُه: «**فإنَّ دعوتهم تحيطُ من ورائهم**» هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى؛ شبَّه دعوةَ المسلمين بالسُّور والسِّياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوِّهم عليهم، فتلك الدعوةُ ـ التي هي دعوةُ الإسلام، وهم داخلوها ـ لمَّا كانت سُورًا وسياجًا عليهم أخبر أنَّ من لَزِمَ جماعةَ المسلمين أحاطت به تلك الدعوة ـ التي هي دعوةُ الإسلام ـ كما أحاطت بهم، فالدعوةُ تجمعُ شملَ الأمَّة، وتَلُمُّ شَعَثَها، وتحيطُ بها، فمن دخلَ في جماعتها أحاطت به وشَمِلَته.

الوجه الثالث والخمسون: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بتبليغ العلم عنه؛ ففي «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذبَ عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعدَه من النار**»[1].

وقال: «**ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب**».

روىٰ ذلك: أبو بكرة، ووابصةُ بن معبد، وعمارُ بن ياسر، وعبدُ الله بن عمر، وعبدُ الله بن عباس، وأسماءُ بنت يزيد بن السَّكن، وحُجَير[2]، وأبو قُريع[3]، وسَرَّاءُ بنت نبهان، ومعاويةُ بن حيدة القشيري، وعَمُّ أبي حُرَّة[4]،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

(٢) ابن أبي حُجَيْر الهلالي. أخرج حديثه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٣٠٢)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٣٨٦ - زوائده)، وغيرهما، وإسناده صالحٌ كما قال ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٤١).

(٣) اسمه: شريح. أخرج حديثه ابن منده. «الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٤) اسمه: حنيفة. وقيل غير ذلك. انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٤/ ٥٣)، و«الإصابة» (٢/ ١٤٠). وحديثه عند أحمد (٥/ ٧٢) وغيره.

وغيرهم[1].

فأمرَ ﷺ بالتبليغ عنه؛ لما في ذلك من حصول الهدىٰ بالتبليغ، وله ﷺ أجرُ من بَلَّغَ عنه وأجرُ من قَبِلَ ذلك البلاغ، وكلما كَثُرَ التبليغُ عنه تضاعفَ له الثواب، فله من الأجر بعدد كلِّ مبلِّغٍ وكلِّ مُهْتَدٍ بذلك البلاغ، سوىٰ ما له من أجر عمله المختصِّ به، فكلُّ من هُدِيَ واهتدىٰ بتبليغه فله أجرُه؛ لأنه هو الداعي إليه.

ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصولُ ما يحبُّه ﷺ لكفىٰ به فضلًا، وعلامةُ المحبِّ الصادق أن يسعىٰ في حصول محبوب محبوبه، ويبذلَ جهدَه وطاقته فيها، ومعلومٌ أنه لا شيء أحبُّ إلىٰ رسول الله ﷺ من إيصاله الهدىٰ إلىٰ جميع الأمَّة، فالمبلِّغُ عنه ساعٍ في حصول محابِّه، فهو أقربُ الناس منه وأحبُّهم إليه، وهو نائبُه وخليفتُه في أمَّته، وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعلم وأهله.

الوجه الرابع والخمسون: أنَّ النبيَّ ﷺ قدَّم بالفضائل العِلْميَّة في أعلىٰ الولايات الدينيَّة وأشرفها، وقدَّم بالعلم بالأفضل[2] علىٰ غيره.

فروىٰ مسلمٌ في «صحيحه»[3] حديثَ أبي مسعود البدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «**يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمُهم**

---

(١) وعُدَّ من المتواتر. انظر: «نظم المتناثر» للكتاني (٣٤). وهو في «صحيح البخاري» (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة. وحديثُ الباقين مشهورٌ لا نطيلُ بتخريجه.

(٢) (ت): «بالعلم الأفضل».

(٣) (٦٧٣).

بالسُّنَّة، فإن كانوا في السُّنَّة سواءً فأقدمهم سِلْمًا أو سنًّا...» وذكرَ الحديث.

فقدَّم في الإمامة بفضيلة العلم[1] علىٰ تقدُّم الإسلام والهجرة، ولما كان العلمُ بالقرآن أفضل من العلم بالسُّنَّة ـ لشرف معلومه علىٰ معلوم السُّنَّة ـ قدَّمَ العلمَ به، ثمَّ قدَّمَ العلمَ بالسُّنَّة علىٰ تقدُّم الهجرة، وفيه من زيادة العمل ما هو متميِّزٌ به، لكن إنما راعىٰ التقديمَ بالعلم ثمَّ بالعمل، وراعىٰ التقديمَ بالعلم بالأفضل علىٰ غيره، وهذا يدلُّ علىٰ شرف العلم وفضله، وأنَّ أهلَه هم أهلُ التقدُّم[2] إلىٰ المراتب الدينيَّة.

الوجه الخامس والخمسون: ما ثبتَ في «صحيح البخاري»[3] من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**».

وتعلُّمُ القرآن وتعليمُه يتناولُ تعلُّم حروفه وتعليمَها، وتعلُّمَ معانيه وتعليمَها، وهو أشرفُ قِسْمَي تعلُّمه وتعليمه؛ فإنَّ المعنىٰ هو المقصود، واللفظُ وسيلةٌ إليه، فتعلُّم المعنىٰ وتعليمُه تعلُّمُ الغاية وتعليمُها، وتعلُّمُ اللفظ المجرَّد وتعليمُه تعلُّمُ الوسائل وتعليمُها، وبينهما كما بين الغايات والوسائل.

الوجه السادس والخمسون: ما رواه الترمذي وغيرُه في نسخة عمرو ٱبن الحارث، عن درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لن يشبعَ المؤمنُ من خيرٍ يسمعُه حتىٰ يكونَ منتهاه الجنة**»[4].

---

(١) (ق): «تفضيله العلم». وهو تحريف.

(٢) (ت، ن): «التقديم».

(٣) (٥٠٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٣٠)، والقضاعي في «مسند =

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريب».

وهذه نسخةٌ معروفةٌ رواها الناس[1].

وساق أحمدُ في «المسند»[2] أكثرها أو كثيرًا منها.

ولهذا الحديث شواهد.

فجعلَ النبيُّ ﷺ النَّهمةَ في العلم وعدمَ الشِّبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين، وأخبرَ أنَّ هذا لا يزالُ دأبَ المؤمن حتىٰ دخوله الجنة.

ولهذا كان أئمَّةُ الإسلام إذا قيل لأحدهم: إلىٰ متىٰ تطلب العلم؟ فيقول: إلىٰ الممات.

قال نعيمُ بن حماد: سمعتُ عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول، وقد عابه قومٌ في كثرة طلبه للحديث؛ فقالوا له: إلىٰ متىٰ تسمَع؟!، قال: إلىٰ الممات[3].

= الشهاب» (٨٩٧)، وغيرهم.

وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٩٠٣)، والحاكم (٤/ ١٢٩) ولم يتعقبه الذهبي، وأخرجه ابنُ عدي في «الكامل» (٣/ ١١٤) في ترجمة دَرَّاج ضمن ما قد يُستنكَر من حديثه.

(١) واختُلِف في أحاديثها، تبعًا للاختلاف في راويها دَرَّاج؛ فمن الحفَّاظ من لم ير بها بأسًا: كابن معينٍ، وابن حبان، والحاكم، ومنهم من ضعَّفها: كأحمد، وأبي داود. انظر: «تاريخ ابن معين» (٤/ ٤١٣ - رواية الدوري)، و«سؤالات الأجري» (٢/ ١٦٦)، و«الكامل» لابن عدي (٣/ ١١٢)، و«جامع الترمذي» (٢٠٣٣، ٢٦١٧، ٣٠٩٣).

(٢) (٣/ ٨، ٢٨ - ٢٩، ٦٩، ٧٠ - ٧١، ٧٥ - ٧٦، ٨١، ٨٣).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ١٠٣). وانظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٠٦).

وقال الحسنُ بن منصور الجصَّاص: قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: إلىٰ متىٰ يكتبُ الرجلُ الحديث؟ قال: إلىٰ الموت[١].

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: أنا أطلبُ العلمَ إلىٰ أن أدخل القبر[٢].

وقال محمد بن إسماعيل الصَّائغ: كنت أصُوغُ مع أبي ببغداد، فمرَّ بنا أحمدُ بن حنبل وهو يعدو، ونعلاه في يده، فأخَذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟! إلىٰ متىٰ تعدو مع هؤلاء؟! قال: إلىٰ الموت[٣].

وقال عبد الله بن بشر الطَّالْقاني: أرجو أن يأتيني أمرُ ربِّي والمحبرةُ بين يَدَيَّ، ولم يفارقني القلمُ والمحبرة[٤].

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري[٥]: جاء ابنُ بسطام الحافظُ يسألني عن الحديث، فقلت له: ما أشدَّ حرصك علىٰ الحديث! فقال: أو ما أحبُّ أن أكون في قطار آل رسول الله ﷺ؟![٦].

---

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٤).
وانظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٧٥)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥)، و«المقصد الأرشد» (١/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٥). وانظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ٥٨).

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٩، ٦/ ٢٧٤).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ١٦٨).

(٥) (ق، د): «حميد بن يزيد المصري».

(٦) وورد الجواب أيضًا عن الوزير نظام الملك. «وفيات الأعيان» (٢/ ١٢٩).

وقيل لبعض العلماء: إلىٰ متىٰ يَحْسُنُ بالمرء أن يتعلَّم؟ قال: ما حَسُنَتْ به الحياة[1].

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسُنُ أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يَحْسُنُ به أن يعيش[2].

الوجه السابع والخمسون: ما رواه الترمذي أيضًا من حديث إبراهيم بن الفضل، عن المَقْبُري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الكلمةُ الحكمةُ[3] ضالَّةُ المؤمن، فحيثُ وجدها فهو أحقُّ بها**»[4].

قال الترمذي: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المديني المخزومي يُضعَّفُ في الحديث من قِبَل حفظه».

---

(١) رُوِي هذا عن أبي عمرو بن العلاء، والمأمون. وحُكِي عن المسيح عليه السلام، وأنوشروان. انظر: «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٦)، و«جامع بيان العلم» (١/ ٤٠٦)، و«أمالي ابن الشجري» (١/ ٦٣)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ١١٢)، و«المحاسن والأضداد» (١٢)، و«الموشىٰ» (٥٠).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٦). وانظر: «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٤٠٧)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٧).

(٣) كذا في (د، ح، ن) والترمذي وابن ماجه. وفي (ت، ق) و«مسند الشهاب» (٥٢): «كلمة الحكمة». وفي «الضعفاء» للعقيلي، و«الكامل» لابن عدي، و«المجروحين»: «الكلمة الحكيمة ضالة الحكيم».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف.
وقد بيَّن علَّته الترمذيُّ وغيره.
انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٦٠)، و«المجروحين» (١/ ١٠٥)، و«الكامل» (١/ ٢٣١)، و«العلل المتناهية» (١/ ٨٨).

وهذا أيضًا شاهدٌ لما تقدَّم، وله شواهد[1].

والحكمةُ هي العلم؛ فإذا فَقَدَه المؤمنُ فهو بمنزلة من فقدَ ضالَّةً نفيسةً من نفائسه، فإذا وجدها قرَّ قلبُه وفَرِحَت نفسُه بوِجْدانها، كذلك المؤمنُ إذا وجدَ ضالَّةَ قلبه وروحه التي هو دائمًا في طلبها ونِشْدانها والتفتيش عليها.

وهذا من أحسن الأمثلة؛ فإنَّ قلبَ المؤمن يطلبُ العلمَ حيث وجده أعظمَ من طلب صاحب الضَّالَّة لها.

الوجه الثامن والخمسون: قال الترمذي: حدثنا أبو كريب: حدثنا خلف بن أيوب، عن عوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**خصلتان لا يجتمعان**[2] **في منافق: حُسْنُ سَمْتٍ، وفقهٌ في الدين**»[3].

---

(١) مرفوعة، ولا يصحُّ منها شيء، وثبتَ من قول بعض التابعين.
انظر: «مسند الروياني» (١/ ٧٥)، و«التدوين» للرافعي (٤/ ٩٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٤/ ٥١، ٦٠)، و«المدخل» للبيهقي (٢/ ٢٩٣)، و«مسند الشهاب» (١٤٦)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٣٥٤)، و«المقاصد الحسنة» (٤١٥)، و«تبييض الصحيفة» (٢١).

(٢) كذا في الأصول، حملًا على المعنى. وفي كتاب الترمذي وغيره: «تجتمعان».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠١٠)، وأبو إسماعيل الأنصاري في «ذم الكلام» (١/ ٣٩٨)، وغيرهم.
قال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٤): «ليس له أصلٌ من حديث عوف، وإنما يروى هذا عن أنسٍ بإسنادٍ لا يثبت».
وخلف بن أيوب جهَّله الترمذي، وهو فقيهٌ زاهدٌ معروف، وضعَّفه يحيى بن معين. انظر: «التهذيب» (٣/ ١٤٧).
وروي من مرسل محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام عند ابن المبارك في «الزهد» (٤٥٩). وانظر: «مسند الشهاب» (٣١٨).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ غريب، ولا يُعرفُ هذا الحديثُ من حديث عوفٍ إلا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري، ولم أر أحدًا يروي عنه غير أبي كُرَيب محمد بن العلاء، ولا أدري كيف هو».

وهذه شهادةٌ بأنَّ من ٱجتمع فيه حُسْنُ السَّمت والفقهُ في الدين فهو مؤمن، وأحرىٰ بهذا الحديث أن يكون حقًّا، وإن كان إسناده فيه جهالة؛ فإنَّ حُسْنَ السَّمت والفقهَ في الدين من أخصِّ علامات الإيمان، ولن يجمعهما الله في منافق؛ فإنَّ النفاق ينافيهما وينافيانه.

الوجه التاسع والخمسون: قال الترمذي: حدثنا مسلمُ بن حاتم الأنصاري أبو حاتم البصري[1]: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيِّب، قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسولُ الله ﷺ: **«يا بنيَّ، إن قَدرتَ أن تصبحَ وتمسي وليس في قلبك غِشٌّ لأحدٍ فافعَل»**. ثمَّ قال: **«يا بنيَّ، وذلك من سنَّتي، ومن أحيا سنَّتي فقد أحبَّني، ومن أحبَّني كان معي في الجنة»**[2]، وفي الحديث قصَّةٌ طويلة.

= وانظر لحديث أنس الذي أشار إليه العقيلي: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٦١).

(١) (د، ت، ق): «الأنصاري حدثنا أبو حاتم البصري». وهو خطأ.

(٢) جزءٌ من حديثٍ طويلٍ أخرجه الترمذيُّ هنا (٢٦٧٨) مقتصرًا علىٰ هذا القَدْر، وروىٰ طائفةً منه مفرَّقةً في مواضع أخرىٰ، وأخرجه بطوله أبو يعلىٰ (٣٦٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٩١)، وغيرهما.
وهو حديثٌ معلول، وقد بيَّن الترمذيُّ علَّته، وله طرقٌ أخرىٰ لا يصحُّ منها شيء، ولا تصلحُ لتقويته.
انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٤٨، ١١٩، ٢/ ١٠٦، ٣/ ٢٢٤)، و«علل ابن أبي حاتم» (١/ ٥٢)، و«نتائج الأفكار» (١/ ١٦٨).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه، و محمد بن عبد الله الأنصاري صدوق، وأبوه ثقة، وعلي بن زيدٍ صدوقٌ إلا أنه ربما يرفعُ الشيء الذي يُوقِفُه غيره، سمعت محمد بن بشار يقول: قال أبو الوليد: قال شعبة: حدثنا عليُّ بن زيدٍ وكان رفَّاعًا».

قال الترمذي: «ولا يُعْرَفُ لسعيد بن المسيِّب عن أنس روايةٌ إلا هذا الحديثُ بطوله، وقد روىٰ عبَّادُ المِنْقَري هذا الحديثَ عن عليٍّ بن زيدٍ عن أنسٍ ولم يذكر فيه: عن سعيد بن المسيِّب، وذاكرتُ به محمد بن إسماعيل فلم يعرِفه، ولم يعرِف لسعيد بن المسيِّب عن أنسٍ هذا الحديثَ ولا غيره. ومات أنسٌ سنة ثلاثٍ وتسعين، وسعيدُ بن المسيِّب سنةَ خمسٍ وتسعين بعده بسنتين».

قلت: ولهذا الحديث شواهد.

منها: ما رواه الدارميُّ عبد الله: حدثنا محمد بن عيينة، عن مروان بن معاوية الفزاري، عن كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لبلال بن الحارث: «**ٱعلم**»، قال: ما أعلمُ يا رسول الله؟ قال: «**ٱعلم، يا بلال**»، قال: ما أعلمُ يا رسول الله؟ قال: «**إنه من أحيا سُنَّةً من سنَّتي قد أميتت بعدي كان له من الأجر مثلُ من عملَ بها من غير أن ينقصَ من أجورهم شيء، ومن ٱبتدعَ بدعةَ ضلالةٍ لا يرضاها الله ورسولُه كان عليه من الإثم مثلُ آثام من عملَ بها لا ينقصُ ذلك من أوزار الناس شيئًا**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢٠٩)، والبزار (٣٣٨٥)، وغيرهم.
وحسَّنه الترمذيُّ علىٰ مذهبه في تحسين حديث كثير بن عبد الله، ومن يضعِّفه ـ وهم الأكثر ـ يضعِّفُ الحديثَ به، وهو الصحيح.

رواه الترمذي عنه، وقال: «حديثٌ حسن». قال: «ومحمد بن عيينة مِصِّيصيٌّ شامي، وكثيرُ بن عبد الله هو كثير بن عمرو بن عوف المزني».

وفي حديثه[(١)] ثلاثة أقوالٍ لأهل الحديث[(٢)]: منهم من يصحِّحه، ومنهم من يحسِّنه، وهما للترمذي، ومنهم من يضعِّفه ولا يراه حجَّة، كالإمام أحمد وغيره.

ولكنَّ هذا الأصل ثابتٌ من وجوه:

كحديث: «**من دعا إلىٰ هدًى كان له من الأجر مثلُ أجور من اتبعه**»[(٣)]، وهو صحيحٌ من وجوه.

وحديث: «**من دلَّ علىٰ خيرٍ فله مثلُ أجر فاعله**»[(٤)]، وهو حديثٌ حسنٌ رواه الترمذي وغيره.

فهذا الأصلُ[(٥)] محفوظٌ عن النبي ﷺ، فالحديثُ الضعيفُ فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات، فلا يضرُّ ذِكْرُه.

الوجه الستون: أنَّ النبيَّ ﷺ أوصىٰ بطلبة العلم خيرًا، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه.

---

(١) أي: حديث كثير بن عبد الله.

(٢) انظر: «التهذيب» (٨/ ٤٢٢)، و«الميزان» (٣/ ٤٠٦)، و«جامع الترمذي» (٤٩٠، ٥٣٦، ١٣٥٢، ٢٦٣٠). وليعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٥٠) قولٌ عجيبٌ في من ذهب إلى تضعيفه.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، والترمذي (٢٦٧١) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

(٥) وهو فضلُ إحياء السُّنة، والدعوة إليها.

قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع: حدثنا أبو داود الحَفَري، عن سفيان، عن أبي هارون، قال: كنَّا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الناس لكم تَبَع، وإنَّ رجالًا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقَّهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا**».

حدثنا قتيبة: حدثنا رَوْح بن قيس، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يأتيكم رجالٌ من قِبَل المشرق يتعلَّمون، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرًا**».

فكان أبو سعيدٍ إذا رآنا قال: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ»[(١)].

قال الترمذي: «هذا حديثٌ لا نعرفُه إلا من حديث أبي هارون العَبْدي، عن أبي سعيد.

قال أبو بكر العطَّار[(٢)]: قال علي بن المديني: قال يحيىٰ بن سعيد: كان شعبةُ يضعِّف أبا هارون العَبْدي. قال يحيىٰ: وما زال ٱبنُ عونٍ يروي عن أبي هارون حتىٰ مات.

وأبو هارون: ٱسمه عِمارةُ بن جُوَين».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠، ٢٦٥١)، وابن ماجه (٢٤٩)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا؛ أبو هارون العبدي متروك.

ورُوِي من أوجهٍ أخرىٰ عن أبي سعيد غيرُ محفوظة، إلا طريق شهر بن حوشب فإن ظاهر كلام ابن معين أنه محفوظ.

انظر: «مستدرك الحاكم» (١/ ٨٨)، و«سؤالات ابن الجنيد» (١٧)، و«المنتخب من العلل للخلال» (١٣١)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٨٠)، و«الروض البسام» (١/ ١٥٠).

(٢) سقطت هذه الواسطة من مطبوعة «جامع الترمذي» في هذا الموضع، وثبتت في مواضع أخرىٰ. انظر: (٤٢٤، ١٩٥٠).

الوجه الحادي والستون: ما رواه الترمذي من حديث أبي داود، عن عبد الله بن سَخْبَرة، عن سَخْبَرة، عن النبي ﷺ قال: «**من طلب العلمَ كان كفَّارةً لما مضىٰ**»(1).

هذا الأصلُ لم أجد فيه إلا هذا الحديث، وليس بشيء؛ فإنَّ أبا داود هو نُفَيع الأعمىٰ غيرُ ثقة، ولكن قد تقدَّم أنَّ العالِمَ يستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض.

وقد رُوِيَت آثارٌ عديدةٌ عن جماعةٍ من الصحابة في هذا المعنىٰ:

منها: ما رواه الثوري، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن ٱبن عباس: «أنَّ مَلَكًا موكَّلًا بطالب العلم حتىٰ يردَّه من حيث أبداه مغفورًا له»(2).

ومنها: ما رواه فِطْرُ بن خليفة، عن أبي الطفيل، عن علي: «ما ٱنتعَل عبد قطُّ ولا تخفَّف ولا لبسَ ثوبًا ليغدو في طلب العلم إلا غُفِرَت ذنوبُه حيث يخطو عند باب بيته»(3).

---

(1) أخرجه الترمذي (٢٦٤٨)، والدارمي (٥٦١)، وغيرهما.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ ضعيفُ الإسناد؛ أبو داود يُضَعَّف، ولا نعرفُ لعبد الله بن سَخْبَرة كبيرَ شيءٍ ولا لأبيه، واسمُ أبي داود نُفَيْع الأعمىٰ، تكلَّم فيه قتادة وغيرُ واحدٍ من أهل العلم».
وقال البخاري عن سخبرة: «روىٰ عنه ابنُه عبد الله، حديثُه ليس من وجهٍ صحيح». «التاريخ الكبير» (٤/ ٢١٠)، و«الضعفاء الصغير» (١٥٩).

(2) أخرجه أبو الحسن النعالي في جزء من حديثه (٤١) مرفوعًا، وفي إسناده: الضحاك بن حجوة، وهو منكر الحديث متهمٌ بالوضع. وعبد الكريم هو ابن أبي المخارق، ضعيفُ الحديث.

(3) لم أره موقوفًا. وانظر ما يأتي. وقوله: «تخفَّف» أي: لبس خُفَّه.

وقد رواه ٱبن عدي مرفوعًا[1]، وقال: «ليس يرويه عن فِطْرٍ غير إسماعيل بن يحيىٰ التيمي».

قلت: وقد رواه إسماعيل بن يحيىٰ هذا عن الثوري: حدثنا محمد بن أيوب الجُوزْجاني، عن مجالد، عن الشعبي، عن الأسود، عن عائشة مرفوعًا: «من ٱنتعَل[2] **ليتعلَّم خيرًا غُفِرَ له قبل أن يخطو**»[3].

وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن علي[4].

وهذه الأسانيدُ وإن لم تكن بمفردها حجَّةً فطلبُ العلم من أفضل الحسنات، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئات، فجديرٌ أن يكون طلبُ العلم ٱبتغاء وجه الله يكفِّر ما مضىٰ من السيِّئات، فقد دلَّت النصوصُ أنَّ إتباعَ السيِّئة

---

(١) في «الكامل» (١/ ٣٠٧)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٢٢)، وتمام في «الفوائد» (٦٦ - الروض)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/ ١٨١).
قال ابن عدي: «وهذا الحديثُ عن فِطْر بإسناده باطل؛ ليس يرويه...» العبارة التي نقلها المصنف، وأورده ابن حبان في ترجمة إسماعيل بن يحيىٰ من «المجروحين» (١/ ١٢٦) مستدلًّا به علىٰ شدَّة ضعفه وروايته للموضوعات عن الثقات.

(٢) تحرَّف في بعض المصادر إلىٰ: «انتقل» بالقاف، وبه شرحه المناويُّ في «فيض القدير» (٦/ ١١٥)!

(٣) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (٢١٩)، وابن النجار في «التاريخ المجدِّد لمدينة السلام» (٥/ ٢١٦)، وغيرهما من حديث إسماعيل عن الثوري عن مجالدٍ به، ليس فيه ذِكْر محمد بن أيوب الجوزجاني.

(٤) أخرجه عفيف الدين في «فضل العلم» (١٢٢/ ٢)، كما في «السلسلة الضعيفة» (٢٦٧٦).

الحسنةَ تمحوها، فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجلِّ الطَّاعات؟! فالعمدةُ علىٰ ذلك لا علىٰ حديث أبي داود[1]، والله أعلم.

وقد رُوِي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّ الرجل ليخرجُ من منزله وعليه من الذنوب مثلُ جبل تهامة، فإذا سمعَ العلمَ خاف ورجعَ وتاب؛ فانصرفَ إلىٰ منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالسَ العلماء»[2].

الوجه الثاني والستون: ما رواه ٱبن ماجه في «سننه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسولُ الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلسٌ يتفقَّهون، ومجلسٌ يَدْعُون الله تعالىٰ ويسألونه؛ فقال: «**كلا المجلسين إلىٰ خير؛ أمَّا هؤلاء فيَدْعُون الله، وأمَّا هؤلاء فيتعلَّمون ويفقِّهون الجاهل، هؤلاء أفضل، بالتعليم أُرْسِلْتُ**»، ثمَّ قعدَ معهم[3].

الوجه الثالث والستون: أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يباهي ملائكتَه بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون اللهَ ويحمدُونه علىٰ ما منَّ عليهم به منه.

قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطَّار: حدثنا أبو نَعامة، عن أبي عثمان، عن أبي سعيد، قال: خرج معاويةُ

---

(١) نُفَيع الأعمىٰ، المتقدِّم، وهو: «من طلب العلم كان كفارة لما مضىٰ».

(٢) أورده الغزالي في «الإحياء» (١/ ٣٤٩). ولم أجده مسندًا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٨)، والطيالسي (٢٣٦٥)، والبزار (٢٤٥٨)، وغيرهم بإسنادٍ فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيفُ الحديث، وقد اضطرب في تسمية شيخه.

إلىٰ المسجد فقال: ما يُجْلِسُكم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ الله عز وجل، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أَمَا إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ حديثًا عنه منِّي؛ إنَّ رسول الله ﷺ خرج علىٰ حلقةٍ من أصحابه، قال: «ما يُجْلِسُكم؟» قالوا: جلسنا نذكرُ الله ونحمدُه لِمَا هدانا للإسلام ومنَّ علينا بك. قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أَمَا إني لم أستحلفكم تهمةً لكم؛ إنه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله تعالىٰ يباهي بكم الملائكة»[1].

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو نَعامة السَّعدي ٱسمه عمرو بن عيسىٰ، وأبو عثمان النهدي ٱسمه عبد الرحمن بن مُلّ».

فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدونَ الله بذكر أوصافه وآلائه، ويُثْنونَ عليه بذلك، ويذكرونَ حُسْنَ الإسلام، ويعترفونَ لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومنَّ عليهم برسوله.

وهذا أشرفُ علمٍ علىٰ الإطلاق، ولا يُعنىٰ به إلا الراسخون في العلم؛ فإنه يتضمَّنُ معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله، ومحبَّة ذلك وتعظيمَه والفرحَ به، وأحرىٰ بأصحاب[2] هذا العلم أن يباهي اللهُ بهم الملائكة.

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ الرجلَ الذي كان يحبُّ سورةَ الإخلاص، وقال:

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٣٧٩). وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (٨١٣) بالإسناد نفسه.

(٢) (ن): «وأحر بأصحاب». (ت): «وأجر أصحاب».

أحبُّها لأنها صفةُ الرحمن عز وجل؛ فقال: «**حبُّك إيَّاها أدخلك الجنة**»(١).

وفي لفظٍ آخر: «**أخبِروه أنَّ الله يحبُّه**»(٢)؛ فدلَّ علىٰ أنَّ من أحبَّ صفات الله أحبَّه الله وأدخله الجنة.

والجهميةُ أشدُّ الناس نفرةً وتنفيرًا عن صفاته ونعوت كماله، يُعاقِبونَ ويذمُّون من يذكرها ويقرؤها ويجمعُها ويعتني بها، ولهذا لهم المَقْتُ والذَّمُّ عند الأمَّة، وعلىٰ لسان كلِّ عالمٍ من علماء الإسلام، والله تعالىٰ أشدُّ بغضًا ومقتًا لهم، جزاءً وفاقًا.

الوجه الرابع والستون: أنَّ أفضلَ منازل الخلق عند الله منزلةُ الرسالة والنبوَّة؛ فاللهُ يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

وكيف لا يكونُ أفضلَ الخلق عند الله من جعلَهم وسائطَ بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، ومَراضِيه ومَساخِطه، وثوابه وعقابه، وخصَّهم بوحيه، واختصَّهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلىٰ عباده، وجعلَهم أزكىٰ العالمين نفوسًا، وأشرفَهم أخلاقًا، وأكملَهم علومًا وأعمالًا، وأحسنَهم(٣) خِلْقَة، وأعظمَهم محبَّةً وقبولًا في قلوب الناس، وبرَّأهم من كلِّ وَصْمٍ وكلِّ عيبٍ وكلِّ خُلُقٍ دنيء؟!

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٧٤) تعليقًا مجزومًا به، ووصله أحمد (٣/ ١٤١، ١٥٠)، والترمذي (٢٩٠١)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك.
وصححه الترمذي، وابن خزيمة (٥٣٧)، وابن حبان (٧٩٢)، والحاكم (١/ ٢٤٠)، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٧٥٠).
وانظر: «الفتح» (٢/ ٣٠١)، و«التغليق» (٢/ ٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة.

(٣) (ت): «وأكرمهم».

وجعَل أشرفَ مراتب الناس بعدهم مرتبةَ خلافتهم ونيابتهم في أممهم؛ فإنهم يخلُفونهم علىٰ منهاجهم وطريقتهم: مِنْ نصيحتهم الأمَّة، وإرشادهم الضالَّ، وتعليمهم الجاهل، ونَصْرِهم المظلوم، وأَخْذِهم علىٰ يد الظَّالم، وأمرِهم بالمعروف وفعلِه، ونَهْيِهم عن المنكر وتركِه، والدَّعوة إلىٰ الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسنُ للمعاندين المعارضين.

فهذه حالُ أتباع المرسلين وورثة النبيِّين؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وسواءٌ كان المعنىٰ: أنا ومن اتبعني علىٰ بصيرةٍ وأنا أدعو إلىٰ الله، أو المعنىٰ: أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة[(١)]؛ فالقولان[(٢)] متلازمان؛ فإنه لا يكون من أتباعه حقًّا إلا من دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة، كما كان متبوعُه ﷺ يفعل[(٣)].

فهؤلاء خلفاءُ الرسل حقًّا، وورثتُهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به: علمًا وعملًا، وهدايةً وإرشادًا، وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصدِّيقون، وهم أفضلُ أتباع الأنبياء، ورأسُهم وإمامُهم الصِّدِّيق الأكبر أبو بكرٍ رضي الله عنه.

---

(١) أي: ومن اتبعني يدعو كذلك.

(٢) (د، ح، ن): «والقولان». وسقطت من (ت، ق) مع ما بعدها إلىٰ كلمة «بصيرة»؛ لانتقال النظر.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٢)، و«الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٥)، و«جلاء الأفهام» (٥٨١)، و«رسالة ابن القيم إلىٰ بعض إخوانه» (٢٥)، وما سيأتي من الكتاب (ص: ٤٣٤).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩- ٧٠]، فذكر مراتبَ السُّعداء، وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثمَّ الذين يلونهم، إلىٰ آخر المراتب. وهؤلاء الأربعةُ هم أهلُ الجنة الذين هم أهلُها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

الوجه الخامس والستون: أنَّ الإنسانَ إنما يُمَيَّزُ علىٰ غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيرُه من الدَّوابِّ والسِّباع أكثرُ أكلًا منه، وأقوىٰ بطشًا، وأكثرُ جِماعًا وأولادًا، وأطولُ عُمرًا، وإنما مُيِّزَ علىٰ الدَّوابِّ والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عَدِمَ العلمَ بقي معه القدرُ المشتركُ بينه وبين سائر الدَّوابِّ، وهي الحيوانيَّة المحضة، فلا يبقىٰ فيه فضلًا[1] عليهم، بل قد يبقىٰ شرًّا منهم.

كما قال تعالىٰ في هذا الصِّنف من الناس: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، فهؤلاء هم الجُهَّال، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: ليس عندهم محلٌّ قابلٌ للخير، ولو كان محلُّهم قابلًا للخير ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمَهم. فالسمعُ هاهنا سَمْعُ فهم، وإلا فسمعُ الصَّوت حاصلٌ لهم، وبه قامت حجَّةُ الله عليهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) كذا رُسِمَت في الأصول، بالألف. والوجهُ أن تكون مرفوعة.

وسواءٌ كان المعنىٰ: ومثَلُ داعي الذين كفروا كمثَل الذي يَنْعِقُ بما لا يَسمعُ من الدوابِّ إلا أصواتًا مجرَّدة، أو كان المعنىٰ: ومثلُ الذين كفروا حين يُنادَوْنَ كمثل دوابِّ الذي يَنْعِقُ بها فلا تسمعُ[1] إلا صوتَ الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإن كان التقديرُ الثاني أقربَ إلىٰ اللفظ وأبلغَ في المعنىٰ[2].

فعلىٰ التقديرين، لم يحصُل لهم من الدعوة إلا الصوتُ الحاصل للأنعام؛ فهؤلاء لم يحصُل لهم حقيقةُ الإنسانيَّة التي يُمَيَّزُ[3] بها صاحبُها عن سائر الحيوان.

والسمعُ يرادُ به: إدراكُ الصوت، ويرادُ به: فهمُ المعنىٰ، ويرادُ به: القبولُ والإجابة. والثلاثةُ في القرآن[4].

فمن الأول: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وهذا أصرحُ ما يكونُ في إثبات صفة السمع لله؛ ذكَر الماضي والمضارعَ واسمَ الفاعل: ﴿سَمِعَ﴾، و﴿يَسْمَعُ﴾، وهو ﴿سَمِيعٌۢ﴾، وله السمع؛ كما قالت عائشةُ رضي الله عنها: «الحمدُ لله الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، لقد جاءت المُجادِلة تشكو إلىٰ

---

(١) (ت): «ينعق به ولا يسمع».

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٨٢).

(٣) (ت): «يتميز».

(٤) انظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (٢٢٦)، وللدامغاني (٢٤٧)، ولابن الجوزي (٣٤٦)، ومادة (سمع) في «المفردات»، و«بصائر ذوي التمييز»، و«عمدة الحفاظ».

رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفىٰ عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[1].

والثاني: سمعُ الفهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: لأفهَمَهم، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، لِمَا في قلوبهم من الكِبْر والإعراض عن قبول الحقِّ.

ففيهم آفتان: **إحداهما**: أنهم لا يفهمونَ الحقَّ لِـجَهْلهم، ولو فهموه لتولَّوا عنه لكِبْرِهم[2]، وهذا غايةُ النقص والعيب.

والثالث: سمعُ القبول والإجابة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: قابلون[3] لهم، مستجيبون.

ومنه قوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له، مستجيبون لأهله.

ومنه قول الـمُصَلي: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: أجاب اللهُ حمدَ من حَـمِدَه، ودعاءَ من دعاه، وقولُ النبي ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمعَ الله لمن**

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٩/ ١٤٤) تعليقًا مجزومًا به، ووصله أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨).
وصححه الحاكم (٢/ ٤٨١)، وابن حجر في «التغليق» (٥/ ٣٣٩).

(٢) فالآفة الأولىٰ: الجهل. والثانية: الكِبْر.

(٣) (ت، ق): «قايلون»، بتسهيل الهمز. وفي الموضع الثاني بتحقيقها. وهو خطأ محض.

حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم»[1]، أي: يجيبكم.

والمقصودُ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكن له علمٌ بما يُصْلِحُه في معاشه ومعاده كان الحيوانُ البهيمُ خيرًا منه؛ لسلامته في المعاد مما يُهْلِكُه، دون الإنسان الجاهل.

الوجه السادس والستون: أنَّ العلمَ حاكمٌ علىٰ ما سواه، ولا يَحْكُم عليه شيء، فكلُّ شيءٍ ٱختُلِفَ في وجوده وعدمه، وصحَّته وفساده، ومنفعته ومضرَّته، ورجحانه ونقصانه، وكماله ونقصه، ومدحه وذمِّه، ومرتبته في الخير، وجودته ورداءته، وقُرْبه وبُعْده، وإفضائه إلىٰ مطلوب كذا وعدم إفضائه، وحصول المقصود به وعدم حصوله، إلىٰ سائر جهات المعلومات= فإنَّ العلمَ حاكمٌ علىٰ ذلك كلِّه، فإذا حكمَ العلمُ ٱنقطعَ النِّزاعُ ووجبَ الاتِّباع.

وهو الحاكمُ علىٰ الممالك والسِّياسات، والأموال والأقلام، فمُلكٌ لا يتأيَّدُ بعلمٍ لا يقوم، وسيفٌ بلا علمٍ مِخْراقُ لاعِب[2]، وقلمٌ بلا علمٍ حركةُ عابث، والعلمُ مسلَّطٌ حاكمٌ علىٰ ذلك كلِّه، ولا يحكُم شيءٌ من ذلك علىٰ العلم.

وقد ٱختُلِفَ في تفضيل مداد العلماء علىٰ دم الشهداء وعكسه، وذُكِرَ لكلِّ قولٍ وجوهٌ من التراجيح والأدلَّة[3]، ونفسُ هذا النزاع دليلٌ علىٰ تفضيل

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤) من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

(٢) تحرفت في (ت). والمخراق: منديلٌ يلوىٰ فيُضرَب به أو يُلفُّ فيفزَّع به، لعبةٌ يلعب بها الصبيان. ووصف السيف به مشهورٌ في كلام العرب. انظر: «اللسان» (خرق)، و«شرح الحماسة» للمرزوقي (١٦٠١).

(٣) انظر: «العلل المتناهية» (١/ ٧١)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٢٦٢، ٥٤٣)، و«فيض =

العلم ومرتبته؛ فإنَّ الحاكمَ في هذه المسألة هو العلم، فبه[1] وإليه وعنده يقعُ التحاكم والتخاصم، والـمُفَضَّلُ منهما من حَكَمَ له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يُقْبَلُ حكمُه لنفسه؟!

قيل: وهذا أيضًا دليلٌ علىٰ تفضيله وعلوِّ مرتبته وشرفه؛ فإنَّ الحاكمَ إنما لم يَسُغْ أن يحكمَ لنفسه لأجل مَظِنَّة التُّهمة، والعلمُ لا تلحقُه تهمةٌ في حكمه لنفسه؛ فإنه إذا حكمَ حكمَ بما تشهدُ العقولُ والفِطر[2] بصحَّته، وتتلقَّاه بالقبول.

ويستحيلُ حكمُه لتهمة؛ فإنه إذا حَكَمَ بها ٱنعزل عن مرتبته، وانحطَّ عن درجته، فهو الشاهدُ الـمُزكَّىٰ الـمُعَدَّل، والحاكمُ الذي لا يجورُ ولا يُعْزَل.

فإن قيل: فماذا حكمُه في هذه المسألة التي ذكرتموها؟

قيل: هذه المسألةُ كثُر فيها الجدال، واتسع المجال، وأدلىٰ كلٌّ منهما بحجَّته، واستعلىٰ بمرتبته، والذي يفصلُ النزاع، ويعيدُ المسألة إلىٰ مواقع الإجماع: الكلامُ في أنواع مراتب الكمال، وذِكْرُ الأفضل منها، والنظرُ في أيِّ هذين الأمرين أولىٰ به وأقرب إليه؛ فهذه الأصولُ الثلاثةُ تبيِّن الصواب، ويقعُ بها فصلُ الخطاب.

= القدير» (٦/ ٤٦٩، ٦٠٣)، و«إتحاف السادة المتقين» (١/ ١١١، ١١٩، ١٣٧).
ولشيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة قاعدةٌ مفردة. انظر: «أسماء مؤلفاته» لابن رُشَيِّق (٣٠٨ - الجامع لسيرة شيخ الإسلام).

(١) (ق، ت، ن): «فيه»، بالياء آخر الحروف.

(٢) (ت، ق): «والنظر».

فأمَّا مراتبُ الكمال فأربع: النبوَّة، والصِّدِّيقيَّـة، والشَّهادة، والوَلاية، وقد ذكرها الله سبحانه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

وذَكَر تعالىٰ هؤلاء الأربع في سورة الحديد؛ فذكر تعالىٰ الإيمانَ به وبرسوله، ثمَّ نَدَبَ المؤمنين إلىٰ أن تخشعَ قلوبُـهم لكتابه ووحيه، ثمَّ ذكر مراتبَ الخلائق شقيِّهم وسعيدهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٨ - ١٩]، وذَكَر المنافقين قبل ذلك؛ فاستوعبت هذه الآيةُ أقسامَ العباد شقيِّهم وسعيدهم، والمقصودُ أنه ذَكَر فيها المراتبَ الأربعة: الرسالة، والصِّدِّيقيَّـة، والشَّهادة، والوَلاية.

فأعلىٰ هذه المراتب: النبوَّةُ والرسالة.

ويليها: الصِّدِّيقيَّـة؛ فالصِّدِّيقون هم أئمَّـة أتباع الرسل، ودرجتُهم أعلىٰ الدرجات بعد النبوَّة(١).

فإن جرىٰ قلمُ العالِـم بالصدِّيقيَّـة وسال مدادُه بها كان أفضلَ من دم الشَّهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصِّدِّيقيَّـة، وإن سال دمُ الشَّهيد بالصِّدِّيقيَّـة وقَطَـرَ عليها كان أفضلَ من مداد العالِـم الذي قصَّرَ عنها، فأفضلُهما

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٧/ ٣٨٥)، و«جواب الاعتراضات المصرية» (٧٩)، و«طريق الهجرتين» (٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٢١، ٤/ ٢٧٥).

صِدِّيقُهما، فإن ٱستويا في الصِّدِّيقيَّة ٱستويا في المرتبة، والله أعلم.

والصِّدِّيقيَّة: هي كمالُ الإيمان بما جاء به الرسول، علمًا وتصديقًا وقيامًا به[1]؛ فهي راجعةٌ إلىٰ نفس العلم، فكلُّ من كان أعلمَ بما جاء به الرسولُ وأكملَ تصديقًا له كان أتمَّ صدِّيقيَّة؛ فالصِّدِّيقيَّةُ شجرةٌ أصولها العلم، وفروعُها التصديق، وثمرتها العمل.

فهذه كلماتٌ جامعةٌ في مسألة العالم والشهيد، وأيهما أفضل[2].

الوجه السابع والستون: أنَّ النصوصَ النبويَّة قد تواترت بأنَّ أفضلَ الأعمال إيمانٌ بالله[3]، فهو رأسُ الأمر، والأعمالُ بعده علىٰ مراتبها ومنازلها.

والإيمان له ركنان:

أحدُهما: معرفةُ ما جاء به الرسول، والعلمُ به.

والثاني: تصديقُه بالقول والعمل.

والتصديقُ بدون العلم والمعرفة مُحَال؛ فإنه فرعُ العلم بالشيء

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤١، ٢٢٦، ٤٤٣، ٢/ ١٤٨، ٢٧٠، ٢٧٣، ٣٩٧، ٣/ ٤٢١)، و«الوابل الصيب» (١٦٧)، و«جامع المسائل» (٤/ ٥٣).

(٢) نقل الزبيدي في «الإتحاف» (١/ ١٣٧) هذا المبحث كله دون عزو. وهكذا في مواضع أخرىٰ، كما أشرت إلى ذلك في المقدمة.

(٣) أخرج منها البخاري (٢٦، ٢٥١٨)، ومسلم (٨٣، ٨٤) حديثَي أبي هريرة وأبي ذر. وفي الباب عن جماعةٍ من الصحابة. انظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٥٩، ٣/ ٢٠٧، ٨/ ١٥١).

المُصَدَّق به، فإذًا العلمُ من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقومُ شجرةُ الإيمان إلا علىٰ ساق العلم والمعرفة، فالعلمُ إذًا أجلُّ المطالب وأسنىٰ المواهب.

الوجه الثامن والستون: أنَّ صفات الكمال كلَّها ترجعُ إلىٰ العلم والقدرة والإرادة، والإرادةُ فرعُ العلم؛ فإنها تستلزمُ الشعور بالمراد، فهي مفتقرةٌ إلىٰ العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرةُ لا تؤثِّرُ إلا بواسطة الإرادة، والعلمُ لا يفتقر في تعلُّقه بالمعلوم إلىٰ واحدةٍ منهما، وأما القدرة والإرادةُ فكلٌّ منهما يفتقرُ في تعلُّقه بالمراد والمقدور إلىٰ العلم، وذلك يدلُّ علىٰ فضيلته وشرف منزلته.

الوجه التاسع والستون: أنَّ العلمَ أعمُّ الصِّفات تعلُّقًا بمتعلَّقه وأوسعُها؛ فإنه يتعلَّقُ بالواجب والممكن، والمستحيل والجائز، والموجود والمعدوم، فذاتُ الربِّ سبحانه وصفاته وأسماؤه معلومةٌ له، ويعلمُ العبادُ من ذلك ما علَّمهم العليمُ الخبير.

وأما القدرةُ والإرادةُ، فكلٌّ منهما خاصٌّ في التعلُّق[1]؛ أما القدرةُ فإنما تتعلَّقُ بالممكن خاصَّة، لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخصُّ من العلم من هذا الوجه، وأعمُّ من الإرادة، فإنَّ الإرادة لا تتعلَّقُ إلا ببعض الممكنات، وهو ما أريدَ وجودُه.

فالعلمُ أوسعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاته ومتعلَّقه.

الوجه السبعون: أنَّ الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلَهم أئمَّةً

---

(١) (ت): «خاص من التعلق». (ح، ن): «خاص التعلق».

يَهْدُون بأمره، ويأتمُّ بهم من بعدهم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً[1] يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال في موضعٍ آخر: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: أئمَّةً يقتدي بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أنَّ بالصَّبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدين[2]، وهي أرفعُ مراتب الصِّدِّيقين. واليقينُ هو كمالُ العلم وغايتُه، فبتكميل مرتبة العلم تحصلُ إمامةُ الدين، وهي وَلايةٌ آلتُها العلم، يختصُّ الله بها من يشاء من عباده.

الوجه الحادي والسبعون: أنَّ حاجةَ العباد إلىٰ العلم ضروريَّةٌ فوق حاجة الجسم إلىٰ الغذاء؛ لأنَّ الجسمَ يحتاجُ إلىٰ الغذاء في اليوم مرةً أو مرتين، وحاجةُ الإنسان إلىٰ العلم بعدد الأنفاس؛ لأنَّ كلَّ نَفَسٍ من أنفاسه فهو محتاجٌ فيه إلىٰ أن يكون مصاحبًا للإيمان أو حُكْمِه[3]، فإن فارقه

---

(١) في الأصول: «وجعلناهم أئمة». وهي بعض آيةٍ من سورة الأنبياء: ٧٣، لكنَّ تتمَّتها غيرُ تتمة الآية التي ساقها المصنف.

(٢) هذه العبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية، والمصنفُ كثيرُ الاستشهاد بها في كتبه. انظر: «الرد الوافر» (١٢٦)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٤)، و«زاد المعاد» (٣/ ١٠)، و«الصواعق المرسلة» (١٠٧٣)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٥)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٧)، و«الداء والدواء» (٢٢١)، وغيرها.

(٣) حكم الإيمان. وذلك في المجنون والمغمىٰ عليه ونحوهما. وقد اختلف الفقهاء في المكره، هل يشترط أن يستحضر البقاء على الإيمان حال التلفظ بالكفر، أو يكفي آستصحاب الحكم؟ وجهان. انظر: «المنثور» للزركشي (١/ ١٨٨).

الإيمانُ أو حُكْمُه في نَفَسٍ من أنفاسه فقد عَطِبَ وقَـرُبَ هلاكُـه، ولـيس إلىٰ حـصول ذلـك سـبيلٌ إلا بـالعلم؛ فالحاجـةُ إليـه فـوق الحاجـة إلىٰ الطَّعـام والشراب.

وقد ذكر الإمامُ أحمد هذا المعنىٰ بعينه، فقال: «الناسُ أحـوجُ إلىٰ العلـم منهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرةً أو مرتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقت»(١).

الوجه الثاني والسبعون: أنَّ صاحبَ العلم أقلُّ تعبًا وعملًا، وأكثرُ أجرًا.

وٱعتبِرْ هـذا بالـشاهد؛ فـإنَّ الـصُّنَّاعَ والأُجَـراء يُعـانونَ الأعـمالَ الـشاقَّـةَ بأنفسهم، والأستاذُ المعلِّـمُ يجلسُ يـأمرُهم وينهاهُم ويُـرِيهم كيفيَّـة العمـل، ويأخذُ أضعافَ ما يأخذونه.

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ حيث قـال: «**أفـضلُ الأعـمال إيـمانٌ بالله، ثمَّ الجهاد**»(٢).

فالجهـادُ فيـه بـذلُ الـنفس وغايـةُ المـشقَّة، والإيـمانُ علـمُ القلـب وعملُـه وتـصديقُه، وهـو أفـضلُ الأعـمال، مـع أنَّ مـشقَّةَ الجهـاد فـوق مـشقَّته بأضـعافٍ مـضاعفة، وهـذا لأنَّ العلـمَ يُعَـرِّفُ مقـاديرَ الأعـمال ومراتبهـا، وفاضـلَها مـن مفضولها، وراجحَها من مرجوحها، فصاحبُه لا يختارُ لنفسه إلا أفـضلَ الأعـمال، والعاملُ بلا علم يظنُّ أنَّ الفضيلةَ في كثرة المشقة، فهو يتحمَّـلُ المشاقَّ وإن كـان ما يعانيه مفضولًا، ورُبَّ عملٍ فاضلٍ والمفضولُ أكثرُ مشقةً منه.

---

(١) انظر ما مضىٰ (ص: ١٦٤).

(٢) تقدم تـخريجه قريبًا.

وٱعتبِرْ هذا بحال الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ فإنه أفضلُ الأمَّة، ومعلومٌ أنَّ فيهم من هو أكثرُ عملًا وحجًّا وصومًا وصلاةً وقراءةً منه، قال أبو بكر بن عياش: «ما سَبقهم أبو بكرٍ بكثرة صومٍ ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وَقَرَ في قلبه»[1].

وهذا موضعُ المثل المشهور[2]:

مَــنْ لي بمثــل سَــيْرِكَ الــمُدَلَّلِ ... تمشي رُوَيْدًا[3] وتجي في الأولِ

الوجه الثالث والسبعون: أنَّ العلمَ إمامُ العمل وقائدٌ له، والعملُ تابعٌ له ومؤتمٌّ به، فكلُّ عملٍ لا يكونُ خَلْفَ العلم مقتديًا به فهو غيرُ نافعٍ لصاحبه، بل مضرَّةٌ عليه، كما قال بعضُ السَّلف: «من عبد الله بغير علمٍ كان ما يُفْسِدُ

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ق: ٤١/ ب)، و«الصلاة» (٨٠) من قول بكر بن عبد الله المزني بإسنادٍ صحيح.
ولم أقف عليه من قول أبي بكر بن عياش.
ورفعه بعضهم، ولا أصل له، وذكره المصنفُ فيما وَضَعَتْهُ جهلةُ المنتسبين إلىٰ السُّنَّة في فضائل الصِّدِّيق رضي الله عنه. انظر: «المنار المنيف» (٩٢)، و«المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٢٣).

(٢) أنشده ابن تيمية، في «مشيخة اليونيني». انظر: «الرد الوافر» (١٥٣)، و«المنهل الصافي» (١/ ٥٢). وهو في «مدارج السالكين» (٣/ ٧، ١٤٤)، و«طريق الهجرتين» (٥٠٤)، و«لطائف المعارف» لابن رجب (٤٣٢، ٤٤٩).
وفي مثلٍ مشهورٍ يُضْرَبُ للرجل يدرك حاجته في تؤدة ودعة:
* يمشي رويدًا ويكون أوَّلا *
انظر: «المعاني الكبير» (١/ ٧٦)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٢٥٣).

(٣) (ح، ن): «الهوينا».

أكثرَ مما يُصْلِح»[1].

والأعمالُ إنما تتفاوتُ في القبول والردِّ بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعملُ الموافقُ للعلم هو المقبول، والمخالفُ له هو المردود؛ فالعلمُ هو الميزانُ وهو المِحَكُّ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؛ قال الفضيل بن عياض: «هو أخلصُ العمل وأصوبُه»، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، فالخالصُ أن يكون لله، والصَّوابُ أن يكون علىٰ السُّنَّة»[2].

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العملُ المقبولُ الذي لا يقبلُ الله من الأعمال سواه؛ وهو أن يكون موافقًا لسنَّة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجهُ الله.

ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيان بعملٍ يجمعُ هذين الوصفين إلا بالعلم؛

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٠١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٧٠)، والدارمي (٣٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣١)، وغيرهم من طرقٍ عن عمر بن عبد العزيز.
وسيأتي من قول الحسن البصري.
وروي مرفوعًا في حديثٍ لا يصح، أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٠ - زوائده)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٢)، - ومن طريقه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٣٥٦) -، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسولُ لم يمكنه قصدُه، وإن لم يعرف معبودَه لم يمكنه إرادتُه وحده، فلولا العلمُ لما كان عملُه مقبولًا؛ فالعلمُ هو الدليلُ علىٰ الإخلاص، وهو الدليلُ علىٰ المتابعة.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وأحسنُ ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبلُ عملَ من ٱتّقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه، علىٰ موافقة أمره[١]. وهذا إنما يحصلُ بالعلم.

وإذا كان هذا منزلَ العلم[٢] وموقعَه عُلِمَ أنه أشرفُ شيءٍ وأجلُّه وأفضلُه، والله أعلم.

الوجه الرابع والسبعون: أنَّ العاملَ بلا علم كالسائر بلا دليل، ومعلومٌ أنَّ عَطَبَ مثل هذا أقربُ من سلامته، وإن قُدِّرَ سلامتُه ٱتفاقًا نادرًا فهو غير محمود، بل مذمومٌ عند العقلاء.

وكان شيخُ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليلَ ضلَّ السبيل، ولا دليلَ إلا ما جاء به الرسول»[٣].

قال الحسن: «العاملُ علىٰ غير علمٍ كالسالك علىٰ غير طريق، والعاملُ علىٰ غير علمٍ يُفْسِدُ أكثرَ مما يُصْلِح، فاطلبوا العلمَ طلبًا لا تُضِرُّوا بالعبادة،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٣٢٢، ١١/ ٦٦٢، ١٢/ ٤٨٣)، و«جامع الرسائل» (١/ ٢٥٧)، و«منهاج السنة» (٥/ ٢٩٦، ٦/ ٢١٦).

(٢) (د، ق، ن): «منزلة العلم».

(٣) بنحوه في «الفتاوىٰ» (٦/ ٣٨٨، ١٣/ ١٣٦)، و«درء التعارض» (٧/ ٣٢٩). وانظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٩)، وعنه الفيروزابادي في «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٩٠) دون عزو.

واطلبوا العبادةَ طلبًا لا تُضِرُّوا بالعلم؛ فإنَّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتىٰ خرجوا بأسيافهم علىٰ أمَّة محمَّد ﷺ، ولو طلبوا العلمَ لم يدلَّهم علىٰ ما فعلوا»[1].

والفرقُ بين هذا الوجه وبين ما قبله: أنَّ العلمَ مرتبتُه في الوجه الأول مرتبةُ المطاع المتبوع المقتدىٰ به المتَّبع حكمُه المطاع أمرُه، ومرتبتُه في هذا الوجه مرتبةُ الدليل المرشد إلىٰ المطلوب الموصل إلىٰ الغاية.

الوجه الخامس والسبعون: أنَّ النبيَّ ﷺ ثبت في «الصحيح» عنه أنه كان يقول: «**اللهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشَّهادة، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، ٱهدني لما ٱختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم**»[2].

وفي بعض «السنن» أنه كان يكبِّر تكبيرةَ الإحرام في صلاة الليل، ثمَّ يدعو بهذا الدعاء[3].

والهدايةُ هي العلمُ بالحقِّ مع قصده وإيثاره علىٰ غيره، فالمهتدي هو العالِمُ بالحقِّ المريدُ له، وهي أعظمُ نعمةٍ لله علىٰ العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هدايةَ الصِّراط المستقيم كلَّ يومٍ وليلةٍ في صلواتنا الخمس؛ فإنَّ

---

(١) علَّقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٥٤٥)، وروىٰ بعضه ابنُ أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٤٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٧٠)، بلفظ: «كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل...».

(٣) أخرجه أبو داود (٧٦٤). وهو مقتضىٰ رواية مسلم.

العبدَ محتاجٌ إلىٰ معرفة الحقِّ الذي يرضي اللهَ في كلِّ حركةٍ ظاهرةٍ وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاجٌ إلىٰ من يُلْهِمُه قصدَ الحقِّ فيجعلُ إرادتَه في قلبه، ثمَّ إلىٰ من يُقْدِرُه علىٰ فعله.

ومعلومٌ أنَّ ما يجهلُه العبدُ أضعافُ أضعاف ما يعلمُه، وأنَّ كلَّ ما يعلمُه أنه حقٌّ لا تطاوعُه نفسُه علىٰ إرادته، ولو أراده[1] لعجز عن كثيرٍ منه؛ فهو مضطرٌّ كلَّ وقتٍ إلىٰ هدايةٍ تتعلَّقُ بالماضي وبالحال وبالمستقبل.

أما الماضي، فهو محتاجٌ إلىٰ محاسبة نفسه عليه، وهل وقع علىٰ السَّداد فيشكر الله عليه ويستديمُه، أم خرج فيه عن الحقِّ فيتوبَ إلىٰ الله تعالىٰ منه ويستغفره، ويعزمَ علىٰ أن لا يعود؟

وأما الهدايةُ في الحال، فهي مطلوبةٌ منه[2]؛ فإنه ٱبنُ وقته، فيحتاجُ أن يعلمَ حكمَ ما هو متلبِّسٌ به من الأفعال، هل هو صوابٌ أم خطأ؟

وأما المستقبل، فحاجتُه فيه إلىٰ الهداية أظهر؛ ليكونَ سيرُه علىٰ الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية عُلِمَ أنَّ العبدَ أشدُّ شيءٍ ٱضطرارًا إليها، وأنَّ ما يوردُه بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو أنَّا إذا كنَّا مهتدين فأيُّ حاجةٍ بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلا تحصيلُ الحاصل؟!= أفسدُ سؤالٍ وأبعدُه عن الصواب، وهو دليلٌ علىٰ أنَّ صاحبه لم يحصِّل معنىٰ الهداية، ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسمَّاها؛ فلذلك تكلَّفَ من تكلَّفَ الجوابَ عنه بأنَّ

---

(١) (ح): «ولولا إرادته». تحريف. (ن): «ولو أرادته».

(٢) (ن، ح): «المطلوبة منه».

المعنىٰ: ثَبِّتنا علىٰ الهداية وأدِمْها لنا[1].

ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية، وحاجة العبد إليها، عَلِمَ أنَّ الذي لم يحصُل له منها أضعافُ ما حصَل له، وأنه كلَّ وقتٍ محتاجٌ إلىٰ هداية متجدِّدة، لا سيَّما والله تعالىٰ خالقُ أفعال القلوب والجوارح، فهو كلَّ وقتٍ محتاجٌ إلىٰ أن يخلقَ الله له هدايةً خاصَّة، ثمَّ إن لم تُصْرَف عنه الموانعُ والصوارفُ التي تمنعُ مُوجَبَ الهداية وتَصْرِفُها لم ينتفع بالهداية، ولم يتمَّ مقصودُها له؛ فإنَّ الحكمَ لا يكفي فيه وجودُ مقتضيه، بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومُنافيه.

ومعلومٌ أنَّ وساوس العبد وخواطرَه وشهوات الغيِّ في قلبه كلٌّ منها مانعٌ من وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدًى تامًّا؛ فحاجتُه إلىٰ هداية الله له مقرونةٌ بأنفاسه، وهي أعظمُ حاجةٍ للعبد.

وذكَر النبيُّ ﷺ في هذا الدعاء العظيم القَدْر من أوصاف الله وربوبيَّته ما

---

(١) ذكر هذا المعنىٰ جماعةٌ من المفسرين وشُرَّاح الحديث. انظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٧)، و«شرح مسلم» للنووي (٦/ ٥٧)، وغيرها. وقد يصحُّ هذا فيمن حصل له الهدىٰ التامُّ المتضمِّنُ لأمورٍ سبعةٍ ذكرها المصنِّف في «بدائع الفوائد» (٤٤٩).
وانظر: «الصلاة وحكم تاركها» (٢٠٥)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٠٦)، و«جامع الرسائل» (١/ ٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٢).
وغلا بعض الحنفية في ذلك، فأنكر أن يقول العاطسُ لمن شمَّته من المسلمين: «يهديكم الله»، وزعم أن النبي ﷺ إنما قاله لمن كان بحضرته من اليهود! وردَّ عليهم ذلك الطحاويُّ وغيره. انظر: «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٠١)، و«شرح مشكل الآثار» (١٠/ ١٧٤)، و«جامع العلوم والحكم» (٤٢٦).

يناسبُ المطلوب:

* فـإنَّ فَطْـرَ الـسموات والأرض توسُّـلٌ إلىٰ الله بهـذا الوصـف في الهدايـة[1] للفطـرة التـي ٱبتـدأ الخلـقَ عليهـا؛ فـذَكَر كونَـه فـاطرَ الـسموات والأرض.

* والمطلوبُ تعليمُ الحقِّ والتوفيـقُ لـه؛ فـذَكَر علمَـه سبحانه بالغيب والشهادة، وأنَّ مـن هـو بكـلِّ شيءٍ عليمٌ جديرٌ أن يطلـبَ منه عبـدُه أن يعلِّمه ويرشده ويهديه، وهو بمنزلة التوسُّـل إلىٰ الغنـيِّ بغِنـاه وسـعة كرمـه أن يعطـيَ عبدَه شيئًا من ماله، والتوسُّل إلىٰ الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده، وبعفـوه أن يعفو عنه، وبرحمته أن يرحمَه، ونظائرُ ذلك.

* وذَكَر ربوبيَّته تعالىٰ لجبريل وميكائيل وإسرافيل، وهذا ـ والله أعلم ـ لأنَّ المطلوب هـدًى يحيـا بـه القلـب، وهـؤلاء الثلاثـةُ الأمـلاكُ قـد جعـلَ الله تعالىٰ علىٰ أيديهم أسبابَ حياة العباد:

أمَّا جبريل، فهو صاحبُ الوحي الذي يوحيه الله إلىٰ الأنبياء، وهـو سببُ حياة الدنيا والآخرة.

وأمَّا ميكائيل، فهو الموكَّل بالقَطْر الذي به سببُ حياة كلِّ شيء.

وأمَّا إسرافيل، فهو الذي ينفخُ في الصُّور فيحيي الله الموتىٰ بنفخته، فإذا هم قيامٌ لربِّ العالمين[2].

---

(١) (ق): «للهداية».

(٢) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٤٣).

والهدايةُ لها أربعُ مراتب، وهي مذكورةٌ في القرآن[1]:

المرتبة الأولىٰ: الهداية العامَّة؛ وهي هدايةُ كلِّ مخلوقٍ من الحيوان والآدميِّ لمصالحه التي بها قيامُ أمره.

قال الله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١ - ٣]؛ فذكر أمورًا أربعة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية، فسوَّىٰ ما خلقه وأتقنه وأحكمه، ثمَّ قدَّر له أسبابَ مصالحه في معاشه وتقلُّباته وتصرُّفاته، وهداه إليها، والهدايةُ تعليمٌ؛ فذَكَر أنه الذي خلقَ وعلَّم، كما ذَكَر نظيرَ ذلك في أول سورةٍ أنزلها علىٰ رسوله، وقد تقدَّم ذلك[2].

وقال تعالىٰ حكايةً عن عدوِّه فرعون أنه قال لموسىٰ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠].

وهذه المرتبةُ أسبقُ مراتب الهداية وأعمُّها.

المرتبة الثانية: هدايةُ البيان والدَّلالة التي أقامَ بها حجَّتَه علىٰ عباده. وهذه لا تستلزمُ الاهتداءَ التام.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، يعني: بيَّنَّا لهم ودلَّلْناهم وعرَّفناهم، فآثروا الضلالةَ والعمىٰ.

---

(١) انظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (٢٥٦)، وللدامغاني (٤٧٣)، ولابن الجوزي (٦٢٦)، و«تأويل مشكل القرآن» (٤٤٣)، و«المفردات» (هدى)، و«بصائر ذوي التمييز» (٥/ ٣١٢)، و«شفاء العليل» (٢٢٩)، و«البدائع» (٤٤٥).

(٢) (ص: ١٥٧).

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه المرتبةُ أخصُّ من **الأولىٰ**، وأعمُّ من **الثالثة**، وهي هدىٰ التوفيق والإلهام؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فعَمَّ بالدعوة خلقَه، وخَصَّ بالهداية من شاء منهم.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فأثبتَ هدايةَ الدعوة والبيان، ونفىٰ هدايةَ التوفيق والإلهام.

وقال النبيُّ ﷺ في تشهُّد الحاجة: «**من يهد اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، أي: من يضلُّه اللهُ لا يهتدي أبدًا.

وهذه **الهدايةُ الثالثةُ** هي الهدايةُ الموجبةُ المستلزمةُ للاهتداء، وأما الثانية فشرطٌ لا مُوجِب، فلا يستحيلُ تخلُّفُ الهدىٰ عنها، بخلاف الثالثة فإنَّ تخلُّفَ الهدىٰ عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهدايةُ في الآخرة إلىٰ طريق الجنة والنار.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧، ٨٦٨) من حديث جابر وابن عباس.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣].

وأمَّا قولُ أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فيحتملُ أن يكونوا أرادوا الهدايةَ إلىٰ طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهدايةَ في الدنيا التي أوصلتهم إلىٰ دار النعيم. ولو قيل: إنَّ كلا الأمرين مرادٌ لهم، وأنهم حمدوا اللهَ علىٰ هدايته لهم في الدنيا، وهدايتهم إلىٰ طريق الجنة؛ كان أحسنَ وأبلغ.

وقد ضربَ الله تعالىٰ لمن لم يحصُل له العلمُ بالحقِّ واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله؛ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

الوجه السادس والسبعون: أنَّ فضيلةَ الشيء وشرفه يظهرُ تارةً من عموم منفعته، وتارةً من شدَّة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وتارةً من ظهور النقص والشرِّ بفَقْدِه، وتارةً من حصول اللذَّة والسرور والبهجة بوجوده ـ لكونه محبوبًا ملائمًا، فإدراكُه يُعْقِبُ غايةَ اللذَّة ـ، وتارةً من كمال الثمرة المترتِّبة عليه، وشرف علَّته الغائيَّة(١)، وإفضائه إلىٰ أجلِّ المطالب.

وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهرُ من متعلَّقه؛ فإذا كان في نفسه كمالًا وشرفًا ـ بقطع النظر عن متعلَّقاته ـ جمعَ جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلَّقه.

---

(١) وهي ما يوجدُ الشيءُ لأجله. «التعريفات» (١٥٥).

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهات بأسرها حاصلةٌ للعلم؛ فإنه أعمُّ شيءٍ نفعًا، وأكثره وأدومُه، والحاجةُ إليه فوق الحاجة إلىٰ الغذاء، بل فوق الحاجة إلىٰ التنفُّس؛ إذ غايةُ ما يُتَصوَّرُ من فقدهما فقدُ حياة الجسم، وأما فقدُ العلم ففيه فقدُ حياة القلب والروح؛ فلا غَناءَ للعبد عنه طرفةَ عين، ولهذا إذا فُقِدَ من الشخص كان شرًّا من الحمير، بل كان شرَّ الدوابِّ[1] عند الله، ولا شيء أنقصُ منه حينئذ.

وأما حصولُ اللذَّة والبهجة بوجوده؛ فلأنه كمالٌ في نفسه، وهو ملائمٌ غايةَ الملاءمة للنفوس؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ ونقص، وهو في غاية الإيذاء والإيلام للنفس، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفَقْدِ حسِّه وموت نفسه، و«ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ»[2].

فحصولُه للنفس إدراكٌ منها لغاية محبوبها، واتصالٌ به، وذلك في غاية لذَّتها وفرحتها، وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذَّتها بقربه، والعلومُ والمعلوماتُ متفاوتةٌ في ذلك أعظمَ التفاوت وأبينَه، فليس علمُ النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبَّته والتقرُّب إليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحَّتها وفسادها وحركاتها.

وهذا يتبيَّن **بالوجه السابع والسبعين**: وهو أنَّ شرفَ العلم تابعٌ لشرف معلومه، ولوثوق النفس بأدلَّة وجوده وبراهينه، ولشدَّة الحاجة إلىٰ معرفته، وعِظَم النفع بها.

---

(١) (د، ت، ق): «شرا من الدواب».

(٢) عجزُ بيتٍ للمتنبي، في «ديوانه» (١٤٩)، وصدرُه:

* من يهن يسهل الهوانُ عليه *

ولا ريب أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظمَه وأكبَره فهو الله الذي لا إله إلا هو، ربُّ العالمين، وقيومُ السموات والأرضين، الملكُ الحقُّ المبين، الموصوفُ بالكمال كلِّه، المنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقص، وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كماله.

ولا ريب أنَّ العلمَ به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلوم وأفضلُها، ونسبتُه إلىٰ سائر العلوم كنسبة معلومه إلىٰ سائر المعلومات، وكما أنَّ العلمَ به أجلُّ العلوم وأشرفُها فهو أصلُها كلِّها، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مستندٌ في وجوده إلىٰ الملك الحقِّ المبين ومفتقرٌ إليه في تحقُّق ذاته وإنِّيَّته[1]، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلم به مفتقرٌ في تحقيق ذاته إليه؛ فالعلمُ به أصلُ كلِّ علم، كما أنه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه ومُوجِدُه.

ولا ريب أنَّ كمال العلم بالسبب التامِّ وكونَه سببًا يستلزمُ العلمَ بمسبِّبه كما أنَّ العلمَ بالعلة التامَّة ومعرفةَ كونها علَّةً يستلزمُ العلم بالمعلول[2]، وكلُّ موجودٍ سوىٰ الله فهو مستندٌ في وجوده إليه ٱستنادَ المصنوع إلىٰ صانعه، والمفعول إلىٰ فاعله؛ فالعلمُ بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاته ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، والعلمُ به أصلُ كلِّ علم ومنشؤه؛ فمن عرفَ اللهَ عرفَ ما سواه، ومن جهلَ ربَّه فهو لما سواهُ أجهل.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فتأمَّل هذه الآية تجد تحتها معنًى شريفًا عظيمًا: أنَّ من نسيَ ربَّه أنساه ذاتَه

---

(١) مهملة في (د، ق). (ت): «وأبنيته». والإنِّـيَّة: ٱصطلاحٌ فلسفيٌّ قديم، يعني تحقُّق الوجود العَينيِّ من حيث مرتبته الذاتية. «التعريفات» (٣٨)، و«الكليات» (١٩٠)، و«المعجم الفلسفي» (١/ ١٦٩).

(٢) (ق): «بمعلوله». (ح): «بالمعلوم».

ونفسَه، فلم يعرف حقيقتَه ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحُه وفلاحُه في معاشه ومعاده، فصار معطَّلًا مهملًا بمنزلة الأنعام السائمة، بل ربما كانت الأنعامُ أخبَر بمصالحها منه؛ لبقائها علىٰ هداها التامِّ الذي أعطاها إياه خالقُها، وأمَّا هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها، فنسي ربَّه، فأنساه نفسَه وصفاتها، وما تكمُل به وتزكو به وتسعدُ به في معاشها ومعادها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فغفَل عن ذكر ربِّه، فانفرط عليه أمرُه وقلبُه، فلا ٱلتفات له إلىٰ مصالحه وكماله وما تزكو به نفسُه وقلبُه، بل هو مشتَّتُ القلب مُضيَّعُه، منفرطُ الأمر حيرانُ لا يهتدي سبيلًا[1].

والمقصودُ أنَّ العلمَ بالله أصلُ كلِّ علم، وهو أصلُ علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهلُ به مستلزمٌ للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلحُ به، فالعلمُ به سعادةُ العبد، والجهلُ به أصلُ شقاوته.

ويزيده إيضاحًا:

الوجه الثامنُ والسبعون: أنه لا شيء أطيبُ للعبد ولا ألذُّ ولا أهنأُ ولا أنعمُ لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه، ودوام ذكره، والسعي في مرضاته.

وهذا هو الكمالُ الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خُلِقَ الخلق، ولأجله أُنزِل الوحي، وأُرسِلَت الرسل، وقامت السمواتُ والأرض، ووُجِدَت الجنةُ والنار، ولأجله شُرِعَت الشرائع، ووُضِعَ البيتُ الحرام، ووجبَ حجُّه علىٰ

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (٩٣، ١٠٤، ١٠٥).

الناس؛ إقامةً لذكره الذي هو من توابع محبته والرضا به وعنه، ولأجل هذا أُمِرَ بالجهاد وضَرْب أعناق من أباه وآثَرَ غيرَه عليه، وجُعِل له في الآخرة دارُ الهوان خالدًا مخلَّدًا، وعلىٰ هذا الأمر العظيم أُسِّسَت الملَّة، ونُصِبَت القبلة، وهو قطبُ رحىٰ الخلق والأمر الذي مدارُهما عليه.

ولا سبيل إلىٰ الدخول إلىٰ ذلك إلا من باب العلم؛ فإنَّ محبةَ الشيء فرعٌ علىٰ الشُّعور به، وأعرفُ الخلق بالله أشدُّهم حبًّا له، فكلُّ من عرفَ اللهَ أحبَّه، ومن عرفَ الدنيا وأهلها زَهِدَ فيهم.

فالعلمُ يفتحُ هذا البابَ العظيم الذي هو سرُّ الخلق والأمر، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه التاسع والسبعون: أنَّ اللذَّة بالمحبوب تَضْعُفُ وتقوىٰ بحسب قوَّة الحبِّ وضعفه، فكلما كان الحبُّ أقوىٰ كانت اللذَّةُ أعظم، ولهذا تَعْظُمُ لذَّةُ الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدَّة طلبه للماء، وكذلك الجائع، وكذلك من أحبَّ شيئًا كانت لذَّتُه علىٰ قدر حبِّه إياه، والحبُّ تابعٌ للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن، فلذةُ النظر إلىٰ الله بعد لقائه بحسب قوَّة حبِّه وإرادته، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله.

فإذًا العلمُ هو أقربُ الطرق إلىٰ أعظم اللذَّات. وسيأتي تقريرُ هذا فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

الوجه الثمانون: أنَّ كلَّ ما سوىٰ الله مفتقرٌ إلىٰ العلم لا قِوامَ له بدونه؛ فإنَّ الوجودَ وجودان: وجودُ الخلق، ووجودُ الأمر.

والخلقُ والأمرُ مصدرُهما علمُ الربِّ وحكمتُه، فكلُّ ما ضمَّه الوجودُ من خلقه وأمره صادرٌ عن علمه وحكمته، فما قامت السمواتُ والأرضُ وما

بينهما إلا بالعلم، ولا بُعِثَت الرسلُ وأُنزِلت الكتبُ إلا بالعلم، ولا عبد اللهُ وَوُحِّدَ[1] وحُمِدَ وأُثنِيَ عليه ومُجِّدَ إلا بالعلم، ولا عُرِفَ الحلالُ من الحرام إلا بالعلم، ولا عُرِفَ فضلُ الإسلام علىٰ غيره إلا بالعلم.

واختُلِفَ هنا في مسألة؛ وهي أنَّ العلمَ صفةٌ فعليةٌ أو ٱنفعالية؟[2]

فقالت طائفة: هو صفةٌ فعلية؛ لأنه شرطٌ أو جزءُ سببٍ في وجود المفعول؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يستدعي حياةَ الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته، ولا يُتَصَوَّرُ وجودُه بدون هذه الصِّفات.

وقالت طائفة: هو ٱنفعالي؛ فإنه تابعٌ للمعلوم، متعلِّقٌ به علىٰ ما هو عليه؛ فإنَّ العالِمَ يدركُ المعلومَ علىٰ ما هو به، فإدراكُه تابعٌ له، فكيف يكونُ[3] متقدِّمًا عليه؟!

والصوابُ أنَّ العلمَ قسمان:

* علمٌ فعليٌّ، وهو علمُ الفاعل المختار بما يريدُ أن يفعلَه، فإنه موقوفٌ علىٰ إرادته الموقوفة علىٰ تصوُّره المرادَ وعلمه به. فهذا علمٌ قبل الفعل، متقدِّمٌ عليه، مؤثِّرٌ فيه.

* وعلمٌ ٱنفعاليٌّ، وهو العلمُ التابعُ للمعلوم، الذي لا تأثيرَ له فيه؛ كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات؛ فإنَّ هذا العلمَ لا

---

(١) (ت، د، ق): «عبد الله وحده».

(٢) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ١٨٣)، و«الهوامل والشوامل» (١٣٧)، و«الكليات» (٦١٦).

(٣) (د، ت، ق): «فيكون».

يؤثِّرُ في المعلوم، ولا هو شرطٌ فيه.

فكلٌّ من الطائفتين نظرَت جزئيًّا وحكمَت كليًّا، وهذا موضعٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من الناس، وكلا القسمين من العلم صفةُ كمال، وعدمُه من أعظم النقص.

يوضحُه:

الوجه الحادي والثمانون: أنَّ فضيلةَ الشيء تُعْرَفُ بضدِّه.

* فالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ *(1)

* وبضدِّهـــا تتبيَّنُ الأشياءُ *(2)

ولا ريب أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فساد، وكلُّ ضررٍ يلحقُ العبدَ في دنياه وأخراه فهو نتيجةُ الجهل، وإلا فمع العلم التامِّ بأنَّ هذا الطعام ـ مثلًا ـ مسمومٌ مَنْ أكلَه قطَّعَ أمعاءه في وقتٍ معيَّن، لا يُقْدِمُ علىٰ أكله، وإن قُدِّرَ أنه أقدمَ عليه لغلبة جوعٍ أو ٱستعجال وفاةٍ فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده

---

(1) عجزُ بيتٍ، صدرُه:

* ضِدَّان لما استجمعا حَسُنَا *

من القصيدة الفائقة المشهورة بـ «اليتيمة». وفي نسبتها تنازعٌ وخلافٌ كثير، وغَلَبَ عليها شاعران: أبو الشِّيص الخزاعي، وهي في ديوانه (١٣٦)، وعلي بن جبلة العكوَّك، وهي في شِعره المجموع (١١٦). ونُشِرَت مفردة.

وانظر: «فهرسة ابن خير» (٤٠١)، و«بحوث وتحقيقات» للميمني (١/ ٤٥٥)، و«القصيدة اليتيمة» للمنجد.

(2) عجزُ بيتٍ للمتنبي في ديوانه (١١٧). وصدرُه:

* ونَذِيمهم وبهم عرفنا فضله *

الذي هو أحبُّ إليه من العذاب بالجوع أو بغيره.

وهنا ٱختُلِفَ في مسألةٍ عظيمة؛ وهي أنَّ العلمَ هل يستلزمُ الاهتداء، ولا يتخلَّف عنه الهدىٰ إلا لعدم العلم أو نقصه، وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يُتَصَوَّر الضلال؟ أو أنه لا يستلزمُ الهدىٰ، فقد يكونُ الرجلُ عالمًا وهو ضالٌّ علىٰ عَمْد؟

هذا مما ٱختلف فيه المتكلِّمون وأربابُ السلوك وغيرهم.

* **فقالت فرقة**: من عرفَ الحقَّ معرفةً لا يشُكُّ فيها ٱستحالَ أن لا يهتدي، وحيث ضلَّ فلنقصان علمه.

واحتجُّوا من النصوص بقوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، فشهدَ تعالىٰ لكلِّ راسخٍ في العلم بالإيمان، وبقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وبقوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، قسمَ الناس قسمين:

أحدهما: العلماءُ بأن ما أُنزِلَ إليه من ربِّه هو الحق.

الثَّاني: العُمْي.

فدلَّ علىٰ أنه لا واسطةَ بينهما.

وبقوله تعالىٰ في وصف الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وبقوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وبقوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. وهذه مداركُ العلم الثلاثُ قد سُدَّت عليهم[1].

وكذلك قولُه تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال سعيد بن جبير: «علىٰ عِلْمِه تعالىٰ فيه»[2]. قال الزجاج[3]: «أي: علىٰ ما سبقَ في علمه تعالىٰ أنه ضالٌّ قبل أن يخلقه». ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ أي: طبعَ عليه فلم يسمع الهدىٰ، وعلىٰ قلبه فلم يعقل الهدىٰ، و﴿عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فهو لا يبصرُ أسبابَ الهدىٰ.

وهذا في القرآن كثير، مما يبيِّنُ فيه منافاةُ الضلال للعلم، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، فلو كانوا علموا ما قال الرسولُ ﷺ لم يسألوا أهلَ العلم ماذا قال، ولما كان مطبوعًا

---

(١) (ح، ن): «قد فسدت عليهم».

(٢) أخرج اللالكائي في «السنة» (١٠٠٣)، وابن بطة في «الإبانة» (١٦٢٢ - القدر)، والطبري في «التفسير» (٢٢/ ٧٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣٠٩) نحوه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) في «معاني القرآن» (٤/ ٤٣٣).

علىٰ قلوبهم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨]؛ فهذه شهادةٌ من الله تعالىٰ لأولي العلم بالإيمان به وبكلامه.

وقال الله تعالىٰ عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ فدلَّ علىٰ أنَّ أهل الضلال(١) لا سمعَ لهم ولا عقل.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ أخبر تعالىٰ أنه لا يَعْقِلُ أمثالَه إلا العالِـمون، والكفارُ لا يدخلون في مسمَّىٰ العالِـمين؛ فهم لا يعقلونها.

وقال الله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزُّمر: ٩]، ولو كان الضلالُ يُجامِعُ العلمَ لكان الذين لا يعلمون أحسنَ حالًا من بعض الذين يعلمون، والنصُّ بخلافه.

والقرآنُ مملوءٌ بسلب العلم والمعرفة عن الكفار؛ فتارةً يصفهم بأنهم لا يعلمون، وتارةً بأنهم لا يعقلون، وتارةً بأنهم لا يشعرون، وتارةً بأنهم لا يفقهون، وتارةً بأنهم لا يسمعون، ــ والمرادُ بالسمع المنفيِّ: سمعُ الفهم،

---

(١) (ح، ن): «أصحاب الضلال».

وهو سمعُ القلب، لا إدراكُ الصوت ــ، وتارةً بأنهم لا يبصرون؛ فدلَّ ذلك كلُّه علىٰ أنَّ الكفر مستلزمٌ للجهل، منافٍ للعلم لا يُجامِعه.

ولهذا يصفُ اللهُ سبحانه الكفارَ بأنهم جاهلون؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال النبيُّ ﷺ لـمَّا بلغ قومُه من أذاه ذلك المبلغ: «**اللهمَّ اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون**»(١).

وفي «الصحيحين» عنه: «**من يُرِد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين**»(٢)؛ فدلَّ علىٰ أنَّ الفقهَ مستلزمٌ لإرادة الله الخيرَ في العبد، ولا يقال: الحديثُ دلَّ علىٰ أنَّ من أراد الله به خيرًا فقَّهه في الدين، ولا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ من فقَّهه في الدين فقد أراد به خيرًا، وبينهما فرق، ودليلُكم إنما يتمُّ بالتقدير الثاني، والحديثُ لا يقتضيه= لأنَّا نقول: النبيُّ ﷺ جعل الفقهَ في الدين دليلًا وعلامةً علىٰ إرادة الله بصاحبه خيرًا، والدليلُ يستلزمُ المدلول ولا يتخلَّفُ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٤/ ١٢٣)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٣٨)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٢٠)، وغيرهم من حديث سهل بن سعد بإسنادٍ حسن.
وصححه ابن حبان (٩٧٣). وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١١٧): «ورجاله رجال الصحيح».
(٢) «البخاري» (٧١)، و«مسلم» (١٠٣٧) عن معاوية.

عنه؛ فإنَّ المدلولَ لازمُه، ووجودُ الملزوم بدون لازمه محال[1].

وفي الترمذي وغيره عنه ﷺ: «**خصلتان لا يجتمعان في منافق: حُسْنُ سَمْت، وفقهٌ في الدين**»[2]؛ فجعلَ الفقه في الدين منافيًا للنفاق.

بل لم يكن السَّلفُ يطلقون ٱسمَ الفقه إلا علىٰ العلم الذي يصحبُه العمل؛ كما سئل سعدُ بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة فقال: أتقاهم[3].

وسأل فرقدُ السَّبَخي الحسنَ البصريَّ عن شيءٍ، فأجابه، فقال: إنَّ الفقهاءَ يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمُّك فُرَيْقِد!، وهل رأيتَ بعينيك فقيهًا؟! إنما الفقيهُ الزاهدُ الراغبُ في الآخرة، البصيرُ بدينه، المداومُ علىٰ عبادة ربِّه، الذي لا يهمِزُ مَنْ فوقه، ولا يسخرُ ممَّن دونه، ولا يبتغي علىٰ علمٍ علَّمه الله تعالىٰ أجرًا[4].

---

(١) في طرَّة (ح) في هذا الموضع: «[وقع في] كلامه علىٰ الحديث خللٌ أظنُّه من الكاتب؛ [فإنَّ] منطوق الحديث يدل علىٰ أن من أراد الله به خيرًا فقَّهه في الدين، ومفهومُه يدل علىٰ أن من لم يفقهه في الدين لم يرد الله به خيرًا. ولا يدل الحديث [علىٰ] أن كل من فقه في الدين قد أريد به خيرًا. والله أعلم». خطه.
قلت: كلامُ المصنف ظاهر، ولم يزد كاتبُ الحاشية علىٰ أن أعاد الاعتراض الذي أجاب عنه المصنف.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٠٦).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٦٩)، وغيرهما.

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٩٨)، والدارمي (٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٧، ٦/ ١٧٨)، والبيهقي في «المدخل» (٥٠٤)، والآجري في «أخلاق العلماء» (٧٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤١)، وغيرهم. =

وقال بعضُ السَّلف: «إنَّ الفقيهَ من لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يَدَع القرآن رغبةً عنه إلىٰ ما سواه»(١).

وقال ٱبن مسعود رضي الله عنه: «كفىٰ بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»(٢).

قالوا: فهذا القرآنُ والسنَّة وإطلاقُ السلف من الصحابة والتابعين يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ والمعرفةَ مستلزمٌ للهداية، وأنَّ عدمَ الهداية دليلٌ علىٰ الجهل وعدم العلم.

قالوا: ويدلُّ عليه أنَّ الإنسانَ ما دام عقلُه معه لا يُؤْثِرُ هلاكَ نفسه علىٰ نجاتها، وعذابها العظيمَ الدائمَ علىٰ نعيمها المقيم، والحسُّ شاهدٌ بذلك.

ولهذا وصف اللهُ سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

= والسائل في بعض هذه المصادر هو عمران القصير، وفي بعضها: مطر الوراق. وأُبهِمَ في الباقي. ولم أقف عليه من طريق فرقد السبخي.

(١) أخرجه الدارمي (٢٩٧) عن علي رضي الله عنه موقوفًا بإسنادٍ ضعيف.
وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٨١١) عنه مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف، ثم قال: «لا يأتي هذا الحديث مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وأكثرهم يوقفونه علىٰ علي رضي الله عنه». وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٧٣٤).
وللحديث طريقان آخران عند أبي نعيم في «الحلية» (١/ ٧٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٣٨)، وغيرهما.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٣٨).

قال سفيانُ الثوري: «كلُّ من عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل، سواءٌ كان جاهلًا أو عالمًا؛ إن كان عالمًا فمَنْ أجهلُ منه؟! وإن كان لا يعلم فمثلُ ذلك»[1].

وقولُه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ قال: قبل الموت[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذنبُ المؤمن جهلٌ منه»[3].

قال قتادة: «أجمع أصحابُ رسول الله ﷺ أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ اللهُ به فهو جهالةٌ»[4].

وقال السُّدِّي: «كلُّ من عصىٰ اللهَ فهو جاهل»[5].

قالوا: ويدلُّ علىٰ صحة هذا أنَّ مع كمال العلم لا تصدرُ المعصيةُ من العبد؛ فإنه لو رأىٰ صبيًّا يتطلَّعُ عليه من كُوَّةٍ لم تتحرَّك جوارحُه لمواقعة الفاحشة، فكيف تقعُ منه حالَ كمال علمه بنظر الله إليه، ورؤيته له، وعقابه علىٰ الذنب، وتحريمه له، وسوء عاقبته؟! فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم، وغيبته عنه، فحينئذٍ يكونُ وقوعُه في المعصية صادرًا عن جهلٍ وغفلةٍ ونسيانٍ مضادٍّ للعلم.

---

(١) ورد مختصرًا عن مجاهد، وعطاء، وابن زيد. انظر: تفسير القرآن من «الجامع» لابن وهب (١/ ١٨)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٨٩، ٩٠).

(٢) كذا ورد القول في الأصل دون نسبة. وهو قول جمهور المفسرين. انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٤٥٩)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٨٤)، و«شفاء العليل» (٤٩١).

(٣) أخرجه بنحوه الطبري (٨/ ٩٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٥١)، ومن طريقه الطبري (٨/ ٨٩).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٨٩).

والذنبُ محفوفٌ بجهلين: جهلٍ بحقيقة الأسباب الصَّارفة عنه، وجهلٍ بحقيقة المفسدة المترتِّبة عليه. وكلُّ واحدٍ من الجهلين تحته جهالاتٌ كثيرة. فما عُصِيَ اللهُ إلا بالجهل، وما أُطِيعَ إلا بالعلم.

فهذا بعضُ ما ٱحتجَّت به هذه الطائفة.

* **وقالت الطائفة الأخرىٰ**: العلمُ لا يستلزمُ الهداية، وكثيرًا ما يكونُ الضلالُ عن عمدٍ وعلمٍ لا يشُكُّ صاحبُه فيه، بل يُؤثِرُ الضلالَ والكفرَ وهو عالمٌ بقبحه ومفسدته.

قالوا: وهذا شيخُ الضلال، وداعي الكفر، وإمامُ الفجرة، إبليسُ عدوُّ الله، قد علمَ أمرَ الله له بالسجود لآدم ولم يشكَّ فيه، فخالفه وعاندَ الأمرَ وباء بلعنة الله وعذابه الدائم، مع علمه بذلك ومعرفته به، وأقسمَ له بعزَّته أنه يغوي خلقَه أجمعين إلا عبادَه منهم المخلصين؛ فكان غير شاكٍّ في الله وفي وحدانيَّته، وفي البعث الآخر، وفي الجنة والنار، ومع ذلك ٱختارَ الخلودَ في النار واحتمالَ لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنَّته عن علمٍ بذلك ومعرفةٍ لم تحصل لكثيرٍ من الناس، ولهذا قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، وهذا ٱعترافٌ منه بالبعث وإقرارٌ به، وقد عَلِمَ قَسَمَ ربِّه ليملأنَّ جهنَّم منه ومن أتباعه؛ فكان كفرُه كفرَ عنادٍ محضٍ لا كفرَ جهل.

وقال الله تعالىٰ إخبارًا عن قوم صالح[1]: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، يعني: بيَّنَّا لهم وعرَّفناهم، فعرفوا الحقَّ وتيقَّنوه، وآثروا العمىٰ عليه. أفكان كفرُ هؤلاء عن جهل؟!

---

(١) ساقطة من (ق). وفي (ت، ح، ن): «ثمود».

وقال تعالىٰ حاكيًا عن موسىٰ أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكًا، علىٰ قراءة فَتْح التاء، وهي قراءةُ الجمهور. وضمَّها الكسائيُّ وحده(١).

وقراءةُ الجمهور أحسنُ وأوضح وأفخمُ معنى، وبها تقومُ الدلالة، ويتمُّ الإلزام، ويتحقَّقُ كفرُ فرعون وعنادُه، ويشهدُ لها قولُه تعالىٰ إخبارًا عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣ - ١٤]؛ فأخبر سبحانه أنَّ تكذيبَهم وكفرهم كان عن يقينٍ ـ وهو أقوىٰ العلم ـ ظلمًا منهم وعلوًّا، لا جهلًا.

وقال تعالىٰ لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، يعني: أنهم قد عرفوا صدقَك، وأنك غيرُ كاذبٍ فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ٱبن عباس رضي الله عنهما والمفسِّرون(٢).

قال قتادة: «يعلمون أنك رسولُ الله ولكن يجحدون»(٣)، كقوله(٤) عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

---

(١) انظر: «التبصرة» لمكِّي (٥٧١)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٣/ ٩، ١٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٠٧)، ومن طريقه الطبري (١١/ ٣٣٣).

(٤) (ت): «لقوله».

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحَّته وأنه الحقُّ، فكفرُكم كفرُ عنادٍ وجحودٍ عن علمٍ وشهود، لا عن جهلٍ وخفاء.

وقال تعالىٰ عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا أنَّ من أخذَ السحرَ وقَبِلَه لا نصيبَ له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلَّمونه.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ ذَكَر هذه المعرفةَ عن أهل الكتاب في القبلة، كما في سورة البقرة، وفي التوحيد، كقوله في الأنعام: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾، وفي الكتاب أنه منزَّلٌ من عند الله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: «هم قريظةُ والنضيرُ ومن دانَ بدينهم، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوَّة، وإنما كفروا بغيًا وحسدًا»(١).

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٧٤) مختصرًا بإسنادٍ ضعيف.

قال الزجاج: «أعلَمَ اللهُ عز وجل أنه لا جهةَ لهدايتهم؛ لأنهم قد استحقُّوا أن يَضِلُّوا بكفرهم؛ لأنهم كفروا بعد البينات»[1].

ومعنىٰ (كيف يهديهم)[2] أي: أنه لا يهديهم؛ لأنَّ القومَ عرفوا الحقَّ، وشهدوا به وتيقَّنوه، وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟! فإنَّ الذي ترتجىٰ هدايتُه من كان ضالًّا ولا يدري أنه ضالٌّ، بل يظنُّ أنه علىٰ هدى، فإذا عرفَ الهدىٰ ٱهتدىٰ، وأما من عرفَ الحقَّ وتيقَّنه وشهدَ به قلبُه ثمَّ ٱختار الكفرَ والضلال عليه، فكيف يهدي اللهُ مثل هذا؟!

وقال تعالىٰ عن اليهود: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ثمَّ قال: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠]، قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: «لم يكن كفرُهم شكًّا ولا ٱشتباهًا، ولكن بغيًا منهم، حيث صارت النبوَّةُ في ولد إسماعيل»[3].

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ

= والمشهورُ الثابتُ عن ابن عباس أن الآية نزلت في رجلٍ من الأنصار، ارتدَّ بعد إسلامه، ثم عاد إلىٰ الإسلام.
أخرجه النسائي (٤٠٦٨)، وصححه ابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦) ولم يتعقبه الذهبي.

(١) «معاني القرآن» (١/ ٤٣٩).

(٢) كذا في الأصول، ونصُّ الآية: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا﴾ [آل عمران: ٨٦]، أراد التفسير لا التلاوة، وهو سائغ، وعليه عمل أهل العلم، فلذلك لم أغيِّره.

(٣) «الوسيط» للواحدي (١/ ١٧٣). وبمعناه مختصرًا أخرجه الطبري (٢/ ٣٣٤).

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، فلما شبَّههم في فعلهم هذا بمن لا يعلمُ دلَّ على أنهم نبذوه عن علمٍ كفعلِ من لا يعلم، تقولُ إذا خاطبتَ من عصاك عمدًا: كأنك لم تعلم ما فعلتَ، أو: كأنك لم تعلم بنهيي إيَّاك.

ومنه ـ على أحد القولين ـ قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٢ - ٨٣]، قال السُّدِّي: «يعني محمدًا ﷺ»[(١)]. واختاره الزجاج، فقال: «يعرفون أنَّ أمرَ محمد ﷺ حقٌّ ثمَّ ينكرون ذلك»[(٢)]. وأولُ الآية يشهدُ لهذا القول.

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان؟! فإنَّ هذا آتاه اللهُ آياته، فانسلخَ منها وآثرَ الضَّلالَ والغيَّ، وقصَّتُه معروفة[(٣)]، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسمَ الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمُه وكان من الغاوين، فلو ٱستلزمَ العلمُ والمعرفةُ الهدايةَ لاستلزمه في حقِّ هذا.

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٢٧٢).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ٢١٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥١٠)، و«الغوامض والمبهمات» لابن بشكوال (٦٥٧)، وغيرهما.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ قولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] إمَّا بَهْتٌ منهم وجحود، وإمَّا نفيٌ لآيات الاقتراح والعَنَت، ولا يجبُ الإتيانُ بها.

وقد وصف سبحانه ثمودَ بأنها كفرت عن علمٍ وبصيرةٍ بالحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني: بيِّنةً مضيئة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] أي: مضيئة، وحقيقةُ اللفظ أنها تجعلُ من رآها مبصرًا، فهي توجبُ له البصر، فتبصِّرُه، أي: تجعلُه ذا بصر، فهي موضِّحةٌ مبيِّنة، يقال: «بَصُرَ به» إذا رآه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص: ١١]، وقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦].

وأمَّا «أبصره»، فله معنيان:

أحدهما: جَعَله باصرًا بالشيء، أي: ذا بصرٍ به[1]؛ كآية النهار وآية ثمود.

والثاني: بمعنىٰ رآه؛ كقولك: أبصرتُ زيدًا، وفي حديث أبي شريح العَدَوي: «أحدِّثُك قولًا قال به رسولُ الله ﷺ يوم الفتح، فسمعَتْه أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرَتْه عيناي حين تكلَّم به»[2].

---

(١) (ت، د، ق): «جعله باصرا بالشيء إذا بصر به».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٤ - ١٧٥]، قيل: المعنىٰ: أبصِرْهم وما يقضىٰ عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يُبْصِرُونك وما يقضىٰ لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة. والمراد: تقريبُ المُبْصَرِ من المخاطَب حتىٰ كأنه نصبَ عينيه ورأي ناظرَيْه.

والمقصودُ أنَّ الآية أوجبت لهم البصيرة، فآثروا الضلالَ والكفرَ عن علمٍ ويقين، ولهذا ـ والله أعلم ـ ذكر قصَّتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾؛ لأنه ذكر فيها انقسامَ النفوس إلىٰ الزكيَّة الراشدة المهتدية، وإلىٰ الفاجرة الضَّالَّة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القَدَر والشرع؛ فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فهذا قدرُه وقضاؤه، ثمَّ قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ فهذا أمرُه ودينُه. وثمودُ هداهم، فاستحبُّوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، فذَكَر قصَّتَهم ليبيِّن سوء عاقبة من آثر الفجورَ علىٰ التقوىٰ، والتَّدْسِيَة علىٰ التزكية، والله أعلم بما أراد.

قالوا: ويكفي في هذا إخبارُه تعالىٰ عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب، ووَرَدُوا القيامة، ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]، فأيُّ علمٍ أبينُ من علم من وَرَدَ القيامةَ ورأىٰ ما فيها، وذاق عذابَ الآخرة، ثمَّ لو رُدَّ إلىٰ الدنيا لاختار الضلالَ علىٰ الهدىٰ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه؟!

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ

﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتىٰ لهم، وشهادتهم للرسول بالصِّدق، وحَشْرِ كلِّ شيءٍ في الدنيا عليهم = مِنْ بيانٍ وإيضاحٍ للحقِّ وهدى؟! ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحقِّ، ولا يصدِّقون الرسول!

ومن نظر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه، ومع اليهود، عَلِمَ أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ، لا يشكُّون أنه صادقٌ في قوله: إنه رسولُ الله، ولكنْ ٱختاروا الضلال والكفرَ علىٰ الإيمان.

قال المِسْوَرُ بن مَخْرمة رضي الله عنه لأبي جهل ـ وكان خالَه ـ: أيْ خال، هل كنتم تتَّهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالتَه التي قالها؟ قال: يا ٱبن أخي، والله لقد كان محمدٌ فينا وهو شابٌّ يُدعىٰ: الأمين، ما جرَّبنا عليه كذبًا قطُّ، فلمَّا وخَطَه الشيبُ لم يكن ليكذبَ علىٰ الله. قال: يا خال فلم لا تتَّبعونه؟! قال: يا ٱبن أخي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشَّرف؛ فأطعموا وأطعمنا، وسَقوا وسَقينا، وأجاروا وأجَرنا، فلمَّا تجاثَيْنا علىٰ الرُّكَب وكنَّا كفرَسَيْ رهانٍ قالوا: منَّا نبيٌّ. فمتىٰ ندركُ هذه؟![(١)].

وهذا أميةُ بن أبي الصَّلت كان ينتظره يومًا بيوم، وعلمُه عنده قبل مبعثه

---

(١) لم أقف علىٰ الخبر من رواية المِسْوَر، ولا أراه يصحُّ عنه؛ فإن أبا جهل قُتِل يوم بدر، والمِسْوَر وُلِد بعد الهجرة بسنتين، وقيل قبلها، فكيف يسأله؟!
وأصلُ الخبر مشهور، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٩١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٧) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بإسنادٍ منقطع.
ورُوِي من أوجهٍ أخرىٰ.

وقصَّتُه مع أبي سفيان لما سافروا معًا معروفة، وإخباره برسول الله ﷺ، ثمَّ لما تيقَّنه وعرفَ صدقَه قال: «لا أومنُ بنبيٍّ من غير ثقيفٍ أبدًا»[1].

وهذا هرقلُ تيقَّن أنه رسولُ الله ﷺ، ولم يشكَّ فيه، وآثر الضلالَ والكفرَ استبقاءً لـمُلكه[2].

ولـمَّا سأله اليهودُ عن التسع آياتِ البيِّنات؛ فأخبرهم بها، قبَّلوا يدَه، وقالوا: نشهدُ أنك نبيٌّ. قال: فما يمنعكم أن تتَّبعوني؟ قالوا: إنَّ داود عليه السَّلام دعا أن لا يزال في ذريَّته نبيٌّ، وإنَّا نخشىٰ إن اتبعناك أن تقتلَنا يهود[3].

فهؤلاء قد تحقَّقوا نبوَّته، وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفرَ

---

(١) أخرجها في سياقٍ طويلٍ الطبرانيُّ في «الكبير» (٨/ ٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١١٦)، وأبو القاسم التيمي في «دلائل النبوة» (٢٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٥٧) من طرق.

(٢) وخبره مشهور، أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٣٣، ٣١٤٤)، والنسائي (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، وغيرهم من حديث صفوان بن عسَّال.
وفي إسناده ضعف، وفي متنه نكارة. وقال النسائي في «الكبرىٰ» (٣٥٢٧): «هذا حديثٌ منكر». وانظر: «تهذيب سنن أبي داود» للمصنف (١٤/ ٨٦)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢١٣٥)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٩٦).
وصححه جماعة، قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن صحيح». وقال الحاكم في «المستدرك» (١/ ٩): «هذا حديثٌ صحيحٌ لا نعرف له علةً بوجهٍ من الوجوه، ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي. وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٨/ ٢٨). وقال ابن حجر في «التلخيص» (٤/ ٩٣): «إسناده قوي».

والضلال، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

فقيل: لا يصيرُ الكافرُ مسلمًا بمجرَّد شهادة أنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ حتىٰ يشهدَ لله بالوحدانيَّة.

وقيل: يصيرُ بذلك مسلمًا.

وقيل: إن كان كفرُه بتكذيب الرسول ـ كاليهود ـ صار مسلمًا بذلك، وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يَصِرْ مسلمًا إلا بالشهادة بالتوحيد[1]، كالنصارىٰ والمشركين.

وهذه الأقوالُ الثلاثةُ في مذهب الإمام أحمد وغيره[2].

وعلىٰ هذا، فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام؛ لأنَّ مجردَ الإقرار والإخبار بصحَّة رسالته لا يوجبُ الإسلام، إلا أن يلتزمَ طاعتَه ومتابعتَه، وإلا فلو قال: أنا أعلمُ أنه نبيٌّ، ولكنْ لا أتبعُه ولا أدينُ بدينه؛ كان من أكفَر الكفَّار، كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم.

وهذا متفقٌ عليه بين الصحابة والتابعينَ وأئمَّة السُّنَّة: أنَّ الإيمانَ لا يكفي فيه قولُ اللسان بمجرَّده، ولا معرفةُ القلب مع ذلك، بل لا بدَّ فيه من عمل القلب، وهو حبُّه لله ورسوله، وانقيادُه لدينه، والتزامُه طاعتَه ومتابعةَ رسوله.

---

(١) (ق، ت): «بالشهادة». (ح، ن): «بالشهادة به».

(٢) انظر: «العلل» لأحمد (٣/ ٨٣ - رواية عبد الله)، وكتاب أهل الملل والردة والزنادقة من «الجامع» للخلال (٢/ ٣٧٢)، و«الروايتين والوجهين» لأبي يعلىٰ (٢/ ٣١١)، و«المغني» (١٢/ ٢٨٨)، و«شرح الزركشي» (٦/ ٢٦٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٣٩).

وهذا خلافُ من زعم أنَّ الإيمانَ هو مجردُ معرفة القلب وإقراره.

وفيما تقدَّم كفايةٌ في إبطال هذه المقالة.

ومن قال: إنَّ الإيمان هو مجردُ ٱعتقاد صدق الرسول فيما جاء به، وإن لم يلتزم متابعتَه، وعاداه وأبغضه وقاتله؛ لَزِمَه أن يكون هؤلاء كلُّهم مؤمنين.

وهذا إلزامٌ لا محيد عنه، ولهذا ٱضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لـمَّا وَرَدَ[1] عليهم، وأجابوا بما يستحي القائلُ من قوله؛ كقول بعضهم: إنَّ إبليس كان مستهزئًا ولم يكن يقرُّ بوجود الله، ولا بأنَّ الله ربُّه وخالقُه، ولم يكن يعرف ذلك! وكذلك فرعون وقومُه لم يكونوا يعرفون صحَّة نبوَّة موسىٰ، ولا يعتقدون وجودَ الصَّانع[2].

وهذه فضائحُ نعوذُ بالله من الوقوع في أمثالها، ونصرةُ المقالات وتقليدُ أربابها يحمِلُ علىٰ أكثر من هذا، ونعوذُ بالله من الخذلان.

قالوا: وقد بيَّن القرآنُ أنَّ الكفر أقسام:

أحدها: كفرٌ صادرٌ عن جهلٍ وضلالٍ وتقليدِ الأسلاف؛ وهو كفرُ أكثر الأتباع والعَوامِّ.

الثاني: كفرُ جحودٍ وعنادٍ وقصدِ مخالفة الحقِّ؛ ككفر من تقدَّم ذكرُه.

وغالبُ ما يقعُ هذا النوعُ فيمن له رياسةٌ علميَّةٌ في قومه من الكفار، أو رياسةٌ سلطانيَّة، أو من له مآكلُ وأموالٌ في قومه؛ فيخافُ هذا علىٰ رياسته

---

(١) (ح): «أورد».

(٢) انظر: «الفِصَل» (٥/ ٧٥)، و«الصارم المسلول» (٩٦٧)، و«جامع المسائل» (٥/ ٢٤٧)، و«هذه مفاهيمنا» (١٠٤، ١٠٧).

وهذا علىٰ ماله ومأكله؛ فيُؤثِرُ الكفرَ علىٰ الإيمان عمدًا.

الثالث: كفرُ إعراضٍ محض، لا ينظرُ فيما جاء به الرسول، ولا يحبُّه ولا يبغضُه، ولا يواليه ولا يعاديه، بل هو معرضٌ عن متابعَته ومعاداته.

وهذان القسمان أكثرُ المتكلِّمين ينكرونهما، ولا يُثْبِتُون من الكفر إلا **الأول**، ويجعلون **الثاني والثالث** كفرًا لدلالته علىٰ الأول لا لأنه في ذاته كفر؛ فليس عندهم الكفرُ إلا مجرَّد الجهل.

ومن تأمَّل القرآن والسُّنَّة، وسِيَرَ الأنبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرىٰ لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه، وعلمَ أنَّ عامَّة كفر الأمم عن تيقُّنٍ وعلمٍ ومعرفةٍ بصدق أنبيائهم وصحَّة دعواهم وما جاءوا به.

وهذا القرآنُ مملوءٌ من الإخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام أنهم كانوا يقرُّون بالله وأنه هو وحده ربُّهم وخالقُهم، وأنَّ الأرضَ وما فيها له وحده، وأنه ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم، وأنه بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يجيرُ ولا يجارُ عليه، وأنه هو الذي سخَّر الشمسَ والقمر، وأنزلَ المطر، وأخرجَ النبات.

والقرآنُ منادٍ عليهم بذلك، محتجٌّ بما أقرُّوا به من ذلك علىٰ صحَّة ما دعتهم إليه رسله، فكيف يقال: إنَّ القومَ لم يكونوا مُقِرِّين قطُّ بأنَّ لهم ربًّا وخالقًا؟! هذا بهتانٌ عظيم.

فالكفرُ أمرٌ وراء مجرَّد الجهل، بل الكفرُ الأغلظُ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر.

قالوا: والقلبُ عليه واجبان لا يصير مؤمنًا إلا بهما جميعًا:

* واجبُ المعرفة والعلم.

* وواجبُ الحبِّ والانقياد والاستسلام.

فكما لا يكونُ مؤمنًا إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد، لا يكونُ مؤمنًا إذا لم يأت بواجب الحبِّ والانقياد والاستسلام، بل إذا ترك هذا الواجبَ مع علمه ومعرفته به، كان أعظم كفرًا وأبعدَ عن الإيمان من الكافر جهلًا؛ فإنَّ الجاهلَ إذا عرفَ وعَلِمَ فهو قريبٌ إلىٰ الانقياد والاتباع، وأمَّا المعاندُ فلا دواء فيه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قالوا: فحبُّ الله ورسوله ـ بل كونُ الله ورسوله أحبَّ إلىٰ العبد مما سواهما ـ لا يكونُ العبدُ مسلمًا إلا به. ولا ريب أنَّ الحبَّ أمرٌ وراء العلم؛ فما كلُّ من عرف الرسولَ أحبَّه، كما تقدَّم.

قالوا: وهذا الحاسدُ يحملُه بغضُ المحسود علىٰ معاداته، والسَّعي في أذاه بكلِّ ممكن، مع علمه بفضله وعلمه، وأنه لا شيء فيه يوجبُ عداوتَه إلا محاسنُه وفضائلُه.

ولهذا قيل للحاسد: «عدوُّ النِّعم والمكارم»[1].

فالحاسدُ لم يَحْمِله علىٰ معاداة المحسود جهلُه بفضله وكماله، وإنما حمله علىٰ ذلك فسادُ قصده وإرادته، كما هي حالُ الرُّسل وورثتهم مع

(١) انظر: «شعب الإيمان» (١٢/ ٣٥)، و«المجالسة» للدينوري (٦٥٨)، و«بهجة المجالس» (١/ ٤٠٧)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ١٨١).

الرؤساء الذين سلبهم الرسلُ ووارثوهم رياستَهم الباطلة، فعادَوْهُم وصدُّوا النفوسَ عن متابعتهم؛ ظنًّا أنَّ الرياسة تبقىٰ لهم وينفردون بها، وسُنَّةُ الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسةَ الدنيا والآخرة، ويُصَغِّرهم في عيون الخلق؛ مقابلةً لهم بنقيض قصدهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

فهذا موردُ ٱحتجاج الفريقين، وموقفُ أقدام الطائفتين، فاجلس أيها المُنْصِفُ منهما مجلسَ الحكومة، وتوخَّ بعلمك وعدلك فَصْلَ هذه الخصومة، فقد أدلىٰ كلٌّ منهما بحججٍ لا تُعارَضُ ولا تُمانَع، وجاء ببيِّناتٍ لا تُرَدُّ ولا تُدافَع، فهل عندك شيءٌ غيرُ هذا يحصلُ به فصلُ الخطاب، وينكشفُ به لطالب الحقِّ وجهُ الصواب، فيرضي الطائفتين، ويزولُ به الاختلافُ من البَيْن؟! وإلا فخلِّ المَطِيَّ وحادِيها، وأعطِ القوسَ باريها.

دَعِ الهوىٰ لأناسٍ يُعْرَفُونَ به قد كابدوا الحبَّ حتىٰ لانَ أَصْعَبُه[1]

ومن عرف قَدْرَه، وعرف لذي الفضل فضله، فقد قَرَعَ باب التوفيق، والله الفتاح العليم.

فنقول وبالله التوفيق: كلا الطائفتين[2] ما خرجت عن مُوجَب العلم، ولا عدلت عن سَنَن الحقِّ، وإنما الاختلافُ والتباينُ بينهما من عدم التَّوارد علىٰ محلٍّ واحد، ومن إطلاق ألفاظٍ مجملة، بتفصيل معانيها يزولُ الاختلاف، ويظهرُ أنَّ كلَّ طائفةٍ موافقةٌ للأخرىٰ علىٰ نفس قولها.

---

(١) من أبياتٍ لأبي القاسم الكاتب علي بن أفلح العبسي (ت: ٥٣٢) في ترجمته من «المنتظم» (١٠/ ٨٢). وفيه: «قد مارسوا».

(٢) كذا. والجادة: «كلتا الطائفتين».

وبيانُ هذا: أنَّ المقتضي قسمان:

* مقتضٍ لا يتخلَّفُ عنه مُوجَبُه ومقتضاه[1]، بل يستلزمُه ٱستلزامَ العلَّة التامَّة لمعلولها.

* ومقتضٍ غيرُ تامٍّ، بل قد يتخلَّفُ[2] عنه مقتضاه؛ لقصوره في نفسه عن التمام[3]، أو لفوات شرط ٱقتضائه، أو قيام مانعٍ منعَ تأثيرَه.

فإن أريدَ بكون العلم مقتضيًا للاهتداء الاقتضاءُ التامُّ[4] الذي لا يتخلَّف عنه أثرُه بل يلزمُه الاهتداءُ بالفعل؛ فالصوابُ قولُ الطائفة الثانية، وأنه لا يلزمُ من العلم حصولُ الاهتداء المطلوب.

وإن أريدَ بكونه مُوجِبًا أنه صالحٌ للاهتداء، مقتضٍ له، وقد يتخلَّفُ عنه مقتضاه لقصوره، أو لفوات شرطٍ، أو قيام مانعٍ؛ فالصوابُ قولُ الطائفة الأولىٰ.

وتفصيلُ هذه الجملة: أنَّ العلمَ بكون الشيء سببًا لمصلحة العبد ولذَّته وسروره قد يتخلَّفُ عنه عملُه بمقتضاه، لأسبابٍ عديدة[5]:

السببُ الأول: ضعفُ معرفته بذلك.

السببُ الثاني: عدمُ الأهليَّة. وقد تكونُ معرفتُه به تامة، لكن يكونُ

---

(١) (ق، ن): «موجبه ومقتضاه لقصوره في نفسه».

(٢) «بل قد» ليست في (د، ت، ق». (ق): «لا يتخلف». (ت): «لا يختلف».

(٣) (ت): «القيام».

(٤) (ت، ق): «والاقتضاء التام». وهو خطأ، اشتبهت الهمزة بالواو.

(٥) انظر: «هداية الحيارىٰ» (٣٩، ٢٦٩).

مشروطًا بزَكاء[1] المحلِّ وقبوله للتزكية، فإذا كان المحلُّ غير زكيٍّ ولا قابلٍ للتزكية كان كالأرض الصَّلْدَة التي يخالطُها الماء، فإنه يمتنعُ النباتُ منها؛ لعدم أهليتها وقبولها.

فإذا كان القلبُ قاسيًا حَجَريًّا، لا يقبلُ تزكيةً ولا تُؤثِّرُ فيه النصائح، لم ينتفع بكلِّ علم يعلمُه، كما لا تنبتُ الأرضُ الصلبة ولو أصابها كلُّ مطر، وبُذِرَ فيها كلُّ بَذْر.

كما قال تعالىٰ في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وهذا في القرآن كثير.

فإذا كان القلبُ قاسيًا غليظًا جافيًا لا يعملُ فيه العلمُ شيئًا، وكذلك إذا كان مريضًا مَهِينًا مائيًّا لا صلابةَ فيه ولا قوةَ ولا عزيمة لم يؤثِّر فيه العلم.

السببُ الثالث: قيامُ مانع؛ وهو إمَّا حسدٌ أو كِبْر، وذلك مانعُ إبليس من الانقياد للأمر، وهو داءُ الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وبه تخلَّف الإيمانُ عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحةَ نبوَّته ومن جرىٰ مجراهم، وهو الذي منع عبد الله بن أبيٍّ من الإيمان، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أبي جهلٍ وسائر المشركين؛ فإنهم لم يكونوا يرتابون في صدقه

(١) (ق): «بزكاة».

وأنَّ الحقَّ معه، ولكنْ حملهم الكِبْرُ والحسدُ علىٰ الكفر، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أميَّة[1] وأضرابه ممن كان عنده علمٌ بنبوَّة محمد ﷺ.

السببُ الرابع: مانعُ الرياسة والـمُلْك، وإن لم يَقُم بصاحبه حسدٌ ولا تكبُّر عن الانقياد للحقِّ، لكن لا يمكنُ أن يجتمع له الانقيادُ ومُلْكُه ورياستُه، فيَضِنُّ بمُلْكِه ورياسته؛ كحال هِرَقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا بنبوَّته وصِدْقه، وأقرُّوا بها باطنًا، وأحبُّوا الدخول في دينه، لكن خافوا علىٰ مُلْكهم.

وهذا داءُ أرباب الـمُلْك والولاية والرياسة، وقلَّ من نجا منه إلا من عصم الله، وهو داءُ فرعون وقومه، ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؛ أَنِفُوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسىٰ وهارون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيدٌ لهم.

ولهذا قيل: إنَّ فرعون لما أراد متابعةَ موسىٰ وتصديقَه شاورَ هامان وزيرَه، فقال: بينا أنت إلهٌ تُعبَدُ تصيرُ عبدًا تعبُد غيرَك![2]؛ فأبىٰ العبوديَّةَ واختار الرياسةَ والإلهيَّة الـمُحال[3].

السببُ الخامس: مانعُ الشهوة والمال؛ وهو الذي منع كثيرًا من أهل الكتاب من الإيمان، خوفًا من بطلان مآكلهم وأموالهم التي تصيرُ إليهم من

---

(١) أمية بن أبي الصلت.

(٢) انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٢٦٣)، و«المتفق والمفترق» (١١٢٦)، و«تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٤)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤١٠)، و«سراج الملوك» (٢٨٨).

(٣) (ت): «وإلهية المحال». ولستُ منها على ثقة.

قومهم[1].

وقد كانت كفارُ قريش يصدُّون الرجلَ عن الإيمان بحسب شهوته، فيدخلونَ عليه منها؛ فكانوا يقولون لمن يحبُّ الزِّنا والفواحش: إنَّ محمدًا يحرِّم الزِّنا، ويحرِّم الخمر؛ وبه صدُّوا الأعشىٰ الشاعر عن الإسلام[2].

وقد فاوضتُ غير واحدٍ من أهل الكتاب في الإسلام وصحَّته، فكان آخر ما كلَّمني به أحدهم: أنا لا أتركُ الخمر، وأشربُها آمنًا[3]، فإذا أسلمتُ حُلْتُم بيني وبينها وجلدتموني علىٰ شربها.

وقال آخر منهم ـ بعد أن عرف ما قلتُ له ـ: لي أقاربُ أربابُ أموالٍ وإني إن أسلمتُ لم يَصِل إليَّ منها شيء، وأنا أؤمِّلُ أن أرِثهم. أو كما قال[4].

ولا ريب أنَّ هذا القَدْرَ في نفوس خلقٍ كثيرٍ من الكفار، فتتفقُ قوةُ داعي الشهوة والمال، وضعفُ داعي الإيمان، فيجيبُ داعي الشهوة والمال،

---

(١) انظر: «هداية الحيارى» (٢٧، ٣٨، ٣٩).

(٢) أورد القصة ابنُ هشام في «السيرة» (١/ ٣٩٧) ضمن الأحداث التي وقعت بمكة قبل الهجرة، فتعقَّبه السُّهيلي في «الروض الأنف» (٣/ ٣٧٨)، وابنُ كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٢٥٤) بأن تحريم الخمر إنما كان بالمدينة. فالظاهرُ أن قدوم الأعشىٰ كان بعد الهجرة، وفي قصيدته التي مدح فيها النبيَّ ﷺ ما يدلُّ علىٰ ذلك. وانظر تعليق د. محمد محمد حسين في تحقيقه لديوانه (١٣٤)، ومقال «قصيدة الأعشى في مدح الرسول الكريم وأخبارها» لياسين يوسف عايش في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (٥٦/ ٢٣/ ٧٣)، ومقال «وفادة الأعشى على الرسول أهي صحيحة» لعبد العزيز المانع في مجلة معهد المخطوطات (٢٨/ ١/ ٢٤١).

(٣) كذا في الأصول. أي: أشربها الآن وأنا آمنٌ من العقوبة.

(٤) انظر: «أحكام أهل الذمة» (٨٥٥).

ويقول: لا أرغبُ بنفسي عن آبائي وسلفي.

السببُ السادس: محبةُ الأهل والأقارب والعشيرة؛ يرىٰ أنه إذا ٱتبعَ الحقَّ وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم. وهذا سببُ بقاء خلقٍ كثيرٍ علىٰ الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السببُ السابع: محبةُ الدار والوطن، وإن لم يكن له بها عشيرةٌ ولا أقارب، لكن يرىٰ أنَّ في متابعة الرسول خروجَه عن داره ووطنه إلىٰ دار الغُربة والنَّوىٰ، فيَضِنُّ بوطنه وداره.

السببُ الثامن: تخيُّله أنَّ في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعنًا منه علىٰ آبائه وأجداده وذمًّا لهم، وهذا هو الذي منعَ أبا طالبٍ وأمثاله عن الإسلام؛ ٱستعظموا آباءهم وأجدادَهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلافَ ما ٱختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفَّهوا أحلامَ أولئك، وضلَّلوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك.

ولهذا قال أعداء الله لأبي طالبٍ عند الموت: أترغبُ عن ملَّة عبد المطلب؟! فكان آخرَ ما كلَّمهم به: «هو علىٰ ملَّة عبد المطَّلب»[(١)]. فلم يَدْعُه[(٢)] أعداءُ الله إلا من هذا الباب؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب، وأنه إنما حاز الفخرَ والشَّرف به، فكيف يأتي أمرًا يلزمُ منه غايةُ تنقيصه وذمِّه؟!

ولهذا قال: «لولا أن تكونَ سُبَّةً علىٰ بني عبد المطلب لأقررتُ بها عينَك»[(٣)]، أو كما قال.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) الضبط من (د، ق). وفي (ت): «تدعه».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥).

وهذا شِعرُه يصرِّحُ فيه بأنه قد علمَ وتحقَّق نبوَّة محمدٍ ﷺ وصِدْقَه؛ كقوله:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمدٍ ... من خَيْرِ أديان البريَّة دِينا
لولا الملامةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لوجدتني سَمْحًا بذاك مُبِينا[1]

وفي قصيدته اللاميَّة[2]:

فوالله لولا أن تكونَ مَسَبَّةٌ ... تُجَرُّ علىٰ أشياخِنا في المَحافلِ
لكنَّا ٱتَّبعناهُ علىٰ كلِّ حالةٍ ... من الدَّهر جِدًّا غير قولِ التَّهازُلِ
لقد عَلِمُوا أنَّ ٱبننَا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يُعْنىٰ بقولِ الأباطِلِ

والمَسبَّةُ التي زعم أنها تُجَرُّ علىٰ أشياخه شهادتُه عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول؛ فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقُّنه.

السببُ التاسع: متابعةُ من يعاديه من الناس للرسول، وسبقُه إلىٰ الدخول في دينه، وتخصُّصه[3] وقربُه منه.

---

(١) «ديوان أبي طالب» صنعة أبي هفان وعلي بن حمزة (٨٧، ١٨٩)، و«سيرة ابن إسحاق» (١٣٦)، و«خزانة الأدب» (٣/ ٢٩٦)، وغيرها.

(٢) «ديوان أبي طالب» (٨٤، ١٩٨). وهي قصيدةٌ باذخةٌ نبيلة، إلا أنَّ الناس زادوا فيها، وبعض أهل العلم بالشعر ينكرُ أكثرها. انظر: «السيرة» لابن هشام (١/ ٢٨٣)، و«طبقات فحول الشعراء» (٢٤٤)، و«شرح نهج البلاغة» (١٤/ ٧٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٤٢).

(٣) (ح): «وتخصيصه».

وهذا القَدْرُ منع خلقًا كثيرًا من أتباع الهدىٰ؛ يكونُ للرجل عدوٌّ يُبْغِضُ مكانَه، ولا يحبُّ أرضًا يمشي عليها، ويقصدُ مخالفتَه ومناقضتَه، فيراه قد اتبعَ الحقَّ، فيحملُه قصدُ مناقضته ومعاداته علىٰ معاداة الحقِّ وأهله، وإن كان لا عداوةَ بينه وبينهم.

وهذا كما جرىٰ لليهود مع الأنصار؛ فإنهم كانوا أعداءهم، وكانوا يتواعدونهم[(١)] بخروج النبي ﷺ، وأنهم يتَّبعونه ويقاتلونهم معه[(٢)]، فلمَّا بَدَرَهم إليه الأنصارُ وأسلموا حملهم معاداتُهم علىٰ البقاء علىٰ كفرهم ويهوديَّتهم.

السببُ العاشر: مانعُ الإلْفِ والعادة والمنشأ؛ فإنَّ العادةَ قد تقوىٰ حتىٰ تغلبَ حكمَ الطبيعة، ولهذا قيل: «هي طبيعةٌ ثانية»[(٣)]؛ فيُربَّىٰ الرجلُ علىٰ المقالة ويُنشَّأُ عليها صغيرًا، فيتربَّىٰ قلبُه ونفسُه عليها كما يتربَّىٰ لحمُه وعظمُه علىٰ الغذاء المعتاد، ولا يعقلُ نفسَه إلا عليها، ثمَّ يأتيه العلمُ وهلةً واحدةً يريدُ إزالتها وإخراجَها من قلبه وأن يسكنَ موضعَها، فيعسرُ عليه الانتقال، ويصعبُ عليه الزوال.

وهذا السببُ وإن كان أضعفَ الأسباب منعًا[(٤)] فهو أغلبُها علىٰ الأمم وأرباب المقالات والنِّحل، ليس مع أكثرهم ـ بل جميعهم، إلا ما عسىٰ أن

---

(١) (ح): «يتوعدونهم». وسيأتي التعليق على استعمال «تواعد» بمعنى «توعَّد».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٣٢ - ٣٣٧).

(٣) من مقالات الحكماء. وتُنْسَبُ لبقراط. انظر: «عيون الأخبار» (٣/ ١٥٧)، و«الهوامل والشوامل» (١٧١)، و«العقد» (٦/ ٣١٣).

(٤) (ق، ن): «معنا». تحريف.

يشذَّ ـ إلا عادةً ومَرْبًى تربَّىٰ عليها طفلًا، لا يعرفُ غيرها ولا يحِسُّ به؛ فدينُ العوائد هو الغالبُ علىٰ أكثر الناس، فالانتقالُ عنه كالانتقال عن الطبيعة إلىٰ طبيعةٍ ثانية.

فصلواتُ الله وسلامه علىٰ أنبيائه ورسله، خصوصًا علىٰ خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ كيف غيَّروا عوائد الأمم الباطلة، ونقلوهم إلىٰ الإيمان، حتىٰ ٱستحدثوا به طبيعةً ثانيةً خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة. ولا يعلمُ مشقَّة هذا علىٰ النفوس إلا من زاولَ نقلَ رجلٍ واحدٍ عن دينه ومقالته إلىٰ الحقِّ؛ فجزىٰ الله المرسلين أفضلَ ما جازىٰ به أحدًا من العالمين.

إذا عُرِفَ أنَّ المقتضي نوعان؛ فالهدىٰ المقتضي وحده لا يوجبُ الاهتداء، والهدىٰ التامُّ يوجبُ الاهتداء.

فالأول: هدىٰ البيان والدلالة والتعليم، ولهذا يقال: هُدِيَ فما ٱهتدىٰ.

والثاني: هدىٰ البيان والدَّلالة، مع إعطاء التوفيق، وخَلْق الإرادة؛ فهذا الهدىٰ الذي يستلزمُ الاهتداء، ولا يتخلَّفُ عنه مُوجَبه، فمتىٰ وُجِدَ السببُ وٱنتفت الموانعُ لزمَ وجودُ حكمه.

وهاهنا دقيقةٌ بها ينفصلُ النزاع؛ وهو أنه: هل ينعطفُ من قيام المانع وعدم الشرط علىٰ المقتضي أمرٌ يُضْعِفه في نفسه ويسلبه ٱقتضاءَه وقوَّته، أو ٱقتضاؤه بحاله وإنما غَلَبَ المانعُ فكان التأثيرُ له؟

ومثالُ ذلك في مسألتنا: أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها، هل يَضْعُفُ العلمُ أو يُعْدَمُ حتىٰ لا يصير مؤثِّرًا البتة، أو العلمُ بحاله ولكنَّ المانعَ بقوَّته غَلَبَ فكان الحكمُ له؟

هذا سرُّ المسألة وفقهُها.

فأمَّا الأولُ فلا شكَّ فيه، ولكنَّ الشأنَ في القسم الثاني ـ وهو بقاءُ العلم بحاله ـ، والتحقيقُ أنَّ الموانعَ تحجبُه وتُعَمِّيه، وربما قلبت حقيقتَه من القلب.

والقرآنُ قد دلَّ على هذا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]؛ فعاقبهم سبحانه بإزاغة قلوبهم عن الحقِّ لـمَّا زاغوا عنه ابتداءً.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولهذا قيل: «من عُرِضَ عليه حقٌّ فردَّه ولم يقبله عُوقِبَ بفساد قلبه وعقله ورأيه».

ومن هنا قيل: «لا رأيَ لصاحب هوىً»(١)؛ فإنَّ هواه يحملُه على ردِّ الحقِّ، فيُفسِدُ اللهُ عليه رأيَه وعقلَه.

وقال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]؛ أخبرَ سبحانه أنَّ كفرهم بالحقِّ بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم حتى صارت غُلْفًا، والغُلْفُ: جمعُ أغلَف، وهو القلبُ الذي قد غَشِيَه غِلاف،

---

(١) انظر: «الفاضل» للمبرد (١٢٣).

كالسَّيف الذي في غِلافه، وكلُّ شيءٍ في غِلافٍ فهو أغلف، وجمعه غُلْف، يقال: سيفٌ أغلف، وقوسٌ غَلْفاء، ورجلٌ أغلَف وأقلَف: إذا لم يختتن. والمعنىٰ: قلوبنا عليها غشاوةٌ وغطاء، فلا تفقه ما تقولُ يا محمد ـ ﷺ ـ.

ولم يصنع شيئًا من قال: «إنَّ المعنىٰ أنها غُـلُفٌ للعلم والحكمة، أي: أوعيةٌ لها، فلا نحتاجُ إلىٰ قولك ولا نقبله، ٱستغناءً بما عندهم»[1]؛ لوجوه[2]:

أحدها: أنَّ ﴿غُلْفُۢ﴾ جمعُ أغلف، كقُلْف وأقلَف، وحُمْر وأحمَر، وجُرْد وأجرَد، وغُلْب وأغلَب، ونظائره. والأغلفُ من القلوب هو الداخلُ في الغلاف. هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: «قلبُ فلانٍ غلافٌ لكذا»، وهذا لا يكادُ يوجدُ في شيءٍ من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظيرَ له في القرآن فيُحْمَلُ عليه، ولا هو من التشبيه البديع المُسْتَحْسَن؛ فلا يجوزُ حملُ الآية عليه.

الثالث: أنَّ نظيرَ قول هؤلاء قولُ الآخرين من الكفار: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، والأكنَّةُ هنا: هي الغُلُفُ التي قلوبُ هؤلاء فيها، والأكنَّةُ كالأوعية والأغطية التي تغطِّي المتاع، ومنه «الكِنانة» لغلاف السِّهام.

---

(١) رُوِي هذا عن ابن عباس من وجهٍ لا يثبت، وعن عطية العوفي. انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٧٣).

(٢) انظر: «شفاء العليل» (٢٩٥ - ٢٩٦).

الرابع: أنَّ سياقَ الآية لا يَحْسُنُ مع المعنىٰ الذي ذكروه، ولا يَحْسُنُ مقابلتُه بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وإنما يَحْسُنُ مع هذا المعنىٰ أن يُسْلَبَ عنهم العلمُ والحكمةُ التي ٱدَّعوها؛ كما قيل لهم لـمَّا ٱدَّعوا ذلك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأما هنا فلمَّا ٱدَّعوا أنَّ قلوبهم في أغطيةٍ وأغشيةٍ لا تفقهُ قولَه، قوبلوا بأنْ عرَّفهم أنَّ كفرهم ونقضَهم ميثاقَهم وقتلَهم الأنبياء كان سببًا لأنْ طُبِعَ علىٰ قلوبهم.

ولا ريب أنَّ القلبَ إذا طُبِعَ عليه أظلمت صورةُ العلم فيه وانطمست، وربَّما ذهب أثرُها، حتىٰ يصيرَ السببُ الذي يهتدي به المهتدون سببًا لضلال هذا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧]؛ فأخبر تعالىٰ أنَّ القرآنَ سببٌ لضلال هذا الصِّنف من الناس، وهو هُداه الذي هدىٰ به رسولَه وعبادَه المؤمنين.

ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهدي به من ٱتبعَ رضوانَ الله[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

---

(١) كما في سورة المائدة، الآية: ١٦.

ولا شيء أعظمُ فسادًا لمحلِّ العلم من صَيْرورته بحيث يَضِلُّ بما يُهتدىٰ به، فنسبتُه إلىٰ الهدىٰ والعلم نسبةُ الفَمِ الذي قد ٱستحكَمت فيه المرارةُ إلىٰ الماء العَذْب؛ كما قيل:

ومن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا[1]

فإذا فسد القلبُ فسد إدراكُه، وإذا فسد الفمُ فسد إدراكُه، وكذلك إذا فسدت العَيْن.

وأهلُ المعرفة من الصَّيارفة يقولون: «إنَّ من خانَ في نَقْده نَسِيَ النَّقْدَ وسُلِبَه، فاشتبه عليه الخالصُ بالزَّغَل»[2].

ومن كلام بعض السَّلف: «العلمُ يَهْتِفُ بالعمل، فإن أجابه حَلَّ وإلا ٱرتحل»[3].

وقال بعضُ السلف: «كنَّا نستعينُ علىٰ حفظ العلم بالعمل به»[4].

فتركُ العمل بالعلم من أقوىٰ الأسباب في ذهابه ونسيانه.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ يرادُ للعمل؛ فإنه بمنزلة الدليل للسَّائر، فإذا لم يَسِرْ

---

(١) البيت للمتنبي في ديوانه (١٣٠).

(٢) انظر: «روضة المحبين» (٥٣١).

(٣) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٤٠، ٤١) عن علي رضي الله عنه، ومحمد بن المنكدر.

(٤) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «التاريخ» (١/ ٣١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٤٢١، ٤٥٩)، والخطيب في «الجامع» (٢/ ٣٨٨)، و«اقتضاء العلم العمل» (١٤٩)، وغيرهم عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع الأنصاري.

خلفَ الدليل لم ينتفع بدلالته، فنزِّل منزلةَ من لم يعلم شيئًا؛ لأنَّ من علمَ ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم، كما أنَّ من ملك ذهبًا وفضَّةً وجاعَ وعَرِيَ ولم يَشْتَرِ منها ما يأكلُ ويلبسُ فهو بمنزلة الفقير العادِم؛ كما قيل:

ومن تركَ الإنفاقَ عند ٱحتياجِه　　　مخافةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفقرُ[1]

والعربُ تسمِّي الفُحْشَ والبَذاءَ: جَهْلًا؛ إما لكونه ثمرة الجهل فيسمَّىٰ باسم سببه ومُوجِبه، وإما لأنَّ الجهلَ يقال في جانب العلم والعمل؛ قال الشاعر[2]:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا　　　فَنَجْهَلَ فوق جهلِ الجاهلينا

ومن هذا قولُ موسىٰ لقومه وقد قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]؛ فجعلَ الاستهزاءَ بالمؤمنين جهلًا.

ومنه قولُه تعالىٰ حكايةً عن يوسف أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن هذا قولُه تعالىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ليس المرادُ به إعراضَه عمَّن لا علم عنده فلا يعلِّمه ولا يرشدُه، وإنما المرادُ إعراضُه عن جهل من جَهِلَ عليه منهم فلا يقابلُه ولا يعاتبُه.

---

(١) لم أجده. وهو محوَّرٌ عن بيت المتنبي المشهور:

ومن يُنْفِقُ الساعاتِ في جمع ماله　　　مخافةَ فقرٍ، فالذي فعل الفقرُ

(٢) عمرو بن كلثوم، في «ديوانه» (٣٣٠)، من معلَّقته. وهذا البيتُ آخِرُها في رواية أكثر الناس. انظر: «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (٤٢٦).

قال مقاتل وعروة والضَّحاك وغيرهم: «صُنْ نفسَك عن مقابلتهم على سَفَهِهم»[1].

وهذا كثيرٌ في كلامهم.

ومنه الحديث: «**إذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يَصْخَب ولا يَجْهَل**»[2].

ومن هذا تسميةُ المعصية: جهلًا؛ قال قتادة: «أجمع أصحابُ محمَّد ﷺ أنَّ كلَّ من عصىٰ اللهَ فهو جاهل»[3]، وليس المرادُ أنه جاهلٌ بالتحريم؛ إذ لو كان جاهلًا به لم يكن عاصيًا، ولا يترتَّبُ الحدُّ في الدنيا والعقوبةُ في الآخرة علىٰ جاهلٍ بالتحريم، بل نفسُ الذنب يسمَّىٰ جهلًا وإنْ علمَ مرتكبُه بتحريمه؛ إما لأنه لا يصدرُ إلا عن ضعف العلم ونقصانه، وذلك جهلٌ؛ فسمِّي باسم سببه، وإما تنزيلًا لفاعله منزلة الجاهل به.

الثاني[4]: أنهم لـمَّا ردُّوا الحقَّ ورغبوا عنه عُوقِبوا بالطَّبع والرَّيْن وسَلْب العقل والفهم؛ كما قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

الثالث: أنَّ العلمَ الذي يُنتَفعُ به ويستلزمُ النجاةَ والفلاحَ لم يكن حاصلًا

---

(١) وهذا أولىٰ من تفسير «الجاهلين» بالمشركين، ثم دعوىٰ أن الآية منسوخةٌ بآية السيف. انظر: «نواسخ القرآن» لمكّي (٢٥٣)، ولابن الجوزي (٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٢٤٩).

(٤) هذا استئنافٌ لذكر الأدلة علىٰ أن الموانع تحجبُ العلم وتُعَمِّيه. وقد ابتدأها المصنف (ص: ٢٧٢).

لهم، فسَلَبَ عنهم حقيقتَه، والشيءُ قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه؛ قال تعالىٰ في ساكن النار: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، نفىٰ الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها. ويقولون: «لا مال إلا ما أُنفِق، ولا علمَ إلا ما نَفَع»(١).

ولهذا نفىٰ سبحانه عن الكفار الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ لما لم ينتفعوا بها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولـمَّا لم يحصل لهم الهدىٰ المطلوبُ بهذه الحواسِّ كانوا بمنزلة فاقديها؛ قال تعالىٰ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فالقلبُ يوصفُ بالبصر والعمىٰ، والسَّمع والصَّمَم، والنطق والبَكَم، بل هذه له أصلًا وللعَيْن والأذن واللسان تبعًا، فإذا عَدِمَها القلبُ(٢) فصاحبُه أعمىٰ مفتوحُ العين، أصمُّ ولا آفة بأذنه، أبكمُ وإن كان فصيحَ اللسان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلا تنافي بين قيام الحجَّة بالعلم، وبين سلبه ونفيه بالطَّبع(٣) والخَتْم والقَفْل علىٰ قلوب من لم يعمل بمُوجَب الحجَّة وينقاد لها.

---

(١) انظر: «المستصفى» (٢/ ٣٢).

(٢) (ح): «فقدها القلب».

(٣) (د، ت، ح، ن): «والطبع».

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦]؛ فأخبَر سبحانه بأنه مَنَعهم فقهَ كلامه، وهو الإدراكُ الذي ينتفعُ به من فَقِهَه، ولم يكن ذلك مانعًا لهم من الإدراك الذي تقومُ به الحجَّةُ عليهم؛ فإنهم لو لم يفهموه جملةً ما وَلَّوا علىٰ أدبارهم نفورًا عند ذكر توحيد الله، فلما ولَّوا عند ذكر التوحيد دلَّ علىٰ أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأنَّ الذي غَشِيَ قلوبَهم كالذي غَشِيَ آذانَهم.

ومعلومٌ أنهم لم يَعْدَموا السمعَ جملةً ويصيروا كالأصمِّ، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارةً، ويثبتُه أخرىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ومعلومٌ أنهم قد سمعوا القرآن، وأُمِرَ الرسولُ بإسماعهم إيَّاه. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ فهذا السمعُ المنفيُّ عنهم سمعُ الفهم والفقه، والمعنىٰ: ولو علم اللهُ فيهم خيرًا لأسمعهم سمعًا ينتفعون به، وهو فقهُ المعنىٰ وعَقْلُه، وإلا فقد سمعوه سمعًا تقومُ به عليهم الحجَّة، ولكن لـمَّا سمعوه مع شدَّة بغضه وكراهته ونُفْرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجلُ إذا ٱشتدَّت كراهتُه للكلام ونُفْرته عنه لم يفهم ما يرادُ به، فيُنَزَّلُ منزلة من لم يسمعه، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، نفىٰ عنهم ٱستطاعةَ السمع مع صحَّة حواسِّهم

وسلامتها، وإنما لفَرْطِ بُغْضِهم ونُفْرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيعُ أن يسمعه ولا يراه، وهذا ٱستعمالٌ معروفٌ للخاصَّة والعامَّة، يقولون: «لا أطيقُ أنظرُ إلىٰ فلان، ولا أستطيعُ أسمعُ كلامَه» مِنْ بُغْضِه ونُفْرته عنه.

وبعضُ الجبريَّة يحتجُّ بهذه الآية وشِبْهها علىٰ مذهبهم، ولا دلالة فيها؛ إذ ليس المرادُ سَلْبَهم السمعَ والبصرَ الذي تقومُ به الحجَّةُ قطعًا، وإنما المرادُ سلبُ السمع الذي يترتبُ عليه فائدتُه وثمرتُه. والقَدَرُ حقٌّ، ولكنَّ الواجبَ تنزيلُ القرآن منازلَه، ووضعُ الآيات مواضعَها[1]، وٱتباعُ الحقِّ حيث كان.

ومثلُ هذا إذا لم يحصل له فهمُ الخطاب لا يُعْذَرُ بذلك؛ فإنَّ الآفةَ منه، وهو بمنزلة من سَدَّ أذنيه عند[2] الخطاب فلم يسمَعه، فلا يكونُ ذلك عذرًا له.

ومن هذا قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصِّلت: ٥]، يعنون أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به، وإيثار الإعراض عنه، وشدَّة النِّفار عنه، بمنزلة من لا يعقلُه ولا يسمعُه، ولا يُبْصِرُ المخاطِبَ لهم به؛ فهذا هو الذي يقولون لأجله في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ولهذا جَعَل ذلك مقدورًا لهم وذنبًا ٱكتسبوه، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

---

(١) (ت، د، ح، ن): «على مواضعها».

(٢) (ح): «عن».

والله تعالىٰ تارةً ينفي عن هؤلاء العقلَ والسمعَ والبصر ـ فإنها مداركُ العلم وأسبابُ حصوله ـ، وتارةً ينفي عنهم السمعَ والعقل، وتارةً ينفي عنهم السمعَ والبصر، وتارةً ينفي عنهم العقلَ والبصر، وتارةً ينفي عنهم العقلَ وحده، وتارةً ينفي عنهم السمعَ وحده[1].

فنفيُ الثلاثة نفيٌ لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفيُ بعضها نفيٌ له بالمطابقة وللآخر باللُّزوم؛ فإنَّ القلبَ إذا فسدَ فسدَ السمعُ والبصر، بل أصلُ فسادهما مِنْ فساده، وإذا فسدَ السمعُ والبصرُ فسدَ القلب، فإذا أعرض عن سَمْع الحقِّ وأبغض قائلَه بحيث لا يحبُّ رؤيتَه ٱمتنع وصولُ الهدىٰ إلىٰ القلب، ففسَد، وإذا فسدَ السمعُ والعقلُ تبعهما فسادُ البصر، فكلُّ مُدْرَكٍ[2] من هذه يصحُّ بصحَّة الآخر، ويفسدُ بفساده؛ فلهذا يجيء في القرآن نفيُ ذلك صريحًا ولزومًا.

وبهذا التفصيل يُعْلَمُ ٱتفاقُ الأدلَّة من الجانبين.

وفي ٱستدلال الطائفة الثانية بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ونظائرها نظر؛ فإنَّ الله تعالىٰ حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أرادَ ذمَّهم والإخبارَ عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتىٰ بلفظ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مبنيًّا للمفعول[3].

* فالأول، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

---

(١) اضطربت الأصول في ذكر التارات، والمثبت من (د).

(٢) بضمِّ الميم. انظر تحرير ذلك في «المصباح المنير» (درك).

(٣) (ح): «للمجهول». وانظر لهذا المعنىٰ: «بدائع الفوائد» (٧٢٥).

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآيات [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وكقوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم، ليس في سياق ذمِّهم والإخبار بعنادهم وجحودهم، كما ٱستشهَد بهم[(١)] في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

واختُلِفَ في الضمير في قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾:

فقيل: هو ضميرٌ للكتاب[(٢)] الذي أُوتُوه.

قال ٱبن مسعود[(٣)]: «يُحِلُّونَ حلالَه، ويحرِّمونَ حرامَه، ويقرؤونه كما أُنزِل، ولا يحرِّفونه عن مواضعه»[(٤)].

---

(١) (ح): «استشهدهم».

(٢) (ت، ن): «ضمير الكتاب».

(٣) (ت): «ابن عباس». وأخرجه عنه الطبري (٢/ ٥٦٦)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٦٦) ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٥٦)، ومن طريقه الطبري (٢/ ٥٦٧).

قالوا: ونزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: هذا وصفٌ للمسلمين، والضميرُ في ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ للكتاب الذي هو القرآن[1].

وهذا بعيد؛ إذ عُرْفُ القرآن يأباه.

ولا يَرِدُ علىٰ ما ذكرنا قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، بل هذا حجَّةٌ لنا أيضًا، لِـمَا ذكرنا، فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم، ٱستشهادًا بهم علىٰ من كفر، وثناءً عليهم، ولهذا ذكر المفسِّرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابُه[2]، وخَصَّ في آخر الآية بالذَّمِّ طائفةً منهم؛ فدلَّ علىٰ أنَّ الأولين غيرُ مذمومين، وكونُـهم دخلوا في جملة الأولين بلفظِ المضمَر لا يوجبُ أن يقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عند الإطلاق، فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضِمْنًا وتبعًا، فلا يلزمُ تناولُه لهم قصدًا واختيارًا.

وقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾.

قيل[3]: الرسولُ وصِدْقُه.

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٥٦٤) عن قتادة.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (١/ ١٤٧).

(٣) أي في ضمير ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾.

وقيل: المذكور، وهو التوحيد.

والقولان متلازمان؛ إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج علىٰ المشركين، لا في معرض ذمِّ الذين آتاهم الكتاب؛ فإنَّ السُّورة مكيَّة، والحِجَاجُ كان فيها مع أهل الشرك، والسِّياقُ يدلُّ علىٰ الاحتجاج لا ذمِّ المذكورين من أهل الكتاب.

* **وأما الثاني**، فكقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٤ - ١٤٥]؛ فهذا شهادتُه سبحانه للذين أوتوا الكتاب، والأولُ شهادتُه للذين آتاهم الكتابَ بأنهم مؤمنون.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهذا خطابٌ لمن لم يُسْلِمْ منهم، وإلا فلم يُؤْمَر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلمَ منهم وصدَّق به.

ولهذا لا يذكرُ سبحانه الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إلا بالذمِّ أيضًا، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] الآية، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فالأقسام أربعة:

* ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح.

* و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لا يكونُ قطُّ إلا في معرض الذَّمِّ.

* و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أعمُّ منه، فإنه قد يتناولهُما، ولكن لا يُفْرَدُ به الممدوحون قطُّ[1].

* و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَعُمُّ الجنسَ كلَّه، ويتناولُ الممدوحَ منه والمذموم، كقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٣- ١١٤]، وقال في الذَّمِّ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

وهذا الفصلُ يُنْتَفَعُ به جدًّا في أكثر[2] مسائل أصول الإسلام، وهي مسألةُ الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نُكَتًا حِسَانًا يتضحُ بها الحقُّ في المسألة، والله أعلم.

الوجه الثاني والثمانون: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ فاوتَ بين النوعِ الإنسانيِّ أعظمَ تفاوتٍ يكونُ بين المخلوقين، فلا يُعْرَفُ ٱثنان من نوعٍ واحدٍ بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرِّهم.

---

(١) (ح، ن): «فقط». وهي قط، والفاء زائدة.

(٢) كذا في الأصول. ولعل الصواب: «أكبر».

واللهُ سبحانه خَلَق الملائكةَ عقولًا بلا شهوات، وخَلَق الحيوانات ذوات شهواتٍ بلا عقول، وخَلَق الإنسانَ مركَّبًا من عقلٍ وشهوةٍ؛ فمن غَلَب عقلُه شهوتَه كان خيرًا من الملائكة، ومن غَلَبَت شهوتُه عقلَه كان شرًّا من الحيوانات(١).

وفاوتَ سبحانه بينهم في العلم؛ فجعلَ عالِمَهم معلِّمَ الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وتلك مرتبةٌ لا مرتبةَ فوقها، وجعلَ جاهلَهم بحيثُ لا يرضىٰ الشيطانُ به ولا يَصْلُح له، كما قال الشيطانُ لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقال لـجَهَلَتِهم الذين عصوا رسولَه: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فلِلَّه ما أشدَّ هذا التفاوت بين شخصين، **أحدهما**: تسجدُ له الملائكةُ ويعلِّمها مما علَّمه الله، **والآخر**: لا يرضىٰ الشيطانُ به وليًّا!

وهذا التفاوتُ العظيمُ إنما حصلَ بالعلم وثمرته، ولو لم يكن في العلم إلا القُربُ من ربِّ العالمين، والالتحاقُ بعالَم الملائكة، وصحبةُ الملأ الأعلىٰ؛ لكفىٰ به فضلًا وشرفًا، فكيف وعزُّ الدُّنيا والآخرة منوطٌ به ومشروطٌ بحصوله؟!

الوجه الثالث والثمانون: أنَّ أشرفَ ما في الإنسان محلُّ العلم منه، وهو قلبُه وسمعُه وبصرُه.

---

(١) انظر: «التمثيل والمحاضرة» (١٧٢)، و«أدب الدنيا والدين» (٢٨)، و«سراج الملوك» (٢٧٥)، و«البدء والتاريخ» (١/ ١٨٠)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٥١، ١٥/ ٤٢٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٢)، و«عدة الصابرين» (٣٧).

ولـمَّا كان القلبُ هو محلَّ العلم، والسمعُ رسولُه الذي يأتيه بـه، والعينُ طليعتُه؛ كان مَلِكًا علىٰ سائر الأعضاء، يأمرُها فتأتمرُ لأمـره، ويـصرفُها فتنقـادُ له طائعة، بما خُصَّ به من العلم دونها، فلذلك كان مَلِكَها والمطاع فيها.

وهكذا العالِمُ في الناس كالقلب في الأعضاء.

ولـمَّا كان صلاحُ الأعضاء بصلاح مَلِكِها ومطاعها، وفسادُها بفساده؛ كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم، كما قال بعض السلف: «صنفان إذا صلحا صلحَ الناس[1]، وإذا فسدا فسدَ الناس: العلماءُ والأمراء»[2].

قال عبد الله بن المبارك:

وهـل أفسدَ الـدِّينَ إلا الـمُلوكُ وأحبـارُ سـوءٍ ورهبانُـهـا[3]

ولـمَّا كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزءٍ من الإنسان وهو وجهُه، وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع.

---

(١) (ق): «سائر الناس». في الموضعين.

(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥) عن سفيان الثوري.
ورُوِي بلفظه مرفوعًا من حديث ابن عباسٍ، أخرجه تمام في «الفوائد» (٣/ ١٠٢ - الروض)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٦٤١)؛ بإسنادٍ شديد الضعف.
وانظر: «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٣)، و«الضعيفة» (١٦).

(٣) من أبياتٍ مشهورة تروى عنه، في «الحلية» (٨/ ٢٧٩)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٨)، ومعجم ابن المقرئ (١٢٠٥)، و«جامع بيان العلم» (١/ ٦٣٨)، وغيرها.

واختلفَ الناسُ في الأفضل منهما[1]:

* فقالت طائفة، منهم أبو المعالي[2] وغيرُه: السمعُ أفضل.

قالوا: لأنَّ به تنالُ سعادةُ الدنيا والآخرة، فإنها إنما تحصلُ بمتابعة الرسل، وَقبول رسالاتهم، وبالسمع عُرِفَ ذلك؛ فإنَّ من لا سَمْعَ له لا يعلمُ ما جاءوا به.

وأيضًا؛ فإنَّ السمعَ يُدْرَكُ به أجلُّ شيءٍ وأفضلُه، وهو كلامُ الله تعالىٰ الذي فضلُه علىٰ الكلام كفضل الله علىٰ خلقه.

وأيضًا؛ فإنَّ العلومَ إنما تنالُ بالتفاهم والتخاطب، ولا يحصلُ ذلك إلا بالسمع.

وأيضًا؛ فإنَّ مُدْرَكه أعمُّ من مُدْرَكِ البصر؛ فإنَّه يدركُ الكلِّيَّات والجزئيَّات والشاهدَ والغائب والموجودَ والمعدوم، والبصرُ لا يدركُ إلا بعض المشاهَدات، والسمعُ يسمعُ كلَّ علم؛ فأين أحدُهما من الآخر؟!

---

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (٨٧٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٩)، و«الصناعتين» لأبي هلال (٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (١/ ٥٣، ١٧/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٨٩)، و«اللباب» لابن عادل (١/ ٣٢٦)، و«روح المعاني» (١/ ١٣٨)، و«الحاوي» (١٢/ ٢٤٤)، و«حاشية البجيرمي على الخطيب» (٤/ ٥٣٧)، و«الذخيرة» للقرافي (٣/ ٣٧٨)، و«حاشية قرة عيون الأخبار» تكملة «رد المحتار» (٧/ ١٢٨)، و«نكت الهميان» (١٧)، و«تسلية الأعمىٰ عن بلية العمىٰ» للقاري (٥٧)، والمصادر الآتية في التعليقات.

ولكمال الدين البكري (ت: ١١٩٦): «تشنيف السمع في تفضيل البصر علىٰ السمع» كما في ترجمته من «سلك الدرر» (٤/ ١٩).

(٢) الجويني. انظر: «البرهان» (١/ ١٣٤).

ولو فرضنا شخصين: أحدهما يسمعُ كلام الرسول ولا يرىٰ شخصَه، والآخر بصيرٌ يراه ولا يسمعُ كلامَه لصممه، هل كانا سواءً؟!

وأيضًا؛ ففاقدُ البصر إنما يفقدُ إدراكَ بعض الأمور الجزئية المشاهَدة، ويمكنُه معرفتُها بالصِّفة ولو تقريبًا، وأمَّا فاقدُ السمع فالذي فاته من العلم لا يمكنُ حصولُه بحاسَّة البصر ولا قريبًا.

وأيضًا؛ فإنَّ ذمَّ الله تعالىٰ للكفار بعدم السمع في القرآن أكثرُ من ذمِّه لهم بعدم البصر، بل إنما يذمُّهم بعدم البصر تبعًا لعدم العقل والسمع.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي يُورِدُه السمعُ علىٰ القلب من العلوم لا يلحقُه فيه كلالٌ ولا سآمةٌ ولا تعبٌ مع كثرته[1] وعِظَمِه، والذي يُورِدُه البصرُ عليه يلحقُه فيه الكَلالُ والضعفُ والنقص، وربَّما خشي صاحبُه علىٰ ذهابه مع قلَّته ونزارته بالنسبة إلىٰ السمع.

* وقالت طائفة، منهم ٱبن قتيبة: بل البصرُ أفضل[2]؛ فإنَّ أعلىٰ النعيم وأفضلَه وأعظمَه لذَّةً هو النظرُ إلىٰ الله في الدار الآخرة، وهذا إنما ينالُ بالبصر، وهذه وحدها كافيةٌ في تفضيله.

قالوا: وهو مقدِّمةُ القلب وطليعتُه ورائدُه، فمنزلتُه منه أقربُ من منزلة السمع؛ ولهذا كثيرًا ما يُقْرَنُ بينهما في الذِّكر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى

---

(١) (ح): «من كثرته».

(٢) كذا ذكر المصنفُ قول ابن قتيبة، ونقله في «بدائع الفوائد» (١٢٤) عن الجويني عنه. وهو وهم. والذي في «تأويل مشكل القرآن» (٧) ــ ونقله الجوينيُّ وابن تيمية وغيرهما ــ هو القولُ بتفضيل السمع. ووقعت حكايته علىٰ الصواب في «بدائع الفوائد» (١١٠٦).

ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢]؛ فالاعتبارُ بالقلب والبصرُ بالعين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولم يقل: وأسماعَهم، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨ - ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال في حقِّ رسوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وهذا يدلُّ علىٰ شدَّة الوُصْلَة والارتباط بين القلب والبصر، ولهذا يقرأ الإنسانُ ما في قلب الآخر مِنْ عَيْنِه، وهذا كثيرٌ في كلام الناس نَظْمِه ونثره، وهو أكثرُ من أن نذكره هنا(١).

ولمَّا كان القلبُ أشرفَ الأعضاء كان أشدُّها ٱرتباطًا به أشرفَ(٢) من غيره.

قالوا: ولهذا يأتمنُه القلبُ ما لا يأتمنُ السمعَ عليه، بل إذا ٱرتاب من جهته(٣) عَرَض ما يأتيه به علىٰ البصر ليزكِّيه أم يردَّه، فالبصرُ حاكمٌ عليه

---

(١) انظر: «روضة العقلاء» (١٩٩)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» (٢٩٨)، و«الزهرة» (٤٢٢، ٤٢٥)، و«معاهد التنصيص» (١/ ١٢٩)، و«غرر الخصائص» (١/ ١٠٨).

(٢) (ق): «وأشرف». وهو تحريف.

(٣) (ح، ن): «جهة السمع».

مؤتمَنٌ عليه.

قالوا: ومن هذا: الحديثُ الذي رواه أحمد في «مسنده» مرفوعًا: «**ليس المُخْبَرُ كالمُعايِن**»[1].

قالوا: ولهذا أخبر اللهُ سبحانه موسىٰ أنَّ قومَه ٱفتَتَنوا من بعده، وعَبَدوا العجل، فلم يلحقه في ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكَسْرِها؛ لقوَّة المعاينة[2] علىٰ الخبر.

قالوا: وهذا إبراهيمُ خليلُ الله يسألُ ربَّه أن يُرِيَه كيف يحيي الموتىٰ، وقد عَلِم ذلك بخبر الله له ولكنْ طَلَبَ أفضلَ المنازل وهي طمأنينةُ القلب.

قالوا: ولليقين ثلاثُ مراتب:

* أولها: للسمع.

* وثانيها: للعين[3]. وهي المسمَّاة بعين اليقين، وهي أفضلُ من المرتبة الأولىٰ وأكمل[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، والبزار (٥٠٦٢، ٥٠٦٣، ٥١٥٥)، وغيرهما من حديث ابن عباس.
وصححه ابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والحاكم (٢/ ٣٢١) ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: «علل الترمذي الكبير» (٣٨٧)، و«الكامل» لابن عدي (٧/ ١٣٦)، و«موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٣٨)، و«المقاصد الحسنة» (٤١٥).
وروي من أوجهٍ أخرىٰ لا تثبت.

(٢) (ق): «لفوت المعاينة».

(٣) (ح): «أولها السمع، والثاني العين».

(٤) والمرتبةُ الثالثة هي طمأنينةُ القلب الحاصلةُ عن مباشرة المعلوم وإدراكه إدراكًا تامًّا، =

قالوا: وأيضًا؛ فالبصرُ يؤدِّي إلىٰ القلب، ويؤدِّي عنه؛ فإنَّ العينَ مرآةُ القلب، يظهرُ فيها ما يُجِنُّه من المحبة والبغض، والموالاة والمعاداة، والسُّرور والحزن، وغيرها.

وأمَّا الأذنُ، فلا تؤدِّي عن القلب شيئًا البتَّة، وإنما مرتبتُها الإيصالُ إليه حَسْب؛ فالعينُ أشدُّ تعلُّقًا به.

* والصوابُ[1] أنَّ كلًّا منهما له خاصِّيَّةٌ فُضِّل بها علىٰ الآخر؛ فالمُدْرَكُ بالسمع أعمُّ وأشمل، والمُدْرَكُ بالبصر أتمُّ وأكمل؛ فالسمعُ له العمومُ والشمول، والبصرُ له الظهورُ والتمامُ وكمالُ الإدراك.

وأمَّا نعيمُ أهل الجنة فشيئان:

أحدهما: النظرُ إلىٰ الله.

والثاني: سماعُ خطابه وكلامه؛ كما رواه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة»[2] وغيره: «كأنَّ الناسَ يوم القيامة لم يسمعوا القرآنَ إذا سمعوه من

= وهي حقُّ اليقين، والمرتبةُ الثانيةُ تؤدِّي إليها، وقد طواها المصنفُ لتقدُّم ذكرها. وانظر ما سيأتي (ص: ٤١٩).

(١) هذا جوابُ شيخ الإسلام ابن تيمية، كما ذكر المصنفُ في «مدارج السالكين» (٢/ ٤١٠)، و«بدائع الفوائد» (١٢٦، ١١٠٧). وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٦٨)، و«درء التعارض» (٧/ ٣٢٥)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (٩٦). وذكر الصفديُّ في «نكت الهميان» (١٨) أن لشيخ الإسلام كراسةً في هذه المسألة.

(٢) (١٢٣)، والخلال في «السنة» (٦/ ٨٤، ٨٥) كلاهما عن محمد بن كعب القرظيِّ قوله.
وأخرجه الرافعي في «التدوين» (٤/ ٤٠٣) عنه عن أبي هريرة مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف، ورفعُه منكر.

الرحمن عز وجل».

ومعلومٌ أنَّ سلامَه عليهم وخطابَه لهم ومحاضرتَه إياهم ـ كما في الترمذي[1] وغيره ـ لا يُشْبِهها شيءٌ قطُّ، ولا يكونُ أطيب عندهم منها، ولهذا يذكرُ سبحانه في وعيد أعدائه أنه لا يكلِّمهم، كما يذكرُ ٱحتجابَه عنهم وأنهم لا يرونه، فكلامُه ورؤيتُه أعلىٰ نعيم أهل الجنة، والله أعلم.

الوجه الرابع والثمانون: أنَّ الله سبحانه في القرآن يعدِّدُ علىٰ عباده من نعمه عليهم أنْ أعطاهم آلات العلم، فيذكرُ الفؤادَ والسمعَ والأبصار، ومرةً يذكرُ اللسانَ الذي يُتَرْجِمُ عن القلب.

فقال تعالىٰ في سورة النِّعم ـ وهي سورة النحل ـ التي ذكر فيها أصولَ النِّعم وفروعَها ومتمِّماتها ومكمِّلاتها، فعدَّدَ نعمَه فيها علىٰ عباده، وتعرَّف بها إليهم، وٱقتضاهم شكرَها[2]، وأخبر أنه يتمُّها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأوَّلها في أصول النِّعم، وآخرُها في مكمِّلاتها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فذكر سبحانه نعمته عليهم بأنْ أخرجَهم لا علمَ لهم، ثمَّ أعطاهم الأسماعَ والأبصارَ والأفئدةَ التي نالوا بها من العلم ما نالوه، وأنه فَعَل بهم ذلك ليشكروه.

---

(١) (٢٥٤٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه...».
وصححه ابنُ حبان (٧٤٣٨)، وابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٦/ ٤١٩).
وروي من وجهٍ آخر فيه انقطاع، وهو أصح، وبه أعلَّه الدارقطنيُّ في «العلل» (٧/ ٢٧٥)، والحنائيُّ في «الفوائد» (ق: ١٢/ أ).

(٢) (ت): «وأوصاهم شكرها».

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، فذكر هنا العينين اللَّتين[1] يُبْصِرُ بهما فيعلَم المشاهَدات، وذكر هدايةَ النجدَين، وهما طريقا الخير والشرِّ، وفي ذلك حديثٌ مرفوعٌ مرسل[2]، وهو قولُ أكثر المفسِّرين، ويدلُّ عليه الآيةُ الأخرىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

والهدايةُ تكونُ بالقلب والسمع؛ فقد دخلَ السمعُ في ذلك لزومًا، وذكر اللسانَ والشفتَيْن اللَّتين هما آلةُ التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالَّة عليه وعلىٰ قدرته ووحدانيته ونِعَمه التي تعرَّف بها إلىٰ عباده.

ولـمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثلاثةُ هي أشرفَ الأعضاء وملوكَها والمتصرِّفةَ فيها والحاكمةَ عليها، خصَّها سبحانه وتعالىٰ بالذِّكر في السؤال عنها؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فسعادةُ

---

(١) (ق، ن، ت، د): «التي». والمثبت من (ح)، وأخشى أن يكون من إصلاح الناسخ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٧٤)، والطبري (٢٤/ ٤٣٨) من مرسل الحسن. وأخرجه الطبري (٢٤/ ٤٣٩) من مرسل قتادة.

وأخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٧٤)، والطبري (٢٤/ ٤٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٥)، واللالكائي في «السنة» (٩٥٦)، وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا، وصححه الحاكم (٢/ ٥٢٣)، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٤١).

ورُوِي من وجوهٍ أخرىٰ مرفوعًا وموقوفًا، فانظر: «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٣).

الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة، وشقاوتُه بفسادها.

قال ٱبن عباس: «يسألُ اللهُ العبادَ فيما ٱستعملوا هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد»[1].

والله تعالىٰ أعطىٰ العبدَ السمعَ ليسمعَ به أوامرَ ربِّه ونواهيه وعُهودَه، والقلبَ ليعقلها ويَفْقَهها، والبصرَ ليرىٰ آياته فيستدلَّ بها علىٰ وحدانيته وربوبيته؛ فالمقصودُ بإعطائه هذه الآلات العلمُ وثمرتُه ومقتضاه.

الوجه الخامس والثمانون: أنَّ أنواع السعادات التي تُؤْثِرُها النفوسُ ثلاثة:

* **سعادةٌ خارجيةٌ** عن ذات الإنسان، بل هي مستعارةٌ له من غيره، تزولُ باسترداد العاريَّة، وهي سعادةُ المال والجاه وتوابعهما، فبينا المرءُ بها سعيدٌ ملحوظٌ بالعناية مرموقٌ بالأبصار، إذ أصبح في اليوم الواحد أذلَّ مِنْ وَتِدٍ بقاعٍ يُشَجِّجُ رأسَه بالفِهْر واجي[2].

---

(1) أخرجه الطبري (٢٤/ ٥٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٨/ ٤٩٢) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(2) هذا مثلٌ سائر. انظر: «المستقصىٰ» (١/ ١٩٩)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ٤٦٨).
وأصلُه بيتٌ لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، من كلمةٍ يهجو فيها عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص، في «الكامل» (٣٤١، ٦٢٧). قال:

وكنتَ أذلَّ من وتدٍ بقاعٍ يشجِّجُ رأسَه بالفِهْر واجِي

وهو من شواهد «الكتاب» (٣/ ٥٥٥)، و«شرح المفصَّل» (٩/ ١١٤)، و«شرح الشافية» (٣/ ٤٩)، وغيرها.
والقاع: المستوي من الأرض. ويُشَجِّج: مبالغةٌ من يشُجُّ. والفِهْر: الحجرُ ملء الكفِّ. و«واجي» أصلُها: «واجىء»، اسمُ فاعلٍ من وَجَأ، خفَّف الهمزَ اضطرارًا.

فالسعادةُ والفرحُ بهذه كفرح الأقرع بجُمَّة آبن عمِّه، والجمالُ بها كجمال المرء بثيابه وبِزَّته، فإذا جاوز بصرُك كسوتَه فليس وراء عَبَّادان قرية[1].

ويحكىٰ عن بعض العلماء أنه ركبَ مع تجَّارٍ في مركب، فانكسرت بهم السفينة، فأصبحوا بعد عزِّ الغنىٰ في ذلِّ الفقر، ووصلَ العالِمُ إلىٰ البلد، فأُكرِمَ وقُصِدَ بأنواع التُّحف والكرامات، فلمَّا أرادوا الرجوع إلىٰ بلادهم قالوا له: هل لك إلىٰ قومك كتابٌ أو حاجة؟ فقال: نعم، تقولون لهم: إذا آتخذتم مالًا فاتخذوا مالًا لا يغرقُ إذا آنكسرت السفينة[2].

واجتمعَ رجلٌ ذو هيئةٍ حسنةٍ ولباسٍ جميلٍ ورُوَاءٍ[3] برجلٍ عالِم،

---

(١) عبَّادان: بلدةٌ علىٰ الضفَّة الغربية لدجلة، تحت البصرة، ليس وراءها قريةٌ غير البحر (الخليج العربي)، وهي الآن ميناءٌ كبير تنتهي فيه أنابيب النفط الإيراني. انظر: «معجم البلدان» (عبادان)، و«الروض المعطار» (٤٠٧)، و«بلدان الخلافة الشرقية» (٧٠).

والعبارةُ مثلٌ سائر. وتطلقُ كنايةً عن الرجل الحسن الصورة وليس وراءه حاصل. انظر: «مجمع الأمثال» (٢/ ٢٥٧)، و«الكناية والتعريض» (١١٥)، و«تتمة يتيمة الدهر» (٥/ ٢٣٥).

وسياقُ المصنف مأخوذٌ من قول الخوارزمي أو غيره:

أبو سعدٍ له ثوبٌ نفيسٌ	ولكن تحت ذاك الثوب عرية
فإن جاوزت كسوتَه إليه	فليس وراء عبادان قرية

انظر: «محاضرات الأدباء» (٤/ ١٦)، و«رسائل الثعالبي» (١٣٧).

(٢) انظر: «الكلم الروحانية» لابن هندو (٩٠)، و«مختار الحكم» للمبشر بن فاتك (٣٢)، ومنتخب «صوان الحكمة» (٢١٧)، و«نزهة الأرواح» للشهرزوري (١/ ٣٠٦).

(٣) بضمِّ الراء. وهو المنظر الحسن. «اللسان» (روي).

فجَسَّ المَخاضَةَ[1] فلم ير شيئًا، فقالوا: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُ دارًا حسنةً مزخرفةً ولكنْ ليس بها ساكن!

* **السعادة الثانية**: سعادةٌ في جسمه وبدنه؛ كصحته واعتدال مِزاجه، وتناسُب أعضائه، وحُسْن تركيبه، وصفاء لونه، وقوَّة أعصابه[2].

فهذه ألصقُ به من الأولىٰ، ولكن هي في الحقيقة خارجةٌ عن ذاته وحقيقته؛ فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه، كما قيل:

يا خادمَ الجسم كم تشقىٰ بخدمته   فأنت بالرُّوح لا بالجِسْم إنسانُ[3]

فنسبةُ هذه إلىٰ روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلىٰ بدنه؛ فإنَّ البدنَ أيضًا عاريةٌ للرُّوح وآلةٌ لها ومركبٌ من مراكبها، فسعادتُها بصحَّته، وجمالُه وحُسْنُه سعادةٌ خارجةٌ عن ذاتها وحقيقتها.

* **السعادة الثالثة**: هي السعادةُ الحقيقية، وهي سعادةٌ نفسانيةٌ روحيةٌ قلبية، وهي سعادةُ العلم النافع وثمرتُه؛ فإنها هي الباقيةُ علىٰ تقلُّب الأحوال،

---

(١) كنايةٌ عن اختبار المرء لكشف دخيلته. ويرادفه: سَبْر الغَوْر. انظر: «المعجم الكبير» لتيمور (٥/ ٣٢٢)، و«التصوف الإسلامي» لزكي مبارك (٢٨٦).

(٢) (ت، د، ق): «أعضائه».

(٣) البيت لأبي الفتح البستي في «ديوانه» (٣١١)، وهو في بعض المصادر ضمن نونيَّته المشهورة، وورد مع آخر في نسخ الديوان منفردين عنها.

وفي (ح، ن) بعد البيت زيادة: «وفي رواية:

يا خادم الجسم كم تشقىٰ بخدمته   لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل علىٰ النفس فاستكمل فضائلها   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان»

وهي رواية الديوان، وأظنها كانت تعليقًا لأحد القرَّاء، فأدخله الناسخ في الأصل.

والـمُصاحِبةُ للعبد في جميع أسفاره، وفي دُوره الثلاثة ـ أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار ـ، وبها يترقَّىٰ في معارج الفضل ودرجات الكمال.

أمَّا الأولىٰ، فإنما[1] تصحبُه في البقعة التي فيها مالُه وجاهُه.

والثانية، فعُرضةٌ للزوال والتبدُّل بِنَكْس الخَلْق والردِّ إلىٰ الضَّعف.

فلا سعادةَ في الحقيقة إلا هذه **الثالثة**، التي كلَّما طال عليها الأمدُ ٱزدادت قوةً وعلوًّا، وإذا عُدِمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العبد وجاهُه، وتظهرُ قوتُها وأثرُها بعد مفارقة البدن[2] إذا ٱنقطعت السعادتان الأوَّلتان[3].

وهذه السعادةُ لا يعرفُ قَدْرَها ويبعثُ علىٰ طلبها إلا العلمُ بها؛ فعادت السعادةُ كلُّها إلىٰ العلم وما يقتضيه، والله يوفِّقُ من يشاء، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع.

وإنما رَغِبَ أكثرُ الخلق عن ٱكتساب هذه السعادة وتحصيلها لوعورة طريقها، ومرارة مَباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنالُ إلا علىٰ جسرٍ من التعب[4]؛ فإنها لا تُحَصَّلُ إلا بالجدِّ المحض، بخلاف الأوَّلتَين[5]، فإنهما حظٌّ قد يَحُوزُه

(١) (ت، د، ق، ح): «فإنها».

(٢) أي: مفارقة الروح البدن.

(٣) كذا في الأصول، مثنى: الأوَّلة. لغةٌ حكاها ثعلب، وعدَّها طائفةٌ من لحن العوام. والمشهور الفصيح: الأُولَيان، مثنى: الأُولىٰ. انظر: «اللسان» (وأل)، و«تصحيح التصحيف» (١٣٩)، و«المصباح المنير» (آل). وتقع في مواضع من كتب المصنف بالتاء، وفي مواضع بالياء، ويصعب تمييز قلمه من اجتهادات النساخ في مثل هذا مما لم يصلنا بخطه.

(٤) (ن): «التعب والمشقة».

(٥) مهملة في (د). (ق): «الأوليين».

غيرُ طالبه، وبَخْتٌ قد يحرزُه[1] غيرُ جالبِه من ميراثٍ أو هبةٍ أو غير ذلك، وأمَّا سعادةُ العلم فلا يورثُك إياها إلا بذلُ الوسع، وصدقُ الطَّلب، وصحةُ النية.

وقد أحسنَ القائلُ في ذلك[2]:

فقُلْ لِمُرجِّي معالي الأمور   بغيرِ ٱجتهادٍ رَجَوْتَ المُحالا

وقال الآخر[3]:

لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهم   الجُودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قتَّالُ

ومن طمَحَت همَّته إلىٰ الأمور العَلِيَّة، فواجبٌ عليه أن يَسُدَّ علىٰ همَّته الطُّرقَ الدنيَّة.

وهذه السعادةُ وإن كانت في ٱبتدائها لا تنفكُّ عن ضربٍ من المشقَّة والكَرْه والتأذِّي، فإنها متىٰ أُكرِهَت النفسُ عليها، وسِيقَت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرَت علىٰ لأوائها وشدَّتها، أفضتْ منها إلىٰ رياضٍ مُونِقَة، ومقاعدِ صدقٍ ومقامٍ كريم، تجدُ كلَّ لذَّةٍ دونها كلذَّة لعب الصَّبيِّ بالعصفور بالنسبة إلىٰ لذَّة الملوك؛ فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيل:

وكنتُ أرىٰ أنْ قد تناهىٰ بيَ الهوىٰ   إلىٰ غايةٍ ما بعدَها ليَ مذهبُ

---

(١) (ت، ق، د، ح): «يحوزه». والبَخْت: فارسية، بمعنىٰ الحظِّ.

(٢) وهو الخُبْزأَرُزِّي (ت: ٣٢٧)، في مستدرك ديوانه المنشور بمجلة المجمع العلمي العراقي (٣/ ٤٢/ ١٤١)، وشعره المجموع في مجلة معهد المخطوطات (٢/ ٣٩/ ١٣٥)، كلاهما عن «محاضرات الأدباء» (١/ ١٥٦، ٢/ ٤٤٦).

(٣) وهو المتنبي، في ديوانه (٥٠٥)، من كلمةٍ يمدح فيها فاتكًا، هي عندي من أصدق مدائحه.

فلـمَّا تلاقينـا وعايَنْـتُ حُـسْنَها تيقَّنـتُ أني إنـما كنـتُ ألعـبُ[1]

فالمكـارمُ مَـنُوطةٌ بالمكـاره، والـسعادةُ لا يُعْـبَرُ إليهـا إلا عـلىٰ جـسر المشقَّة، ولا تُقْطَعُ مسافتُها إلا في سفينة الجدِّ والاجتهاد.

قال مسلمٌ في «صحيحه»[2]: «قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا يُنالُ العلمُ براحة الجسم».

وقد قيل: «من طلبَ الراحةَ تركَ الراحة»[3].

فيـا وَصْـلَ الحبيـب أمَـا إليـه بغـيرِ مـشقَّـةٍ أبـدًا طريـقُ[4]

ولولا جهلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللذَّة وعِظَم قدرها لتَجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره، وحُجِبوا عنها بحجابٍ من الجهل؛ ليختصَّ اللهُ بها من يشاء من عباده، والله ذوالفضل العظيم.

الوجه السادس والثمانون: أنَّ اللهَ سبحانه خلقَ الموجودات، وجَعَل

---

(١) نسبهما محمد بن داود في «الزهرة» (٢٧٤) لبعض أهل العصر، علىٰ عادته في عزو شعره لبعض أهل عصره، كما ذكر المسعوديُّ في «مروج الذهب» (٥/ ١٩٦)، وتصديقُه فيما كتب نوري القيسي في «أوراق من ديوان محمد بن داود» (١٠ - ١٢).

(٢) (٦١٢). ولإيراد مسلم له في صحيحه في هذا الموضع منه نكتةٌ لطيفة، انظر: «إكمال المعلم» (٢/ ٥٧٧)، و«شرح النووي» (٥/ ١١٣).

(٣) انظر: «الزهد» للبيهقي (٨٣)، و«أدب الدنيا والدين» (٦٥).

وقال مِهْيار، ديوانه (١/ ٨٠):

أتعبَه تغليسُه في العُلا من طلبَ الراحةَ فليتعبِ

(٤) لم أجده، ويشبه نظم المصنف.

لكلِّ شيءٍ منها كمالًا يختصُّ به هو غايةُ شرفه، فإذا عَدِمَ كمالَه ٱنتقل إلىٰ الرتبة التي دونه واستُعمِلَ فيها، فكان ٱستعمالُه فيها كمالَ أمثاله، فإذا عَدِمَ تلك أيضًا نُقِلَ إلىٰ ما دونها، ولا يُعَطَّلُ[1]، وهكذا أبدًا، حتىٰ إذا عَدِمَ كلَّ فضيلةٍ صار كالشَّوك وكالحطب الذي لا يصلحُ إلا للوقود.

فالفَرسُ إذا كانت فيه فروسيَّتُه التامَّةُ أُعِدَّ لمراكب الملوك، وأُكرِمَ إكرامَ مثله، فإذا نزل عنها قليلًا أُعِدَّ لمن دون الـمَلِك، فإن ٱزداد تقصيرُه فيها أُعِدَّ لآحاد الأجناد، فإن تقاصر عنها جملةً ٱستُعمِلَ ٱستعمالَ الحمار، إمَّا حولَ المَدار، وإمَّا لنقل الزِّبْل ونحوه، فإن عَدِمَ ذلك ٱستُعمِلَ ٱستعمالَ الأغنام للذبح والإعدام.

كما يقال في المثل[2]: إن فرسَيْن ٱلتقيا؛ أحدُهما تحت مَلِكٍ والآخرُ تحت الرَّوايا[3]، فقال فرسُ الملك: أمَا أنت صاحبي وكنتُ أنا وأنت في مكانٍ واحد، فما الذي نزَل بك إلىٰ هذه المرتبة؟! فقال: ما ذاك إلا أنك هَمْلَجْتَ قليلًا وتَكسَّعتُ[4] أنا!

وهكذا السيفُ إذا نبا عمَّا هُيِّيء له ولم يصلُح له، ضُرِبَ منه فأسٌ أو

---

(١) (ق، د): «ولا تعطل».

(٢) انظر هذا المعنىٰ في: «البيان والتبين» (٢/ ١٠٣)، و«عيون الأخبار» (١/ ٢٣٥)، و«المدهش» (٣٠٠).

(٣) جمعُ راوية، وهي المزادةُ فيها الماء. «اللسان» (روي).

(٤) تكسَّع في ضلاله: ذهبَ، كتسكَّع. وربما أراد: شابهتُ الحمير، سُمِّيت الحميرُ كُسعةً لأنها تُكْسَعُ في أدبارها، أي: تُضرب. «اللسان» (كسع). وفي (ت): «وأينعت». (د): «تلسعت»، وفوقها بخطٍّ دقيق: كذا.

منشارٌ أو نحوه[1]، وهكذا الدُّورُ العِظامُ الحِسانُ إذا خَرِبَت وتهدَّمت ٱتُّخِذَت حظائرَ للغنم أو الإبل وغيرها.

وهكذا الآدميُّ إذا كان صالحًا لاصطفاء الله له برسالته ونبوَّته ٱتخذه رسولًا ونبيًّا، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فإذا كان جوهرُه قاصرًا عن هذه الدرجة صالحًا لخلافة النبوَّة وميراثها رشَّحه لذلك وبلَّغه إياه، فإذا كان قاصرًا عن ذلك قابلًا لدرجة الوَلاية رُشِّحَ لها، وإن كان ممَّن يصلحُ للعمل والعبادة دونَ المعرفة والعلم جُعِلَ من أهله، حتىٰ ينتهي إلىٰ درجة عموم المؤمنين، فإن نقصَ عن هذه الدرجة ولم تكن نفسُه قابلةً لشيءٍ من الخير أصلًا ٱستُعْمِلَ حطبًا ووقودًا للنار.

وفي أثرٍ إسرائيلي: أنَّ موسىٰ سأل ربَّه عن شأن من يعذِّبهم من خلقه؛ فقال: يا موسىٰ، ٱزرع زرعًا، فزَرَعه، فأوحىٰ الله إليه أن ٱحصُده، ثمَّ أوحىٰ إليه أن ٱنسِفْه وٱذْرُه[2]، ففعل، وخَلَصَ الحبُّ وحده والتِّبنُ والعيدانُ والعَصْفُ وحده، فأوحىٰ الله إليه: إني لا أجعلُ في النار من العباد إلا من لا خير فيه، بمنزلة العيدان والشَّوك التي لا تصلحُ إلا للنار[3].

وهكذا الإنسانُ يترقَّىٰ في درجات الكمال درجةً بعد درجة، حتىٰ يَبْلُغَ

---

(١) انظر: «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (٩١).

(٢) النَّسْفُ والذَّرْو: تنقيةُ الحَبِّ.

(٣) أخرجه ابن المبارك (٣٥١)، وأحمد (٨٨) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩١) عن عمار بن ياسر بإسنادٍ فيه ضعف.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٦) عن سعيد بن جبير. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠١): «رجاله رجال الصحيح».

نهايةَ ما ينالُه أمثالُه منها، فكم بين حاله في أول كونه نطفةً وبين حاله والربُّ يُسَلِّمُ عليه في داره، وينظرُ إلىٰ وجهه بكرةً وعشيًّا؟!

والنبيُّ ﷺ في أول أمره لـمَّا جاءه الملَك فقال له: ٱقرأ، فقال: «**ما أنا بقارىء**»[1]، وفي آخر أمره يقولُ الله له[2]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، ويقولُ له خاصَّة: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ويحكىٰ أنَّ جماعةً من النصارىٰ تحدَّثوا بينهم، فقال قائلٌ منهم: ما أقلَّ عقولَ المسلمين! يزعمونَ أنَّ نبيَّهم كان راعي الغنم، فكيف يصلُح راعي الغنم للنبوَّة؟! فقال له آخرُ من بينهم: أمَّا هم فوالله أعقلُ منَّا؛ فإنَّ الله بحكمته يسترعي النبيَّ الحيوانَ البهيم، فإذا أحسنَ رعايتَه والقيامَ عليه نقله منه إلىٰ رعاية الحيوان الناطق؛ حكمةً من الله وتدريجًا لعبده[3]، ولكن نحن جئنا إلىٰ مولودٍ خرج من ٱمرأة، يأكلُ ويشربُ ويبولُ ويبكي، فقلنا: هذا إلٰهنا الذي خلقَ السموات والأرض! فأمسكَ القومُ عنه.

فكيف يَحْسُنُ بذي همَّةٍ قد أزاحَ اللهُ عنه عِلَلَه، وعرَّفَه السعادةَ والشقاوة، أن يرضىٰ بأن يكون حيوانًا وقد أمكنه أن يصير إنسانًا، وبأن يكون إنسانًا وقد أمكنه أن يصير مَلَكًا[4] في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، فتقومُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة.

(٢) (ق): «وفي آخره أمره بقول الله له». وهو تحريف.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٤/ ٤٤١)، و«الرد على الإخنائي» (٧٢).

(٤) وذلك أن أهل الجنة لا تقع منهم معصية، فأشبهوا الملائكة من هذا الوجه.

الملائكةُ بخدمته، وتدخلُ عليهم من كلِّ باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؟!(١).

وهذا الكمالُ إنما ينالُ بالعلم ورعايته، والقيام بمُوجَبه؛ فعادَ الأمرُ إلىٰ العلم وثمرته، والله الموفِّق.

وأعظمُ النقص وأشدُّ الحسرة: نقصُ القادر علىٰ التمام، وحسرتُه علىٰ تفويته، كما قال بعض السلف: «إذا كَثُرَت طرقُ الخير كان الخارجُ منها(٢) أشدَّ حسرة»(٣).

وصدق القائل(٤):

ولم أرَ في عيوب الناسِ عيبًا ... كنقصِ القادرينَ علىٰ التمامِ

فثبت أنه لا شيء أقبحُ بالإنسان من أن يكون غافلًا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهَمَج الرَّعاع الذين يُكدِّرون الماءَ ويُغْلُون الأسعار، إنْ عاشَ عاشَ غيرَ حَمِيد، وإن مات مات غيرَ فَقِيد، ففقدُهم راحةٌ للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء، ولا تستوحشُ لهم الغبراء.

الوجه السابع والثمانون: أنَّ القلبَ يعترضُه مرضان يتواردان عليه، إذا

---

(١) انظر: «تفصيل النشأتين» (٥٦)، و«الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (٦١)، و«شرح نهج البلاغة» (٢٠/٣٠٦).

(٢) أي: دون اغتنام لها.

(٣) انظر: «سراج الملوك» (٢٠٠).

(٤) وهو المتنبي، في ديوانه (٤٧٦).

ٱستحكما فيه كان هلاكُه وموتُه، وهما: مرض الشهوات، ومرض الشبهات؛ وهذان أصلُ داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكرَ اللهُ تعالىٰ هذين المرضَيْن في كتابه:

* **أمَّا مرض الشبهات**، وهو أصعبُهما وأقتلُهما للقلب، ففي قوله تعالىٰ في حقِّ المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدَّثر: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

فهذه ثلاثةُ مواضع، المرادُ بمرض القلب فيها مرضُ الجهل والشُّبهة.

* **وأمَّا مرض الشهوة**، ففي قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: لا تَلِنَّ بالكلام فيطمعَ الذي في قلبه فجورٌ وزنا.

قالوا: والمرأةُ ينبغي لها إذا خاطبت الأجانبَ أن تُغلِظَ كلامَها وتقوِّيه ولا تُليِّنه وتكسِّره؛ فإنَّ ذلك أبعدُ من الرِّيبة والطمع فيها.

وللقلب أمراضٌ أُخر من: الرِّياء، والكِبْر، والعُجْب، والحسد، والفخر، والخُيلاء، وحبِّ الرِّياسة والعلوِّ في الأرض.

وهذا المرض[1] مركَّبٌ من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لا بدَّ فيه من تخيُّلٍ فاسد، وإرادةٍ باطلة، كالعُجْب والفخر والخيلاء والكِبْر المركَّب من

---

(١) يعني المذكور آخرًا.

تـخيُّل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومَـحْمَدَتِـهم[1].

فلا يخرجُ مرضه عن شهوةٍ، أو شبهةٍ، أو مركَّبٍ منهما.

وهذه الأمراضُ كلُّها متولِّدةٌ عن الجهل، ودواؤها العلم، كما قال النبيُّ ﷺ في حديث صاحب الشَّجَّة الذي أفتوه بالغسل، فمات: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟! إنما شفاءُ العِيِّ السؤال**»[2]؛ فجعلَ العِيَّ ـ وهو عِيُّ القلب عن العلم، واللسان عن النطق به ـ مرضًا، وشفاؤه سؤالُ العلماء.

فأمراضُ القلوب أصعبُ من أمراض الأبدان؛ لأنَّ غايةَ مرض البدن أن يُفْضِي بصاحبه إلىٰ الموت، وأمَّا مرضُ القلب فيُفْضِي بصاحبه إلىٰ الشقاء الأبديِّ، ولا شفاءَ لهذا المرض إلا بالعلم.

ولهذا سمَّىٰ اللهُ تعالىٰ كتابَه شفاءً لأمراض الصدور، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب نسبةُ العلماء إلىٰ القلوب كنسبة الأطبَّاء إلىٰ الأبدان، وما

(١) (ح): «ومدحتهم».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠)، وأبو داود (٥٧٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس.
وفيه ٱختلافٌ كثير، والأشبه صحة القدر الذي أورده المصنف وهو أصل الحديث، أما آخره فمعلول.
انظر: «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٢٢)، و«علل ابن أبي حاتم» (١/ ٣٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ١٨٩)، و«الخلافيات» (٢/ ٤٩٠)، و«بيان الوهم والإيهام» (٢/ ٢٣٦).

يقالُ للعلماء: «أطبَّاءُ القلوب»[1] فهو لقَدْرٍ ما جامعٍ بينهما، وإلا فالأمرُ أعظمُ من ذلك؛ فإنَّ كثيرًا من الأمم يستغنون عن الأطبَّاء، ولا يوجدُ الأطبَّاء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيشُ الرجلُ عمره أو برهةً منه لا يحتاجُ إلىٰ طبيب، وأما العلماءُ بالله وأمره فهم حياةُ الوجود وروحُه، ولا يستغنىٰ عنهم طرفةَ عين.

فحاجةُ القلب إلىٰ العلم ليست كالحاجة إلىٰ التنفُّس في الهواء، بل أعظَم.

وبالجملة؛ فالعلمُ للقلب مثلُ الماء للسَّمك، إذا فقده مات، فنسبةُ العلم إلىٰ القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن إليها، وكنسبة كلام اللِّسان إليه؛ فإذا عَدِمَه كان كالعين العمياء، والأذن الصَّمَّاء، واللِّسان الأخرس.

ولهذا يصفُ سبحانه أهلَ الجهل بالعمىٰ والصَّمَم والبَكَم، وذلك صفةُ قلوبهم، فَقَدَت العلمَ النافعَ فبَقِيَت علىٰ عماها وصَمَمها وبَكَمِها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد: عمىٰ القلب في الدنيا، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ لأنهم هكذا كانوا في الدنيا، والعبدُ يُبْعَثُ علىٰ ما مات عليه.

واختُلِفَ في هذا العمىٰ في الآخرة[2].

---

(١) انظر: «الإحياء» (١/ ٣١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٣٤/ ٢١٠)، و«زاد المعاد» (٤/ ٣١)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤٨)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٢٦، ٤٣٩، ٢/ ٣١٥).

(٢) انظر ما مضىٰ (ص: ١٢٠).

فقيل: هو عمىٰ البصيرة؛ بدليل إخباره تعالىٰ عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل: هو عمىٰ البصر؛ ورُجِّحَ هذا بأنَّ الإطلاقَ ينصرفُ إليه، وبقوله ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]، وهذا عمىٰ العين؛ فإنَّ الكافرَ لم يكن بصيرًا بحجَّته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفَّار في القيامة بأنَّ الله يخرجهم من قبورهم إلىٰ موقف القيامة بُصَرَاء، ويُحْشَرون من الموقف إلىٰ النار عُمْيًا. قاله الفرَّاءُ وغيره[١].

الوجه الثامن والثمانون: أنَّ الله سبحانه بحكمته سَلَّط علىٰ العبد عدوًّا عالمًا بطرق هلاكه وأسباب الشرِّ الذي يلقيه فيه، متفنِّنًا فيها، خبيرًا بها، حريصًا عليها، لا يَفْتُرُ عنه يقظةً ولا منامًا، ولا بدَّ له من واحدةٍ من ستٍّ ينالها منه[٢]:

* أحدُها[٣] ــ وهي غايةُ مراده منه ــ: أن يحُول بينه وبين العلم والإيمان، فيلقيه في الكفر. فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح.

* فإن فاتته هذه وهُدِيَ للإسلام حرصَ علىٰ تِلْو الكفر، وهي البدعة، وهي أحبُّ إليه من المعصية؛ فإنَّ المعصية يُتابُ منها والبدعةُ لا يُتابُ منها؛ لأنَّ صاحبها يرىٰ أنه علىٰ هدىٰ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» (٢/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٥/ ٣٣٢).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٧٩٩ - ٨٠٢).

(٣) كذا في الأصول.

وفي بعض الآثار: «يقولُ إبليس: أهلكتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواء فهم يُذْنِبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»(١).

فإذا ظفر منه بهذه صَيَّره من دعاته وأمرائه.

* فإن أعجزَته ألقاه في الثالثة، وهي الكبائر.

* فإن أعجزَته ألقاه في اللَّمَم، وهي الرابعة، وهي الصغائر.

* فإن أعجزَته شَغَله بالعمل المفضول عما هو أفضلُ منه، ليَرْبَح عليه الفضلَ الذي بينهما؛ وهي الخامسة.

* فإن أعجزه ذلك صار إلىٰ السادسة، وهي تسليطُ حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويَبْهَتونه ويرمونه بالعظائم؛ ليَحْزُنَه ويشغلَ قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله.

فكيف يمكنُ أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور، ولا بعدوِّه، ولا بما يحصِّنُه منه؟! فإنه لا ينجو من عدوِّه إلا من عرفه وعرفَ طرقَه التي يأتيه منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليه، وعرفَ مداخلَه ومخارجَه، وكيفيَّةَ محاربته، وبأيِّ شيءٍ يحاربه، وبماذا يداوي جِراحتَه(٢)، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٤٠)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (١/ ١٢٣) - ومن طريقه تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ٢٨) -، والطبراني في «الدعاء» (١٧٨٠) من حديث أبي بكر الصديق مرفوعًا بإسنادٍ شديد الضعف.
وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٧٥)، و«مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٧)، و«إتحاف الخيرة» للبوصيري (٧/ ٤٢٢).

(٢) (ح، ن): «جراحاته».

القوةَ لقتاله ودفعه. وهذا كلُّه لا يحصلُ إلا بالعلم. فالجاهلُ في غفلةٍ وعمًى عن هذا الأمر العظيم والـخَطب الجسيم.

ولهذا جاء ذكرُ هذا العدوِّ وشأنه وجنوده ومكايده في القرآن كثيرًا جدًّا؛ لحاجة النفوس إلىٰ معرفة عدوِّها، وطرق محاربته ومجاهدته، فلولا العلمُ يكشفُ عن هذا لما نجا من نجا منه؛ فالعلمُ وثمرتُه[1] هو الذي تحصلُ به النجاة منه.

الوجه التاسع والثمانون: أنَّ أعظمَ الأسباب التي يُـحْرَمُ بها العبدُ خيرَ الدنيا والآخرة ولذَّة النعيم في الدَّارين، ويدخلُ عليه عدوُّه منها، هو:

* الغفلةُ المضادَّة للعلم.
* والكسلُ المضادُّ للإرادة والعزيمة.

هذان أصلُ بلاء العبد وحِرْمانه منازلَ السُّعداء، وهما من عدم العلم.

* أمَّا الغفلة، فمضادَّةٌ للعلم منافيةٌ له.

وقد ذمَّ سبحانه أهلها، ونهىٰ عن الكَوْن منهم[2]، وعن طاعتهم والقبول منهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) «وثمرته» ليست في (ق).

(٢) (ن): «معهم». والمثبت موافقٌ للفظ الآية.

وقال النبيُّ ﷺ في وصيَّته لنساء المؤمنين: «**ولا تَغْفُلْنَ فتَنْسَيْنَ الرَّحمة**»[1].

وسئل بعضُ العلماء عن عشق الصُّوَر، فقال: «قلوبٌ غَفَلت عن ذكر الله، فابتلاها بعبوديَّة غيره»[2].

فالقلبُ الغافلُ مأوى الشيطان؛ فإنه وسواسٌ خنَّاس، قد ٱلتقمَ قلبَ الغافل[3] يقرأ عليه أنواعَ الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكَّر وذكر الله ٱنجَمَع[4] وانضمَّ وخَنَسَ وتضاءلَ لذكر الله، فهو دائمًا بين الوسوسة والخَنْس.

وقال عروةُ بن رُوَيْم: «إنَّ المسيحَ عليه السلام سأل ربَّه أن يُرِيَه موضعَ الشيطان من ٱبن آدم، فجلَّىٰ له، فإذا رأسُه رأسُ الحَيَّة، واضعٌ رأسَه علىٰ ثمرة القلب، فإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَس، وإذا لم يذكر وَضَع رأسَه علىٰ ثمرة قلبه فمَنَّاه وحَدَّثه»[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٣)، وأبو دود (١٥٠١)، وأحمد (٦/ ٣٧٠)، وغيرهم.
قال الترمذي ـ كما في المطبوعة، ولم يرد في «تحفة الأشراف» (١٣/ ٦٧) ـ: «هذا حديث غريب».
وصححه ابن حبان (٨٤٢)، والحاكم (١/ ٥٤٧) ولم يتعقبه الذهبي ـ وانظر: «إتحاف المهرة» (١٨/ ٢٢٩) ـ، وحسنه النووي في «الأذكار»، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٨٧).

(٢) انظر: «جامع المسائل» (١/ ١٧٨) رسالة العشق المنسوبة لابن تيمية.

(٣) (ن): «القلب الغافل».

(٤) في طرَّة (ح) إشارةٌ إلىٰ أن في نسخة: «انقمع».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٣)، وغيره. وانظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٦٣، ٨/ ٧٤٢)، و«الدر المنثور» (٦/ ٤٢٠).

وقد روي في هذا المعنىٰ حديثٌ مرفوع[1].

فهو دائمًا يترقَّبُ غفلةَ العبد، فيبذُر في قلبه بذرَ الأماني والشهوات والخيالات الباطلة، فيثمرُ كلَّ حنظلةٍ وكلَّ شوكٍ وكلَّ بلاء، ولا يزالُ يمدُّه بسَقْيِه حتىٰ يغطِّي القلبَ ويُعْمِيه.

* وأمَّا الكسل، فيتولَّد عنه الإضاعةُ والتفريطُ والحرمانُ وأشدُّ الندامة وهو منافٍ للإرادة والعزيمة التي هي ثمرةُ العلم؛ فإنَّ من علمَ أنَّ كمالَه ونعيمَه في شيءٍ طلبه بجهده وعزم عليه بقلبه كلِّه، فإنَّ كلَّ أحدٍ يسعىٰ في تكميل نفسه ولذَّته، ولكنَّ أكثرهم أخطأ الطَّريق لعدم علمه بما ينبغي أن يطلبه.

فالإرادةُ مسبوقةٌ بالعلم والتصوُّر، فتخلُّفها في الغالب إنما يكونُ لتخلُّف العلم والإدراك، وإلا فمع العلم التامِّ بأنَّ سعادة العبد في هذا المَطْلب ونجاتَه وفوزَه كيف يلحقُه كسلٌ في النهوض إليه؟!

ولهذا ٱستعاذ النبيُّ ﷺ من الكسل؛ ففي «الصحيح»[2] عنه أنه كان يقول: «**اللهم إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، والعجز والكسل، والجُبْن والبخل، وضِلَع الدَّين وغلبة الرجال**».

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٤٣٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٨)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٣٥)، وغيرهم من حديث أنسٍ بإسنادٍ ضعيف.
وضعفه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٧٤٢).
وانظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ١٤٩)، و«إتحاف الخيرة» (٦/ ٣١٥، ٣٨٤).

(٢) «البخاري» (٢٨٩٣)، واللفظ له، و«مسلم» (٢٧٠٦) من حديث أنس.

فاستعاذ من ثمانية أشياء[1]، كلُّ شيئين منها قرينان:

* فالهمُّ والحزنُ قرينان.

والفرقُ بينهما: أنَّ المكروه الوارد علىٰ القلب إمَّا أن يكون علىٰ ما مضىٰ أو لما يُسْتَقْبَل؛ فالأول هو الحزن، والثاني الهمُّ.

وإن شئتَ قلتَ: الحزنُ علىٰ المكروه الذي فات ولا يُتَوقَّعُ دفعُه، والهمُّ علىٰ المكروه المنتَظَر الذي يُتوقَّعُ دفعُه. فتأمَّلْه.

* والعجزُ والكسلُ قرينان.

فإنَّ تخلُّف مصلحة العبد وكماله ولذَّته وسروره عنه، إمَّا أن يكون مصدرُه عدمَ القدرة، فهو العجز، أو يكون قادرًا عليه لكن تخلَّف لعدم إرادته، فهو الكسل، وصاحبُه يلامُ عليه ما لا يلامُ علىٰ العجز.

وقد يكونُ العجزُ ثمرةَ الكسل، فيلامُ عليه أيضًا؛ فكثيرًا ما يكسلُ المرءُ عن الشيء الذي هو قادرٌ عليه، وتَضْعُفُ عنه إرادتُه؛ فيفضي به إلىٰ العجز عنه. وهذا هو العجزُ الذي يلومُ اللهُ عليه في قول النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله يلومُ علىٰ العجز**»[2]، وإلا فالعجزُ الذي لم تُخْلَق له قدرةٌ علىٰ دفعه ولا يدخلُ

---

(1) انظر: «طريق الهجرتين» (٦٠٦)، و«بدائع الفوائد» (٧١٤)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣٥٨)، و«روضة المحبين» (٦١).

(2) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤)، وأبو داود (٣٦٢٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٦)، وغيرهم من حديث سيف الشامي عن عوف بن مالكٍ رضي الله عنه.
قال النسائي: «سيفٌ لا أعرفه». وعرفه العجليُّ، فقال في «الثقات» (١/ ٦٤٤): «شاميٌّ تابعيٌّ ثقة». وذكره ابنُ حبان في «الثقات» (٤/ ٣٣٩)، وابنُ خلفون في «الثقات»، كما في «إكمال تهذيب الكمال» (٦/ ١٩٨).

مَعْجُوزُه تحت القدرة لا يلامُ عليه.

قال بعض الحكماء في وصيَّته: «إياك والكسلَ والضَّجر؛ فإنَّ الكسلَ لا ينهض لـمَكْرُمَة، والضجرُ إذا نهض إليها لا يصبرُ عليها»[1].

والضَّجرُ متولِّدٌ عن الكسل والعجز، فلم يُفْرِده في الحديث بلفظ.

* ثمَّ ذكر الـجُبْنَ والبخل.

فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ من العبد إمَّا بماله وإمَّا ببدنه، فالبخيلُ مانعٌ لنفع ماله، والجبانُ مانعٌ لنفع بدنه.

والمشهورُ عند الناس أنَّ البخلَ يستلزم الـجُبْنَ، من غير عكس؛ لأنَّ من بَخِلَ بماله فهو بنفسه أبخَل، والشجاعةُ تستلزمُ الكرم، من غير عكس؛ لأنَّ من جاد بنفسه فهو بماله أسمَحُ وأجوَد.

وهذا الذي قالوه ليس بلازمٍ وإن كان أكثريًّا؛ فإنَّ الشجاعةَ والكرمَ وأضدادها أخلاقٌ وغرائزُ قد تجتمعُ في الرجل، وقد يعطىٰ بعضَها دون بعض[2].

وقد شاهدَ الناسُ من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخلُ الناس، وهذا كثيرًا ما يوجدُ في أمَّة التُّرك؛ يكونُ أشجعَ من لَيْثٍ وأبخلَ من كلب[3].

فالرجلُ قد يسمحُ بنفسه ويَضِنُّ بماله، ولهذا يقاتِلُ عليه حتىٰ يُقْتَل،

---

(١) انظر: «البيان والتبيُّن» (٢/ ٢٥٢)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «الجليس والأنيس» (٢/ ٤٥٠).

(٣) انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٤٧، ٥٣٨).

فيبذُل نفسَه[1] دونه.

فمن الناس من يسمحُ بنفسه وماله، ومنهم من يبخلُ بنفسه وماله، ومنهم من يسمحُ بماله ويبخلُ بنفسه، وعكسُه. والأقسامُ الأربعةُ موجودةٌ في الناس.

* ثمَّ ذكر ضِلَعَ الدَّين وغلبةَ الرجال.

فإنَّ القهرَ الذي ينالُ العبدَ نوعان:

أحدهما: قهرٌ بحقٍّ؛ وهو ضِلَعُ الدَّين.

والثاني: قهرٌ بباطل؛ وهو غلبةُ الرجال.

فصلواتُ الله وسلامُه علىٰ من أوتيَ جوامعَ الكلم، واقتُبِسَت كنوزُ العلم والحكمة من ألفاظه.

والمقصودُ أنَّ الغفلةَ والكسلَ ــ اللذَين هما أصلُ الحرمان ــ سببهما عدمُ العلم؛ فعاد النقصُ كلُّه إلىٰ عدم العلم والعزيمة، والكمالُ كلُّه إلىٰ العلم والعزيمة.

والناسُ في هذا علىٰ أربعةِ أضرُب:

الضربُ الأول: من رُزِقَ علمًا، وأُعِينَ مع ذلك[2] بقوَّة العزيمة علىٰ العمل به؛ وهذا الضربُ هم خلاصةُ الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، وبقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي

(١) في الأصول: «فيبدا بنفسه». وفي طرَّة (ح): «لعله: فيفدا». والمثبت أشبه.

(٢) (ت، ق، ح): «علىٰ ذلك».

ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فبالحياة نالَ العزيمة، وبالنُّور نالَ العلم.

وأئمةُ هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل.

الضربُ الثاني: من حُرِمَ هذا وهذا؛ وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الضربُ شرُّ البريَّة، يضيِّقون الدِّيار، ويُغْلُون الأسعار.

وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكنْ ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

ويتعلَّمون، ولكنْ ما يضرُّهم ولا ينفعهم.

وينطقون، ولكنْ عن الهوىٰ ينطقون.

ويتكلَّمون، ولكنْ بالجهل يتكلَّمون.

ويؤمنون، ولكنْ بالجِبْت والطاغوت يؤمنون.

ويعبدون، ولكنْ يعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم.

ويجادِلون، ولكنْ بالباطل ليدحضوا به الحقَّ.

ويتفكرون ويبيِّتون[1]، ولكنْ ما لا يرضىٰ من القول يبيِّتون.

---

(١) «ويتفكرون» ليست في (ن).

ويَدْعُون، ولكن مع الله إلهًا آخر يَدْعُون.

ويَذْكُرون، ولكن إذا ذُكِّروا لا يَذْكُرون.

ويصلُّون، ولكنهم من المصلِّين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، ويمنعون الماعون.

ويَحْكمون، ولكن حُكْمَ الجاهلية يبغون.

ويكتبون، ولكن يكتبونَ الكتابَ بأيديهم، ثمَّ يقولون: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون.

ويقولون: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون![1].

فهذا الضربُ ناسٌ بالصُّورة وشياطينُ بالحقيقة[2].

وجُلُّهُمُ إذا فَكَّرْتَ فيهم حميرٌ أو كلابٌ أو ذئابُ[3]

وصدق البحتريُّ في قوله[4]:

لم يبقَ من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ ينالُها الوَهْمُ إلا هذه الصُّوَرُ

---

(١) اقتبس المصنفُ هاهنا بعض الآيات، فلم أرسمها برسم المصحف.

(٢) انظر: «تفصيل النشأتين» (٥١).

(٣) البيت لصالح بن عبد القدوس في «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٣٥٣). وفي «تفصيل النشأتين» (٥٣)، و«معارج القدس» (١٦) دون نسبة.

(٤) في ديوانه (٢/ ٩٥٤)، و«الموازنة» (٢/ ٢٥٩).

وقال آخر[1]:

لا تَـخْدَعنْكَ اللِّحىٰ ولا الصُّوَرُ ... تِسْعةُ أعشارِ من ترىٰ بَقَرُ
في شجَرِ السَّرْوِ منهمُ مَثَلٌ ... لها رُواءٌ وما لها ثَمَرُ

وأحسنُ من هذا كلِّه قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

عالِمُهم كما قيل فيه:

زَوامِلُ للأَسْفارِ[2] لا علمَ عندهم ... بجيِّدها إلا كعِلْمِ الأباعرِ
لعَمرُك ما يدري البعيرُ إذا غدا ... بأوْسَاقِه أو راحَ ما في الغرائرِ[3]

وأحسنُ من هذا وأبلغُ وأوجزُ وأفصحُ قولُه تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

---

(١) وهو ابن لَنْكَك. والبيتان في «اليتيمة» (٢/ ٤١٠) ومعهما ثالث. والثاني وحده في «أسرار البلاغة» (١١٧)، و«ثمار القلوب» (٨٤٦)، وغيرهما. وهما في شعره المجموع (٢٧).

(٢) جمعُ «سِفْر»، وهو الكتاب. وفي المصادر الآتية: «للأشعار». والزوامل: الإبلُ يحمِلُ عليها الرجلُ زاده ومتاعه. والأباعر: جمعُ بعير. والأوساق: الأحمال. والغرائر: أوعيةٌ من خَيْشٍ ونحوه.

(٣) البيتان لمروان بن أبي حفصة في «الكامل» (١٠٣٧)، و«العقد» (٢/ ٤٨٤)، وفي شعره المجموع (٥٨)، يهجو قومًا من رُواة الشِّعر لا يَعْلَمُون ما هو، علىٰ ٱستكثارهم من روايته.

الضربُ الثالث: من فُتِحَ له بابُ العلم وأُغلِقَ عنه بابُ العزم والعمل؛ فهذا في رتبة الجاهل أو شرٌّ منه.

وفي الحديث المرفوع: «**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه اللهُ بعلمه**»(١)، ثبَّته أبو نعيمٍ وغيرُه.

فهذا جهلُه كان خيرًا له وأخفَّ لعذابه من علمه، فما زاده العلمُ إلا وبالًا وعذابًا، ومع هذا(٢) لا مطمعَ في صلاحه، فإنَّ التائه عن الطريق يُرجىٰ له العَوْدُ إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتىٰ تُرجىٰ هدايته؟! قال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضربُ الرابع: من رُزِقَ حظًّا من العزيمة والإرادة، ولكن قلَّ نصيبُه من العلم والمعرفة؛ فهذا إذا وُفِّق له الاقتداءُ بداعٍ من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٣٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٠٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة بإسنادٍ ضعيف.
قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦٢٨): «هو حديثٌ انفرد به عثمان البرِّي، لم يرفعه غيره، وهو ضعيف الحديث». وأخرجه ابنُ عدي في ترجمته من «الكامل» (٥/ ١٥٨)، وقال في (٣/ ٤٠): «هو معروفٌ به، والبلاء منه». وضعَّفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١١).

(٢) (ح، ن): «وهذا».

رزقنا الله من فضله، ولا حَرَمنا بسوء أعمالنا، إنه غفورٌ رحيم.

الوجه التسعون: أنَّ كلَّ صفةٍ مدحَ الله بها العبدَ في القرآن فهي ثمرةُ العلم ونتيجتُه، وكلَّ ذمٍّ ذمَّه فهو ثمرةُ الجهل ونتيجتُه.

فمدَحه بالإيمان وهو رأسُ العلم ولُبُّه، ومدَحه بالعمل الصالح الذي هو ثمرةُ العلم النافع، ومدَحه بالشكر، والصبر، والمسارعة في الخيرات، والحبِّ له، والخوف منه، والرجاء، والإنابة، والحِلْم، والوقار، واللُّبِّ، والعقل، والعفَّة، والكرم، والإيثار علىٰ النفس، والنصيحة لعباده، والرحمة بهم، والرأفة، وخفض الجناح، والعفو عن مسيئهم، والصَّفح عن جانِيهم[1]، وبذل الإحسان لكافَّتهم، ودفع السيئة بالحسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر في مواطن الصبر، والرضا بالقضاء، واللِّين للأولياء، والشِّدَّة علىٰ الأعداء، والصدق في الوعد، والوفاء بالعهد، والإعراض عن الجاهلين، والقبول من الناصحين، واليقين، والتوكُّل، والطمأنينة، والسَّكينة، والتواصل، والتعاطف، والعدل في الأقوال والأفعال والأخلاق، والقوَّة في أمره، والبصيرة في دينه، والقيام بأداء حقِّه، واستخراجه من المانعين له، والدعوة إليه وإلىٰ مرضاته وجنَّته، والتحذير عن سُبل[2] أهل الضلال، وتبيين طرق الغيِّ وحال سالكيها، والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبر، والحضِّ علىٰ طعام المسكين، وبرِّ الوالدين، وصِلَة الأرحام، وبَذْل السلام لكافَّة المؤمنين، إلىٰ سائر الأخلاق المحمودة، والأفعال المَرْضِيَّة، التي أقسمَ اللهُ سبحانه علىٰ عِظَمِها، فقال

---

(١) (ت): «خاطيهم».

(٢) (ت، ح): «سبيل».

تعالىٰ: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

وقالت عائشة رضي الله عنها، وقد سئلت عن خُلق الرسول ﷺ، فقالت: «كان خُلقُه القرآن»، فاكتفىٰ بذلك السائل، وقال: «فهممتُ أن أقومَ ولا أسأل عن شيءٍ بعدها»(١).

فهذه الأخلاقُ ونحوها هي ثمرةُ شجرة العلم.

أمَّا شجرةُ الجهل، فتثمرُ كلَّ ثمرةٍ قبيحة، من الكفر، والفساد، والشرك، والظُّلم، والبغي، والعدوان، والجَزَع، والهَلَع، والكُنود، والعجلة، والطَّيْش، والحِدَّة، والفُحْش، والبَذاء، والشُّحِّ، والبخل.

ولهذا قيل في حدِّ البخل: «جهلٌ مقرونٌ بسوء الظَّنِّ»(٢).

ومن ثمرته: الغشُّ للخلق، والكِبْرُ عليهم، والفخر، والخيلاء، والعُجْب، والرياء، والسُّمعةُ، والنفاق، والكذب، وإخلاف الوعد، والغِلْظة علىٰ الناس، والانتقام، ومقابلةُ الحسنة بالسيئة، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحبُّ غير الله ورجاؤه والتوكُّل عليه وإيثار رضاه علىٰ رضا الله وتقديم أمره علىٰ أمر الله، والتماوتُ عند حقِّ الله، والوثوبُ عند حقِّ نفسه والغضبُ لها والانتصارُ لها؛ فإذا ٱنتُهِكَت حقوقُ نفسه لم يقُم لغضبه شيءٌ حتىٰ ينتقمَ بأكثر من حقِّه، وإذا ٱنتُهِكَت محارمُ الله

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، والسائلُ هو سعدُ بن هشام بن عامر.

(٢) سوء الظن بالله عزَّ وجل. انظر: «شعب الإيمان» (٢٠/ ١٩)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٣٨)، و«شرح نهج البلاغة» (١٧/ ٤١).

لم يَنْبِض له عِرْقٌ غضبًا لله، فلا قوّة في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها: الدعوةُ إلىٰ سبيل الشيطان، وإلىٰ سلوك طريق الغيِّ[1] واتباع الهوىٰ، وإيثار الشهوات علىٰ الطاعات، وقيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ووأدِ البنات، وعقوق الأمهات، وقطيعة الأرحام، وإساءة الجِوار، وركوب مراكب الخزي والعار.

وبالجملة؛ فالخيرُ بمجموعه ثمارٌ تُجْتَنىٰ من شجرة العلم، والشرُّ بمجموعه شوكٌ يُجْتَنىٰ من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورةُ العلم للأبصار لزاد حُسْنُها علىٰ صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورةُ الجهل للأبصار لكان منظرُها أقبحَ منظر.

بل كلُّ خيرٍ في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسلُ ومسبَّبٌ عنه، وكذلك كلُّ خيرٍ يكونُ إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حصل في العالم ويحصلُ إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببُه مخالفةُ ما جاءت به الرسلُ في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أبٌ ومُرَبٍّ وسائسٌ ووزيرٌ إلا العقل الذي به عمارةُ الدَّارين، وهو الذي أرشدَ إلىٰ طاعة الرسل، وسلَّمَ القلبَ والجوارحَ ونفسَه إليهم، وانقاد لحكمهم، وعَزَل نفسَه، وسلَّمَ الأمرَ إلىٰ أهله= لكفىٰ به شرفًا وفضلًا.

وقد مدحَ الله سبحانه العقلَ وأهلَه في كتابه في مواضع كثيرةٍ منه، وذمَّ من لا عقلَ له، وأخبر أنهم أهلُ النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلةُ كلِّ علم وميزانُه الذي يُعْرَفُ به صحيحُه من سقيمه وراجحُه من مرجوحه،

---

(١) (د، ت، ق، ن): «البغي». والمثبت من (ح)، وهو أشبه.

والمرآةُ التي يُعْرَفُ بها الحسنُ من القبيح.

وقد قيل: «العقلُ مَلِك، والبدنُ روحُه، وحواسُّه وأفعاله[1] وحركاتُه كلُّها رعيَّةٌ له؛ فإذا ضَعُفَ عن القيام عليها وتعهُّدها وصلَ الخللُ إليها كلِّها»[2].

ولهذا قيل: «من لم يكن عقلُه أغلبَ خصال الخير عليه كان حَتْفُه في أغلب خصال الشرِّ عليه»[3].

ورُوِي أنه لـمَّا هبطَ آدمُ من الجنة أتاه جبريل، فقال: إنَّ الله أحْضَرَكَ العقلَ والدِّين والحياء لتختارَ واحدًا منها؛ فقال: أخذتُ العقل[4]، فقال الدِّينُ والحياء: أُمِرنا أن لا نفارق العقلَ حيثُ كان. فانحازا إليه[5].

والعقلُ عقلان:

* عقلٌ غريزيٌّ[6]؛ وهو أبُ العلم ومربِّيه ومُثْمِرُه.

---

(١) ليست في (ق).

(٢) قاله علي بن عبيدة الريحاني (ت: ٢١٩). انظر: «البصائر والذخائر» (١/ ٢٨)، و«نثر الدر» (٤/ ٥٦)، و«شرح النهج» (٢٠/ ٤٢).

(٣) نُسِبَ لبعض العرب في «الجليس والأنيس» (٤/ ١٨٢)، و«المصُون» (١٤١)، وغيرهما. ولأردشير في «التذكرة الحمدونية» (٣/ ٢٣٣)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ١٤١). ولبعض الأولين في «البيان والتبيُّن» (١/ ٨٦).

(٤) (ت): «اخترت العقل».

(٥) أخرجه ابن الدنيا في «العقل» (٢٧، ٢٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٤٤) عن رجلٍ من أهل مكة.

وأخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٢٠) من وجهٍ آخر لا يصح.

(٦) (د، ح، ق، ن): «عقل غريزة».

* وعقلٌ مُكتَسبٌ مستفاد؛ وهو ولدُ العلم وثمرتُه ونتيجتُه.

فإذا ٱجتمعا في العبد فذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، واستقامَ له أمرُه، وأقبلت عليه جيوشُ السعادة من كلِّ جانب، وإذا فقدهما فالحيوانُ البهيمُ أحسنُ حالًا منه، وإذا ٱنفردا نقصَ الرجلُ بنقصان أحدهما.

ومن الناس من يرجِّحُ صاحبَ العقل الغريزيِّ، ومنهم من يرجِّحُ صاحبَ العقل المكتَسب.

والتحقيقُ أنَّ صاحبَ العقل الغريزيِّ الذي لا علم ولا تجربة عنده آفتُه التي يؤتىٰ منها الإحجامُ وترك ٱنتهاز الفرصة؛ لأنَّ عقلَه يَعْقِلُه عن ٱنتهاز الفرصة لعدم علمه بها، وصاحبُ العقل المكتَسب المستفاد يؤتىٰ من الإقدام؛ فإنَّ علمَه بالفُرص وطرقها يلقيه علىٰ المبادرة إليها، وعقلُه الغريزيُّ لا يطيقُ ردَّه عنها؛ فهو غالبًا يؤتىٰ من إقدامه؛ والأولُ من إحجامه.

فإذا رُزِقَ العقلُ الغريزيُّ عقلًا إيمانيًّا مستفادًا من مشكاة النبوَّة[1]، لا عقلًا معيشيًّا نِفاقيًّا يظنُّ أربابُه أنهم علىٰ شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقلَ أنْ يُرْضُوا الناسَ علىٰ طبقاتهم، ويسالِمُوهم، ويستجلبون[2] مودَّتهم و محبَّتهم.

وهذا مع أنه لا سبيل إليه، فهو إيثارٌ للراحة والدَّعة على مُؤْنة[3] الأذىٰ في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلمَ في العاجلة فهو

(١) استطرد المصنف فلم يذكر جواب الشرط، وهو مفهومٌ من السياق.

(٢) كذا في الأصول، علىٰ الاستئناف.

(٣) في الأصول: «ومونة». وبما أثبت يستقيم السياق.

الهُلْكُ في الآجلة، فإنه ما ذاق طعمَ الإيمان من لم يوالِ في الله ويعادِ فيه؛ فالعقلُ كلُّ العقل ما أوصلَ إلىٰ رضا الله ورسوله. والله الموفِّقُ المعِين.

وفي حديثٍ مرفوعٍ ذكره ٱبن عبد البرِّ وغيرُه: «**أوحىٰ الله إلىٰ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل: قل لفلانٍ العابد: أمَّا زهدُك في الدنيا فقد تعجَّلتَ به الراحة، وأمَّا ٱنقطاعُك إليَّ فقد ٱكتسبتَ به العزَّ، فما عملتَ فيما لي عليك؟ قال: وما لك علي؟ قال: هل واليتَ فيَّ وليًّا أو عاديتَ فيَّ عدوًّا؟**»[(١)].

وذُكِر أيضًا: «**أنه أوحىٰ الله إلىٰ جبريل: أن ٱخسِف بقرية كذا وكذا، قال: يا ربِّ إنَّ فيهم فلانًا العابد. قال: به فابدأ، إنه لم يتمعَّر وجهُه فيَّ يومًا قطُّ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/ ٤٣٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٢٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣١٦)، والقاضي عياض في «الغنية» (٢٠٨)، وغيرهم من حديث ابن مسعود بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا؛ فيه علل:

الأولىٰ: أنه من رواية حُميد الأعرج، وهو ضعيف، وأحاديثُه عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود خاصَّةً منكرة، كما قال الإمام أحمد وجماعة (انظر: «المنتخب من العلل للخلال»: ١٦٥، و«التهذيب»: ٣/ ٥٣)، وهذا الحديث منها. وقد أعلَّ الحديث بهذه العلة ابنُ عبد البر.

الثانية: أن محمد بن محمد بن أبي الورد (ولم يَرِد فيه توثيقٌ معتبر) انفرد برفع الحديث، والناس يوقفونه علىٰ ابن مسعود. قاله عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي (له ترجمة في «تاريخ دمشق»: ٢٩/ ٣٢٠). رواه عنه ابن عبد البر.

الثالثة: أن الخبر قد رُوِيَ مقطوعًا من قول الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك. أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٩٦٢، ٣٠٤٤). وهو أشبه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٣/ ٢٧٤) من حديث ابن مسعودٍ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف. =

الوجه الحادي والتسعون: حديث ٱبن عمر عن النبيِّ ﷺ: «**إذا مررتُم برياض الجنة فارتعوا**»، قالوا: يا رسول الله، وما رياضُ الجنة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكر؛ فإنَّ لله سيَّاراتٍ من الملائكة يطلبونَ حِلَقَ الذِّكر، فإذا أتوا عليهم حَفُّوا بهم**»[1].

قال عطاء: «مجالسُ الذِّكر: مجالسُ الحلال والحرام؛ كيف تشتري[2] وتبيع وتصومُ وتصلِّي وتتصدَّق وتنكح وتطلِّق وتحجُّ». ذكره الخطيبُ في كتاب «الفقيه والمتفقِّه»[3]، وقد تقدَّم بيانُه.

الوجه الثاني والتسعون: ما رواه أيضًا عن ٱبن عمر يرفعُه: «**مجلسُ فقهٍ خيرٌ من عبادة ستِّين سنة**»[4]. وفي رفعه نظر.

= وضعَّفه البيهقي. وانظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٠).

وأخرجه البيهقي (١٣/ ٢٧٤) من قول مالك بن دينار، وقال: «هذا هو المحفوظ من قول مالك بن دينار».

وروي من أوجه أخرىٰ عن بعض السلف.

انظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (١٤، ١٦)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لعبد الغني المقدسي (٤٢).

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٥٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٣) بإسنادٍ شديد الضعف.

وروي من وجهٍ آخر أضعف منه. انظر: «اللسان» (٥/ ٧٣).

وللحديث شواهد من رواية جماعةٍ من الصحابة، لا أعلمُ يصحُّ منها شيء.

(٢) الأفعال في (ت، د، ق) بياء الغيبة. وهي كذلك في بعض المصادر.

(٣) (١/ ٩٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٩٥)، كلهم من طريق أبي زرعة الدمشقي في «التاريخ» (١/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٧) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

الوجه الثالث والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث عبد الرحمن بن عوفٍ يرفعُه: «**يسيرُ الفقه خيرٌ من كثير العبادة**[1]»[2]. ولا يثبت رفعُه.

الوجه الرابع والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث أنسٍ يرفعُه: «**فقيهٌ أفضلُ عند الله من ألف عابد**»[3].

وهو في الترمذي من حديث رَوْح بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباسٍ مرفوعًا[4].

وفي ثبوتهما مرفوعين نظر، والظاهرُ أنَّ هذا وما أشبهه[5] من كلام الصَّحابة فمن دونهم.

الوجه الخامس والتسعون: ما رواه أيضًا عن ابن عمر يرفعُه: «**أفضلُ العبادة الفقه**»[6].

---

(١) (د، ق): «كثير من العبادة».

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٣٥) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا، فيه خارجة بن مصعب، وهو متروك، وبه أعلَّ الحديثَ الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ١٢٠)، وقد اضطرب في حديثه هذا على ألوان. انظر: «الكامل» (٣/ ٥٣).

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٦) بإسنادٍ موضوع. انظر: «اللسان» (٣/ ١١٤).

(٤) تقدم الكلام عليه (ص: ١٨٤).

(٥) «وما أشبهه» ليست في (ت، د، ق).

(٦) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٦٤)، و«الصغير» (٢/ ٢٥١)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف.
وضعَّفه العراقيُّ في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٤).

الوجه السادس والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث نافعٍ عن ٱبن عمر يرفعُه: «**ما عبد اللهُ بشيءٍ أفضل من فقهٍ في دين**»[1].

الوجه السابع والتسعون: ما رواه عن عليٍّ أنه قال: «العالمُ أعظمُ أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله»[2].

الوجه الثامن والتسعون: ما رواه الـمُخَلِّص، عن ٱبن صاعد: حدثنا القاسمُ بن الفضل بن بزيع: حدثنا حجَّاج بن نصير: حدثنا هلال بن عبد الرحمن الحنفي، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبي هريرة وأبي ذرٍّ أنهما قالا: «بابٌ من العلم نتعلَّمه أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوُّعًا، وبابٌ من العلم نعلِّمه ـ عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به ـ أحبُّ إلينا من مئة ركعةٍ تطوُّعًا». وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جاء الموتُ طالبَ العلم وهو علىٰ هذه الحال مات شهيدًا**»[3].

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٣)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ق: ٢٨/ أ)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٤١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٧٩) بإسنادٍ فيه ضعف.
قال البيهقي: «وروي من وجهٍ آخر ضعيف [انظر: «اللسان» ٦/ ٢٣]، والمحفوظ هذا اللفظ من قول الزهري».
وسيذكره المصنف قريبًا من قول الزهري.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٩٨)، و«الجامع» (١/ ٣٠٠)، والمعافىٰ بن زكريا في «الجليس والأنيس» (٣/ ٧٧)، وغيرهما في سياقٍ طويل، بإسنادَين منقطعَين.
وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥١٩) من وجهٍ آخر ضعيفٍ جدًّا، وليس فيه موضع الشاهد.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٩٣).

ورواه ابن أبي داود، عن شاذان، عن حجَّاج به.

قلت: شاهدُه ما مرَّ[1] من حديث الترمذي عن أنسٍ يرفعُه: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يَرجِع**».

الوجه التاسع والتسعون: ما رواه الخطيبُ أيضًا عن أبي هريرة قال: «لأنْ أَعْلَمَ بابًا من العلم في أمرٍ أو نهيٍ أحبُّ إليَّ من سبعين غزوةً في سبيل الله»[2].

وهذا إن صحَّ فمعناه: أحبُّ إليَّ من سبعين غزوةً بلا علم؛ لأنَّ العملَ بلا علم فسادُه أكثرُ من صلاحه.

أو يريد: علمًا يتعلَّمه ويعلِّمه؛ فيكونُ له أجرُ من عمل به إلىٰ يوم القيامة، وهذا لا يحصلُ في الغزو المجرَّد.

الوجه المئة: ما رواه الخطيبُ أيضًا عن أبي الدرداء أنه قال: «مذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من قيام ليلة»[3].

الوجه الحادي والمئة: ما رواه عن الحسن، قال: «لأن أتعلَّم بابًا من العلم فأعلِّمه مسلمًا أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا كلُّها فأنفقها في سبيل الله»[4].

---

(١) (ص: ١٩٠). وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢). وفي سنده من لم أعرفه.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢). وفي إسناده انقطاع.
وأخرجه معمر في «الجامع» (١١/ ٣٦) ــ ومن طريقه البيهقي في «المدخل إلىٰ السنن» (٤٥٩) ــ، والدارمي (١/ ٨٢) عن ابن عباسٍ من وجهين أحدهما صحيح.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢) بإسنادٍ حسن.

الوجه الثاني والمئة: قال مكحول: «**ما عُبِدَ اللهُ بأفضل من الفقه**»[1].

الوجه الثالث والمئة: قال سعيدُ بن المسيِّب: «ليست عبادةُ الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في دينه»[2].

وهذا الكلامُ يرادُ به أمران:

أحدهما: أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليَيْن عن العلم، ولكن بالفقه في الدين الذي يُعْلَمُ به كيف الصومُ والصلاة.

والثاني: أنها ليست الصومَ والصلاةَ فقط، بل الفقهُ في دينه من أعظم عباداته.

الوجه الرابع والمئة: قال إسحاقُ بن عبد الله بن أبي فروة: «أقربُ الناس من درجة النبوَّة العلماءُ وأهلُ الجهاد؛ والعلماءُ دَلُّوا الناسَ علىٰ ما جاءت به الرسل، وأهلُ الجهاد جاهدوا علىٰ ما جاءت به الرسل»[3].

وقد تقدَّم الكلامُ في تفضيل العالم علىٰ الشَّهيد وعكسه.

الوجه الخامس والمئة: قال سفيانُ بن عيينة: «أرفعُ الناس عند الله منزلةً من كان بين الله وبين عباده، وهم الرسلُ والعلماء»[4].

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٩) بإسنادٍ شديد الضعف. وروي عنه مرفوعًا مرسلًا، ولا يصح.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٢). والراوي عن سعيدٍ ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٨).

وأخرجه الذهبي في «السير» (١٨/ ٥٢٤) من حديث ابن عباس مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٨).

الوجه السادس والمئة: قال محمدُ بن شهاب الزُّهري: «ما عُبِدَ اللهُ بمثل الفقه»[1].

وهذا الكلامُ ونحوه يرادُ به: أنه ما يُعْبَدُ اللهُ بمثل أن يُتَعَبَّدَ بالفقه في الدين، فيكونُ نفسُ التفقُّه عبادة؛ كما قال معاذُ بن جبل: «عليكم بالعلم؛ فإنَّ طلبَه لله عبادة». وسيأتي إن شاء الله ذكرُ كلامه بتمامه[2].

وقد يرادُ به: أنه ما عُبِدَ اللهُ بعبادةٍ أفضلَ من عبادةٍ يصحبُها الفقهُ في الدين؛ لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات، ومفسداتها، وواجباتها، وسُننها، وما يكمِّلها، وما يُنْقِصُها.

وكلا المعنيين صحيح.

الوجه السابع والمئة: قال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَري: «من أراد النظرَ إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء»[3].

وهذا لأنَّ العلماءَ خلفاءُ الرسل في أممهم، ووارثوهم في علمهم، فمجالسُهم مجالسُ خلافة النبوَّة.

الوجه الثامن والمئة: أنَّ كثيرًا من الأئمة صرَّحوا بأنَّ أفضلَ الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم.

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١١٩)، والبيهقي في «المدخل إلىٰ السنن» (٤٦٧)، كلاهما من طريق معمر في «الجامع» (١١/ ٢٥٦).
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨/ ٥٥١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٢٥) عنه بلفظ: «العلم» بدل «الفقه».

(٢) في الوجه العاشر بعد المئة.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٩).

فقال الشافعي: «ليس شيءٌ بعد الفرائض أفضلَ من طلب العلم»[1]. وهذا الذي ذكره أصحابُه عنه أنه مذهبُه.

وكذلك قال سفيانُ الثوري[2].

وحكاهُ الحنفيةُ عن أبي حنيفة[3].

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فحُكِي عنه ثلاثُ روايات:

إحداهن: أنه العلم[4]. فإنه قيل له: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؛ أجلسُ بالليل أنسخُ أو أصلِّي تطوُّعًا؟ قال: «نسخُك تعلمُ به أمرَ دينك فهو أحبُّ إلي»[5].

وذكر الخلَّال عنه في كتاب «العلم» نصوصًا كثيرةً في تفضيل العلم. ومن كلامه فيه: «الناسُ إلىٰ العلم أحوجُ منهم إلىٰ الطعام والشراب». وقد تقدم[6].

---

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٣٨)، و«المدخل» (٤٧٥، ٤٧٦). وانظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (٩٧)، و«الحلية» (٩/ ١١٩)، و«جامع بيان العلم» (١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه أبو القاسم البغوي في «الجعديات» (١/ ٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٦٣، ٣٦٦)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (١٨٢)، والبيهقي في «المدخل» (٤٧٠، ٤٧١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٤).

(٣) انظر: «الكسب لمحمد بن الحسن» بشرحه للسرخسي (١٠٢، ١٤٨، ١٥٤)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٠، ٦/ ٤٣٢).

(٤) انظر: «مسائل ابن هانىء» (٢/ ١٦٨)، و«مسائل الكوسج» (٣٣٠٩، ٣٣١٠)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٣٨، ٤٣)، و«الإنصاف» (٢/ ١١٦).

(٥) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٤).

(٦) (ص: ١٦٤).

والرواية الثانية: أنَّ أفضلَ الأعمال بعد الفرائض صلاةُ التطوع[1].

واحتُجَّ لهذه الرواية بقوله ﷺ: «**واعلموا أنَّ خيرَ أعمالكم الصلاة**»[2]، وبقوله في حديث أبي ذرٍّ وقد سأله عن الصلاة، فقال: «**خيرٌ موضوع**»[3]، وبأنه أوصىٰ من سأله مرافقتَه في الجنة بكثرة السُّجود[4]، وهو الصلاة، وكذلك قولُه في الحديث الآخر: «**عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلا رفعك اللهُ بها درجة، وحَطَّ عنك بها خطيئةً**»[5]، وبالأحاديث الدالَّة علىٰ تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنه الجهاد[6]. فإنَّه[7] قال: «لا أَعْدِلُ بالجهاد شيئًا، ومن ذا يطيقُه؟!».

---

(١) انظر: «الفروع» (١/ ٥٢٢)، و«المبدع» (٢/ ١، ٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦، ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧)، وغيرهما من طرقٍ عن ثوبان.
وصححه ابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/ ١٣٠) ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ١٦٨).

(٣) جزءٌ من حديثٍ طويلٍ أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، والنسائي (٥٥٢٢)، وغيرهما من طُرقٍ لا تخلو من ضعفٍ عن أبي ذر.
وصححه ابن حبان (٣٦١)، والحاكم (٢/ ٥٩٧) وتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي.

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان.

(٦) وهذا هو المشهورُ عنه. وأطلقه الأصحاب. انظر: «مسائل عبد الله» (٢/ ٨١٩، ٨٣٦)، و«مسائل أبي داود» (٣١٠)، و«مسائل ابن هانىء» (٢/ ١٠٩)، و«المغني» (١٣/ ١٠)، و«المبدع» (٢/ ١)، و«الإنصاف» (٢/ ١١٥).

(٧) أي الإمام أحمد.

ولا ريب أنَّ أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

وأمَّا مالك؛ فقال ٱبن القاسم: سمعت مالكًا يقول: «إنَّ أقوامًا ٱبتغوا العبادةَ وأضاعوا العلم، فخرجوا علىٰ أمَّة محمدٍ ﷺ بأسيافهم، ولو ٱبتغوا[1] العلمَ لحَجَزهم عن ذلك»[2].

قال مالك: «وكتب أبو موسىٰ الأشعري إلىٰ عمر بن الخطاب أنه قد قرأ القرآن عندنا عددُ كذا وكذا، فكتب إليه عمر: أن ٱفرِض لهم من بيت المال، فلمَّا كان في العام الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآنَ عندنا عددٌ كثير، لِأكثرَ من ذلك؛ فكتب إليه عمر: أن ٱمحُهم من الدِّيوان؛ فإني أخافُ إنْ يُسْرِع الناسُ في القرآن أن يتفقَّهوا في الدِّين فيتأوَّلوه علىٰ غير تأويله»[3].

وقال ٱبن وهب: «كنتُ بين يدي مالك بن أنس، فوضعتُ ألواحي وقمتُ إلىٰ الصلاة، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضل من الذي تركتَه»[4].

---

(١) (ق، ت، ن، ح): «اتبعوا».

(٢) مضىٰ (ص: ٢٣٠) من قول الحسن.

(٣) أخرج أصل الخبر ابنُ سعد في «الطبقات» (٩/ ١٣٠) مختصرًا.
وانظر: «الجامع» لمعمر (١١/ ٢١٧)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٥١٦)، و«المستدرك» (٣/ ٥٤٠)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١٣٥).

(٤) أخرجه ابن شاهين في «مذاهب أهل السنة» (٦٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٢).
والصلاة التي قام إليها ابن وهب كانت صلاة فريضة، كما هو بيِّنٌ في رواية ابن شاهين، وفي هذا إشكال؛ فكيف يكون طلب العلم أفضل من صلاة الفريضة؟
ويمكن أن يحمل هذا علىٰ أن الإمام مالكًا أراد أن الصلاة لا تجب في أول الوقت إلا وجوبًا موسَّعًا، فالاشتغالُ بتقييد ما يُخشىٰ فواتُه من العلم أفضل من البدار إلىٰ =

قال شيخنا: وهذه الأمورُ الثلاثةُ التي فضَّل كلُّ واحدٍ من الأئمة بعضَها - وهي الصلاةُ والعلمُ والجهاد - هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاءَ فيها؛ لولا أن أحمِل أو أجهِّز جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدةُ هذا الليل، ولولا مجالسةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلام كما يُنتقىٰ أطايبُ الثمر = لما أحببتُ البقاء»[1]، فالأولُ: الجهاد، والثاني: قيام الليل، والثالث: مذاكرة العلم[2].

فاجتمعت في الصحابة لكمالهم[3]، وتفرَّقت فيمن بعدهم.

الوجه التاسع والمئة: ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: **«فضلُ العلم خيرٌ من [فضل] العمل، وخيرُ دينكم الوَرَع»**[4].

= الصلاة في أول الوقت. انظر: «المقدمات والممهدات» لابن رشد (١/ ٤٣، ٥١)، وخطبة «الكتاب المؤمل للردِّ إلىٰ الأمر الأول» لأبي شامة (٥٥). أو يحمل علىٰ أن الاشتغال بطلب العلم أفضل من البدار لإدراك الصف الأول أو تكبيرة الإحرام، كما تفيده رواية ابن شاهين.

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١١٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥١).
ورُوِي عن أبي الدرداء. أخرجه أحمد (١٣٥)، وابن المبارك (٢٧٧) كلاهما في «الزهد»، وابن معين في «التاريخ» (٤/ ٣٤٠ - رواية الدوري).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٦/ ٧٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٢٨١).

(٣) (ت، د، ق): «بكمالهم».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢١١ - ٢١٢)، والبزار (٢٩٦٩)، وغيرهما عن حذيفة بن اليمان. =

وقد رُوِي هذا مرفوعًا من حديث عائشة رضي الله عنها[1]؛ وفي رفعه نظر.

وهذا الكلامُ هو فصلُ الخطاب في هذه المسألة:

فإنه إذا كان كلٌّ من العلم والعمل فرضًا، فلا بدَّ منهما، كالصوم والصلاة.

فإذا كانا فَضلَين ـ وهما النَّفْلان الـمُتَطَوَّعُ بهما ـ، ففضلُ العلم ونفلُه خيرٌ من فضل العبادة ونفلها؛ لأنَّ العلم يعمُّ نفعُه صاحبَه والناسَ معه، والعبادةُ يختصُّ نفعُها بصاحبها؛ ولأنَّ العلم تبقىٰ فائدتُه وثمرتُه بعد موته، والعبادةُ تنقطعُ عنه؛ ولما مرَّ من الوجوه السابقة.

الوجه العاشر بعد المئة: ما رواه الخطيبُ وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلُّمه لله خشية[2]، وطلبَه عبادة، ومدارستَه تسبيح، والبحثَ عنه جهاد، وتعليمَه لمن لا يُحْسِنُه صدقة، وبذلَه لأهله قُربة، به يُعْرَفُ الله ويُعْبَد، وبه يُوَحَّد، وبه يُعْرَفُ الحلالُ

= قال الترمذي في «العلل الكبير» (٣٤١): «سألت محمدًا عن هذا الحديث، فلم يَعُدَّ هذا الحديث محفوظًا، ولم يعرف هذا عن حذيفة عن النبي ﷺ». وقال البزار: «وهذا الكلام لا نعلمه يروىٰ عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وإنما يُعْرَفُ هذا الكلامُ من كلام مطرِّف».

وروي من حديث سعد بن أبي وقاص، وثوبان، وأبي هريرة، وغيرهم، ولا يصحُّ منها شيء، والصوابُ أنه من قول مطرِّف بن عبد الله بن الشخير، وأخرجه عنه جماعة.

انظر: «علل الدارقطني» (٤/ ٣١٨، ١٠/ ١٤٥)، و«المدخل» للبيهقي (٢/ ٣٤).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٦٠) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

(٢) (ح، ن) وبعض المصادر: «حسنة».

مـن الحـرام، وتُوصَـلُ الأرحـام، وهـو الأنـيسُ في الوحـدة، والـصاحبُ في الخلوة، والدليلُ علىٰ السَّرَّاء، والـمُعِينُ علىٰ الضرَّاء، والـوزيرُ عند الأخـلَّاء، والقريبُ عند الغربـاء، ومنارُ سبيل الجنـة، يرفـعُ اللهُ بـه أقوامًا فـيجعلُهم في الخير قادةً وسادةً يقتدىٰ بهم، أدلَّةً في الخير تُقْتَصُّ آثارهم، وتُرْمَقُ أفعـالُهم، وترغبُ الملائكةُ في خُلَّتهم، وبأجنحتها تمسحُهم، يستغفرُ لهم كـلُّ رطبٍ ويابس، حتىٰ حيتانُ البحر وهوامُّه، وسباعُ الـبرِّ وأنعامُـه، والـسماءُ ونجومُها، والعلمُ حياةُ القلوب من العمىٰ، ونورٌ للأبصار من الظُّلَم، وقـوةٌ للأبـدان مـن الضعف، يبلـغُ بـه العبدُ منازلَ الأبـرار والـدرجات العلىٰ، التفكُّرُ فيـه يُعْدَلُ بالصيام، ومدارستُه بالقيام، وهو إمامٌ للعمل، والعملُ تابعُه، يُلْهَمُـه الـسعداء، ويُـحْرَمُه الأشقياء»(١).

هـذا الأثـرُ معـروفٌ عـن معـاذ. ورواه أبـو نعـيم في «المعجـم»(٢) مـن حـديث معـاذٍ مرفوعًـا إلىٰ النبـيِّ ﷺ(٣)، ولا يثبُـت، وحـسبه أن يَـصِلَ إلىٰ

(١) أخرجه أبـو نعـيم في «الحليـة» (١/ ٢٣٨)، وابـن عبـد الـبر في «جـامع بيـان العلـم وفضله» (١/ ٢٤٠) بإسنادٍ شديد الضعف.

(٢) لعله: معجم شيوخه. ذكره الـذهبي في «الـسير» (١٧/ ٤٥٥)، والـسخاوي في «فـتح المغيـث» (١/ ١١٩)، وغيرهمـا. ولعلـه أخرجـه ــ أيـضًا ــ في كتابيـه: «رياضـة المتعلمين»، و«فضل العالم العفيف».

(٣) وأخرجه كـذلك ابـن عبـد الـبر في «الجـامع» (١/ ٢٣٩)، والخطيـب في «المتفـق والمفترق» (١/ ٣٢٦) بإسنادين، أحدهما شديدُ الضعف، والآخرُ معضل.
قال ابن عبد البر: «هو حديثٌ حسنٌ جدًّا، ولكـن لـيس لـه إسنادٌ قـوي». أراد حُـسْنَ المعنىٰ، لا الـحُسْنَ الاصـطلاحي، كـما هـو ظـاهر، ونـصَّ عليه العراقـي في «التقييـد والإيضاح» (٦٠).

=

معاذ[1].

الوجه الحادي عشر بعد المئة: ما رواه يونس بن عبد الأعلىٰ، عن ٱبن أبي فُدَيْك: حدثني عمرو بن كثير، عن أبي العلاء، عن الحسن، عن رسول الله ﷺ قال: «**من جاءه الموتُ وهو يطلبُ العلم ليحيي به الإسلامَ فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجةُ النبوَّة**»[2].

وقد رُوِي من حديث عليِّ بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيِّب، عن ٱبن عباس، عن النبيِّ ﷺ[3].

وهذا وإن كان لا يثبتُ إسناده فلا يبعدُ معناه من الصحة؛ فإنَّ أفضلَ الدرجات: النبوَّة، وبعدها الصِّدِّيقيَّة، وبعدها الشهادة، وبعدها الصَّلاح، وهذه الدرجاتُ الأربع التي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

فمن طلبَ العلمَ ليحيي به الإسلامَ فهو من الصِّدِّيقين، ودرجتُه بعد

= ورُوِي الحديثُ من وجوهٍ أخرىٰ لا يثبتُ منها شيء. انظر: «تكميل النفع» للشيخ محمد عمرو عبد اللطيف (٥٩ - ٦٤).

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ١٠٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٦٠)، وأبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام» (٧٠٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٠٦) مرسلاً بإسنادٍ فيه من لا يُعْرَف.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٥)، و«تاريخ بغداد» (٣/ ٧٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٠٣) بإسنادٍ شديد الضعف. وهو مع ذلك مضطربُ الإسناد جدًّا، كما قال ابن عبد البر.

درجة النبوَّة.

الوجه الثاني عشر بعد المئة: قال الحسنُ في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: «هي العلمُ والعبادة»، ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾: «هي الجنة»(١).

وهذا من أحسن التفسير؛ فإنَّ أجلَّ حسنات الدنيا العلمُ النافعُ والعملُ الصالح.

الوجه الثالث عشر بعد المئة: قال ٱبن مسعود: «عليكم بالعلم قبل أن يُرْفَع، ورفعُه هلاكُ العلماء، فوالذي نفسي بيده ليودَّنَّ رجالٌ قُتِلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم اللهُ علماء؛ لما يرون من كرامتهم، وإنَّ أحدًا لم يولد عالمًا، وإنما العلمُ بالتعلُّم»(٢).

الوجه الرابع عشر بعد المئة: قال ٱبن عباس، وأبو هريرة، وبعدهما أحمد بن حنبل: «تذاكُر العلم بعض ليلةٍ أحبُّ إلينا من إحيائها»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٤/ ٢٠٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٢٩)، وغيرهما. والآيتان في سورة البقرة: ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) أخرج صدرَه معمرُ في «الجامع» (١١/ ٢٥٢) ــ ومن طريقه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٧٠)، والبيهقي في «المدخل» (٣٨٧) -، وغيره.
وفي إسناده انقطاع، كما أشار إلىٰ ذلك البيهقي، إلا أنه أخرجه بعد ذلك (٣٨٨) من وجهٍ آخر موصولًا.
وأخرج آخره ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٧٣٠)، ووكيع في «الزهد» (٥١٨)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (١٦٢).

(٣) أخرجه معمر في «الجامع» (١١/ ٢٥٣)، والدارمي (٦١٤) عن ابن عباسٍ. وإسنادُ =

الوجه الخامس عشر بعد المئة: قال عمر رضي الله عنه: «أيها الناس عليكم بالعلم؛ فإنَّ لله سبحانه رداءً يحبُّه، فمن طلب بابًا من العلم رَدَّاهُ اللهُ بردائه، فإن أذنبَ ذنبًا ٱستعتَبه؛ لئلَّا يَسْلُبه رداءه ذلك حتىٰ يموت به»(١).

قلت: ومعنىٰ ٱستعتاب الله عبدَه أن يطلبَ منه أن يُعْتِبَه؛ أي: يزيل عَتْبَه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة، فإذا أناب إليه رفع عنه عَتْبَه؛ فيكونُ قد أَعْتَبَ ربَّه، أي: أزال عَتْبَه عليه، والربُّ تعالىٰ قد ٱستعتبَه؛ أي: طلبَ منه أن يُعْتِبَه.

ومن هذا قولُ ٱبن مسعود ــ وقد وقعت زلزلةٌ بالكوفة ــ: «إنَّ ربكم يستعتبُكم فأَعْتِبُوه»(٢).

وهذا هو الاستعتابُ الذي نفاه سبحانه في الآخرة في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، أي: لا يُطْلَبُ منهم إزالة عَتْبِنا عليهم؛ فإنَّ إزالته إنما تكونُ بالتوبة، وهي لا تنفعُ في الآخرة.

= الأول صحيح. وقولُ أبي هريرة تقدم تخريجه (ص: ١٨٦). وقولُ أحمد في «مسائل إسحاق بن منصور الكوسج» (٣٣٠٩)، ومن طريقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١١٨).

(١) علَّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٥٣)، وعزاه الزبيديُّ في «إتحاف السادة المتقين» (١/ ١٤٠) إلىٰ «مناقب عمر» للإسماعيلي والذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٧٨)، وفي إسناده انقطاع.
وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤٧٢) عن شهر بن حوشب عن النبي ﷺ مرسلًا. قال ابن رجب في «فتح الباري» (٩/ ٢٤٦): «هذا مرسلٌ ضعيف».
وأخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٨) معضلاً من وجه آخر.

وهذا غير ٱستعتاب العبد ربَّه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤]، فهذا معناه أن يطلبوا إزالةَ عتْبِنا عليهم والعفو، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾ أي: ما هم ممن يُزالُ العَتْبُ عليه، وهذا الاستعتابُ ينفعُ في الدنيا دون الآخرة(١).

الوجه السادس عشر بعد المئة: قال عمر رضي الله عنه: «موتُ ألف عابدٍ أهونُ من موت عالمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه»(٢).

ووجهُ قول عمر: أنَّ هذا العالِم يَـهْدِمُ علىٰ إبليس كلَّ ما يبنيه، بعلمه وإرشاده، وأما العابدُ فنفعُه مقصورٌ علىٰ نفسه.

الوجه السابع عشر بعد المئة: قولُ بعض السلف: «إذا أتىٰ عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيه علمًا يقرِّبني إلىٰ الله تعالىٰ، فلا بُورِكَ لي في طلوع شمس ذلك اليوم»(٣).

وقد رُفِعَ هذا إلىٰ رسول الله ﷺ(٤)، ورفعُه إليه باطل، وحسبه أن يَصِلَ

---

(١) انظر لهذا البحث فصلاً نافعًا في «بدائع الفوائد» (١٦٢٢).

(٢) علَّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٨).

(٣) لم أجده. وأحسبُ المصنف قدَّر نسبته إلىٰ بعض السلف تقديرًا، كما يشير إلىٰ ذلك آخرُ كلامه.

(٤) أخرجه إسحاق في «مسنده» (٢/ ٥٥٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٩، ٣/ ٢٩٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٨٨)، وغيرهم عن عائشة.

قال ابن عدي: «هذا حديثٌ منكر المتن، وهو عن الزهريِّ منكر، لا يرويه عنه غير الحكم». وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٦٠).

إلىٰ واحدٍ من الصحابة أو التابعين.

وفي مثله قال القائل[1]:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أسْتَفِدْ هدًى ولم أكتَسِبْ علمًا فما ذاك من عُمْري

الوجه الثامن عشر بعد المئة: قال بعض السلف: «الإيمانُ عُرْيان، ولباسُه التقوىٰ، وزينتُه الحياء، وثمرتُه العلم»[2].

وقد رُفِعَ هذا أيضًا[3]، ورفعُه باطل.

الوجه التاسع عشر بعد المئة: أنه في بعض الآثار: «بين العالم والعابد

---

(١) وهو أبو الفتح البستي، في ديوانه (٢٥٤)، و«اليتيمة» (٤/ ٣٨٢)، و«التمثيل والمحاضرة» (١٢٧)، والرواية فيها:

* إذا مر بي يومٌ ولم أصطنع يدًا *

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥١٠)، وابن أبي الدنيا (٩٧)، والخرائطي (٢٧٣) كلاهما في «مكارم الأخلاق»، واللالكائي في «السنة» (١٥٧١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٣٨٩) عن وهب بن منبه.

وأخرجه ابن أبي الدنيا (١٠٣) عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه يحيى بن الحسين الشجري في «أماليه» (١/ ١٥، ٣٦) من حديث ابن مسعود بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

وروي من وجهٍ آخر ضعيف. انظر: «المغني عن حمل الأسفار» للعراقي (١/ ١٢).

ومن وجهٍ آخر باطل، أخرجه ابن عساكر (٤٣/ ٢٤١) من حديث علي.

وانظر: «كشف الخفا» (١/ ٢٢)، و«الجد الحثيث فيما ليس بحديث» للغزِّي (٢٥).

وفي بعض هذه المصادر: «وماله العفَّة»، وفي بعضها: «الفقه»، ولعله تحريف، بدل: «وثمرته العلم».

مئة درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الجواد المُضَمَّر سبعين سنة»[1].

وقد رُفِعَ هذا أيضًا[2]، وفي رفعه نظر.

الوجه العشرون بعد المئة: ما رواه حربٌ في «مسائله»[3] مرفوعًا إلىٰ النبيِّ ﷺ: «**يجمعُ اللهُ تعالىٰ العلماءَ يوم القيامة، ثم يقول: يا معشر العلماء، إني لم أضَعْ علمي فيكم إلا لعلمي بكم، ولم أضَعْ علمي فيكم لأعذِّبكم، اذهبوا فقد غفرتُ لكم**».

وهذا وإن كان غريبًا فله شواهدُ حِسَان.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦٥) عن الزهري.
وحُضْر الجواد: ارتفاعُه في عَدْوِه. وتضمير الخيل: أن تُعْلف حتىٰ تسمن، ثم تردَّ إلىٰ القوت. وقيل: أن تُشَدَّ عليها سروجُها وتجلَّل بالأجِلَّة حتىٰ تعرق تحتها، فيذهب رَهَلُها ويشتدَّ لحمها، ويحمل عليها غلمانٌ خِفافٌ يجرونها ولا يَعْنفون بها، فإذا فُعل ذلك بها أُمِنَ عليها البُهْرُ الشديد عند حُضْرها. «اللسان».

(٢) انظر ما تقدم (ص: ١٨٨).

(٣) (٣٤٣) من مرسل الحسن البصري بنحو لفظه.
وأخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٣٥٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١١١) ـ ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٥٦٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٥١١) ـ، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢١٥، ٢١٧)، وغيرهم من حديث أبي موسىٰ الأشعري.
قال ابن عدي: «هذا الحديث بهذا الإسناد باطل».
ورُوِي من حديث أبي هريرة، وابن عمر، وجابر، وثعلبة بن الحكم، وأبي أمامة أو واثلة بن الأسقع، رضي الله عنهم، بأسانيد ضعيفةٍ جدًّا لا يصلحُ شيءٌ منها لتقوية الحديث. انظر: «السلسة الضعيفة» (٨٦٧، ٨٦٨).

الوجهُ الحادي والعشرون بعد المئة: قولُ ٱبن المبارك، وقد سئل: مَن الناس؟ قال: العلماء، قيل: فمَن الملوك؟ قال: الزُّهَّاد، قيل: فمَن السِّفْلة[١]؟ قال: الذي يأكلُ بدينه[٢].

الوجه الثاني والعشرون بعد المئة: أنَّ من أدرك العلمَ لم يضرَّه ما فاته بعد إدراكه؛ إذ هو أفضلُ الحظوظ والعطايا، ومن فاته العلمُ لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ، بل يكونُ وبالًا عليه وسببًا لهلاكه.

وفي هذا قال بعض السلف: «أيَّ شيءٍ أدركَ من فاته العلمُ؟! وأيَّ شيءٍ فات من أدركَ العلمَ؟!»[٣].

الوجه الثالث والعشرون بعد المئة: قال بعضُ العارفين[٤]: «أليس المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواء يموت؟ قالوا: بلىٰ، قال: فكذلك القلبُ إذا مُنِعَ عنه العلمُ والحكمةُ ثلاثة أيام يموت».

وصَدَق؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلب وشرابُه ودواؤه، وحياتُه موقوفةٌ علىٰ ذلك، فإذا فقد القلبُ العلمَ فهو ميت، ولكن لا يشعُر بموته، كما أنَّ السَّكران الذي قد زال عقلُه، والخائفَ الذي قد ٱنتهىٰ خوفُه إلىٰ غايته، والـمُحِبَّ

---

(١) وهم أراذلُ الناس. «اللسان» (سفل).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢/ ٢٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٢)، وغيرهم.

(٣) نُسِبَ لعليٍّ رضي الله عنه في «شرح النهج» (٢٠/ ٢٨٩)، ولأرسطاليس في «إرشاد الأريب» (٢٢)، ولبزرجمهر في «المحاسن والمساوىء» (٣).

(٤) هو فتح بن سعيد الموصلي، كما في «الإحياء» (١/ ٨). والتعليق الذي يلي قوله هنا للغزالي.

والمفكِّر، قد يَبْطُلُ إحساسُهم بألم الجِراحات في تلك الحال، فإذا صَحَوا وعادوا إلىٰ حال الاعتدال أدركوا آلامَها.

هكذا العبدُ إذا حَطَّ عنه الموتُ أحمالَ الدنيا وشواغلَها أحسَّ بهلاكه وخسرانه.

فحَتَّامَ لا تصحو وقد قَرُبَ المَدى   وحَتَّامَ لا يَنجابُ عن قلبك السُّكْرُ
بلىٰ سوف تصحو حين ينكشِفُ الغِطَا   وتَذْكُرُ قولي حين لا ينفعُ الذِّكْرُ[1]

فإذا كُشِفَ الغِطَاء، وبَرِحَ الخفاء، وبُلِيَت السرائر، وبَدَت الضمائر، وبُعْثِرَ ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور؛ فحينئذٍ يكونُ الجهلُ ظلمةً علىٰ الجاهلين، والعلمُ حسرةً علىٰ البطَّالين.

الوجه الرابع والعشرون بعد المئة: قال أبو الدرداء: «من رأىٰ أنَّ الغُدُوَّ إلىٰ العلم ليس بجهادٍ فقد نقصَ في رأيه وعقله»[2].

وشاهدُ هذا قولُ معاذ، وقد تقدَّم.

الوجه الخامس والعشرون بعد المئة: قولُ أبي الدرداء ـ أيضًا ـ: «لأَنْ أتعلَّم مسألةً أحبُّ إليَّ من قيام ليلة»[3].

الوجه السادس والعشرون بعد المئة: قولُه أيضًا: «العالمُ والمتعلِّمُ

---

(١) البيتان في «المدهش» (٣٥٤)، و«شرح النهج» (١٨/ ٧٠) دون نسبة.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٩٣). وأثر معاذ تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢، ١٠٣) بنحوه من وجهين فيهما انقطاع.

شريكان في الأجر، وسائرُ الناس هَمَجٌ لا خير فيهم»[1].

الوجه السابع والعشرون بعد المئة: ما رواه أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه»[2] من حديث أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من دخلَ مسجدنا هذا ليتعلَّمَ خيرًا أو ليعلِّمَه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخلَه لغير ذلك كان كالناظر إلىٰ ما ليس له**».

الوجه الثامن والعشرون بعد المئة: ما رواه أيضًا في «صحيحه»[3] من حديث الثلاثة الذين ٱنتهوا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في حَلْقة، فأعرضَ أحدُهم، واستحىٰ الآخرُ فجلسَ خلفهم، وجلسَ الثالثُ في فُرْجَةٍ في الحَلْقة؛ فقال النبيُّ ﷺ: «**أما أحدهم فآوىٰ إلىٰ الله فآواه الله، وأمَّا الآخر فاستحيىٰ فاستحيىٰ الله منه، وأما الآخر فأعرضَ فأعرضَ الله عنه**».

فلو لم يكن لطالب العلم إلا أنَّ الله يؤويه إليه، ولا يُعْرِضُ عنه، لكفىٰ به فضلًا.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٤٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١٣٦)، والبيهقي في «المدخل» (٣٨٣)، وغيرهم.
وانظر: «الزهد» لوكيع (٣/ ٨٣٦ - ٨٣٨)

(٢) (٣٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٥٠، ٥٢٦)، وابن ماجه (٢٢٧)، وغيرهم.
وصححه الحاكم (١/ ٩١)، ولم يتعقبه الذهبي.
وهو معلول ؛ فقد روي من وجهٍ أصح عن كعب الأحبار قوله. قال الدارقطني في «العلل» (١٠/ ٣٨١): إنه «أشبه بالصواب».
وانظر: «الكامل» لابن عدي (٢/ ٢٧٥).
ورُوِي من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بإسنادٍ فيه ضعف. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٧٥).

(٣) (٨٦)، والبخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦) من حديث أبي واقد الليثي.

الوجه التاسع والعشرون بعد المئة: ما رواه كُمَيْلُ بن زياد النخعي، قال: «أخذَ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجني ناحيةَ الجَبَّانة[1]، فلما أصْحَرَ جعلَ يتنفَّس، ثمَّ قال: يا كميل بن زياد، القلوبُ أوعية، فخيرُها أوعاها للخير، ٱحفظْ عنِّي ما أقول: الناسُ ثلاثة؛ فعالمٌ ربَّاني، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيل نجاة، وهَمَجٌ رعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعق، يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيق.

العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُك وأنت تحرسُ المال، العلمُ يزكو علىٰ الإنفاق ـ وفي رواية: علىٰ العمل ـ والمالُ تَنْقُصُه النفقة، العلمُ حاكم والمالُ محكومٌ عليه، ومحبةُ العلم[2] دينٌ يُدانُ بها، العلمُ يُكْسِبُ العالِمَ الطاعةَ في حياته، وجميلَ الأُحدوثة بعد وفاته، وصنيعةُ المال تزولُ بزواله، مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدَّهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوب موجودة.

هاه.. هاه.. إنَّ ههٰنا علمًا ـ وأشار بيده إلىٰ صدره ـ لو أصبتُ له حَمَلة! بلىٰ[3].. أصبتُ لَقِنًا[4] غير مأمونٍ عليه، يستعملُ آلةَ الدين للدنيا، يستظهرُ بحُجَج الله علىٰ كتابه، وبنعمه علىٰ عباده، أو منقادًا لأهل الحقِّ، لا بصيرةَ له في أحنائه[5]، ينقدحُ الشكُّ في قلبه بأول عارضٍ من شبهة، [ألا] لا ذا ولا

---

(١) الصحراء. وفي (د، ق، ن): «الجبَّان». وهما بمعنىٰ.

(٢) (ق): «العالم». وفي طرة (ح) إشارةٌ إلىٰ أنه كذلك في نسخة.

(٣) (ح، ن): «بل».

(٤) سريع الفهم. «اللسان» (لقن).

(٥) جوانبُ الحقِّ ومُشْتَبِهُه وغوامضُه. «اللسان» (حنا). وسيأتي شرحُها. وفي بعض المصادر: «إحيائه»، وفي بعضها: «إجابة»، وفي بعضها: «خيانة». وكلُّه تحريف.

ذاك، أو منهومًا للَّـذَّات، سَـلِسَ القيـاد للـشهوات، أو مُغـرًى بجمـع الأمـوال والادِّخار، ليسا من دعاة الدِّين، أقربُ شَبهًا بهم الأنعامُ السَّائمة.

كذلك[1] يموتُ العلمُ بموت حامليه، اللهمَّ بلىٰ.. لن تـخلو الأرضُ من قـائمٍ لله بحجَّتـه، لكـيلا تَـبْطُل حجـجُ الله وبيِّناتُـه، أولئـك الأقلُّـون عـددًا، الأعظمـون عنـد الله قـدرًا، بهـم يـدفعُ اللهُ عـن حُجَجـه، حتـىٰ يؤدُّوهـا إلىٰ نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ علىٰ حقيقـة الأمـر، فاستلانوا ما ٱستوعرَ منه المترفـون، وأَنِسوا بـما ٱستوحشَ منه الجـاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها[2] معلَّقةٌ بـالملأ الأعـلىٰ، أولئـك خلفـاءُ الله في أرضه[3]، ودعاتُه إلىٰ دينه، هـاه.. هـاه.. شـوقًا إلىٰ رؤيتهم، وأستغفرُ الله لي ولك، إذا شئتَ فَقُم».

ذكره أبو نعيم في «الحلية»[4] وغيره.

---

(١) (ق): «لذلك».

(٢) (ق): «بأبدانهم وأرواحهم».

(٣) (ح): «وأمناؤه على عباده».

(٤) (١/ ٧٩) ـ ومن طريقه الخطيب في «الفقيـه والمتفقـه» (١/ ١٨٢) ـ، والرافعـي في «التـدوين» (٣/ ٢٠٨)، وأبـو بكـر الأبهـري في «الفوائـد» (١٦)، والـشجري في «الأمـالي» (١/ ٦٦)، والمعـافىٰ في «الجليس والأنـيس» (٤/ ١٣٥)، والسِّلَفي في «الطيوريـات» (٥٣٥)، وابـن عـساكر في «تـاريخ دمـشق» (١٤/ ١٧، ٥٠/ ٢٥٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٢٢٠)، والذهبي في «تذكرة الحفـاظ» (١/ ١١) بإسنادٍ ضعيف. وقال الذهبي: «إسناده لين».

وروي من وجهٍ آخر:

أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٧٩) ـ ومن طريقه ابن عساكر (٥٠/ ٢٥١) ـ، =

قال أبو بكر الخطيب: «هذا حديثٌ حسن، من أحسن الأحاديث معنًى، وأشرفها لفظًا، وتقسيمُ أمير المؤمنين الناسَ في أوَّله تقسيمٌ في غاية الصِّحَّة ونهاية السَّداد؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العِلَل؛ إمَّا أن يكون عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مُغْفِلًا للعلم وطلبه ليس بعالمٍ ولا طالبٍ له.

فالعالمُ الربانيُّ هو الذي لا زيادةَ علىٰ فضله لفاضل، ولا منزلةَ فوق منزلته لمجتهد، وقد دخلَ في الوصف له بأنه ربَّانيٌّ وصفُه بالصِّفات التي يقتضيها العلمُ لأهله، ويمنعُ وصفَه بما خالفها.

ومعنىٰ الرَّبَّاني في اللغة: الرفيعُ الدرجة في العلم العالي المنزلة فيه،

= وابن عبد ربه في «العقد» (٢/ ٢١٢) بإسنادٍ شديد الضعف. وقال ابن عساكر: «هذا طريق غريب».

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه المعافىٰ في «الجليس والأنيس» (٣/ ٣٣١)، ومن طريقه ابن عساكر (٥٠/ ٢٥٤)، وإسنادُه مظلم.

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه أبو هلال العسكري في «ديوان المعاني» (١/ ٣٢٨)، وإسنادُه مظلمٌ كذلك.

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٨٢٤) بإسنادٍ منقطع، وأخشىٰ أن يكون مركَّبًا؛ والدينوريُّ متَّهمٌ بالكذب.

وهو مرويٌّ في كتب الشيعة وأماليهم من وجوهٍ أخرىٰ مظلمة.

وقد قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٨٤) ـ وأقرَّه المصنفُ في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٩٥) ـ: «وهو حديثٌ مشهورٌ عند أهل العلم، يستغني عن الإسناد؛ لشهرته عندهم».

وعلىٰ ذلك حملوا قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَـٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقوله: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال [سعيد بن جبير][(١)]: «حكماء فقهاء».

وقال أبو رَزِين[(٢)]: «فقهاء علماء»[(٣)].

وقال أبو عمر الزاهد: سألتُ ثعلبًا عن هذا الحرف ـ وهو الرَّبَّاني ـ فقال: سألتُ ٱبن الأعرابي فقال: إذا كان الرجلُ عالمًا عاملًا معلِّمًا قيل له: هذا ربَّاني، فإنْ خَرَمَ[(٤)] عن خصلةٍ منها لم يُقَل له: ربَّاني.

وقال ٱبنُ الأنباري عن النحويِّين: إنَّ الرَّبَّانيِّين منسوبون إلىٰ الربِّ، وإنَّ الألف والنون زيدتا للمبالغة في النَّسب، كما تقول: لِحْياني وجُمَّاني إذا كان عظيمَ اللِّحية والجُمَّة[(٥)].

وأمَّا **المتعلِّمُ علىٰ سبيل النجاة** فهو الطالب بتعلُّمه والقاصدُ به نجاتَه من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه، والرغبةَ بنفسه عن إهمالها واطِّراحها، والأنفةَ من مجانسة البهائم»[(٦)].

---

(١) سقط من الأصول، سوى (ح)، ففيه: «علي وابن عباس». والمثبت من «الفقيه والمتفقه». وقد أخرجه الطبري (٦/ ٥٤٢) عن ابن عباس.

(٢) (ق): «الواقدي».

(٣) في (ح) زيادة: «وقال قتادة: حكماء علماء». وليست في «الفقيه والمتفقه».

(٤) مهملة في (د، ق). وفي «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣١٦): «حرم خصلة». والمثبت من (ح، ت) و«الفقيه والمتفقه». وخَرَمَ عن الشيء: حاد وعدل عنه. «اللسان» (خرم).

(٥) «الزاهر» (١/ ١٧٨). وانظر: «المحكم» (١٠/ ٢٣٥).

(٦) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٤ - ١٨٦). والنصوصُ المنقولة مسندةٌ فيه.

ثمَّ قال: «وقد نفىٰ بعض المتقدِّمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم.

وأمَّا **القسمُ الثالث**: فهم المُهْمِلون لأنفسهم، الراضُونَ بالمنزلة الدنيَّة والحال الخسيسة، التي هي في الحضيض الأَوْهَدِ والهبوط الأسفل، التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط.

وما أحسن ما شبَّههم بالهَمَج الرَّعاع! وبه يُشَبَّه دُناةُ الناس وأراذلهم.

والرَّعاع: المُتَبَدِّدُ المتفرِّق، والنَّاعق: الصَّائح، وهو في هذا الموضع الراعي، يقال: نَعَقَ الراعي بالغنم يَنْعِق، إذا صاحَ بها، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]»(١).

ونحن نشيرُ إلىٰ بعض ما في هذا الحديث من الفوائد:

* فقولُه رضي الله عنه: «**القلوبُ أوعية**»؛ القلبُ يُشَبَّهُ بالوعاء والإناء والوادي؛ لأنه وعاءٌ للخير والشرِّ.

وفي بعض الآثار: «إنَّ لله في أرضه آنية، وهي القلوب، فخيرُها أرقُّها وأصلبُها وأصفاها»(٢).

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ١٩) من حديث أبي عنبة الخولاني مرفوعًا بإسنادٍ جيد، كما قال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٤٧٤).
وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٩١).
وفي صُحبة أبي عنبة خلافٌ ستأتي الإشارةُ إليه.
وروي الحديث من وجوهٍ أخرىٰ مرفوعًا وموقوفًا.

فهي أواني مملوءةٌ من الخير، وأواني مملوءةٌ من الشرِّ؛ كما قال بعضُ السَّلف: «قلوبُ الأبرار تغلي بالبِرِّ، وقلوبُ الفجَّار تغلي بالفجور»(١).

وفي مثل هذا قيل في المثل: «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَنْضَح»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]؛ شبَّه العلمَ بالماء النازل من السماء، والقلوبَ في سَعَتها وضِيقها بالأودية؛ فقلبٌ كبير واسعٌ يسعُ علمًا كثيرًا كوادٍ كبيرٍ واسعٍ يسعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ ضيِّقٌ يسعُ علمًا قليلًا كوادٍ صغيرٍ ضيِّقٍ يسعُ ماءً قليلًا(٣).

ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**لا تسمُّوا العنبَ: الكَرْم؛ فإنَّ الكَرْمَ قلبُ المؤمن**»(٤)، فإنهم كانوا يسمُّون شجرَ العنب: «الكَرْم»؛ لكثرة منافعه وخيره، والكَرْمُ كثرةُ الخير والمنافع(٥)، فأخبرهم أنَّ قلبَ المؤمن أولىٰ بهذه التسمية؛ لكثرة ما فيه من الخير والبرِّ والمنافع(٦).

* وقولُه: «**فخيرُها أوعاها**»؛ يرادُ به أسرعُها وعيًا، وأكثرها وعيًا، وأثبتُها وعيًا، ويرادُ به أيضًا أحسنُها وعيًا. فيكونُ حُسْنُ الوعي ـ الذي هو إيعاءٌ(٧)

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٢٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٨) عن مالك بن دينار.

(٢) «مجمع الأمثال» (٢/ ١٦٢).

(٣) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٢)، و«الوابل الصيب» (١٣٣)، وما تقدم (ص: ١٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة.

(٥) (ق): «والكروم كثيرة الخير والمنافع». قراءة محتملة. والمثبت أشبه.

(٦) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٣٤٨، ٤٦٨، ٤/ ٣٦٩)، و«تهذيب السنن» (١٣/ ٢١٧).

(٧) أوعىٰ الشيءَ إيعاءً: حَفِظَه. «اللسان» (وعىٰ).

لما يقال له في قلبه ـ هو سرعتُه وكثرتُه وثباتُه.

والوعاءُ من مادَّة الوعي؛ فإنه آلةُ ما يُوعىٰ فيه، كالغطاء والفراش والبساط ونحوها، ويوصفُ بذلك القلبُ والأذن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢]، قال قتادة: «أذنٌ سَمِعَت وعَقَلَت عن الله ما سَمِعَت»[١]، وقال الفراء: «لتحفظَها كلُّ أذن، فتكونَ عظةً لمن يأتي بعدُ»[٢].

فالوعيُ توصفُ به الأذنُ كما يوصفُ به القلب، يقال: «قلبٌ واعٍ، وأذنٌ واعية»؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلمُ يدخلُ من الأذن إلىٰ القلب، فهي بابُه والرسولُ المُوصِلُ إليه العلمَ، كما أنَّ اللسانَ رسولُه المؤدِّي عنه[٣].

ومن عرفَ ٱرتباط الجوارح بالقلب علمَ أنَّ الأذنَ أحقُّها بأن توصفَ بالوعي؛ فإنها[٤] إذا وَعَت وَعَىٰ القلبُ.

وفي حديث جابرٍ في المثَل الذي ضربته الملائكةُ للنبيِّ ﷺ ولأمته، وقول الملَك له: «ٱسمَعْ سَمِعَت أذنُك، وٱعقِلْ عَقَلَ قلبُك»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٥٧٩).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ١٨١).

(٣) (ت): «الذي يؤدي عنه».

(٤) (د، ح، ن): «وأنها».

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٦٠)، وابن سعد (١/ ١٤٥)، وغيرهما من حديث جابر.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ مرسل؛ سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر». وصححه الحاكم (٢/ ٣٣٨، ٤/ ٣٩٣) من وجهين فيهما إثباتُ واسطةٍ بين سعيد وجابر. ولم =

فلمَّا كان القلبُ وعاءً، والأذنُ مدخلَ ذلك الوعاء وبابَه، كان حصولُ العلم موقوفًا علىٰ حسن الاستماع وعَقْلِ القلب.

والعقل: هو ضبطُ ما وصلَ إلىٰ القلب وإمساكُه حتىٰ لا يتفلَّت منه. ومنه: عَقْلُ البعير والدابَّة، والعِقالُ لما يُعْقَلُ به، وعقلُ الإنسان سُمِّي عقلًا لأنه يَعْقِلُه عن اتباع الغَيِّ والهلاك، ولهذا يسمَّىٰ: حِجْرًا، لأنه يمنعُ صاحبَه كما يمنعُ الحِجْرُ ما حواه.

فعقلُ الشيء أخصُّ من علمه ومعرفته؛ لأنَّ صاحبَه يعقلُ ما عَلِمَه فلا يَدعُه يذهب، كما يَعْقِلُ الدابَّةَ التي يخافُ شُرودَها.

وللإدراك مراتبُ بعضها أقوىٰ من بعض؛ فأوَّلها: الشُّعور، ثمَّ الفهم، ثمَّ المعرفة، ثمَّ العلم، ثمَّ العقل، ومرادُنا هنا بالعقل: المصدرُ، لا القوَّةُ الغريزيَّةُ التي ركَّبها الله في الإنسان.

فخيرُ القلوب ما كان واعيًا للخير ضابطًا له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبلُه، فهذا قلبٌ حَجَريٌّ، ولا كالمائع الأخرق الذي يقبلُ ولكن لا يحفظُ ولا يضبط. فتفهيمُ الأول كالرَّسم في الحَجَر، وتفهيمُ الثاني كالرَّسم علىٰ الماء. بل خيرُ القلوب ما كان ليِّنًا صلبًا؛ يقبلُ بلِينه ما ينطبعُ فيه، ويحفظُ صورتَه بصلابته، فهذا تفهيمُه كالرَّسم في الشَّمْع وشبهه.

= يتعقبه الذهبي. والمرسل أشبه.

وله شاهد من حديث ربيعة الجرشي رضي الله عنه، عند الطبراني في «الكبير» (٥/ ٦٥)، وجوَّد إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٥٦). وانظر: «تغليق التعليق» (٥/ ٣٢٠). وأخرجه الطبري (١٥/ ٦٠) عن أبي قلابة مرسلًا، بإسقاط ربيعة، وهو أصح.

* وقولُه: «**الناس ثلاثة: فعالمٌ ربَّاني، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيل النجاة، وهَمَجٌ رعاع**»؛ هذا تقسيمٌ حاصرٌ للناس[1]، وهو الواقع؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكون قد حَصَّل كمالَه من العلم والعمل أوْ لا؛ **فالأول**: العالمُ الرَّبَّاني، **والثاني**: إمَّا أن تكون نفسُه متحرِّكةً في طلب ذلك الكمال ساعيةً في إدراكه أوْ لا، **والثاني**: هو المتعلِّمُ علىٰ سبيل النجاة، **والثالث**: هو الهَمَجُ الرعاع. **فالأول**: هو الواصل، **والثاني**: هو الطالب، **والثالث**: هو المحروم.

والعالمُ الرَّبَّاني، قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: «هو المعلِّم»[2]، أخذَه من التربية؛ أي: يَرُبُّ الناسَ بالعلم[3]، ويربِّيهم به كما يربِّي الطِّفلَ أبوه.

وقال سعيد بن جبير: «هو الفقيه العليم الحكيم»[4].

قال سيبويه: «زادوا ألفًا ونونًا في الرَّبَّاني إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الربِّ تبارك وتعالىٰ، كما قالوا: شَعْراني ولِحْياني»[5].

معنىٰ قول سيبويه ـ رحمه الله ـ: أنَّ هذا العالِمَ لـمَّا نُسِبَ إلىٰ علم الربِّ تعالىٰ الذي بعثَ به رسولَه، وتَخصَّصَ به، نُسِبَ إليه دون سائر من عَلِمَ علمًا ما.

---

(١) (د، ح، ت، ن): «خاص للناس». وهو تحريف. وفي طرَّة (د): «لعله: حاصر». وأثبت ناسخ (ق) في المتن: «لعله حاصر للناس»، كأنه رأى التعليق في الطرَّة فأدخله في المتن بتمامه!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٩١).

(٣) أي: يجمعُهم ويُصْلِحُهم. «اللسان» (ربب).

(٤) انظر: «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٥٤٢).

(٥) لم أره في «الكتاب»، وهو مشهورٌ عنه، نقله جماعة، والنقلُ هنا عن الواحدي. وانظر: «الكتاب» (٣/ ٣٨٠)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ١٧٨).

قال الواحدي[1]: «فالرَّبَّاني ـ علىٰ قوله ـ منسوبٌ إلىٰ الربِّ، علىٰ معنىٰ التخصيص بعلم الربِّ، أي: بعلم الشريعة وصفات الربِّ تبارك وتعالىٰ.

قال المبرِّد: الرَّبَّاني الذي يَـرُبُّ العلمَ ويَـرُبُّ الناسَ به، أي: يعلِّمهم ويُصْلِحُهم.

وعلىٰ قوله، فالرَّبَّاني مِنْ: رَبَّ يَـرُبُّ رَبًّا، أي: تربيةً، فهو منسوبٌ إلىٰ التربية»، يربِّي علمَه ليكمُلَ ويَتِمَّ بقيامه عليه وتعاهُده إياه، كما يربِّي صاحبُ المال مالَه، ويربِّي الناسَ به كما يربِّي الأطفالَ أولياؤهم.

وليس من هذا قولُه[2]: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فالرِّبِّيُّون هنا: الجماعات، بإجماع المفسِّرين[3]، قيل: إنه من الرِّبَّة ـ بكسر الراء ـ، وهي الجماعة.

قال الجوهري: «الرِّبِّيُّ واحدُ الرِّبِّيِّين؛ وهم الألوفُ من الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾[4].

ولا يوصفُ العالِمُ بكونه ربَّانيًّا حتىٰ يكون عاملًا بعلمه معلِّمًا له.

فهذا قِسْم.

---

(١) في «الوسيط» (١/ ٤٥٦)، و«البسيط» (٥/ ٣٨٢).

(٢) (ت، د، ق): «وليس هذا من قوله».

(٣) هو قول الأكثرين. وجاء عن ابن عباس والحسن وغيرهما تفسيرها بالعلماء. انظر: «سنن سعيد بن منصور» (١٠٩٦)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٢٦٧)، و«جامع المسائل» (٣/ ٦٢).

(٤) «الصحاح» (١/ ١٣٢) (ربب).

والقسمُ الثاني: متعلِّمٌ علىٰ سبيل نجاة؛ أي: قاصدًا بعلمه النجاة، وهو المخلصُ في تعلُّمه، المتعلِّمُ ما ينفعُه، العاملُ بما عَلِمَه، فلا يكون المتعلِّمُ علىٰ سبيل نجاةٍ إلا بهذه الأمور الثلاثة؛ فإنه إن تعلَّمَ ما يضرُّه ولا ينفعُه لم يكن علىٰ سبيل نجاة، وإن تعلَّم ما ينتفعُ به لا للنجاة فكذلك، وإن تعلَّمه ولم يعمل به لم يحصُل له النجاة، ولهذا وصَفَه بكونه علىٰ السبيل، أي: علىٰ الطريق التي تنجيه.

وليس حرفُ «علىٰ» وما عَمِلَ فيه متعلِّقًا بـ «متعلِّم» إلا علىٰ وجه التضمين، أي: مفتِّش متطلِّع علىٰ سبيل نجاته ليسلكه؛ فتعلُّمه تفتيشٌ علىٰ سبيل نجاته.

فهذا في الدرجة الثانية، وليس ممَّن تعلَّمه ليماري به السُّفهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرفَ وجوهَ الناس إليه، فإنَّ هذا من أهل النار، كما جاء في الحديث[1]، وثبَّته أبو نعيم وأبو عمرو بن الصلاح وغيرهما.

قال ابنُ الصلاح: وثبَّت أبو نعيم ـ أيضًا ـ قولَه ﷺ: «**من تعلَّمَ علمًا مما يبتغىٰ به وجهُ الله، لا يتعلَّمُه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يَجِدْ رائحةَ الجنة**»[2].

---

(١) ورد من رواية جماعةٍ من الصحابة، ولا أعلمُ يصحُّ منها شيء، وقد صحَّح بعضها بعض أهل العلم.
وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٣٠): «في هذا الباب أحاديثُ عن جماعةٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ، ليِّنةُ الأسانيد، عن النبي ﷺ».
وانظر: «الكامل» لابن عدي (١/ ٣٣٢، ٧/ ٢١٦).
ورُوِي من كلام بعض السَّلف، وهو أشبه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وغيرهم من =

قال: وثبَت - أيضًا - قولَه ﷺ: **«أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه اللهُ بعلمه»**(١).

فهؤلاء ليس فيهم من هو علىٰ سبيل نجاة، بل علىٰ سبيل الـهَلَكة، نعوذُ بالله من الخذلان.

القسمُ الثالث: المحرومُ الـمُعْرِض؛ فلا عالمٌ ولا متعلِّم، بل همجٌ رَعاع.

والـهَمَجُ من الناس: حَـمْقاهُم وجَهَلَـتهم، وأصله من الـهَمَج، جمع هَـمَجَة، وهو ذبابٌ صغيرٌ كالبعوض يسقطُ علىٰ وجوه الغنم والدوابِّ وأعينها؛ فشبَّه هَـمَجَ الناس به.

والـهَمَجُ أيضًا مصدر؛ قال الراجز(٢):

= حديث أبي هريرة بإسنادٍ فيه ضعف.

وصححه ابن حبان (٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥) ولم يتعقبه الذهبي.

ورُوِي مرسلًا من وجهٍ أصح. قال الدارقطني في «العلل» (١١/ ٩): «والمرسل أشبه بالصواب».

وأعلَّه أبو زرعة بعلةٍ أخرىٰ. انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٣٨).

وقال العقيلي (٣/ ٤٦٦) بعد أن أخرجه: «الروايةُ في هذا الباب ليِّنة».

وقد ذكر المعلِّمي في تعليقاته علىٰ «الفوائد المجموعة» (٣٣٠) أن أبا نُعيم قد يطلق الثبوت ويريد أن الحديث ثابتٌ في كتابه، لا أنه ثابتٌ عن النبي ﷺ.

(١) تقدم تخريجُه وبيانُ ضعفه (ص: ٣١٩).

(٢) وهو أبو مُحْرِز المحاربي. والرجز في «مجالس ثعلب» (٥٨٥)، و«الأضداد» لابن الأنباري (٢٧٩)، و«اللسان» (بذج)، وغيرها.

قال الفراء: «البَذَجُ من أولاد الضأن، بمنزلة العَتُودِ من أولاد المعز».

قـد هَلَكَـت جارتُنـا مـن الـهَمَجْ وإنْ تَـجُعْ تأكُـلْ عَتُـودًا أو بَـذَجْ

والـهَمَجُ هنا مصدر، ومعناه: سوء التدبير في أمر المعيشة.

وقولهم: «هَمَجٌ هامِج» مثل: «ليلٌ لايِل»[1].

والرَّعاعُ من الناس: الحمقىٰ الذين لا يُعْتَدُّ بهم.

* وقولُه: «**أتباع كلِّ ناعق**»؛ أي: مَنْ صاحَ بهم ودعاهم تبعوه، سواءٌ دعاهم إلىٰ هدى أو إلىٰ ضلال، فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعَونَ إليه أحقٌّ هو أم باطل، فهم مستجيبون لدعوته.

وهؤلاء مِنْ أضرِّ الخلق[2] علىٰ الأديان؛ فإنهم الأكثرون عَدَدًا، الأقلُّون عند الله قَدْرًا، وهم حطبُ كلِّ فتنة، بهم تُوقَدُ ويُشَبُّ ضِرَامُها؛ فإنها يعتزلُها أولو الدين، ويتولَّاها الـهَمَجُ الرَّعاع.

وسُمِّي داعيهم: ناعقًا؛ تشبيهًا لهم بالأنعام التي يَنْعِقُ بها الراعي فتذهبُ معه أين ذهب؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وهذا الذي وصفهم به أميرُ المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم، فليس لهم نورٌ ولا بصيرةٌ يفرِّقون بها بين الحقِّ الباطل، بل الكلُّ عندهم سواء.

* وقولُه: «**يميلون مع كلِّ ريح**»، وفي لفظ: «**مع كلِّ صائح**»؛ شبَّه

---

(١) أي: علىٰ جهة التوكيد أو المبالغة. انظر: «الصحاح» (همج).

(٢) (ت): «هم أضر الخلق».

عقولَهم الضعيفة بالغُصْن الضعيف، وشبَّه الأهويةَ والآراء بالرياح، والغصنُ يميلُ مع الريح حيث مالت، وعقولُ هؤلاء تميلُ مع كلِّ هوًى وكلِّ داعٍ، ولو كانت عقولًا كاملةً كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعبُ بها الرياح.

وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبيُّ ﷺ للمؤمنين بالخَامَة من الزَّرع تُفيئه الريحُ مرةً وتقيمُه أخرىٰ، والمنافقُ كشجرة الأَرْزِ التي لا تُقْطَعُ حتىٰ تَسْتَحْصِد[1]؛ فإنَّ هذا المثلَ ضُرِبَ للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها، فلا يزالُ بين عافيةٍ وبلاء، ومحنةٍ ومِنْحَة، وصحةٍ وسقم، وأمنٍ وخوف، وغير ذلك، فيقعُ مرةً ويقومُ أخرىٰ، ويميلُ تارةً ويعتدلُ أخرىٰ، فيُكفَّىٰ بالبلاء ويُمَحَّصُ به ويُخَلَّصُ من كَدَرِه، والكافرُ كلُّه خبثٌ ولا يصلحُ إلا للوقود، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن.

فهذه حالُ المؤمن في البلاء[2]، وأمَّا مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل:

تزولُ الجبالُ الراسياتُ وقلبُه ... علىٰ العهدِ لا يلوِي ولا يتغَيَّرُ[3]

* وقولُه: «**لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيق**»؛ بيَّن السببَ الذي جعلهم بتلك المثابة؛ وهو أنه لم يحصُل لهم من العلم نورٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٣، ٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩، ٢٨١٠) من حديث أبي هريرة وأبي بن كعب.

(٢) (ق): «الابتلاء».

(٣) أنشده المصنف في «بدائع الفوائد» (٥٢٧)، و«طريق الهجرتين» (٦٨١). والرواية في الثاني: على الود.

يفرِّقون به بين الحقِّ والباطل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. فإذا عَدِمَ القلبُ هذا النورَ صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يَؤُمُّ كلَّ صوتٍ يسمعُه.

= ولم يَسْكُنْ قلوبَهم[1] من العلم ما تمتنعُ به من دعاة الباطل؛ فإنَّ الحقَّ متىٰ ٱستقرَّ في القلبِ قَوِيَ به وامتنعَ مما يضرُّه ويُهْلِكه، ولهذا سمَّىٰ اللهُ الحجةَ العلميَّة: سلطانًا، وقد تقدَّم ذلك.

فالعبدُ يُؤتىٰ من ظُلمة بصيرته ومن ضَعْف قلبه، فإذا ٱستقرَّ فيه العلمُ النافعُ ٱستنارت بصيرتُه وقَوِيَ قلبُه.

وهذان الأصلان هما قُطبا السعادة، أعني: العلمَ، والقوَّة.

وقد وصفَ بهما سبحانه المعلِّمَ الأولَ جبريلَ صلواتُ الله وسلامُه عليه، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٤ - ٥]، وقال في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، فوصفَه

---

(١) معطوف علىٰ قوله: «لم يحصل لهم من العلم نور...».

بالعلم والقوَّة.

وفيه معنًى أحسنُ من هذا؛ وهو الأشبهُ بمراد عليٍّ رضي الله عنه؛ وهو أنَّ هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين ٱستضاؤوا بنور العلم، ولا لجؤوا إلىٰ عالم مستبصرٍ فقلَّدوه، فلا مستبصرين ولا متَّبعين لمستبصِرٍ؛ فإنَّ الرجلَ إمَّا أن يكون بصيرًا، أو أعمىٰ متمسِّكًا ببصيرٍ يقودُه، أو أعمىٰ يسيرُ بلا قائد.

* قولُه رضي الله عنه: «**العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُك وأنت تحرسُ المال**»؛ يعني: أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَه ويحميه من موارد الـهَلَكة ومواقع العَطَب؛ فإنَّ الإنسان لا يلقي نفسَه في هَلَكَةٍ إذا كان عقلُه معه، ولا يعرِّضها لتلافٍ[1] إلا إذا كان جاهلًا بذلك لا علمَ له به[2]، فهو كمن يأكلُ طعامًا مسمومًا، فالعالمُ بالسُّمِّ وضرره يحرسُه علمُه، ويمتنعُ به مِن أكله، والجاهلُ به يقتلُه جهلُه.

فهذا مثلُ حراسة العلم للعالِم.

وكذا الطبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمه من كثيرٍ مما يجلبُ له الأمراض والأسقام، وكذا العالمُ بمخاوف طريقِ سلوكه ومعاطبها يأخذُ حِذْرَه منها، فيحرسُه علمُه من الهلاك.

---

(١) كذا في الأصول، سوى (ت): «الملاف»، تحريف. وهو بكسر التاء مصدرٌ محدَثٌ لتَلِفَ. أو بفتحها والألف إشباعٌ لفتحة اللام في التلف، ولم تذكره كتب اللغة. انظر: «تكملة المعاجم» لدوزي (٢/ ٥٩)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٢٢)، و«دراسات في العربية وتاريخها» لمحمد الخضر حسين (١٢٦). وهو كثير الوقوع في كلام المتأخرين، ومن أفصحهم: أبو العلاء في «اللزوميات» (٣/ ٣٨٧، ٤٠٧)، و«رسالة الغفران» (٣٩٣). وانظر: «الداء والدواء» (٥٠٧) والتعليق عليه.

(٢) (ت): «لا علم لديه».

وهكـذا العـالـمُ بـالله وأمـره وبعـدوِّه ومكايـده[1] ومداخلـه عـلىٰ العبـد، يحرسُه علمُه من وساوس الشيطان وخطراتـه وإلقـاء الشكِّ والرَّيـب والكفـر في قلبه، فهو بعلمه يمتنعُ من قبول ذلك، فعلمُه يحرسُه مـن الـشيطان، فكلَّـما جاءه ليأخذه صاح به حرسُ العلم والإيمان، فيرجعُ خاسئًا خائبًا.

وأعظمُ ما يحرسُه من هذا العدوِّ المبين: العلـمُ والإيـمان، فهـذا الـسببُ الذي من العبد، والله من وراء حفظه وحراسته وكَلاءته، فمتىٰ وَكَلَه إلىٰ نفسه طرفة عيـنٍ تـخطَّفه عدوُّه.

قال بعض العارفين: «أجمـعَ العـارفون عـلىٰ أنَّ التوفيـقَ أن لا يَكِلَـكَ الله إلىٰ نفسك، وأجمعوا علىٰ أنَّ الخِذلان أن يخلِّي بينك وبين نفسك»[2].

وقولُه: «**العلمُ يزكو علىٰ الإنفاق، والمالُ تَـنْـقُـصُه النفقـة**»؛ العالِـمُ كلَّـما بـذل علمَـه للنـاس وأنفـقَ منـه تفجَّـرت ينابيعُـه وازداد كثـرةً وقـوَّةً وظهـورًا فيكتسبُ بتعليمه حفظَ ما عَلِمَه، ويحصلُ له به علمُ مـا لم يكـن عنـده، وربَّـما تكـونُ المـسألةُ في نفسه غيرَ مكـشوفةٍ ولا خارجـةٍ مـن حَيِّـز الإشـكال، فـإذا تكلَّم بها وعلَّمها ٱتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علومٌ أُخَر.

وأيضًا؛ فإنَّ الجزاء من جـنس العمـل، فكـما عَلَّـمَ الخلـقَ مـن جهـالتهم، جـزاه اللهُ بـأن علَّمـه مـن جهالتـه؛ كـما في «صـحيح مـسلم»[3] مـن حـديث عِياض بن حمارٍ عن النبيِّ ﷺ أنـه قـال في حـديثٍ طويـل: «**وأنَّ الله قـال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك**»، وهذا يتناولُ نفقةَ العلم؛ إمَّـا بلفظـه، وإمَّـا بتنبيهـه وإشـارته

(١) (ح، ن): «ومصايده».

(٢) انظر: «الوابل الصيب» (١٠)، و«الفوائد» (٩٧)، وما سيأتي (ص: ٨١٨).

(٣) (٢٨٦٥).

وفحواه.

ولزكاء العلم ونموِّه[1] طريقان:

أحدُهما: تعليمُه.

والثاني: العملُ به؛ فإنَّ العملَ به أيضًا ينمِّيه ويكثِّره، ويفتحُ لصاحبه أبوابَه وخباياه، وهذا لأنَّ تعليمَه والعملَ به هو التجارة فيه، فكما ينمو المالُ بالتجارة فيه كذلك العلم.

وقولُه: «**والمالُ تَنْقُصُه النفقة**» لا ينافي قول النبيِّ ﷺ: «**ما نقَصت صدقةٌ من مال**»[2]؛ فإنَّ المالَ إذا تصدَّقتَ منه وأنفقتَ ذهبَ ذلك القَدْرُ وخَلَفَه غيرُه، وأمَّا العلمُ فكالقَبس من النار لو اقتبس منها العالَمُ[3] لم يذهب منها شيء، بل يزيدُ العلمُ بالاقتباس منه، فهو كالعَيْن التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبوعُها وجاش مَعِينُها.

وفضلُ العلم على المال يُعْلَمُ من وجوه:

أحدها: أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياء، والمالُ ميراثُ الملوك والأغنياء.

الثاني: أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَه، وصاحبُ المال يحرسُ مالَه.

والثالث: أنَّ المالَ تُذْهِبُه النفقات، والعلمُ يزكو على النفقة.

---

(١) في الأصول: «ونحوه». تحريف. وانظر: «طريق الهجرتين» (٨٠٢، ٨٠٥)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) (ح): «أهل الأرض». وفي طرَّتها: «في الأصل: أهل العلم». وفي (ن): «أهل العلم». وفي طرَّتها: «لعله أهل الأرض».

الرابع: أنَّ صاحبَ المال إذا مات فارقه مالُه، والعلمُ يدخلُ معه قبرَه.

الخامس: أنَّ العلمَ حاكمٌ علىٰ المال، والمالُ لا يحكمُ علىٰ العلم.

السادس: أنَّ المالَ يحصُل للمؤمن والكافر والبَرِّ والفاجر، والعلمُ النافعُ لا يحصُل إلا للمؤمن.

السابع: أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمن دونهم، وصاحبُ المال إنما يحتاجُ إليه أهلُ العُدْم والفاقة.

الثامن: أنَّ النفسَ تَشْرُفُ وتزكو بجمع العلم وتحصيله، وذلك من كمالها وشرفها، والمالُ لا يزكِّيها ولا يكمِّلها ولا يزيدُها صفةَ كمال، بل النفسُ تنقصُ وتَشِحُّ وتبخلُ بجمعه والحرص عليه؛ فحرصُها علىٰ العلم عينُ كمالها، وحرصُها علىٰ المال عينُ نقصها.

التاسع: أنَّ المالَ يدعوها إلىٰ الطغيان والفخر والخيلاء، والعلمُ يدعوها إلىٰ التواضع والقيام بالعبودية؛ فالمالُ يدعوها إلىٰ صفات الملوك والعلمُ يدعوها إلىٰ صفات العبيد.

العاشر: أنَّ العلمَ حاجبٌ[1] موصلٌ لها إلىٰ سعادتها التي خُلِقَت لها والمال حجابٌ عنها وبينها[2].

الحادي عشر: أنَّ غِنىٰ العلم أجلُّ من غِنىٰ المال؛ فإنَّ غِنىٰ المال غِنًى

---

(١) (ح، ن): «جاذب». (ق، ت، د): «صاحب». وفي طرة (د): «حاجب» وفوقه (خ) إشارة إلى نسخة. وهو الصواب. انظر: «الفوائد» (١٦١)، و«طريق الهجرتين» (٧٣٧).

(٢) (ح، ت، ن): «بينها وبينها».

بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقة الإنسان، لو ذهبَ في ليلةٍ أصبح فقيرًا مُعْدِمًا، وغِنىٰ العلم لا يُخشىٰ عليه الفقر، بل هو في زيادةٍ أبدًا، فهو الغِنىٰ العالي[1] حقيقة؛ كما قيل:

غَنِيتُ بلا مالٍ عن الناس كلِّهم وإنَّ الغِنىٰ العالي عن الشَّيء لا به[2]

الثاني عشر: أنَّ المال يَسْتَعْبِدُ مُحِبَّه وصاحبه، فيجعلُه عبدًا له، كما قال النبيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عبد الدينار والدرهم...**» الحديث[3]، والعلمُ يَسْتَعْبِدُه لربِّه وخالقه، فهو لا يدعوه إلا إلىٰ عبوديَّة الله وحده.

الثالث عشر: أنَّ حبَّ العلم وطلبَه أصلُ كلِّ طاعة، وحبَّ الدنيا والمال وطلبه أصلُ كلِّ سيئة[4].

الرابع عشر: أنَّ قيمةَ الغنيِّ مالُه، وقيمةَ العالِم علمُه، فهذا متقوِّمٌ بماله، فإذا عُدِمَ مالُه عُدِمَت قيمتُه فبقي بلا قيمة، والعالِمُ لا تزولُ قيمتُه، بل هي في تضاعفٍ وزيادةٍ دائمًا.

الخامس عشر: أنَّ جوهرَ المال من جنس جوهر البدن، وجوهرُ العلم من جنس جوهر الروح، كما قال يونس بن حبيب: «علمُك من روحك،

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٦٥، ٦٧).

(٢) مِن أبياتٍ تنسبُ للشافعي في «المستطرف» (٢/ ٣٠٣)، و«غذاء الألباب» (٢/ ٥٤٣)، وعنهما في ديوانه المجموع (١٣١). والبيتُ في «ربيع الأبرار» (٤/ ٣٨٣) منسوبٌ للقُهِسْتاني.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) (ح، ن): «خطيئة».

ومالُك من بدنك»[1]، والفرقُ بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن.

السادس عشر: أنَّ العالِم لو عُرِضَ عليه بحظِّه من العلم الدنيا بما فيها لم يَرْضَها عِوَضًا من علمه، والغنيُّ العاقلُ إذا رأىٰ شرفَ العالِم وفضلَه وابتهاجَه بالعلم وكمالَه به يودُّ لو أنَّ له علمَه بغناه أجمع.

السابع عشر: أنَّ ما أطاع اللهَ أحدٌ قطُّ إلا بالعلم، وعامةُ من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أنَّ العالِمَ يدعو الناسَ إلىٰ الله بعلمه وحاله، وجامعُ المال يدعوهم إلىٰ الدنيا بحاله وماله.

التاسع عشر: أنَّ غِنىٰ المال قد يكونُ سببَ هلاك صاحبه كثيرًا؛ فإنه معشوقُ النفوس، فإذا رأت من يستأثرُ بمعشوقها عليها سعت في هلاكه، كما هو الواقع. وأمَّا غِنىٰ العلم فسببُ حياة الرجل وحياة غيره به، والناسُ إذا رأوا من يستأثرُ عليهم به ويطلبُه أحبُّوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أنَّ اللذَّةَ الحاصلةَ من غِنىٰ المال إما لذَّةٌ وهميَّة وإما لذَّةٌ بهيميَّة. فإنَّ صاحبه إنْ ٱلتذَّ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّة وإن ٱلتذَّ بإنفاقه في شهواته فهي لذَّةٌ بهيميَّة. وأمَّا لذَّةُ العلم فلذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّة، وهي تشبهُ[2] لذَّة الملائكة وبهجتَها. وفرقٌ ما بين اللذَّتين.

الحادي والعشرون: أنَّ عقلاء الأمم مطبقون علىٰ ذمِّ الشَّرِه في جمع

---

(١) أخرجه القالي في «الأمالي» (١/ ٢٢٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٢٠٣)، وغيرهما.

(٢) (ت): «شبه». «وهي» ليست في (ح، ن).

المال الحريصِ عليه، وتنقُّصِه والإزراء به، ومطبقون علىٰ تعظيم الشَّرِه في جمع العلم وتحصيله، ومدحِه ومحبَّته ورؤيته بعين الكمال.

الثاني والعشرون: أنهم مطبقون علىٰ تعظيم الزاهد في المال، المُعْرِض عن جمعه، الذي لا يَلْتَفِتُ إليه ولا يجعلُ قلبَه عبدًا له، ومطبقون علىٰ ذمِّ الزاهد في العلم، الذي لا يلتفتُ إليه ولا يحرصُ عليه.

الثالث والعشرون: أنَّ المال إنما يُمْدَحُ صاحبُه بتخلِّيه منه وإخراجه، والعلمُ إنما يُمْدَحُ بتحلِّيه به واتِّصافه به.

الرابع والعشرون: أنَّ غِنىٰ المال مقرونٌ بالخوف والحزن، فهو حزينٌ قبل حصوله، خائفٌ بعد حصوله، وكلَّما كان أكثر كان الخوفُ أقوىٰ، وغِنىٰ العلم مقرونٌ بالأمن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون: أنَّ الغنيَّ بماله لا بدَّ أن يفارقَه غِناه، فيتعذَّبَ ويتألم بمفارقته، والغِنىٰ بالعلم لا يزول، فلا يتعذَّبُ صاحبُه ولا يتألم؛ فلذَّةُ الغِنىٰ بالمال لذَّةٌ زائلةٌ منقطعةٌ يَعْقُبُها الألم، ولذَّةُ الغِنىٰ بالعلم لذَّةٌ باقيةٌ مستمرةٌ لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أنَّ ٱستلذاذ(1) النفس وكمالَها بالغِنىٰ ٱستكمالٌ بعاريَّةٍ مؤدَّاة، فتجمُّلها بالمال تجمُّلٌ بثوبٍ مستعارٍ لا بدَّ أن يرجع إلىٰ مالكه يومًا ما، وأما تجمُّلها بالعلم وكمالُها به فتجمُّلٌ بصفةٍ ثابتةٍ لها راسخةٍ فيها لا تفارقُها.

السابع والعشرون: أنَّ الغِنىٰ بالمال هو عينُ فقر النفس، والغِنىٰ بالعلم

---

(1) ليست في (ح). وفي (ن): «التذاذ».

هو غِناها الحقيقي؛ فغِناها بعلمها هو الغِنىٰ، وغِناها بمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أنَّ من قُدِّم وأُكرِم لماله إذا زال مالُه ذهب[1] تقديمُه وإكرامُه، ومن قُدِّم وأُكرِم لعلمه فإنه لا يزدادُ إلا تقديمًا وإكرامًا.

التاسع والعشرون: أنَّ تقديمَ الرجل لماله هو عينُ ذمِّه؛ فإنه نداءٌ عليه بنقصه، وأنه لولا ماله لكان مستحقًّا للتأخير والإهانة[2]، وأما تقديمُه وإكرامُه لعلمه فإنه عينُ كماله؛ إذ هو تقديمٌ له بنفسه وبصفته القائمة به، لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاته.

الوجه الثلاثون: أنَّ طالبَ الكمال بغِنىٰ المال كالجامع بين الضدَّين؛ فهو طالبٌ ما لا سبيل له إليه.

وبيانُ ذلك: أنَّ القدرةَ صفةُ كمال، وصفةُ الكمال محبوبةٌ بالذَّات، والاستغناءُ عن الغير ـ أيضًا ـ صفةُ كمالٍ محبوبةٌ بالذَّات، فإذا مال الرجلُ بطبعه إلىٰ السَّخاوة والجُود وفِعْل المَكْرُمات، فهذا كمالٌ مطلوبٌ للعقلاء، محبوبٌ للنفوس، وإذا ٱلتفتَ إلىٰ أنَّ ذلك يقتضي خروجَ المال من يده، وذلك يُوجِبُ نقصَه واحتياجَه إلىٰ غيره وزوالَ قدرته= نَفَرَت نفسُه عن السَّخاء والكرم والجُود واصطناع المعروف، وظنَّ أنَّ كماله في إمساك المال.

وهذه البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّة الخَلق، لا ينفكُّون عنها[3].

---

(١) (ح، ن): «زال».

(٢) (ح، ن): «للتأخير والإبعاد».

(٣) (ق، د): «لا يتفكرون».

فلأجل مَيْل الطَّبع إلىٰ حصول المدح والثناء والتعظيم= يحبُّ الجودَ[1] والسَّخاءَ والمكارم، ولأجل فَوْتِ القدرة الحاصلة بسبب إخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنىٰ= يحبُّ إبقاءَ ماله، ويكره السَّخاءَ والكرمَ والجود.

فيبقىٰ قلبُه واقفًا بين هذين الدَّاعِيَين يتجاذبانه، ويَعْتَوِرَان عليه، فيبقىٰ القلبُ في مقام المعارضة بينهما، فمن الناس من يترجَّحُ عنده جانبُ البذل والجود والكرم، فيُؤْثِرُه علىٰ الجانب الآخر، ومنهم من يترجَّحُ عنده جانبُ الإمساك وبقاء القدرة والغِنىٰ، فيُؤْثِرُه.

فهذان نَظَران للعقلاء.

ومنهم من يبلغُ به الجهلُ والحماقةُ إلىٰ حيث يريدُ الجمعَ بين الوجهين، فيَعِدُ الناسَ بالجود والسَّخاء والمكارم؛ طمعًا منه في فوزه بالمدح والثناء علىٰ ذلك، وعند حضور الوقت لا يَفِي بما قال؛ فيَسْخُو ويبذلُ بلسانه، ويُمْسِكُ بقلبه ويده؛ فيقعُ في أنواعٍ من القبائح والفضائح!

وإذا تأمَّلتَ أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أَسْر هذه البليَّة وهم غالبًا يَشْكُونَ ويَبْكُون.

وأما غنيُّ العلم، فلا يَعْرِضُ له شيءٌ من ذلك، بل كلَّما بَذَله ٱزداد ببذله فرحًا وسرورًا وابتهاجًا، والعالِمُ[2] وإن فاتتهُ لذَّةُ أهل الغِنىٰ وتمتُّعهم بأموالهم فهم أيضًا قد فاتتهم لذَّةُ أهل العلم وتمتُّعهم بعلومهم وابتهاجُهم بها.

---

(١) (ق، ن): «بحب الجود». وهو تحريف.

(٢) ليست في (ت، ق، د).

فمع صاحب العلم من أسباب اللذَّة ما هو أعظمُ وأقوىٰ وأدومُ من لذَّة الغني، وتعبُه في تحصيله وجمعه وضبطه أقلُّ من تعب جامع المال بجمعه[1]، وألمُه دون ألمِه؛ كما قال تعالىٰ للمؤمنين ـ تسليةً لهم بما ينالهُم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته ـ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

الحادي والثلاثون: أنَّ اللذَّة الحاصلة من المال والغِنىٰ إنما هي حالَ تجدُّده فقط، وأما حالَ دوامه: فإما أن تذهبَ تلك اللذَّة، وإمَّا أن تنقُص.

ويدلُّ عليه أنَّ الطَّبعَ يبقىٰ طالبًا لغِنًى آخر، حريصًا عليه، فهو يحاولُ تحصيلَ الزيادة دائمًا، فهو في فقرٍ مستمرٍّ غير مُنْقَضٍ[2]، ولو ملكَ خزائنَ الأرض ففقرُه وطلبُه وحرصُه باقٍ عليه؛ فإنه أحدُ المنهومَيْن اللذَين لا يشبعان[3]، فهو لا يفارقُه ألمُ الحرص والطَّلب.

وهذا بخلاف غنيِّ العلم والإيمان؛ فإنَّ لذَّته في حال بقائه مثلُها في حال تجدُّده، بل أزْيَد، وصاحبُها وإن كان لا يزالُ طالبًا للمزيد حريصًا عليه، فطلبُه وحرصُه مُسْتَصْحِبٌ للذَّة الحاصل، ولذَّة المرجوِّ المطلوب، ولذَّة

---

(١) (ت، ح، ن): «فجمعه». خطأ.

(٢) (ت): «منتقص». «ق»: «منتقض».

(٣) والآخرُ هو طالب العلم؛ كما ورد في الحديث المشهور الذي صححه الحاكم (١/ ٩٢) من حديث أنس مرفوعًا، ولم يتعقبه الذهبي. وهو أحسنُ طرقه.
وجاء من حديث أنسٍ وابن مسعودٍ وابن عباسٍ رضي الله عنهم من طرقٍ معلولة.
وروي موقوفًا، وهو أشبه.

الطَّلب وابتهاجه وفرحه به.

الثاني والثلاثون: أنَّ غِنىٰ المال يستدعي الإنعامَ علىٰ الناس والإحسانَ إليهم؛ فصاحبُه إما أن يسُدَّ علىٰ نفسه هذا الباب، وإما أن يفتحه عليه.

فإن سدَّه علىٰ نفسه اشتُهِرَ عند الناس بالبعد من الخير والنفع؛ فأبغضوه وذمُّوه واحتقروه، وكلُّ من كان بغيضًا عند الناس حقيرًا لديهم كان وصولُ الآفات والمضرَّات إليه أسرعَ من النار في الحطب اليابس، ومن السَّيل في مُنْحَدَره، وإذا عرفَ من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزنًا تألَّمَ قلبُه غايةَ التألم، وأُحْضِرَ الهمومَ والغمومَ والأحزان.

وإن فتحَ باب الإحسان والعطاء فإنه لا يمكنُه إيصالُ الخير والإحسان إلىٰ كلِّ أحد، فلا بدَّ من إيصاله إلىٰ البعض وإمساكه عن البعض، وهذا يفتحُ عليه باب العداوة والمذمَّة من المحروم والمرحوم.

أمَّا المحرومُ فيقول: كيف جادَ علىٰ غيري وبَخِل عليَّ؟!

وأمَّا المرحومُ فإنه يلتذُّ ويفرحُ بما حصلَ له من الخير والنفع، فيبقىٰ طامعًا مُسْتَشْرِفًا لنظيره علىٰ الدوام، وهذا قد يتعذَّرُ غالبًا؛ فيفضي ذلك إلىٰ العداوة الشديدة والمذمَّة، ولهذا قيل: «اتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه»[1].

وهذه الآفاتُ لا تعرضُ في غِنىٰ العلم؛ فإنَّ صاحبَه يمكنُه بذلُه للعالَم واشتراكُهم فيه[2]، والقدرُ المبذولُ منه باقٍ لآخذه لا يزول، بل يتَّجِرُ به، فهو

(١) وهو مثلٌ سائر. انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ١٤٥). ويذكره بعضهم حديثًا، ولا أصل له. انظر: «المقاصد الحسنة» (٣٩).

(٢) (ت، د، ق): «بذله للعالم كلهم وأشباههم» ولعلها: «وإشراكهم فيه».

كالغنيِّ إذا أعطىٰ الفقيرَ رأسَ مالٍ[1] يتَّجِرُ به حتىٰ يصير غنيًّا مثلَه.

الوجه الثالث والثلاثون: أنَّ جمعَ المال مقرونٌ بثلاثة أنواعٍ من الآفات والمِحَن: نوعٌ قبله، ونوعٌ عند حصوله، ونوعٌ بعد مفارقته.

* **فأما النوعُ الأول**: فهو المشاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصلُ إلا بها.

* **وأما النوعُ الثاني**: فمشقَّةُ حفظه وحراسته وتعلُّق القلب به، فلا يُصْبِحُ إلا مهمومًا، ولا يمسي إلا مغمومًا.

فهو بمنزلة عاشقٍ مُفْرِط المحبَّة قد ظَفِر بمعشوقه، والعيونُ من كلِّ جانبٍ ترمقُه، والألسنُ والقلوبُ ترشقُه، فأيُّ عَيْشٍ وأيُّ لذَّةٍ لمن هذه حالُه؟! وقد عَلِمَ أنَّ أعداءه وحسَّادَه لا يفتُرون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به، ولكنَّ مقصودَهم أن يزيلوا ٱختصاصَه به دونهم، فإن فازوا به وإلا ٱستووا في الحرمان، فزال الاختصاصُ المُؤْلِمُ للنفوس.

ولو قدروا علىٰ مثل ذلك مع العالِم لفعلوه، ولكنَّهم لما علموا أنه لا سبيل إلىٰ سَلْبِه علمَه[2] عمدوا إلىٰ جحده وإنكاره؛ ليزيلوا من القلوب محبَّته وتقديمَه والثناءَ عليه، فإن بَهَرَ علمُه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار رَمَوه بالعظائم، ونسبوه إلىٰ كلِّ قبيح؛ ليزيلوا من القلوب محبَّته ويُسْكِنوا موضعَها النُّفرة عنه وبغضَه. وهذا شغلُ السَّحرة بعينه؛ فهؤلاء سحرةٌ بألسنتهم.

---

(١) (ح): «رأس ماله». وهو تحريف.

(٢) (ق): «إلى سلبه». (ح): «إلى سلب علمه». (ت): «إلى سلبه وعلمه».

فإن عجزوا له عن شيءٍ من القبائح الظاهرة بعينه رَمَوه بالتلبيس والتدليس، والزَّوْكَرة[1] والرِّياء، وحبِّ الترفُّع وطلب الجاه.

وهذا القَدْرُ من معاداة أهل الجهل والظُّلم للعلماء مثلُ الحرِّ والبرد لا بدَّ منه، فلا ينبغي لمن له مُسْكةُ عقلٍ أن يتأذَّىٰ به؛ إذ لا سبيل له إلىٰ دفعه بحال، فليوطِّن نفسَه عليه كما يوطِّنُها علىٰ برد الشتاء وحرِّ الصَّيف.

* **والنوعُ الثالث** من آفات الغِنىٰ: ما يحصلُ للعبد بعد مفارقته من تعلَّق قلبه به، وكونه قد حِيل بينه وبينه، والمطالبة بحقوقه، والمحاسبة علىٰ مقبوضه ومصروفه: من أين ٱكتسبه وفي ماذا أنفقه؟

وغِنىٰ العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفرحةٍ وسرور، ولكن لا يُنالُ إلا علىٰ جسرٍ من التعب والصبر والمشقَّة.

الرابع والثلاثون: أنَّ لذَّةَ الغنيِّ بالمال مقرونةٌ بخُلْطَة الناس، ولو لم يكن إلا خَدَمُه وأزواجُه وسَراريه وأتباعُه؛ إذ لو ٱنفردَ الغنيُّ بماله وحده من غير أن يتعلَّق بخادمٍ أو زوجةٍ أو أحدٍ من الناس لم يَكْمُل ٱنتفاعُه بماله، ولا ٱلتذاذُه به.

وإذا كان كمالُ لذَّته بغناه موقوفًا علىٰ ٱتصاله بالغير، فذلك الاتصالُ

(١) قال المقَّري في «نفح الطيب» (٦/ ١٢): «الزواكرة [جمعُ زوكر]: لفظٌ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم المتلبِّسُ الذي يُظْهِرُ النُّسك والعبادة، ويُبْطِنُ الفسق والفساد». وانظر: «طريق الهجرتين» (٨٨٩)، و«السير» (١٤/ ٣١٤، ٢١/ ١٩٣)، و«إنباء الغمر» (١/ ٣٧، ٣/ ٣٥٩)، و«الطالع السعيد» (٥٨٣)، و«أعيان العصر» (٤/ ٥٩٨). ومن رسائل ابن شيخ الحزامين: «الفرق بين كرامة الولي وزوكرة المزوكر». انظر: مقدمة تحقيق رحلته (١٠).

منشأُ[1] الآفات والآلام وأنواع النَّكد، ولو لم يكن إلا ٱختلافُ أخلاق الناس وطبائعهم وإراداتهم؛ فقبيحُ هذا حسنُ ذاك، ومصلحةُ ذاك مفسدةُ هذا، ومنفعةُ هذا مضرَّةُ الآخر، وبالعكس؛ فهو مبتلىً بهم، فلا بدَّ من وقوع النُّفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه؛ فإنَّ إرضاءهم كلِّهم محال، وهو جمعٌ بين الضدَّين، وإرضاءُ بعضهم وإسخاطُ غيره سببُ الشرِّ والمعاداة.

وكلما طالت المخالطةُ ٱزدادت أسبابُ الشرِّ والعداوة وقَوِيَت؛ وبهذا السَّبب كان الشرُّ الحاصلُ من الأقارب والعُشَراء أضعاف الشرِّ الحاصل من الأجانب والبُعَداء.

وهذه المخالطةُ إنما حصلت من جانب الغِنىٰ بالمال، أما إذا لم يكن فيه فضيلةٌ[2] لهم فإنهم يتجنَّبون مخالطتَه ومعاشرتَه، فيستريح من أذىٰ الـخُلْطة والعِشْرة.

وهذه الآفاتُ معدومةٌ في الغِنىٰ بالعلم.

الخامس والثلاثون: أنَّ المالَ لا يرادُ لذاته وعَيْنه؛ فإنه لا يحصُل بذاته شيءٌ من المنافع أصلًا؛ فإنه لا يُشْبِعُ ولا يُرْوِي، ولا يُدْفِيءُ ولا يُمْتِع[3]، وإنما يرادُ لهذه الأشياء؛ فإنه لما كان طريقًا إليها أريدَ إرادةَ الوسائل، ومعلومٌ أنَّ الغايات أشرفُ من الوسائل؛ فهذه الغاياتُ إذًا أشرفُ منه، وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصةٌ دنيَّة.

---

(١) (د، ق، ت): «فذلك منشأ».

(٢) (ح، ن): «فضلة».

(٣) (ق، ن، ت، ح): «يمنع».

وقد ذهب كثيرٌ من العقلاء إلىٰ أنها لا حقيقةَ لها، وإنما هي دفعُ آلامٍ فقط[1]؛ فإنَّ لبسَ الثِّياب ـ مثلًا ـ إنما فائدتُه دفعُ التألم بالحرِّ والبرد والريح، وليس فيها لذَّةٌ زائدةٌ علىٰ ذلك، وكذلك الأكلُ إنما فائدتُه دفعُ ألم الجوع، ولهذا لو لم يجد ألمَ الجوع لم يَسْتَطِب الأكل، وكذلك الشربُ مع العطش، والراحةُ مع التعب.

ومعلومٌ أنَّ في مزاولة ذلك وتحصيله ألم وضرر[2]، ولكنَّ ضررَه وألمَه أقلُّ من ضرر ما يُدْفَعُ به وألمِه، فيحتملُ الإنسانُ أخفَّ الضَّررين دفعًا لأعظمهما.

وحُكِي عن بعض العقلاء[3] أنه قيل له ـ وقد تناول قدحًا كريهًا جدًّا من الدواء ـ: كيف حالك معه؟ قال:

أصبحتُ في دارِ بَلِيَّاتِ ... أدفعُ آفاتٍ بآفاتِ

وفي الحقيقة؛ فلذَّاتُ الدنيا من المآكل والمشارب والملبس والمسكن والـمَنْكَح من هذا الجنس، واللذَّةُ التي يباشرُها الحِسُّ ويتحرَّكُ لها الحيُّ[4] ـ وهي الغايةُ المطلوبةُ له من لذَّة الـمَنْكَح والمأكل ـ شهوةُ البطن والفَرْج، ليس لهما ثالثٌ البتَّة، إلا ما كان وسيلةً إليهما وطريقًا إلىٰ تحصيلهما.

---

(١) انظر ما سيأتي (ص: ٧٨٢).

(٢) كذا في الأصول. والجادةُ النصب.

(٣) هو أبو إسحاق النظَّام، تمثَّل ببيت أبي العتاهية. انظر: «خاص الخاص» (١١٠)، و«محاضرات الأدباء» (٤/ ٥٤)، وعن الأول: «ديوان أبي العتاهية وأخباره» (٥١١).

(٤) (ق): «الجسد».

وهذه اللذَّةُ منغَّصةٌ من وجوهٍ عديدة:

منها: أنَّ تصوُّرَ زوالها وانقضائها وفنائها يوجبُ تنغُّصَها[1].

ومنها: أنها ممزوجةٌ بالآفات، معجونةٌ بالآلام، مختلطةٌ بالمخاوف، وفي الغالب لا يفي ألمُها بطِيبها، كما قيل:

قايَسْتُ بين جمالها وفَعالها ... فإذا المَلاحةُ بالقَباحةِ لا تَفِي[2]

ومنها: أنَّ الأراذلَ من الناس وسَقَطَهم يشاركون فيها كبراءَهم وعقلاءَهم، بل يزيدون عليهم فيها أعظمَ زيادةٍ وأفحشَها، فنسبتُهم فيها إلىٰ الأفاضل كنسبة الحيوانات البهيميَّة إليهم، فمشاركةُ الأراذل وأهل الخِسَّة والدناءة فيها وزيادتُهم علىٰ العقلاء فيها مما يوجبُ النُّفرةَ والإعراضَ عنها، وكثيرٌ من الناس حصل له الزهدُ في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق.

وهذا كثيرٌ في أشعار الناس ونَثْرهم، كما قيل:

سأتركُ حُبَّها من غير بُغْضٍ ... ولكنْ كثرةُ الشُّركاءِ فيهِ
إذا وقعَ الذُّبابُ علىٰ طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيهِ[3]

---

(١) (ح، ن): «تنغيصها». (د، ق): «موجب تنغصها».

(٢) البيت لأبي بكر بن السرَّاج، مِنْ ثلاثة أبياتٍ حِسان، نُسِبَت خطأً لابن المعتز، وهي في ديوانه (١/ ٣٨٦)، وقبض جائزتها عبيدُ الله بن طاهر! الخبر في «الديارات» للشابشتي (١١٨)، و«إنباه الرواة» (٣/ ١٤٧)، و«إرشاد الأريب» (٢٥٣٥)، وغيرها.

(٣) الأبيات في «المستطرف» (١/ ١٦٣، ٢/ ٤٣٤) دون نسبة.

وقيل لزاهد: ما الذي زهَّدك في الدُّنيا؟ فقال: «خِسَّةُ[1] شركائها، وقلَّةُ وفائها، وكثرةُ جفائها».

وقيل لآخر في ذلك؛ فقال: «ما مددتُ يدي إلىٰ شيءٍ منها إلا وجدتُ غيري قد سبقني إليه، فأتركُه له».

ومنها: أنَّ الالتذاذَ بموقعها إنما هو بقدر شدَّة الحاجة إليها، والتألم بمطالبة النفس لتناولها، وكلَّما كانت شهوةُ الظَّفر بالشيء أقوىٰ كانت اللذَّةُ الحاصلةُ بوجوده أكمل، فما لم تحصُل تلك الشهوةُ لم تحصُل تلك اللذَّة؛ فمقدارُ اللذَّة الحاصلة في الحال مساوٍ لمقدار الحاجة والألم والمضرَّة في الماضي؛ وحينئذٍ تتقابلُ اللذَّةُ الحاصلةُ والألمُ المتقدِّم، فيتساقطان، فتصيرُ اللذَّةُ كأنها لم توجد، ويصيرُ بمنزلة من شَقَّ بطنَ رجلٍ ثمَّ خاطَه وداواهُ بالمَراهم، أو بمنزلة من ضربه عشرةَ أسواطٍ وأعطاه عشرةَ دراهم! ولا تخرجُ لذَّاتُ الدنيا غالبًا عن ذلك.

ومثلُ هذا لا يُعَدُّ لذَّةً ولا سعادةً ولا كمالًا، بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط؛ فإنَّ الإنسان يتضرَّرُ بثِقْله، فإذا قضىٰ حاجتَه ٱستراح منه، فأمَّا أن يعدَّ ذلك سعادةً وبهجةً ولذَّةً مطلوبةً فلا.

ومنها: أنَّ هاتين اللذَّتين اللَّتين هما آثرُ اللذَّات عند الناس لا سبيل[2] إلىٰ نيلهما إلا بما يقترنُ بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات والتألُّم الحاصل عقيبهما.

---

(١) (ت): «خشية». وانظر: «جامع العلوم والحكم» (٥٥٧).

(٢) (ت، د، ق): «ولا سبيل». خطأ.

مثالُه[1]: لذَّةُ الأكل؛ فإنَّ العاقلَ لو نظر إلىٰ طعامه حال مخالطته ريقَه وعَجْنِه به لنفرت نفسُه منه، ولو سقطت تلك اللقمةُ مِنْ فِيه لنفَر طبعُه من إعادتها إليه.

ثمَّ إنَّ لذَّته به إنما تحصُل في مجرىٰ نحو الأربع الأصابع[2]، فإذا فُصِل عن ذلك المجرىٰ زال تلذُّذُه به، فإذا ٱستقرَّ في مَعِدته وخالطه الشرابُ وما في المعدة من الأجزاء الفَضْلِيَّة، فإنه حينئذٍ يصيرُ في غاية الخِسَّة[3]، فإن زاد علىٰ مقدار الحاجة أورثَ الأدواءَ المختلفة علىٰ تنوُّعها، ولولا أنَّ بقاءه موقوفٌ علىٰ تناول[4] الغذاء لكان تركُه ـ والحالةُ هذه ـ أليقَ به، كما قال بعضهم:

لولا قضاءٌ جَرىٰ نزَّهتُ أُنمُلتي   عن أن تُلِمَّ بمأكولٍ ومشروبِ[5]

وأمَّا لذَّةُ الوِقاع، فقَدْرُها أبينُ من أن تُذْكَر آفاتُه، ويدلُّ عليه أنَّ أعضاء هذه اللذَّة هي عورةُ الإنسان التي يستحيي من رؤيتها وذِكْرها، وسترُها أمرٌ فطر الله عليه عبادَه، ولا تتمُّ لذَّةُ المواقَعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها،

---

(١) (ت، د، ق): «مثال».

(٢) (ق): «نحو الأربع أصابع». وهو المريء، وإنما سمِّي بذلك لمروء الطعام فيه، وهو انسياغه، كما في «الكشاف» (١/ ٥٠٢). وفسِّر قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ في أحد القولين بأنه: أسرعُ ٱنحدارًا عن المَرِيء؛ لسهولته وخفَّته عليه. انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢٣١).

(٣) (ن، ح): «الخساسة».

(٤) (ق): «تناوله».

(٥) البيت لعبد القاهر الجرجاني شيخ العربية، في «ربيع الأبرار» (٢/ ٦٧٥).

والتلطُّخ بالرطوبات المُسْتَقْذَرة المتولِّدة منها، ثمَّ إنَّ تمامها إنما يحصلُ بانفصال النطفة، وهي اللذَّةُ المقصودةُ من الوِقاع، وزمنُها يشبه الآنَ الذي لا ينقسم[1]؛ فصعوبةُ تلك المُزاوَلة والمُحاوَلة والمُطاوَلة والمُراوَضة[2] والتعب لأجل لذَّة لحظةٍ كمرِّ الطَّرف! فأيُّ مقايسةٍ بين هذه اللذَّة وبين التعب في طريق تحصيلها؟!

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذه اللذَّة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذي خُلِقَ له العبد، ولا كمال له بدونه.

بل ثَمَّ أمرٌ وراء ذلك كلِّه قد هُيِّيء له العبدُ وهو لا يفطنُ له، فهو لغفلته عنه، وإعراضه عن التفتيش عليه حتىٰ يَظْفَر بمعرفته، وعن التفتيش علىٰ طريقه حتىٰ يَصِلَ إليه= يَسُومُ نفسَه مع الأنعام السَّائمة.

قد هيَّؤوك لأمرٍ لو فَطِنْتَ له ... فاربأ بنفسكَ أن ترعىٰ مع الهَمَلِ[3]

ومَوْقِعُ هذه اللذَّة من النفس كمَوْقِع لذَّة البراز[4] من رجلٍ ٱحتبسَ في موضعٍ لا يمكنه القيامُ إلىٰ الخلاء، وصار مضطرًّا إليه؛ فإنه يجدُ مشقَّةً شديدةً وبلاءً عظيمًا، فإذا تمكَّن من الذهاب إلىٰ الخلاء وقَدَرَ علىٰ دفع ذلك

---

(١) وهو الحدُّ الذي يتَّصلُ به آخرُ الزمان الماضي بأول الزمان المستقبل، بمنزلة النُّقطة التي يتَّصلُ بها الخطَّان حتىٰ يصيرا واحدًا، فتكونُ النقطةُ مبدأً لأحد الخطَّين ومنتهًى للخطِّ الآخر. انظر: «شرح أدب الكاتب» للجواليقي (٥٧)، و«الكليات» (٨٢٧)، و«المعجم الفلسفي» (١/ ٢٨).

(٢) (ت): «والمراوحة».

(٣) آخرُ بيتٍ من لاميَّة الطُّغرائي المشهورة بلاميَّة العَجَم، في ديوانه (٣٠٩).

(٤) البَراز: الفَضاءُ الواسع. وبالكسر: كنايةٌ عن الغائط. «الصحاح» (برز).

الخبيث المؤذي، وجدَ لذَّةً عظيمةً عند دفعه وإرساله[1]، ولا لـذَّةَ هناك إلا راحتُه من حمل ما يؤذيه حملُه.

فعُلِمَ أنَّ هذه اللذَّات إمَّا أن تكونَ دفع آلام، وإمَّا أن تكون لـذَّاتٍ ضعيفةً خسيسةً مقترنةً بآفاتٍ تُرْبي مضرتُها عليها[2].

وهذا كما يَعْقُبُ لذَّةَ الوِقاع من ضعف القلب، وخَفَقان الفؤاد، وضعف القُوىٰ البدنيَّة والقلبيَّة، وضعف الأرواح، واستيلاء العفونة علىٰ كلِّ البدن، وإسراع الضعف والـخَوَر إليه، واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوَّة عن دفعها وقهرها.

ومما يدلُّ علىٰ أنَّ هذه اللذَّات ليست خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالًا: أنَّ العقلاء من جميع الأمم مطبقونَ علىٰ ذمِّ من كانت نَـهْمَتَه وشغلَه ومَصْرِفَ همَّته وإرادته، والإزراء به، وتحقير شأنه، وإلحاقه بالبهائم، ولا يقيمون له وزنًا، ولو كانت خيراتٍ وكمالًا لكان من صرَفَ إليها همَّتَه أكملَ الناس.

وممَّا يدلُّ علىٰ ذلك: أن القلبَ الذي قد وَجَّهَ قصدَه وإرادته إلىٰ هذه اللذَّات لا يزالُ مستغرقًا في الهموم والغموم والأحزان، وما ينالُه من اللذَّات في جنب هذه الآلام كقطرةٍ في بحر، كما قيل:

سُرورُه وَزْنُ حَبَّـهْ وحُـزْنُه قِنْطـار[3]

---

(١) بل قال ابنُ حزم في «المحلىٰ» (٢/ ٦): «اللذةُ في خروج البول والغائط والريح أشدُّ عند الحاجة إلىٰ خروجها منها في خروج المني»! وذكر الرازي في «السر المكتوم» (ص: ٣) أن لذة إخراج الطعام أعظمُ من لذة ٱجتلابه!

(٢) (ت، ق): «ترى مضرتها عليها».

(٣) لم أره في مصدرٍ آخر. وهو من «كان وكان».

فإنَّ القلبَ يجري مجرىٰ مرآةٍ منصوبةٍ علىٰ جدار، وذلك الجدارُ ممَرٌّ لأنواع المُشْتَهَيات[1] والملذوذات والمكروهات، فكلَّما مرَّ به شيءٌ من ذلك ظهرَ فيه أثرُه.

فإن كان محبوبًا مُشْتَهًى مال طبعُه إليه، فإن لم يقدر علىٰ تحصيله تألم وتعذَّبَ بفَقْده، وإن قدرَ علىٰ تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقَّة ومنازعة الغير له، ويتألم حال حصوله خوفًا من فراقه[2]، وبعد فراقه حزنًا علىٰ ذهابه.

وإن كان مكروهًا له ولم يقدر علىٰ دفعه تألم بوجوده، وإن قدرَ علىٰ دفعه ٱشتغل بدفعه، ففاتته مصلحةٌ راجحةُ الحصول، فيتألم لفواتها.

فعُلِمَ أنَّ هذا القلبَ أبدًا مستغرقٌ في بحار الهموم والغموم والأحزان، وأنَّ نفسَه تضحكُ عليه وتُرضِّيه بوزن ذرَّةٍ من لذَّته[3]، فيغيبُ بها عن شُهوده القناطيرَ من ألمه وعذابه.

فإذا حِيل بينه وبين تلك اللذَّة ولم يبقَ له إليها سبيل، تجرَّد ذلك الألمُ وأحاطَ به واستولىٰ عليه من كلِّ جهاته، فقُلْ ما شئتَ في حال عبد قد غُيِّبَ عنه سَعْدُه وحظوظُه وأفراحُه، وأُحْضِرَ شِقْوتَه وهمومَه وغمومَه وأحزانَه. وبين العبد وبين هذه الحال أن يُكشفَ[4] الغطاء، ويُرفعَ الستر، وينجلي الغبار، ويحصَّل ما في الصدور.

---

(١) (ت): «الشبهات». (ن): «المشتبهات».

(٢) (ن): «فواته».

(٣) (ح): «من لذة من لذته».

(٤) (ق، د): «ينكشف».

فإذا كانت هذه غايةَ اللذَّات الحيوانيَّة، التي هي غايةُ جمع الأموال وطلبها، فما الظنُّ بقدر الوسيلة؟!

وأمَّا غِنىٰ العلم والإيمان، فدائمُ اللذَّة، متَّصلُ الفرحة، مُقْتَضٍ لأنواع المسرَّة والبهجة، لا يزولُ فيُحْزِن، ولا يُفارقُ فيُؤلِم، بل أصحابُه كما قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

السادس والثلاثون: أنَّ غنيَّ المال يبغضُ الموتَ ولقاءَ الله؛ فإنَّه لحبِّه مالَه يكرهُ مفارقتَه ويحبُّ بقاءه[١] ليتمتَّع به، كما يشهدُ به الواقع.

وأمَّا العلمُ، فإنه يحبِّبُ للعبد لقاءَ ربِّه، ويزهِّدُه في هذه الحياة النَّكِدَة الفانية.

السابع والثلاثون: أنَّ الأغنياء يموتُ ذكرُهم بموتهم، والعلماءُ يموتون ويحيا ذكرُهم؛ كما قال أميرُ المؤمنين في هذا الحديث: «**مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر**»؛ فخُزَّانُ الأموال أحياءٌ كأموات، والعلماءُ بعد موتهم أمواتٌ كأحياء.

الثامن والثلاثون: أنَّ نسبةَ العلم إلىٰ الروح كنسبة الروح إلىٰ البدن؛ فالروحُ ميتةٌ حياتُها بالعلم، كما أنَّ الجسدَ ميتٌ حياتُه بالروح، فالغِنىٰ بالمال[٢] غايتُه أن يزيد في حياة البدن، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوب والأرواح، كما تقدم تقريرُه.

التاسع والثلاثون: أنَّ القلبَ مَلِكُ البدن، والعلمَ زينتُه وعُدَّتُه ومالُه، وبه

---

(١) (ق): «مقامه».

(٢) (ق، ح، د، ن): «فالغنى والمال».

قِوامُ مُلْكه، والـمَلِكُ لا بدَّ له من عـددٍ وعُـدَّةٍ ومـالٍ وزينـة؛ فـالعلمُ هـو مركبُـه وعدَّتُه وجَـمالُه[1].

وأمَّا المالُ فغايتُه أن يكون زينـةً وجَـمالًا للبـدن إذا أنفقـه في ذلـك، فـإذا خَزَنَه ولم ينفقه لم يكن زينةً ولا جمالًا، بل نقصًا ووبالًا.

ومن المعلوم أنَّ زينةَ الـمَلِك وما بـه قِـوامُ ملكـه أجـلُّ وأفـضلُ مـن زينـة رعيَّته وجَمالهم، فقِوامُ القلب بالعلم، كما أنَّ قِوامَ الجسم بالغذاء.

الوجه الأربعون: أنَّ القدرَ المقصودَ من المال هو ما يكفي العبـد ويُقِيمُـه ويدفعُ ضرورتَه حتىٰ يتمكَّن من قضاء جَهازه[2]، ومـن التـزوُّد لـسفره[3] إلىٰ ربِّه عز وجل، فإذا زاد علىٰ ذلك شَغَلَه وقَطَعَه عن السفر إلىٰ ربِّـه وعـن قـضاء جَهازه وتَعْبِيَة زاده؛ فكان ضررُه عليه أكثر من مـصلحته، وكلَّـما ٱزدادَ غِنـاه بـه ٱزدادَ تثبُّطًا وتخلُّفًا عن التجهُّز لما أمامه.

وأمَّا العلمُ النافع، فكلَّما ٱزدادَ منه ٱزدادَ في تَعْبِيَة الزاد، وقـضاء الـجَهاز، وإعداد عدَّة المسير، والله الموفِّق وبه الاستعانة، ولا حول ولا قوة إلا به.

فعُدَّةُ هذا السفر هو العلمُ والعمل، وعُدَّةُ الإقامة جمعُ الأموال والادِّخار، ومن أراد شيئًا هيَّأ له عُدَّتَه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

---

(١) (د، ق): «وكماله».

(٢) جَهازُ كل شيء: ما يحتاج إليه.

(٣) (ق): «لمستقره».

* قولُه: «**محبةُ العلم ـ أو العالِم ـ دِينٌ يدانُ بها**»؛ لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياء، والعلماءُ وُرَّاثُهم، فمحبةُ العلم وأهله محبةٌ لميراث الأنبياء وورثتهم، وبغضُ العلم وأهله بغضٌ لميراث الأنبياء وورثتهم.

فمحبةُ العلم من علامات السعادة وبغضُ العلم من علامات الشقاوة، وهذا كلُّه إنما هو في علم الرُّسل الذي جاؤوا به، وورَّثوه للأمَّة، لا في كلِّ ما يسمَّىٰ علمًا.

وأيضًا؛ فإنَّ محبةَ العلم تحملُ علىٰ تعلُّمه واتِّباعه، وذلك هو الدِّين، وبغضُه ينهىٰ عن تعلُّمه واتِّباعه، وذلك هو الشقاءُ والضلال.

وأيضًا؛ فإنَّ الله سبحانه عليمٌ يحبُّ كلَّ عليم، وإنما يضعُ علمَه عند من يحبُّه، فمن أحبَّ العلمَ وأهلَه فقد أحبَّ ما أحبَّ الله، وذلك مما يُدانُ به.

* قولُه: «**العلمُ يُكْسِبُ العالِمَ الطَّاعةَ في حياته، وجميلَ الأُحدوثة بعد مماته**»؛ يُكْسِبه ذلك، أي: يجعلُه كسبًا له، ويورِّثُه إياه. ويقال: كَسَبَه ذلك عزًّا وطاعةً، وأَكْسَبه. لغتان.

ومنه حديثُ خديجة رضي الله عنها: «إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدُقُ الحديث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم»(١)، رُوِي بفتح التاء وضمِّها، ومعناه: تُكْسِبُ المالَ والغِنىٰ. هذا هو الصواب.

وقالت طائفة: من رواه بضمِّها فذلك من: أَكْسَبه(٢) مالًا وعزًّا، ومن رواه بفتحها فمعناه: تَكْسِبُ أنت المالَ المعدومَ بمعرفتك وحِذْقِك

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة.

(٢) (ق، د): «أكسبته».

بالتجارة(١).

ومعاذَ الله من هذا الفهم، وخديجةُ أجلُّ قدرًا من تكلُّمها بهذا في هذا المقام العظيم، أن تقولَ لرسول الله ﷺ: أبشِر، فوالله لا يخزيك الله؛ إنك تَكْسِبُ الدرهمَ والدينار وتُحْسِنُ التجارة!

ومثلُ هذه التحريفات إنما تُذْكَرُ لئلَّا يُغْتَرَّ بها في تفسير كلام الله ورسوله.

والمقصودُ أنَّ قولَه: «**العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعةَ في حياته**»؛ أي: يجعلُه مطاعًا؛ لأنَّ الحاجةَ إلىٰ العلم عامةٌ لكلِّ أحدٍ، الملوك فمن دونهم، فكلُّ أحدٍ محتاجٌ إلىٰ طاعة العالِم، فإنه يأمرُ بطاعة الله ورسوله، فيجبُ علىٰ الخلق طاعتُه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وفُسِّرَ ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ بالعلماء. قال ابن عباس: «هم الفقهاءُ والعلماءُ أهلُ الدِّين، الذين يعلِّمون الناسَ دينَهم، أوجبَ اللهُ تعالىٰ طاعتَهم». وهذا قولُ مجاهد والحسن والضحَّاك وإحدىٰ الروايتين عن الإمام أحمد.

وفُسِّروا بالأمراء. وهو قولُ ابن زيد، وإحدىٰ الروايتين عن ابن عباس وأحمد(٢).

---

(١) ذكر هذا المعنىٰ ـ علىٰ رواية الفتح ـ السَّرَقُسْطِيُّ في «الدلائل في غريب الحديث» (١/ ٣٣٣)، وضعَّفه وغلَّطه النوويُّ في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠١)، وانظر: «المفهم» (١/ ٣٧٩)، و«فتح الباري» (١/ ٣٤).

(٢) انظر التعليق المتقدم (ص: ١٩٢).

والآيةُ تتناولهما جميعًا؛ فطاعةُ ولاة الأمر واجبةٌ إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، وطاعةُ العلماء كذلك.

فالعالِمُ بما جاء به الرسولُ العاملُ به أطوعُ في أهل الأرض من كلِّ أحد، فإذا مات أحيا اللهُ ذكرَه، ونشرَ له في العالمين أحسنَ الثناء.

فالعالِمُ بعد وفاته ميتٌ وهو حيٌّ بين الناس، والجاهلُ في حياته حيٌّ وهو ميتٌ بين الناس، كما قيل:

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهله ... وأجسامُهم قبل القبور قبورُ
وأرواحُهم في وَحْشةٍ مِنْ جُسُومِهم ... وليس لهم حتىٰ النُّشورِ نُشورُ[1]

وقال آخر:

قد مات قومٌ وما ماتت مَكارِمُهم ... وعاشَ قومٌ وهم في الناس أمواتُ[2]

وقال آخر:

وما دام ذِكْرُ العبد بالفضل باقيًا ... فذلك حيٌّ وهو في التُّرْبِ هالكُ[3]

ومن تأمَّل أحوال أئمَّة الإسلام ـ كأئمَّة الحديث والفقه ـ كيف هم تحت التراب وهم في العالَمين كأنهم أحياءٌ بينهم، لم يَفْقِدُوا منهم إلا صُوَرهم، وإلا فذِكرُهم وحديثُهم والثناءُ عليهم غير منقطع، وهذه هي الحياةُ

---

(١) مضىٰ القولُ في تخريج البيتين (ص: ١٣٠).

(٢) البيت للشافعي في «المنهج الأحمد» (١/ ٧١)، وعنه في ديوانه (٥٨)، ودون نسبة في «السلوك» للجندي (١/ ٤٢٠)، و«زهر الأكم» (١/ ٣٣٢).

(٣) لم أعثر عليه.

حقًّا، حتىٰ عُدَّ ذلك حياةً ثانية، كما قال المتنبي[1]:

ذِكْرُ الفتىٰ عَيْشُه الثاني وحاجتُه   ما قاتَه وفضولُ العَيْشِ أشغالُ

* قولُه: «**وصنيعةُ المال تزولُ بزواله**»؛ يعني: أنَّ كلَّ صنيعةٍ صُنِعَت للرجل من أجل ماله؛ من إكرامٍ ومحبَّةٍ وخدمةٍ وقضاءِ حوائجَ وتقديمٍ واحترامٍ وتوليةٍ وغير ذلك، فإنها إنما هي مراعاةٌ لماله، فإذا زال مالُه وفارقه زالت تلك الصنائعُ كلُّها، حتىٰ إنه ربَّما لا يُسَلِّمُ عليه من كان يدأبُ في خدمته ويسعىٰ في مصالحه.

وقد أكثر الناسُ من هذا المعنىٰ في أشعارهم وكلامهم.

وفي مثل قولهم: «مَنْ وَدَّكَ لأمرٍ مَلَّكَ عند ٱنقضائه»[2] قال بعض العرب:

وكان بنو عمِّي يقولون: مرحبًا   فلمَّا رأوني مُعْسِرًا ماتَ مَرْحَبُ[3]

---

(١) في ديوانه (٥٠٥). وتحرَّف في (ت، ح، ن) وكثيرٍ من المصادر: «قاته» إلىٰ: «فاته» بالفاء. والرواية في الديوان: «عمره الثاني».

(٢) نُسِب القول إلىٰ الحسن بن محمد بن علي بن موسىٰ في «التذكرة الحمدونية» (١/ ٢٧٦). وإلىٰ بعض الحكماء في «العزلة» للخطابي (٦٠)، و«ربيع الأبرار» (١/ ٤٣١). وإلىٰ بعض ملوك الهند في «الإيجاز والإعجاز» (١١)، و«البصائر والذخائر» (١/ ١٢٧)، و«التذكرة الحمدونية» (١/ ٢٧٧).

(٣) من أبياتٍ تنسب لرجلٍ يكنى أبا كثير، في «إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٤٩٥)، وبعضها في «روضة العقلاء» (٢٢٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ٢٤١)، و«المحاسن والمساوىء» (٢٧٣)، و«المستطرف» (٢/ ٩٦)، دون نسبة. وفي «العقد» (٣/ ٣٥) أن هذا البيت وآخر وُجِدا مكتوبَين بالذَّهب في جدارٍ من جُدُرِ بيت المقدس. وليسا في «أدب الغرباء».

ومن هذا ما قيل: «إذا أكرمَكَ الناسُ لمالٍ أو سلطانٍ فلا يُعْجِبَنَّك ذلك؛ فإنَّ زوالَ الكرامة بزوالهما، ولكن لِيُعْجِبْكَ[1] إن أكرموك لعلمٍ أو دين»[2].

وهذا أمرٌ لا يُنْكَرُ في الناس؛ حتىٰ إنهم ليُكْرِمُون الرجلَ لثيابه، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامةَ وهو هو!

قال مالك: «بلغني أنَّ أبا هريرة دُعِيَ إلىٰ وليمةٍ فأتىٰ، فحُجِب، فرجعَ فلبسَ غير تلك الثِّياب، فأُدْخِل، فلمَّا وُضِعَ الطعامُ أدخلَ كمَّه في الطعام، فعُوتِبَ في ذلك، فقال: إنَّ هذه الثيابَ هي التي أُدخِلَت، فهي تأكُل». حكاه ٱبنُ مُزَين الطُّليطلي في «كتابه»[3].

وهذا بخلاف صنيعة العلم، فإنها لا تزولُ أبدًا، بل كلَّما لها[4] في زيادة، ما لم يُسْلَبْ ذلك العالِمُ علمَه.

وصنيعةُ العلم والدِّين أعظمُ من صنيعة المال؛ لأنها تكونُ بالقلب واللسان والجوارح، فهي صادرةٌ عن حبٍّ وإكرامٍ لأجل ما أودعه اللهُ تعالىٰ

---

(١) (د، ت، ق، ن): «ليعجبنك».

(٢) قاله ابنُ المقفع في «الأدب الكبير» (١١٠). وعنه في «عيون الأخبار» (٢/ ١٢١)، و«الجامع» لابن عبد البر (١/ ٢٦٥)، وغيرها.

(٣) انظر ما تقدم (ص: ٨٢) بشأن ابن مزين. والخبر لم أقف عليه. وأصلُ القصة مشهور، وقد وردت من حديث ابن عباس مرفوعًا، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٠٧)، ولا يثبت، وأخرجه معمر في «الجامع» (١١/ ٤٣٧، ٤٣٨) مرسلًا، وهو الصواب.

(٤) (ت، ح، ن): «كل مالها». وهو تركيبٌ محدثٌ يفيد معنى الاستمرار. واستعمله المصنف في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٧)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٢٦)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٩/ ٥٢٢)، وغيرهم، ولا زال مستعملًا. ويمكن أن تكون (ما) موصولة.

إياه من علمه وفَضَّلَه به علىٰ غيره.

وأيضًا؛ فصنيعةُ العلم تابعةٌ لنفس العالِم وذاته، وصنيعةُ المال تابعةٌ لماله المنفصل عنه.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المال صنيعةُ معاوَضَة، وصنيعةُ العلم والدِّين صنيعةُ حبٍّ وتقرُّبٍ وديانة.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المال تكونُ مع البَرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، وأمَّا صنيعةُ العلم والدِّين فلا تكونُ إلا مع أهل ذلك.

وقد يرادُ من هذا أيضًا معنًى آخر؛ وهو أنَّ من ٱصطنعتَ عنده صنيعةً بمالك، إذا زال ذلك المالُ وفارقه عَدِمت صنيعتك عنده، وأما من ٱصطنعتَ إليه صنيعةَ علمٍ وهدى فإنَّ تلك الصنيعةَ لا تفارقُه أبدًا، بل تُرىٰ في كلِّ وقتٍ كأنك أسْدَيْتَها إليه حينئذ.

* قولُه: «**مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء**»؛ قد تقدَّم بيانُه.

* وكذلك قولُه: «**والعلماءُ باقون ما بقي الدهر**».

* وقولُه: «**أعيانُهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة**»؛ المرادُ بـ «**أمثالهم**» صُوَرهم العلميَّة، ووجودُهم المثاليُّ، أي: وإن فُقِدت ذواتُهم فصُوَرهم وأمثالُهم في القلوب لا تفارقُها، وهذا هو الوجودُ الذِّهنيُّ العلمي؛ لأنَّ محبة الناس لهم، واقتداءهم بهم، وانتفاعهم بعلومهم، يوجبُ أن لا يزالوا نُصْبَ عيونهم، وقبلة قلوبهم، فهم موجودون معهم، وحاضرون عندهم، وإن غابت عنهم أعيانُهم، كما قيل:

وَمِـــنْ عجـــبٍ أنِّي أحِـــنُّ إلـــيهمُ وأسألُ عنهم من لقيتُ وهـم معـي
وتَطْلُـبهم عينـي وهـم في سَـوادِها ويشتاقُهم قلبي وهم بـين أضـلُعِي[1]

وقال آخر:

ومِن عجبٍ أن يَشْكُوَ البعدَ عاشقٌ وهل غاب عن قلب الـمُحِبِّ حبيـبُ
خيالُك في عيني وذِكْرُك في فمي ومثـواكَ في قلبـي فـأين تغيـبُ[2]

قولُه: «آه؛ **إنَّ هاهنا علمًا ـ وأشار إلىٰ صدره ـ**»؛ يدلُّ علىٰ جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليُقْتَبَس منه، وليُنْتَفَع به، ومنه قول يوسف الصِّدِّيق عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فمن أخبَرَ عن نفسه بمثل ذلك ليُكثِّر به ما يحبُّه الله ورسولُه من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبَرَ بذلك ليتكثَّر به عند الناس ويتعظَّم، وهذا يجازيه اللهُ بمَقْتِ الناس له، وصِغَرِه في أعينُهم، والأولُ يُكَبِّرُه في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمالُ بالنيات.

وكذلك إذا أثنىٰ الرجلُ علىٰ نفسه ليَخْلُصَ بذلك من مظلمةٍ وشرٍّ، أو

---

(١) البيتان للقاضي الفاضل (ت: ٥٩٦) في «ديوانه» (٤٩٢). ونُسِبا لمِهْيار ـ وليسا في ديوانه ـ في «الحلة السيراء» (١/ ٢٠٤)، و«نفح الطيب» (٥/ ٤٧٦)، وفي الأول حكاية خلافٍ في ذلك. وهما في «الحماسة المغربية» (١٠٦٨) ومصادر أخرىٰ كثيرة دون نسبة.

(٢) الثاني لابن غلندو الإشبيلي (ت: ٥٨٧) في «إرشاد الأريب» (١١٩٤). ودون نسبة في «البديع» لابن منقذ (١١٤).

ليستوفي بذلك حقًّا له يحتاجُ فيه إلىٰ التعريف بحاله، أو ليقطعَ عنه أطماعَ السِّفلَة فيه، أو عند خِطْبته إلىٰ من لا يعرفُ حالَه.

والأحسنُ في هذا أن يوكِّل من يُعَرِّفُ به وبحاله؛ فإنَّ لسانَ ثناء المرء علىٰ نفسه قصير[1]، وهو في الغالب مذموم؛ لما يقترنُ به من الفخر والتعاظُم.

ثمَّ ذكرَ أصنافَ حملة العلم الذين لا يصلحونَ لحمله، وهم أربعة:

أحدُهم: من ليس هو بمأمونٍ عليه، وهو الذي أوتي ذكاءً وحفظًا، ولكن مع ذلك لم يؤتَ زكاءً؛ فهو يتخذُ العلمَ الذي هو آلةُ الدِّين آلةَ الدنيا، يَسْتَجْلِبُها به، ويتوسَّلُ بالعلم إليها، ويجعلُ البضاعةَ التي هي مُتَّجَرُ الآخرة مُتَّجَرَ الدنيا، وهذا غيرُ أمينٍ علىٰ ما حملَه من العلم، ولا يجعلُه اللهُ إمامًا فيه قطُّ؛ فإنَّ الأمينَ هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا ٱتباع الحقِّ وموافقته، فلا يدعو إلىٰ قيام رياسته ولا دنياه.

وهذا الذي قد ٱتَّخذ بضاعةَ الآخرة ومُتَّجرها مُتَّجَرًا للدنيا قد خان اللهَ وخان عبادَه وخان دينَه، فلهذا كان[2] غير مأمونٍ عليه.

* وقولُه: «**يَسْتَظْهِرُ بحجج الله علىٰ كتابه، وبنعمه علىٰ عباده**»؛ هذه صفةُ هذا الخائن؛ إذا أنعمَ اللهُ عليه ٱستظهر بتلك النعمة علىٰ الناس، وإذا تعلَّم علمًا ٱستظهر به علىٰ كتاب الله.

ومعنىٰ ٱستظهاره بالعلم علىٰ كتاب الله: تحكيمُه عليه وتقديمُه وإقامتُه

---

(١) انظر السِّرَّ في ذلك في «الهوامل والشوامل» (٦٨، ١١٧، ٣٠٨).

(٢) (ق، د، ح، ن): «قال». أي: علي رضي الله عنه.

دونه.

وهذه حالُ كثيرٍ ممن يحصُل له علم؛ فإنه يستغني به ويستظهرُ به ويحكِّمُه ويجعلُ كتابَ الله تبعًا له، يقال: ٱسْتَظْهَر فلانٌ علىٰ كذا بكذا، أي: ظَهَرَ عليه به، وتقدَّم فجعله وراءَ ظهره.

وليست هذه حال العلماء؛ فإنَّ العالِمَ حقًّا يستظهرُ بكتاب الله علىٰ كلِّ ما سِواه، فيقدِّمه ويحكِّمُه، ويجعلُه إمامه، ويجعلُه عِيارًا علىٰ غيره مهيمنًا عليه، كما جعله الله تعالىٰ كذلك.

فالمُسْتَظْهِرُ به موفَّقٌ سعيد، والمُسْتَظْهَرُ عليه مخذولٌ شقيٌّ، فمن ٱسْتَظْهَر علىٰ الشيء فقد جعله خلفَ ظهره مقدِّمًا عليه ما ٱسْتَظْهَرَ به، وهذا حالُ من ٱشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفىٰ بغيره منه، وقدَّم غيره وأخَّره.

الصنف الثاني من حملة العلم: المنقادُ له، الذي لم يَثْلُجْ له صدرُه، ولم يطمئنَّ به قلبُه، بل هو ضعيفُ البصيرة فيه، لكنه منقادٌ لأهله.

وهذه حالُ أتباع الحقِّ من مقلِّديهم، وهؤلاء وإن كانوا علىٰ سبيلِ نجاةٍ فليسوا من دعاة الدِّين، وإنما هم من مكثِّري سَواد الجيش، لا من أمرائه وفرسانه.

والمنقاد: مُنْفَعِلٌ مِن قاده يَقُودُه، وهو مُطاوِعُ الثُّلاثي[1]، وأصلُه: مُنْقَيِد؛ كمُكْتَسِب، ثمَّ أُعِلَّت الياءُ ألفًا[2] لحركتها بعد فتحة، فصار: مُنقاد؛

---

(١) (ح): «الثاني». وهو تحريف.

(٢) (ت): «ثم أقلب الياء ألفًا». والإعلال: تغيير حرف العلة للتخفيف، بالقلب كما في هذا المثال، أو التسكين، أو الحذف.

تقول: قُدْتُه فانقادَ، أي: لم يَمْتَنِع.

والأحناء: جمعُ حِنْو، بوزن عِلْم، وهي الجوانبُ والنواحي، والعربُ تقول: ٱزجُر أحناءَ طَيْرِك، أي: أمْسِك نواحي خِفَّتِك وطَيْشِك يمينًا وشمالًا وأمامًا وخلفًا[1].

قال لبيد[2]:

فقلتُ ٱزدَجِرْ أحناءَ طَيْرِكَ وٱعْلَمَنْ بأنَّك إنْ قَدَّمتَ رِجْلَك عاثرُ

والطيرُ هنا: الخِفَّةُ والطَّيش.

* وقولُه: «**ينقدحُ الشكُّ في قلبه بأوَّل عارضٍ من شبهة**»؛ هذا لضَعْفِ علمه وقلَّة بصيرته، إذا وردَت علىٰ قلبه أدنىٰ شبهةٍ قدحَت فيه الشكَّ والرَّيب، بخلاف الراسخ في العلم، لو وردَت عليه من الشُّبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينَه، ولا قدحَت فيه شكًّا؛ لأنه قد رسَخَ في العلم فلا تستفزُّه الشبهات، بل إذا وردَت عليه رَدَّها حرسُ العلم وجيشُه مغلولةً مغلوبة.

والشبهةُ واردٌ يَرِدُ علىٰ القلب يحولُ بينه وبين ٱنكشاف الحقِّ له، فمتىٰ باشرَ القلبُ حقيقةَ العلم لم تؤثِّر تلك الشبهةُ فيه، بل يقوىٰ علمُه ويقينُه بردِّها ومعرفة بطلانها، ومتىٰ لم يباشِر حقيقةَ العلم بالحقِّ قلبُه قدحَتْ فيه الشكَّ بأول وهلة، فإن تداركَها وإلا تتابعت علىٰ قلبه أمثالُها، حتىٰ يصيرَ شاكًّا مرتابًا.

---

(١) انظر: «الصحاح» (حني).

(٢) في ديوانه (٢٢٠).

والقلبُ يتواردُه جيشان من الباطل: جيشُ شهوات الغيِّ، وجيشُ شبهات الباطل. فأيما قلبٍ صغا إليها وركنَ إليها تَشَرَّبها وامتلأ بها، فينضحُ لسانُه وجوارحُه بمُوجَبها، فإن أُشْرِبَ شبهات الباطل تفجَّرت على لسانه الشكوكُ والشبهاتُ والإيرادات، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه!

وقال لي شيخُ الإسلام رضي الله عنه ـ وقد جعلتُ أوردُ عليه إيرادًا بعد إيراد ـ: «لا تجعل قلبَك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجَة، فيتشرَّبها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اْجعله كالزجاجة المُصْمَتة، تمرُّ الشبهاتُ بظاهرها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعُها بصلابته، وإلا فإذا أَشْرَبتَ قلبَك كلَّ شبهةٍ تمرُّ عليك صار مقرًّا للشبهات»(١)، أو كما قال؛ فما أعلمُ أني اْنتفعتُ بوصيَّةٍ في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك.

وإنما سُمِّيت الشبهةُ شبهةً لاشتباه الحقِّ بالباطل فيها؛ فإنها تلبسُ ثوبَ الحقِّ على جسم الباطل، وأكثرُ الناس أصحابُ حُسْنٍ ظاهر، فينظرُ الناظرُ فيما أُلبِسَتْهُ من اللباس فيعتقدُ صحتها، وأما صاحبُ العلم واليقين فإنه لا يغترُّ بذلك، بل يجاوزُ نظرَه إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشفُ له حقيقتُها.

---

(١) انظر هذا المعنى في: «شفاء العليل» (٣٢٣، ٥٤٢)، و«الوابل الصيب» (١٢٠-١٢٢)، و«الروح» (٥٩٩).

وذكر الصفدي في «الوافي» (٧/ ١٦) أن ابن تيمية كان إذا رآه قال له: «أيش حِسّ الإيرادات؟ أيش حِسّ الأجوبة؟ أيش حِسّ الشكوك؟، أنا أعلم أنك مثل القِدْر التي تغلي تقول: بق بق بق، أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، لازمني تنتفع».

ومثالُ هذا: الدرهمُ الزائف؛ فإنه يغترُّ به الجاهلُ بالنقد، نظرًا إلىٰ ما عليه من لباس الفضَّة، والناقدُ البصيرُ يجاوزُ نظرَه إلىٰ ما وراء ذلك فيطَّلعُ علىٰ زيفه.

فاللفظُ الحسنُ الفصيحُ هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضَّة علىٰ الدرهم الزائف، والمعنىٰ كالنحاس الذي تحته[1].

وكم قد قتلَ هذا الاغترارُ من خلقٍ لا يحصيهم إلا الله!

وإذا تأمَّل العاقلُ الفَطِنُ هذا القَدْرَ وتدبَّره رأىٰ أكثر الناس يقبَلُ المذهبَ والمقالةَ بلفظٍ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخر!، وقد رأيتُ أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله.

وكم قد رُدَّ من الحقِّ بتشنيعه بلباسٍ من اللفظ قبيح!

وفي مثل هذا قال أئمَّةُ السُّنَّة ـ منهم الإمامُ أحمد وغيره ـ: «لا نُزيلُ عن الله صفةً من صفاته لأجل شَناعةٍ شُنِّعَت»[2]. فهؤلاء الجهميةُ يسمُّون إثباتَ صفات الكمال لله ـ من حياته، وعلمه، وكلامه، وسمعه، وبصره، وسائر ما وصف به نفسَه ـ تشبيهًا وتجسيمًا، ومن أثبتَ ذلك مشبِّهًا؛ فلا يَنْفِرُ من هذا المعنىٰ الحقِّ لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقولُ الصغيرةُ القاصرةُ

---

(١) قال ابن تيمية في تائية ابن الفارض المشهورة: «نظَم فيها الاتحاد نظمًا رائق اللفظ، فهو أخبثُ من لحم خنزيرٍ في صينيةٍ من ذهب»!. «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٧٣). وانظر: «الصواعق المرسلة» (٤٣٦)، و«البيان والتبيُّن» (١/ ٢٥٤).

(٢) انظر: «الإبانة» لابن بطة (٣/ ٣٢٦ ـ تتمة الرد على الجهمية)، و«إبطال التأويلات» (١/ ٤٤)، و«ذم التأويل» لابن قدامة (٢٢)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٣١، ٢/ ١٦٤)، و«درء التعارض» (٢/ ٣١).

خفافيشُ البصائر.

وكلُّ أهل نِحْلَةٍ ومقالةٍ يَكْسُونَ نِحْلَتَهم ومقالتهم أحسنَ ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالةَ مخالفيهم أقبحَ ما يقدرون عليه من الألفاظ[١]، ومن رزقه اللهُ بصيرةً فهو يكشفُ بها حقيقةَ ما تحت تلك الألفاظ من الحقِّ والباطل، ولا يغترُّ باللفظ، كما قيل في هذا المعنىٰ:

تقولُ هذا جَنىٰ النَّحْلِ[٢] تمدحُه ... وإن تشأْ قلتَ ذا قيءُ الزَّنابيرِ
مدحًا وذمًّا وما جَاوزتَ وَصْفَهما ... والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ[٣]

فإذا أردتَ الاطلاعَ علىٰ كُنْه المعنىٰ: هل هو حقٌّ أو باطل؟ فجرِّدْه من لباس العبارة، وجرِّدْ قلبك من النُّفرة والمَيْل، ثمَّ أَعْطِ النظرَ حقَّه، ناظرًا بعين الإنصاف، ولا تكن ممَّن ينظرُ في مقالة أصحابه ومن يحسِنُ ظنَّه به نظرًا تامًّا بكلِّ قلبه، ثمَّ ينظرُ في مقالة خصومه ومن يسيءُ ظنَّه به كنظر الشَّزْر والملاحظة.

فالناظرُ بعين العداوة يرىٰ المحاسنَ مساوىء، والناظرُ بعين المحبة عكسُه، وما سَلِمَ من هذا إلا من أراد الله كرامتَه وارتضاه لقبول الحقِّ، وقد قيل[٤]:

---

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٤٤).

(٢) كذا في الأصول. وروايةُ الديوان وكثيرٍ من المصادر: «مُجاج النحل».

(٣) البيتان لابن الرومي في «ديوانه» (١١٤٤)، ولهما ثالث.

(٤) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، في «الأغاني» (١٢/ ٢١٢)، و«الكامل» (٢٧٧)، و«عيون الأخبار» (٣/ ٧٦)، و«زهر الآداب» (١/ ٨٥)، وغيرها. وفي نسبته خلاف. انظر: «الواضح المبين» (٤٤).

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ   كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِي المساويا

وقال آخر[1]:

نظروا بعينِ عداوةٍ ولو أنها   عينُ الرِّضا لاستحسَنوا ما استقبَحوا

فإذا كان هذا في نظر العين الذي يُدْرِكُ المحسوسات، ولا يتمكَّن من المكابرة فيها، فما الظنُّ بنظر القلب الذي يُدْرِكُ المعاني التي هي عُرْضةُ المكابرة؟!

والله المستعان على معرفة الحقِّ وقبوله، وردِّ الباطل وعدم الاغترار به.

* وقولُه: «**بأول عارضٍ من شبهة**»؛ هذا دليلٌ على ضعف عقله ومعرفته، إذ تؤثِّر فيه البَدَوات[2]، وتستفزُّه أوائلُ الأمور، بخلاف الثابت التامِّ العقل[3]، فإنه لا تستفزُّه البَدَواتُ ولا تُزْعِجُه وتُقْلِقُه؛ فإنَّ الباطل له دهشةٌ وروعةٌ في أوَّله، فإذا ثبت له القلبُ رُدَّ على عقبيه.

والله يحبُّ من عبده الحِلْمَ والأناة، فلا يَعْجَل، بل يثبتُ حتى يعلمَ ويَسْتَيْقِنَ ما وردَ عليه، ولا يَعْجَل بأمرٍ من قبل استحكامه، فالعجلةُ والطَّيشُ من الشيطان.

فمن ثبت عند صدمة البَدَوات استقبلَ أمره بعلم وحزم، ومن لم يثبت لها استقبله بعجلةٍ وطيش، وعاقبتُه الندامة، وعاقبةُ الأول حَمْدُ أمره، ولكنَّ للأول آفةً متى قُرِنَت بالحزم والعزم نجا منها، وهي الفَوْت، فإنه لا يُخافُ

---

(١) وهو الشريفُ الرضي، في ديوانه (١/ ٢٦٠).

(٢) الآراء الطارئة. واحدُها: بَداة.

(٣) (د، ق، ح، ن): «العاقل». تحريف.

من التثبُّت إلا الفَوْت، فإذا ٱقترنَ به العزمُ والحزمُ تمَّ أمرُه.

ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائيُّ عن النبيِّ ﷺ: «**اللهم إني أسألُك الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ علىٰ الرُّشد**»[1].

وهاتان الكلمتان هما جِماعُ الفلاح، وما أُتِيَ العبدُ إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتِيَ أحدٌ إلا من باب العجلة والطَّيش واستفزاز البَدَوات له، أو من باب التهاون والتماوُت وتضييع الفرصة بعد مُواتاتها، فإذا حصلَ الثبات أوَّلًا والعزم ثانيًا أفلحَ كلَّ الفلاح، والله وليُّ التوفيق.

الصنف الثالث: رجلٌ نَهْمَتُه في نيل لذَّته، فهو منقادٌ لداعي الشهوة أين كان، ولا ينالُ درجةَ وراثة النبوَّة مع ذلك، ولا ينالُ العلم إلا بهجر اللذَّات وتطليق الراحة.

قال مسلم في «صحيحه»[2]: «قال يحيىٰ بن أبي كثير: لا يُنالُ العلمُ براحة الجسم».

وقال إبراهيم الحربي: «أجمع عقلاءُ كلِّ أمَّةٍ أنَّ النعيمَ لا يُدْرَكُ بالنعيم، ومن آثر الراحةَ فاتته الراحة»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٣)، وغيرهما من طرقٍ يقوِّي بعضُها بعضًا عن شداد بن أوسٍ.
وصححه ابن حبان (٩٣٥، ١٩٧٤)، والحاكم (١/ ٥٠٨) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «نتائج الأفكار» (٣/ ٧٧).

(٢) (٦١٢). وانظر ما تقدم (ص: ٣٠٠).

(٣) انظر: «قاعدة في المحبة» لابن تيمية (٢٠٧). ولعلَّ أصله ما في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٠). ولابن الجوزي كلامٌ في هذا المعنىٰ. انظر: «الآداب الشرعية» (١/ ٢٤٢).

فما لصاحب اللذَّات وما لدرجة وراثة الأنبياء!

فَدَعْ عنك الكتابةَ لست منها ولو سَوَّدْتَ وجهَك بالمِدادِ[1]

فإنَّ العلمَ صناعةُ القلب وشُغْلُه؛ فما لم يتفرَّغ لصناعته وشغله لم يَنلْها، وله وِجْهَةٌ واحدة؛ فإذا وُجِّهَت وِجْهَته إلىٰ اللذَّات والشهوات ٱنصرفَت عن العلم.

ومن[2] لم تغلِبْ[3] لذَّةُ إدراكه للعلم وشهوتُه علىٰ لذَّة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجةَ العلم أبدًا، فإذا صارت شهوتُه في العلم ولذَّتُه في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله.

ولذَّةُ العلم لذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ من جنس لذَّة الملائكة، ولذَّةُ شهوات الأكل والشراب والنكاح لذَّةٌ حيوانيَّةٌ يشاركُ الإنسانَ فيها الحيوان، ولذَّةُ الشرِّ والظلم والفساد والعلوِّ في الأرْض شيطانيَّةٌ يشاركُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُه.

وسائرُ اللذَّات تبطلُ بمفارقة الروح البدن، إلا لذَّةُ العلم والإيمان، فإنها تَكمُلُ بعد المفارقة؛ لأنَّ البدنَ وشواغلَه كان يَنْقُصها ويقلِّلها ويحجُبها، فإذا ٱنطوت الروحُ عن البدن ٱلتذَّت لذَّةً كاملةً بما حصَّلته من العلم النافع والعمل الصالح؛ فمن طلب اللذَّةَ العظمىٰ، وآثر النعيمَ المقيم، فهو في العلم والإيمان اللذَين بهما كمالُ سعادة الإنسان.

---

(١) ثاني بيتين في «أدب الكتاب» للصولي (١٧١)، و«حماسة الظرفاء» (٢/ ١٠٨)، و«العقد» (٤/ ١٧١، ٦/ ١٣٣)، وغيرها، دون نسبة.

(٢) (ح): «وما». وهي ساقطة من (ت).

(٣) (د): «يغلب». وهي بتشديد اللام ونصب «لذة» قراءةٌ جيدة.

وأيضًا؛ فإنَّ تلك اللذَّات سريعةُ الزوال، وإذا ٱنقضت أعقَبَت همًّا وغمًّا وألمًا يحتاجُ صاحبُها أن يداويه بمثلها دفعًا لألمه، وربَّما كان معاودتُه لها مؤلمًا له كريهًا إليه، لكن يَحْمِلُه عليه مداواةُ ذلك الغمِّ والهمِّ.

فأين هذا من لذَّة العلم، ولذَّة الإيمان بالله، ومحبَّته، والإقبال عليه، والتنعُّم بذكره؟! فهذه هي اللذَّةُ الحقيقية.

الصنفُ الرابع: مَنْ حرصُه وهِمَّتُه في جمع الأموال وتثميرها وادِّخارها، فقد صارت لذَّتُه في ذلك، وفَنِيَ بها عمَّا سواه، فلا يرىٰ شيئًا أطيبَ له ممَّا هو فيه، فأين هذا ودرجةُ العلم؟!

فهؤلاء الأصنافُ الأربعةُ ليسوا من دعاة الدِّين، ولا من أئمَّة العلم، ولا من طلبته الصادقين في طلبه، ومن تعلَّق منهم بشيءٍ منه فهو من المتسلِّقين عليه، المتشبِّهين بحَمَلته وأهله، المدَّعين لوصاله، المبتُوتين من حِباله.

وفتنةُ هؤلاء فتنةٌ لكلِّ مفتون؛ فإنَّ الناسَ يتشبَّهون بهم؛ لِمَا يظنُّون عندهم من العلم، ويقولون: «لسنا خيرًا منهم، ولا نرغبُ بأنفسنا عنهم»؛ فهم حجَّةٌ لكلِّ مفتون، ولهذا قال فيهم بعضُ الصحابة الكرام: «ٱحذروا فتنةَ العالِم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتَهما فتنةٌ لكلِّ مفتون»(1).

* وقولُه: «**أقربُ شبهًا بهم الأنعامُ السائمة**»؛ هذا التشبيه مأخوذٌ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فما ٱقتصر سبحانه

---

(1) أخرجه نعيم بن حماد في زوائده علىٰ «الزهد» لابن المبارك (٧٥)، وأحمد في «العلل» (٣/ ١١٨ - رواية عبد الله)، وابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل» (٨٨)، وغيرهم عن سفيان الثوري قال: «كان يقال...» فذكره.

وأخرجه البيهقي في «المدخل» (٤٤٣) عن الشعبي.

علىٰ تشبيههم بالأنعام حتىٰ جعلهم أضلَّ سبيلًا منهم.

والسائمة: الراعية، وشبَّه أميرُ المؤمنين هؤلاء بها؛ لأنَّ هِمَّتهم في رَعْي الدنيا وحطامها.

والله تعالىٰ يشبِّه أهلَ الجهل والغيِّ تارةً بالأنعام، وتارةً بالـحُمُر، وهذا تشبيهٌ لمن تعلَّم علمًا ولم يَعْقِلْه ولم يعمل به، فهو كالحمار الذي يحملُ أسفارًا، وتارةً بالكلب، وهذا لمن ٱنسلخَ عن العلم وأخلدَ إلىٰ الشهوات والهوىٰ.

* وقولُه: «**كذلك يموتُ العلمُ بموت حامليه**»؛ هذا من قول النبيِّ ﷺ في حديث عبد الله بن عمرٍو وعائشة وغيرهما: «**إنَّ الله لا يقبضُ العلمَ ٱنتزاعًا ينتزعُه من صدور الرجال، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء؛ فإذا لم يَبْقَ عالِـمٌ ٱتخذَ الناسُ رؤساءَ جهَّالًا، فسُئلوا، فأفتَوا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا**»، رواه البخاري في «صحيحه»[1].

فذهابُ العلم إنما هو بذهاب العلماء.

قال ٱبن مسعودٍ يوم مات عمر رضي الله عنه: «إني لأحسبُ تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهَب»[2].

وقد تقدَّم قولُ عمر رضي الله عنه: «موتُ ألف عابدٍ أهونُ من موت عالمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه»[3].

---

(١) (١٠٠، ٧٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٦٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ٦٠) من طرقٍ بعضها صحيح.

(٣) (ص: ٣٤١).

* وقولُه: «**اللهمَّ بلىٰ! لن تخلوَ الأرضُ من مجتهدٍ قائم بحجج الله**»؛ ويدلُّ عليه الحديثُ الصحيحُ عن النبيِّ ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمرُ الله وهم علىٰ ذلك**»(١).

ويدلُّ عليه أيضًا ما رواه الترمذي عن قتيبة: حدثنا حماد بن يحيىٰ الأبحّ، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مثلُ أمَّتي مثلُ المطر لا يُدرىٰ أوَّلُه خيرٌ أم آخرُه**»(٢).

قال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريب، ويروىٰ عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبِّت حمادَ بن يحيىٰ الأبحّ، وكان يقول: هو من شيوخنا. وفي الباب عن عمَّار وعبد الله بن عمرو».

فلو لم يكن في أواخر الأمَّة قائمٌ بحجج الله، مجتهد، لم يكونوا موصوفين بهذه الخيريَّة.

---

(١) ورد من حديث جماعةٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما، وهو متواتر، كما ذكر ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/ ٦٩)، وانظر: «نظم المتناثر» (١٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٩)، وأحمد (٣/ ١٣٠، ١٤٣)، وغيرهما.
قال الإمام أحمد: «هو خطأ، إنما يروىٰ هذا الحديثُ عن الحسن». انظر: «العلل» (٣/ ٣١٤ - رواية عبد الله)، و«المنتخب من العلل للخلال» (٦٠)، و«شرح علل الترمذي» لابن رجب (٢/ ٥٠١).
وأخرجه من مُرْسَل الحسن أحمدُ في «العلل» في الموضع السابق.
ورُوِي من وجوهٍ أخرىٰ صحَّحه بها بعضُ أهل العلم. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٦)، و«الصحيحة» (٢٢٨٦).
واستشكل متنه العلائيُّ في «تحقيق منيف الرتبة» (٩٠).

وأيضًا؛ فإنَّ هذه الأمَّة أكملُ الأمم، وخيرُ أمَّةٍ أُخرِجَت للناس، ونبيُّها خاتمُ النبيِّين لا نبيَّ بعده، فجعلَ اللهُ العلماءَ فيها كلَّما هلكَ عالمٌ خَلَفَه عالم؛ لئلَّا تُطْمَسَ معالمُ الدين وتخفىٰ أعلامُه، وكان بنو إسرائيل كلما هلك فيهم نبيٌّ خَلَفَه نبي، فكانت تَسُوسُهم الأنبياء[1]، والعلماءُ لهذه الأمَّة كالأنبياء في بني إسرائيل[2].

وأيضًا؛ ففي الحديث الآخر: «**يحمِلُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه، ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المُبْطِلين، وتأويلَ الجاهلين**»[3]، وهذا يدلُّ علىٰ أنه لا يزالُ محمولًا في القرون قرنًا بعد قرن.

وفي «صحيح أبي حاتم» من حديث الخولانيِّ: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يزالُ اللهُ يغرسُ في هذا الدِّين غرسًا يستعملُهم في طاعته**»[4]، وغَرْسُ الله هم

---

(١) كما أخبر النبيُّ ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) ورد هذا في خبرٍ لا أصل له. انظر: «كشف الخفاء» (٢/ ٨٣).

(٣) سيأتي تخريجه (ص: ٤٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٤٩٧)، وغيرهم من حديث أبي عنبة الخولاني.
وصححه أبو حاتم ابن حبان (٣٢٦)، وقال الذهبي في «المعجم المختص بالمحدثين» (١٣٤): «إسناده صالح». وانظر: «الكامل» لابن عدي (١/ ١٦٢). وقال العلائي في «جامع التحصيل» (٣١٤): «ضعيفٌ من جهة الجراح بن مليح، قال الدارقطني: ليس بشيء. وأحاديث أبي عنبة مرسلة».
قلت: إنما قال ذلك الدارقطنيُّ في الجراح بن مليح الرؤاسي، لا هذا البَهْراني، وهو شاميٌّ ليس به بأس، إلا أنه خولف في حديثه هذا، انظر: «شرح مذاهب أهل السنة» =

أهلُ العلم والعمل، فلو خلت الأرضُ من عالمٍ خلت من غَرْسِ الله.

ولهذا القول[1] حججٌ كثيرةٌ لها موضعٌ آخر.

وزاد الكذَّابون في حديث علي: «... **إمَّا ظاهرًا مشهورًا، وإمَّا خفيًّا مستورًا**»[2]، وظنُّوا أنَّ ذلك دليلٌ لهم علىٰ القول بالـمُنتَظَر، ولكنَّ هذه الزيادة مِنْ وَضْع بعض كذَّابيهم[3]، والحديثُ مشهورٌ عن عليٍّ لم يَقُلْ[4] أحدٌ عنه هذه المقالة[5] إلا كذَّاب.

وحججُ الله لا تقومُ بخفيٍّ مستورٍ لا يقعُ العالَمُ له علىٰ خبر، ولا ينتفعون به في شيءٍ أصلًا؛ فلا جاهلٌ يتعلَّمُ منه، ولا ضالٌّ يهتدي به، ولا خائفٌ يأمنُ به، ولا ذليلٌ يتعزَّزُ به، فأيُّ حجَّةٍ لله قامت بمن لا يُرىٰ له شخص، ولا يُسْمَعُ منه كلمة، ولا يُعْلَمُ له مكان؟! ولا سيما علىٰ أصول القائلين به، فإنَّ الذي دعاهم إلىٰ ذلك أنهم قالوا: لا بدَّ منه في اللُّطْف

= لابن شاهين (٤٢).
وفي صحبة أبي عنبة الخولاني خلافٌ قويٌّ، والأشبه أن ليست له صحبة. انظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (٢٥١)، و«تهذيب الكمال» (٣٤/ ١٥٠)، و«الإصابة» (٧/ ٢٩٣).

(١) أي: عدم خلوِّ الأرض من مجتهد.

(٢) لم أر هذه الزيادة إلا في كتب الرافضة. أخرجها إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي في «الغارات» (١/ ١٥٣)، والطوسي في أماليه (٢٣)، والمفيد في أماليه (٣)، بأسانيد مظلمة. وهي في «نهج البلاغة» (٤/ ٣٧).

(٣) انظر: «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيمية (٣٢).

(٤) كذا في الأصول، على تضمين معنى: ينقل.

(٥) (ح، ن): «هذه الزيادة».

بالمكلَّفين وانقطاع حجَّتهم عن الله[1].

فيا لله العجب! أيُّ لُطْفٍ حصل بهذا المعدوم، لا المعصوم؟![2] وأيُّ حجَّةٍ أثبتُّم للخلق علىٰ ربهم بأصلكم الباطل؟! فإنَّ هذا المعدومَ إذا لم يكن لهم سبيلٌ قطُّ إلىٰ لقائه والاهتداء به، فهل في تكليف ما لا يطاقُ أبلغُ من هذا؟! وهل في العذر والحجَّة أبلغُ من هذا؟!

فالذي فررتم منه وقعتم في شرٍّ منه، وكنتم في ذلك كما قيل:

المستجيرُ بعمرٍو عند كُرْبتِه ... كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنارِ[3]

ولكن أبىٰ اللهُ إلا أن يفضحَ من تنقَّصَ بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمَّة، وأن يُرِيَ الناسَ عورتَه ويُغْرِيه بكشفها. ونعوذُ بالله من الخذلان.

ولقد أحسن القائل:

ما آنَ للسِّرداب أن يَلِدَ الذي ... حمَّلتمُوه[4] بزعمكم ما آنا

فعلىٰ عقولكم العَفاءُ فإنَّكم ... ثَلَّثتُم العَنْقاءَ والغِيلانا[5]

---

(1) انظر: «النكت الاعتقادية» للمفيد (٤٤ - ٤٥). وراجع: «أصول مذهب الشيعة» للقفاري (٢/ ٧٨٩).

(2) (ح): «بهذا المعدوم المعصوم».

(3) بيتٌ سائرٌ مشهور، في عامة كتب الأمثال، تمثَّل به أبو نجدة لُجَيْم بن سعد، في «الأغاني» (٢٣/ ٢١٩)، فنسبه إليه بعضهم، وهو وهم، وورد في كثيرٍ من المصادر دون نسبة، وقال العباسي في «معاهد التنصيص» (٤/ ٢٠١): «لا أعرف قائله».

(4) كذا في الأصول. وفي بعض المصادر: «كلمتموه».

(5) تنسبُ الشيعةُ البيتين لابن حجر الهيتمي (ت: ٩٧٣)، ولهم عليه ردود. انظر: «الكنىٰ والألقاب» للقُمِّي (١/ ٢٦٢)، و«الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة» (١٠/ ١٧٧، =

ولقد بطلت حججٌ ٱستُودِعَها مثلُ هذا الغائب، وضاعت أعظمَ ضياع، فأنتم أبطلتم حججَ الله من حيث زعمتم حِفْظَها!

وهذا تصريحٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه بأنَّ حاملَ حجج الله لابدَّ أن يكون في الأرض، بحيث يؤدِّيها عن الله، ويبلِّغها إلىٰ عباده، مثلُه رضي الله عنه، ومثلُ إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن ٱتبعهم إلىٰ يوم القيامة.

* وقولُه: «**لكيلا تبطُل حججُ الله وبيِّناتُه**»؛ أي: لكيلا تذهبَ من بين أيدي الناس، وتبطُل من صدورهم، وإلا فالبطلانُ محالٌ عليها؛ لأنها ملزومُ ما يستحيلُ عليه البطلان.

فإن قيل: فما الفرقُ بين الحجج والبيِّنات؟

قيل: الفرقُ بينهما أنَّ الحججَ هي الأدلَّةُ العلميةُ التي يَعْقِلُها القلب، وتَسْتَمِعُها الأذن[1].

قال تعالىٰ في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبيينه بطلانَ ما هم عليه بالدليل العلمي: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال ٱبن زيد[2]: «بعلم الحجَّة».

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]،

= ٢٠/ ١١٠). وذلك أنه استشهد بهما في «الصواعق المحرقة» (٢/ ٤٨٣)، وقد اكتوىٰ به القوم، واستشهد بهما المصنف هنا وفي «المنار المنيف» (١١٩)، وهو قبل الهيتميِّ بدهر.

(١) (د، ح): «وتسمع بالأذن». (ق، ن): «وتسمع بالآذان».

(٢) كذا في الأصول. وتقدم (ص: ١٣٩) عن أبيه زيد بن أسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورىٰ: ١٦].

والحجَّةُ هي ٱسمٌ لما يُحْتَجُّ به من حقٍّ وباطل؛ قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، يعني: فإنهم يحتجُّون عليكم بحجَّةٍ باطلة، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

والحجَّةُ المضافةُ إلىٰ الله تعالىٰ: هي الحق.

وقد تكون الحجَّةُ بمعنىٰ المُخاصَمة، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، أي: قد وَضَحَ الحقُّ واستبانَ وظَهر، فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة؛ فإنَّ الجدال شريعةٌ موضوعةٌ للتعاون علىٰ إظهار الحق، فإذا ظهر الحقُّ ولم يبقَ به خفاءٌ فلا فائدة في الخصومة والجدال علىٰ بصيرة، [فإن] مخاصمةَ المتكبِّر[1] ومجادلتَه عناءٌ لا غناءَ فيه[2].

---

(١) رسمها في الأصول: «المنكر». والمثبت أشبه. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥)، و«الصواعق المرسلة» (٣٧٢، ٩٠١، ١٠٨٨).

(٢) ما بين المعكوفين أضفته ليستقيم السياق، ويمكن أن يقرأ بدونه: «فإذا ظهر الحقُّ ولم يبقَ به خفاءٌ فلا فائدة في الخصومة. والجدال علىٰ بصيرةٍ مخاصمةُ (المتكبر)، ومجادلتُه عناءٌ لا غناءَ فيه». وانظر ما سيأتي (ص١٠٠٨).

هذا معنىٰ هذه الآية.

وقد يقعُ في وهم كثيرٍ من الجُهَّال أنَّ الشريعةَ لا ٱحتجاجَ فيها، وأنَّ المُرْسَلَ بها ﷺ لم يكن يحتجُّ علىٰ خصومه ولا يجادلهم، ويظنُّ جُهَّالُ المنطقيِّين وفروخُ اليونان أنَّ الشريعةَ خطابٌ للجمهور ولا ٱحتجاجَ فيها، وأنَّ الأنبياء دعَوا الجمهورَ بطريق الخَطابة، والحججُ للخواصِّ، وهم أهلُ البرهان، يَعْنُونَ نفوسَهم ومن سلك طريقتهم.

وكلُّ هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن؛ فإنَّ القرآنَ مملوءٌ من الحجج والأدلَّة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم[1]، فلا يذكرُ المتكلِّمون وغيرهم دليلًا صحيحًا علىٰ ذلك إلا وهو في القرآن بأحسن عبارة، وأوضح بيان، وأتمِّ معنى، وأبعده عن الإيرادات والأسئلة.

وقد ٱعترفَ بهذا حُذَّاقُ المتكلِّمين من المتقدِّمين والمتأخِّرين.

قال أبو حامد في أول «الإحياء»[2]: «فإن قلت: فلم لم تُورِد في أقسام العلم الكلامَ والفلسفة، وتبيِّن أنهما مذمومان أو ممدوحان؟

فاعلم أنَّ حاصل ما يشتملُ عليه الكلامُ من الأدلة التي يُنتفَعُ بها فالقرآنُ والأخبارُ مشتملةٌ عليه، وما خرج عنهما فهو إمَّا مجادلةٌ مذمومة، وهي من البدع كما سيأتي بيانه، وإمَّا مشاغبةٌ بالتعلُّق بمناقضات الفِرَق، وتطويلٌ بنقل المقالات التي أكثرها تُرَّهاتٌ وهذياناتٌ تزدريها الطِّباعُ وتَمُجُّها الأسماع،

---

(١) انظر بسطها في «الأدلة العقلية النقلية علىٰ أصول الاعتقاد» لسعود العريفي (١٩١ - ٥٨٦).

(٢) (١/ ٢٢).

وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدِّين، ولم يكن شيءٌ منه مألوفًا في العصر الأول[1]، ولكن تغيَّر الآن حكمُه إذ حدثت البدعُ الصارفةُ عن مقتضىٰ القرآن والسنَّة، فلفَّقتْ لها شبهًا، ورتَّبتْ لها كلامًا مؤلَّفًا[2]، فصار ذلك المحظورُ بحكم الضرورة مأذونًا فيه».

وقال الرازي في كتابه «أقسام اللذَّات»[3]: «لقد تأمَّلتُ الكتبَ الكلاميَّة، والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتُها تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقةَ القرآن، اقرأ[4] في الإثبات: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ومن جَرَّبَ مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[5].

وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فُتِحَ له من دلالة القرآن بطريق الخبر، وإلا فدلالتُه البرهانيةُ العقليةُ التي يشيرُ إليها ويرشدُ إليها، فتكونُ دليلًا سمعيًّا عقليًّا= أمرٌ تميَّز به القرآنُ وصار العالِمُ به من الراسخين في العلم، وهو العلمُ الذي يطمئنُّ إليه القلب، وتَسْكُنُ عنده النفس، ويزكو به العقل، وتستنيرُ به البصيرة، وتقوىٰ به الحجَّة، ولا سبيل لأحدٍ من العالمين إلىٰ قطع

---

(١) في «الإحياء» زيادة: «وكان الخوض فيه بالكلية من البدع».

(٢) في «الإحياء»: «ونبعَت جماعةٌ فلفقوا لها شبهًا ورتبوا فيها كلامًا مؤلفًا».

(٣) انظر لنسخه الخطية: «فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية» للزركان (٧٨).

(٤) وتصح قراءتها: «أقرأُ». للمتكلِّم.

(٥) انظر: «تاريخ الإسلام» (١٣/ ١٤٢، ١٤٤)، و«السير» (٢١/ ٥٠١)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٩١)، ولابن قاضي شهبة (٢/ ٨٢).

من حاجَّ به، بل من خاصمَ به فَلَجَتْ حجَّتُه[1]، وكسرَ شبهةَ خصمه، وبه فُتِحَت القلوب، واستُجِيبَ لله ورسوله، ولكنَّ أهل هذا العلم لا تكادُ الأعصارُ تَسْمَحُ منهم إلا بالواحد بعد الواحد.

فدلالةُ القرآن سمعيةٌ عقلية، قطعيةٌ يقينية، لا تعترضُها الشبهات، ولا تتداولها الاحتمالات، ولا ينصرفُ القلبُ عنها بعد فهمها أبدًا.

وقال بعضُ المتكلِّمين: أفنيتُ عمري في الكلام أطلبُ الدليل، وإذا أنا لا أزدادُ إلا بعدًا عن الدليل، فرجعتُ إلىٰ القرآن أتدبَّره وأتفكَّر فيه، وإذا أنا بالدليل حقًّا معي وأنا لا أشعرُ به، فقلت: والله ما مثلي إلا كما قال القائل:

ومن العجائب والعجائبُ جمَّةٌ ... قُرْبُ الحبيب وما إليه وصولُ
كالعِيسِ في البيداءِ يقتلها الظَّما ... والماءُ فوق ظهورها محمولُ[2]

قال: فلمَّا رجعتُ إلىٰ القرآن إذا هو الحكمُ والدليل، ورأيتُ فيه من أدلَّة الله وحججه وبراهينه وبيِّناته ما لو جُمِعَ كلُّ حقٍّ قاله المتكلِّمون في كتبهم لكانت سورةٌ من سور القرآن وافيةً بمضمونه، مع حُسْن البيان، وفصاحة اللفظ، وتطبيق المَفْصِل[3]، وحُسْن الاحتراز، والتنبيه علىٰ مواقع الشُّبه، والإرشاد إلىٰ جوابها، وإذا هو كما قيل ـ بل فوق ما قيل ـ:

---

(١) انتصَرَت وغَلَبَت. والفَلْجُ: الظَّفر والفوز. «اللسان» (فلج).

(٢) البيت الثاني لأبي العلاء في «سقط الزند» (٢/ ٨٧٨، ٨٨٠) باختلافٍ يسير. وضمَّنه القاضي الفاضل (ت: ٥٩٦). انظر: «الروضتين» (٢/ ٣٥٧). ودون نسبة في مصادر كثيرة.

(٣) أي: إصابة الحجَّة. وأصلُه من: طبَّق السيفُ، إذا أصاب المَفْصِل، فأبان العضو. «الصحاح» (طبق).

كفىٰ وشفىٰ ما في الفؤاد فلم يَدَعْ   لذي أرَبٍ في القول جدًّا ولا هَزْلا[1]

وجعلَت جيوشُ الكلام بعد ذلك تفدُ إليَّ[2] كما كانت، وتتزاحمُ في صدري، ولا يأذنُ لها القلبُ بالدخول فيه، ولا تلقىٰ منه إقبالًا ولا قبولًا، فترجعُ علىٰ أدبارها.

والمقصودُ أنَّ القرآن مملوءٌ بالاحتجاج، وفيه جميعُ أنواع الأدلَّة والأقيسة الصحيحة.

وأمر الله تعالىٰ رسولَه ﷺ فيه بإقامة الحجَّة والمجادلة؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذه مناظراتُ القرآن مع الكفار موجودةٌ فيه، وهذه مناظراتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لخصومهم، وإقامةُ الحجج عليهم، لا ينكرُ ذلك إلا جاهلٌ مُفْرِطٌ في الجهل.

والمقصودُ الفرقُ بين الحجج والبيِّنات[3]، فنقول: الحُجج: الأدلةُ العلمية، والبيِّنات: جمعُ بيِّنة، وهي صفةٌ في الأصل، يقال: آيةٌ بيِّنة، وحجةٌ بيِّنة.

والبيِّنة: ٱسمٌ لكل ما يبيِّن الحقَّ، من علامةٍ منصوبةٍ أو أمارةٍ أو دليلٍ

---

(١) البيت لحسان بن ثابت يمدحُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، من كلمةٍ في ديوانه (١/ ٣٣١). وانظر: «المنتقى من أخبار الأصمعي» (٦٩).

(٢) (ت، د، ق): «تنفذ إلي».

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٦).

علمي[1]، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فالبيِّنات: الآياتُ التي أقامها اللهُ دلالةً علىٰ صدقهم من المعجزات، والكتابُ: هو الدعوة.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، ومقامُ إبراهيم آيةٌ جزئيةٌ مرئيةٌ بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم.

ومنه قولُ موسىٰ لفرعون وقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الأعراف: ١٠٥ - ١٠٧]، وكان إلقاءُ العصا وانقلابها حيَّةً هو البيِّنة.

وقال قومُ هودٍ: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، يريدونَ آيةَ الاقتراح، وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسولُ الله إليهم، فطلبُ الآية بعد ذلك تعنُّتٌ واقتراحٌ لا يكون لهم عذرٌ في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآياتُ التي قال اللهُ تعالىٰ فيها: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، فعدمُ إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفارُ [كان] رحمةً منه وإحسانًا؛ فإنه جرَت سُنَّته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآيةَ واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عُوجِلوا بعذاب الاستئصال[2]،

(١) انظر: «الطرق الحكمية» (٢٥، ٦٤)، و«إعلام الموقعين» (١/ ٩٠).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٦/ ٤٣٠ - ٤٥١).

فلمَّا علم سبحانه أنَّ هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ لم يُجِبْهم إلىٰ ما طلبوا، فلم يَعُمَّهم بعذاب، لِمَا أخرجَ من بنيهم ومن أصلابهم من عباده المؤمنين، وأنَّ أكثرهم آمنَ بعد ذلك بغير الآية التي ٱقترحوها.

فكان عدمُ إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الربِّ ورحمته وإحسانه، بخلاف الحُجج فإنها لم تزل متتابعةً يتلو بعضُها بعضًا، وهي كلَّ يومٍ في مزيد، وتوفِّي رسولُ الله ﷺ وهي أكثرُ ما كانت، وهي باقيةٌ إلىٰ يوم القيامة.

* وقوله: «**أولئك الأقلُّون عددًا، الأعظمون عند الله قَدْرًا**»؛ يعني: هذا الصنفُ من الناس أقلُّ الخلق عددًا، وهذا سببُ غُرْبَتهم[1]؛ فإنهم قليلون في الناس، والناسُ علىٰ خلاف طريقتهم، فلهم نبأٌ وللناس نبأ، قال النبيُّ ﷺ: «**بدأ الإسلامُ غريبًا، وسيعودُ غريبًا كما بدأ؛ فطوبىٰ للغرباء**»[2]، فالمؤمنون قليلٌ[3] في الناس، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنين، وهؤلاء قليلٌ في العلماء.

وإياك أن تغترَّ بما يغترُّ به الجاهلون، فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء علىٰ حقٍّ لم يكونوا أقلَّ الناس عددًا، والناسُ علىٰ خلافهم؛ فاعلم أنَّ هؤلاء هم الناس، ومن خالفهم فمشبَّهون بالناس، ليسوا بناس، فما الناسُ إلا أهلُ الحقِّ وإن كانوا أقلَّهم عددًا.

قال ٱبن مسعود: «لا يكن أحدُكم إمَّعَة ـ يعني يقول: أنا مع الناس ـ،

---

(١) (ت): «عزتهم».

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) (ت): «قليلون».

لِيُوطِّنْ أحدُكم نفسَه علىٰ أن يؤمنَ ولو كفَر الناس»[1].

وقد ذمَّ سبحانه الأكثرين في غير موضع، كقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض العارفين: «انفرادُك في طريق طلبك دليلٌ علىٰ صدق الطلب»[2].

ولقد أحسن القائل[3]:

مُتْ بداء الهوىٰ وإلا فَخَاطِرْ ... واطْرُق الحَيَّ والعيونُ نَوَاظِرْ

لا تَخَفْ وَحْشَةَ الطريق إذا سِرْ ... تَ وكن في خَفارة الحقِّ[4] سائرْ

---

(١) أخرجه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٤٧) بإسنادٍ صحيح.
وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٧) بإسنادٍ آخر فيه ضعف.
ورُوِي نحوه مرفوعًا في حديثٍ حسَّنه الترمذي (٢٠٠٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٥).

(٣) الجملة من (ت). والبيتان في «المدارج» (٢/ ٥٥) في نظمٍ كأنه للمصنف. ولعل البيتين لغيره، وما بعدهما له.

(٤) كذا في الأصول. وفي «المدارج»: «الحب». وهو أنسب. والخفارة (مثلَّثةُ الخاء): الأمانُ والإجارة. «اللسان» (خفر).

* وقولُـه: «**بهـم يـدفعُ اللهُ عـن حججـه، حتـىٰ يؤدُّوهـا إلىٰ نظـرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم**»؛ وهـذا لأنَّ الله سبحانه ضَمِنَ حفـظَ حججه وبيِّناته، وأخبر رسولُه ﷺ أنه لا تزالُ طائفةٌ من أمَّته علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم إلىٰ قيام الساعة[1].

فلا يزالُ غَرْسُ الله الذين غرَسهم في دينه يَغْرِسونَ العلمَ في قلوب من أهَّلَهم اللهُ لذلك وارتضاهم؛ فيكونوا[2] ورثةً لهم كما كانوا هم ورثةً لمن قبلهم، فلا تنقطعُ حججُ الله والقائمُ بها[3] من الأرض.

وفي الأثر[4] المشهور: «لا يزالُ اللهُ يَغْرِسُ في هذا الدِّين غَرْسًا يستعملُهم بطاعته»[5].

وكان من دعاء بعض من تقدَّم: «اللهمَّ اجعلني من غَرْسِك الذين تستعملُهم بطاعتك».

ولهذا ما أقامَ اللهُ لهذا الدِّين من يحفظُه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما عَلِمَه من العلم والحكمة؛ إمَّا في قلوب أمثاله، وإمَّا في كتبٍ ينتفعُ بها الناسُ بعده.

وبهذا وغيره فَضَلَ العلماءُ العُبَّادَ؛ فإنَّ العالِم إذا زرع علمَه عند غيره ثمَّ مات جرىٰ عليه أجرُه، وبقي له ذِكرُه، وهو عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أخرىٰ، وذلك

---

(١) حديث متواتر، تقدم الكلام عليه (ص: ٤٠٣).

(٢) كذا في الأصول، بلا ناصب أو جازم.

(٣) (ت، ق): «والقيام بها». (د): «القائم»، وفي طرتها: «لعله: القيام».

(٤) (ت): «الخبر».

(٥) تقدم تخريجه (ص: ٤٠٤).

أحقُّ ما تنافسَ فيه المتنافسون ورَغِبَ فيه الراغبون.

* وقولُه: «**هجَم بهم العلمُ علىٰ حقيقة الأمر، فاستلانوا ما ٱستوعره المُتْرفون وأَنِسُوا بما ٱستوحش منه الجاهلون**».

الهجومُ علىٰ الرجل: الدخولُ عليه بلا ٱستئذان.

ولما كانت طريقُ الآخرة وعرةً علىٰ أكثر الخلق؛ لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإراداتهم ومألوفاتهم= قلَّ سالكوها، وزهَّدهم فيها[1] قلَّةُ علمهم ـ أو عدمُه ـ بحقيقة الأمر وعاقبة العباد[2] ومصيرهم وما هُيِّئوا له وهُيِّيء لهم؛ فقلَّ علمُهم بذلك، واستلانوا مركبَ الشهوة والهوىٰ علىٰ مركب الإخلاص والتقوىٰ، وتوعَّرت عليهم الطريق، وبَعُدَت الشُّقَّة، وصَعُبَ عليهم مرتقىٰ عِقابها وهبوطُ أوديتها وسلوكُ شعابها، فأخلدوا إلىٰ الدَّعة والراحة، وآثروا العاجلَ علىٰ الآجل، وقالوا: عَيْشُنا اليوم نَقْدٌ وموعودُنا[3] نسيئة[4].

فنظروا إلىٰ عاجل الدنيا، وأغمضوا العيونَ عن آجلها، ووقفوا مع ظاهرٍ منها، ولم يتأمَّلوا باطنَها، وذاقوا حلاوةَ مَبادِيها، وغاب عنهم مرارةُ عواقبها، ودَرَّ لهم ثَدْيُها فطابَ لهم الارتضاع، واشتغلوا به عن التفكُّر في الفطام ومرارة الانقطاع، وقال مغترُّهم بالله وجاحدُهم لعظمته وربوبيَّته ـ متمثِّلًا في ذلك ـ:

---

(١) ساقطة من (ت).

(٢) (ت): «المعاد».

(٣) (ح، ت): «وموعدنا».

(٤) انظر: «تلبيس إبليس» (٣٤٥)، و«الداء والدواء» (٧٩).

* خُذ ما تراهُ ودَع شيئًا سمعتَ به *[1]

وأمَّا القائمون لله بحجَّته، خلفاءُ نبيِّه في أمَّته، فإنهم لكمال علمهم وقوَّته نَفَذ بهم إلىٰ حقيقة الأمر، وهجمَ بهم عليه، فعاينوا ببصائرهم ما عَشَتْ عنه[2] بصائرُ الجاهلين، فاطمأنَّت قلوبُهم به، وعملوا علىٰ الوصول إليه؛ لِمَا باشرها مِنْ رَوْح اليقين[3].

رُفِعَ لهم عَلَمُ السعادة فشمَّروا إليه، وأسْمَعهم منادي الإيمان النداءَ فاستبقوا إليه، واستيقنت أنفسُهم ما وعدهم به ربُّهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه.

علموا أنَّ الدنيا دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرّ، ومنزلُ عبورٍ لا مقعد حبور، وأنها خيالُ طَيْفٍ أو سحابةُ صَيْف، وأنَّ مَنْ فيها كراكبٍ قال تحت ظلِّ شجرةٍ ثمَّ راح عنها وتركها، وتيقَّنوا أنها:

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ ... إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخْدَعُ[4]

وأنَّ واصفَها صدق في وصفها إذ يقول:

أرىٰ أشقياءَ الناس لا يسأمونها ... علىٰ أنهم فيها عراةٌ وجُوَّعُ

---

(١) صدرُ بيتٍ للمتنبي، في ديوانه (٣٣٠)، وعجُزه:

* في طلعة البدر ما يغنيك عن زُحَلِ *

(٢) العَشَىٰ: سوءُ البصر. وخصَّه بعضُهم بالليل. «اللسان» (عشا).

(٣) (ت): «عين اليقين».

(٤) البيت لعمران بن حطان، في «روضة العقلاء» (٣٠١)، و«تاريخ دمشق» (٤٣/ ٤٩٨)، و«الخزانة» (٥/ ٣٦١)، وغيرها.

أراهـا وإن كانـت تُـحَبُّ فإنهـا   سحابةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ[1]

فترحَّلَت عن قلوبهم مدبرةً كما ترحَّلَت عن أهلها مُوَلِّية، وأقبلت الآخرةُ إلىٰ قلوبهم مسرعةً كما أسرعَت إلىٰ الخلق مقبلة، فامتطوا ظهورَ العزائم، وهجروا لذَّة المنام، وما ليلُ المحبِّ بنائم.

عَلِموا طولَ الطريق وقلَّة المُقام في منزل التزوُّد فسارعوا في الجَهاز، وجَدَّ بهم السيرُ إلىٰ منازل الأحباب فقطعوا المراحلَ وطووا المفاوز[2].

وهذا كلُّه من ثمرات اليقين؛ فإنَّ القلب إذا ٱستيقنَ ما أمامه من كرامة الله وما أعدَّ لأوليائه ـ بحيث كأنه ينظرُ إليه من وراء حجاب الدنيا، ويعلمُ أنه إذا زال الحجابُ رأىٰ ذلك عيانًا ـ زالت عنه الوحشةُ التي يجدُها المتخلِّفون، ولانَ له ما ٱستوعره المترفون.

وهذه المرتبةُ هي **أولُ مراتب اليقين**؛ وهي علمُه وتيقُّنه، وهي ٱنكشافُ المعلوم للقلب، بحيث يشاهدُه ولا يشكُّ فيه، كانكشاف المرئيِّ للبصر.

ثمَّ تليها **المرتبةُ الثانية**؛ وهي مرتبةُ عين اليقين، ونسبتُها إلىٰ العين كنسبة الأول إلىٰ القلب.

ثمَّ تليها **المرتبةُ الثالثة**؛ وهي حقُّ اليقين، وهي مباشرةُ المعلوم وإدراكُه الإدراكَ التام.

فالأولىٰ كعلمك بأنَّ في هذا الوادي ماءً، والثانيةُ كرؤيته، والثالثةُ

---

(١) البيتان لعمران بن حطان ـ أيضًا ـ، من مقطعةٍ أخرىٰ في «الزهد» لابن أبي الدنيا (٢١٩)، وفي «ديوان شعر الخوارج» (١٧٣) مزيد تخريج.

(٢) كذا في الأصول. ولعلها محرفة عن: المفاز. وهو المفازة. ليستقيم السجع.

كالشُّرب منه[1].

ومن هذا ما يروىٰ في حديث حارثة وقول النبيِّ ﷺ: «**كيف أصبحتَ يا حارثة؟**» قال: أصبحتُ مؤمنًا حقًّا، قال: «**إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟**» قال: عزفَت نفسي عن الدنيا وشهواتها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظرُ إلىٰ عرش ربِّي بارزًا، وكأني أنظرُ إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلىٰ أهل النار يتعاوَوْن فيها، فقال: «**عبدٌ نوَّر اللهُ قلبه**»[2].

فهذا هو هجومُ العلم بصاحبه علىٰ حقيقة الأمر، ومن وصل إلىٰ هذا ٱستلانَ ما يستوعرُه المترفون، وأَنِسَ بما يستوحشُ منه الجاهلون، ومن لم يثبت قدمُ إيمانه علىٰ هذه الدرجة فهو إيمانٌ ضعيف.

وعلامةُ هذا: ٱنشراحُ الصدر لمنازل الإيمان، وانفساحُه، وطمأنينةُ القلب لأمر الله، والإنابةُ إلىٰ ذكر الله، و محبَّته، والفرح بلقائه، والتجافي عن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦٤٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٣)، و«أيمان القرآن» (٢٨٤).

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المسند» (٤٤٥ - منتخبه)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٦٦)، وغيرهما من حديث الحارث بن مالك الأنصاري بإسنادٍ ضعيف.
ورُوِي من وجوهٍ أخرىٰ معضلًا ومرسلًا وموصولًا.
قال العقيلي: «ليس لهذا الحديث إسنادٌ يثبت»، وقال ابن صاعد: «هذا الحديثُ لا يثبتُ موصولًا»، وقال ابن تيمية: «رُوِي مسندًا من وجهٍ ضعيفٍ لا يثبت»، وقال ابن رجب: «والمرسلُ أصح».
انظر: «الضعفاء» (٤/ ٤٥٥)، و«الإصابة» (١/ ٥٩٧)، و«الاستقامة» (١/ ١٩٤)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٦٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٧٩)، و«التخويف من النار» (٣٣).

دار الغرور؛ كما في الأثر المشهور: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انفسحَ وانشرح»، قيل: وما علامةُ ذلك؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابةُ إلىٰ دار الخلود، والاستعدادُ للموت قبل نزوله»(١).

وهذه هي الحالُ التي كانت تحصلُ للصحابة رضي الله عنهم عند النبيِّ ﷺ إذا ذكَّرهم الجنةَ والنار؛ كما في الترمذيِّ وغيره من حديث الجُريري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسدي ـ وكان من كُتَّاب النبيِّ ﷺ ـ أنه مرَّ بأبي بكرٍ رضي الله عنه وهو يبكي، فقال: ما لك يا حنظلة؟ فقال: نافقَ حنظلةُ يا أبا بكر، نكونُ عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالجنة والنار كأنَّا رأي عَيْن، فإذا رجعنا إلىٰ الأزواج والضَّيعة نسينا كثيرًا، قال: فوالله إنَّا لكذلك، انطلِقْ بنا إلىٰ رسول الله ﷺ، فانطلقنا، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ قال: ما لك يا حنظلة؟ قال: نافقَ حنظلةُ يا رسول الله، نكونُ عندك تذكِّرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عَيْن، فإذا رجعنا عافَسْنا الأزواجَ والضَّيعة ونسينا كثيرًا، قال: فقال رسولُ الله ﷺ: **«لو تدومون علىٰ الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتْكم الملائكةُ في مجالسكم وفي طرقكم وعلىٰ فُرشكم، ولكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعة»**. قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ صحيح»(٢).

---

(١) أخرجه وكيع (١٥)، وابن المبارك (٣١٥) كلاهما في «الزهد»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ق: ١١٥/ ب)، وغيرهم.
وفي إسناده اختلاف، والصوابُ أنه مرسل، ولا يثبتُ رفعه.
انظر: «علل الدارقطني» (٥/ ١٨٩)، و«شرح علل الترمذي» لابن رجب (٢/ ٧٧٣).
وراجع التعليق علىٰ «الوابل الصيب» (١٤٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٥١٤). وهو في «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

وفي الترمذي أيضًا نحوه من حديث أبي هريرة[1].

والمقصودُ أنَّ الذي يهجُم بالقلب علىٰ حقيقة الإيمان، ويليِّنُ له ما يستوعرُه غيرُه، ويُؤنِسُه بما يستوحشُ منه سواه: العلمُ التام، والحبُّ الخالص. والحبُّ تبعٌ للعلم، يقوىٰ بقوَّته، ويضعفُ بضعفه، والمحبُّ لا يستوعرُ طريقًا توصلُه إلىٰ محبوبه، ولا يستوحشُ فيها.

* وقولُه: «**صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالملأ الأعلىٰ**»، وفي رواية: «**بالمحلِّ الأعلىٰ**»؛ الروحُ في هذا الجسد بدارِ غُربة، ولها وطنٌ غيره فلا تستقرُّ إلا في وطنها، وهي جوهرٌ عُلْوِيٌّ مخلوقٌ من مادةٍ عُلْوِيَّة، وقد ٱضطرَّت إلىٰ مساكنة هذا البدن الكثيف، فهي دائمًا تطلبُ وطنها في المحلِّ الأعلىٰ، وتحنُّ إليه حنينَ الطير إلىٰ أوكارها.

وكلُّ روحٍ ففيها ذلك، ولكن لفرط ٱشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلىٰ الأرض، ونسيت محلَّها[2] ووطنها الذي لا راحة لها في غيره؛ فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربِّه، والدنيا سجنُه حقًّا، فلهذا تجدُ المؤمنَ بدنُه في الدنيا وروحُه في المحلِّ الأعلىٰ.

وفي الحديث المرفوع: «**إذا نام العبدُ وهو ساجدٌ باهىٰ اللهُ به الملائكة، فيقول: ٱنظروا إلىٰ عبدي، بدنُه في الأرض وروحُه عندي**» رواه تمَّامٌ[3]

---

(١) (٢٥٢٦)، وقال: «هذا حديثٌ ليس إسناده بذاك القوي وليس هو عندي بمتصل».

(٢) (ت، ق، ن، ح): «معلمها». تحريف. والمثبت من (د)، وهو الصواب. انظر ما سيأتي (ص:). ويحتمل أن تكون: معهدها. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٩٨).

(٣) في «الفوائد» (٣٤٣ - الروض)، والبيهقي في «الخلافيات» (٢/ ١٤٣) من حديث أنسٍ بإسنادٍ ضعيف جدًّا.

وغيره.

وهذا معنىٰ قول بعض السلف: «القلوبُ جَوَّالة؛ فقلبٌ حول الحُشِّ[1]، وقلبٌ يطوفُ مع الملائكة حول العرش»[2].

فأعظمُ عذاب الروح ٱنغماسُها وتدسيسُها في أعماق البدن، واشتغالُها بملاذِّه، وانقطاعُها عن ملاحظة ما خُلِقَت له وهُيِّئَت له، وعن وطنها ومحلِّ أُنسِها ومنزل كرامتها، ولكنَّ سُكْرَ الشهوات يحجُبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب.

فإذا صَحَت من سُكْرِها، وأفاقت من غمرتها، أقبلَت عليها جيوشُ الحسرات من كلِّ جانب؛ فحينئذٍ تتقطَّعُ حسراتٍ علىٰ ما فاتها من كرامة الله وقربه والأُنس به، والوصول إلىٰ وطنها الذي لا راحة لها إلا فيه، كما قيل:

= ورُوِي من حديث الحسن، عن أبي هريرة. أخرجه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (١٩٩). والحسنُ لم يسمع من أبي هريرة. وبذا أعلَّه الدارقطنيُّ في «العلل» (٨/ ٢٤٩).

ورُوِي عن الحسن قال: «أُنبئتُ أنَّ العبد إذا نام...». أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢١٣). وهو أشبه.

ورُوِي عن الحسن قوله. أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٨٠)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٢٨)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣١٩).

وانظر: «المجموع» (٢/ ١٤)، و«التلخيص الحبير» (١/ ١٢٠).

(١) موضعُ قضاء الحاجة. «اللسان» (حشش).

(٢) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (١٠٣) عن أحمد بن خضرويه البلخي (ت: ٢٤٠). وهو في ترجمته من «السير» (١١/ ٤٨٨).

صَحِبتُك إذْ عيني عليها غشاوةٌ   فلمَّا انجلت قَطَّعْتُ نفسي ألومُها[1]

ولو تنقَّلت الروحُ في المواطن كلِّها والمنازل، لم تستقرَّ ولم تطمئنَّ إلا في وطنها و محلِّها الذي خُلِقَت له، كما قيل:

نَقِّلْ فؤادَك حيثُ شئتَ من الهوى   ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألفُه الفتى   وحنينُه أبدًا لأوَّل منزلِ[2]

وإذا كانت الروحُ تَحِنُّ أبدًا إلىٰ وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه في السُّكنىٰ، وكثيرًا ما يكونُ غيرُ وطنها أحسنَ وأطيب منه، وهي إنما[3] تَحِنُّ إليه، مع أنه لا ضرر عليها ولا عذابَ في مفارقته إلىٰ مثله، فكيف بحنينها إلىٰ الوطن الذي في فراقها له عذابها وألمُها وحسرتُها التي لا تنقضي؟!

فالعبدُ المؤمنُ في هذه الدار سُبِيَ من الجنة إلىٰ دار التعب والعناء، ثمَّ ضُرِبَ عليه الرِّقُّ فيها، فكيف يلامُ علىٰ حنينه إلىٰ داره التي سُبِيَ منها، وفُرِّق بينه وبين من يُحِب، و جُمِعَ بينه وبين عدوِّه؟!

فروحُه دائمًا معلَّقةٌ بذلك الوطن، وبدنُه في الدنيا.

ولي من أبياتٍ في ذلك[4]:

---

(١) البيت للحارث بن خالد المخزومي، يخاطبُ عبد الملك بن مروان، في «الكامل» (١٠٥١). وفي مجموع شعره (١٠١) مزيدُ تخريج.

(٢) البيتان لأبي تمام، في ديوانه (٤/ ٢٥٣).

(٣) (ن، ح): «وهي دائما».

(٤) من ميميَّةٍ طويلة، في «طريق الهجرتين» (١٠٨)، و«حادي الأرواح» (١٤).

فحَيَّ علىٰ جنَّاتِ عَدْنٍ فإنها ... منازلُك الأولىٰ وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهل تُرىٰ ... نَعُودُ إلىٰ أوطاننا ونُسَلَّمُ

وكلَّما أراد منه العدوُّ نسيانَ وطنه، وضَرْبَ الذِّكر عنه صفحًا، وإيلافَه وطنًا غيره، أبت ذلك روحُه وقلبُه، كما قيل:

يـرادُ مـن القلب نسيانُكم ... وتأبىٰ الطِّباعُ علىٰ الناقلِ[1]

ولهذا كان المؤمنُ غريبًا في هذه الدار، أين حلَّ منها فهو في دار غُربة، كما قال النبيُّ ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل**»[2]، ولكنها غُربةٌ تنقضي ويصيرُ إلىٰ وطنه ومنزله، وأما الغُربةُ التي لا يُرجىٰ ٱنقطاعُها فهي غُربةٌ في دار الهوان، ومفارقةُ وطنه الذي كان قد هيِّىء له وأُعِدَّ له وأُمِرَ بالتجهُّز إليه والقدوم عليه، فأبىٰ إلا ٱغترابَه عنه ومفارقتَه له، فتلك غربةٌ لا يُرجىٰ إيابُها ولا يُجْبَرُ مصابُها.

ولا تبادِر إلىٰ إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملإ الأعلىٰ؛ فللرُّوح شأنٌ وللبدن شأن، والنبيُّ ﷺ كان بين أظهُر أصحابه وهو عند ربِّه يطعمُه ويسقيه[3]، فبدنُه بينهم وروحُه وقلبه عند ربِّه.

وقال أبو الدرداء: «إذا نام العبدُ عُرِجَ بروحه إلىٰ تحت العرش، فإن كان

---

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه (٢٥٩). والرواية الصحيحة: ويأبىٰ، بالياء. انظر كلام ابن القطاع بحاشية الديوان (تحقيق عبد الوهاب عزام).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر.
(٣) انظر ما مضىٰ (ص: ٩٧).

طاهرًا أُذِنَ لها بالسجود وإن لم يكن طاهرًا لم يؤذن لها بالسجود»(١).

فهذه ـ والله أعلم ـ هي العلةُ التي أُمِرَ الجنبُ لأجلها أن يتوضَّأ إذا أراد النوم(٢).

وهذا الصُّعودُ إنما كان لتجرُّد الروح عن البدن بالنوم، فإذا تجرَّدت بسببٍ آخر حصل لها من الترقِّي والصُّعود بحسب ذلك التجرُّد.

وقد يقوىٰ الحبُّ بالمحبِّ حتىٰ لا يُشاهَد منه بين الناس إلا جسمُه، وروحُه في موضعٍ آخر عند محبوبه، وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٤٥) ــ ومن طريقه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ١١)، و«تعبير الرؤيا» (٢٧) ـــ، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ق: ٢٧٤/ أ) بإسنادٍ ضعيف.

(٢) الأثر في المصادر السابقة بلفظ: «... وإن كان جُنبًا لم يؤذن لها بالسجود»، والوضوءُ لا ينفي عن الجُنب اسمَ الجنابة، ولذا كان ابنُ قتيبة أسعدَ بهذا الأثر من المصنف، إذ قال: «لا أرىٰ الطهارةَ التي نختار للنائم أن يبيت عليها إلا الاغتسال من الجنابة»، ثم استدلَّ بالأثر، ثم قال: «فجعَلَ طهارةَ النائم في نومه أن يكون علىٰ غير جنابة. وأكثرُ الناس علىٰ أنه التوضؤ للصلاة. والنومُ ناقضٌ للوضوء وليس بناقضٍ للغسل».
وهذا الاختيار من ابن قتيبة علىٰ سبيل الأفضليَّة، وقد صرَّح في «تأويل مختلف الحديث» (٣٠٦) بعدم وجوب الغسل.
والغرض هنا الإشارةُ إلىٰ مجانبة الأثر بهذا اللفظ لما ٱستنبطه المصنفُ منه.
وقد ورد باللفظ الذي ذكره المصنفُ أثرٌ آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان ممَّن يأخذُ عن أهل الكتاب.
أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢٩٢)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ق: ٢٧٤/ أ)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٧٥، ٩/ ١٣) بإسنادين يقوِّي أحدُهما الآخر.

ما هو معروف[1].

* وقولُه: «**أولئك خلفاءُ الله في أرضه ودعاتُه إلىٰ دينه**»؛ هذا حجَّةُ أحد القولين في أنه يجوزُ أن يقال: «فلانٌ خليفةُ الله في أرضه»[2].

واحتجَّ أصحابُه أيضًا بقوله تعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

واحتجُّوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهذا خطابٌ لنوع الإنسان.

وبقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وبقول موسىٰ لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وبقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله ممكِّنٌ لكم في الأرض ومستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»[3].

واحتجُّوا بقول الراعي يخاطبُ أبا بكر الصدِّيق[4] رضي الله عنه:

---

(١) انظر: «زهر الآداب» (١/ ٣٢٨)، و«التدوين» للرافعي (٤/ ٧٨).

(٢) انظر: «نقض التأسيس» (٦/ ٥٨٩ ـ ٦١١)، و«معجم المناهي اللفظية» (٢٥٢).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) «الصديق» ليست في (د). وهذا وهمٌ غريب. فالبيتان من لاميَّةٍ طويلة للراعي النميري (ت: ٩٢) يمدحُ فيها عبد الملك بن مروان، ويشكو من السُّعاة (الذين =

أخليفةَ الرحمنِ إنَّا معشرٌ حنفاءُ نسجدُ بُكْرَةً وأصيلا
عربٌ نرىٰ لله في أموالنا حقَّ الزكاة منزَّلًا تنزيلا

ومنعت طائفةٌ هذا الإطلاق، وقالت: لا يقالُ لأحد: إنه خليفة الله؛ فإنَّ الخليفةَ إنما يكونُ عمن يغيبُ ويَخْلُفه غيرُه، واللهُ تعالىٰ شاهدٌ غير غائب، قريبٌ غير بعيد، راءٍ وسامع، فمحالٌ أن يَخْلُفَه غيرُه، بل هو سبحانه الذي يَخْلُفُ عبدَه المؤمنَ فيكون خليفتَه؛ كما قال النبيُّ ﷺ في حديث الدجال: «**إنْ يَخْرُج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دونكم، وإن يَخْرُج ولستُ فيكم فامرؤٌ حَجِيجُ نفسه، واللهُ خليفتي علىٰ كلِّ مؤمن**»، والحديث في «الصحيح»[1].

وفي «صحيح مسلم»[2] أيضًا من حديث عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ كان يقولُ إذا سافر: «**اللهم أنت الصاحبُ في السَّفر، والخليفةُ في الأهل...**» الحديث.

وفي «الصحيح»[3] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**اللهمَّ اغفر لأبي سلمة، وارفع**

= يأخذون الزكاة مِنْ قِبَل السُّلطان)، وهي من مشهور شعره وجيِّده، وكان يعتزُّ بها، وقد حَفِظَتها مجاميعُ الشِّعر بتمامها. انظر: «منتهىٰ الطلب» (٦/ ٥)، و«أمالي المرزوقي» (٤٧٠)، وديوانه المجموع (٥٨).

والراعي يَصْغُر عن إدراك زمن أبي بكرٍ شاعرًا، وإنما هو من شعراء دولة بني أمية. ولعلَّ ذِكر الزكاة في الأبيات هو سبب الوهم؛ لمنع المرتدِّين لها علىٰ عهد الصدِّيق رضي الله عنه.

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

(٢) (١٣٤٢).

(٣) (ت، د، ق): «وفي الحديث». وهو في «صحيح مسلم» (٩٢٠).

درجتَه في المهديِّين، واْخلُفْهُ في أهله».

فالله تعالىٰ هو خليفةُ العبد؛ لأنَّ العبدَ يموتُ فيحتاجُ إلىٰ من يَخْلُفه في أهله.

قالوا: ولهذا أنكر الصدِّيقُ رضي الله عنه علىٰ من قال له: «يا خليفةَ الله»، قال: «لستُ بخليفة الله، ولكن خليفةُ رسول الله، وحسبي ذلك»[1].

قالوا: وأمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فلا خلافَ أنَّ المرادَ به آدمُ وذريته. وجمهورُ أهل التفسير من السَّلف والخلف علىٰ أنه جعله خليفةً عمن كان قبله[2] في الأرض. قيل: عن الجنِّ الذين كانوا سُكَّانها. وقيل: عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجنِّ، وقصَّتهم مذكورةٌ في التفاسير[3].

وأمَّا قولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فليس المرادُ به خلائفَ عن الله، وإنما المرادُ به أنه جعلكم يَخْلُفُ بعضُكم بعضًا، فكلَّما هلك قرنٌ خَلَفَه قرنٌ إلىٰ آخر الدهر.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٥٦٨)، والخلال في «السنة» (١/ ٢٧٤)، وغيرهم بإسنادٍ منقطع.
وقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم ينادونه: «يا خليفة رسول الله»، عقد الحاكمُ للروايات في ذلك فصلًا في «المستدرك» (٣/ ٧٩)، وصحَّح بعضها ولم يتعقَّبه الذهبي.

(٢) (ت): «فمن كان قبله». (ن): «ممن كان قبله». (د، ق): «خليفته ممن كان قبله». والمثبت أشبه.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٥٠)، و«الدر المنثور» (١/ ٤٤).

ثمَّ قيل: إنَّ هذا خطابٌ لأمَّة محمدٍ ﷺ خاصَّة؛ أي: جعلكم خلائفَ من الأمم الماضية، فهلكوا وورثتم أنتم الأرضَ من بعدهم.

ولا ريب أنَّ هذا الخطابَ للأمَّة، والمرادُ نوعُ الإنسان الذي جعلَ اللهُ أباهم خليفةً عمَّن قبله، وجعل ذريته يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا إلىٰ قيام الساعة، ولهذا جَعَل هذا آيةً من آياته، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وأما قول موسىٰ لقومه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فليس ذلك ٱستخلافًا عنه، وإنما هو ٱستخلافٌ عن فرعون وقومه؛ أهلكهم وجعل قومَ موسىٰ خلفاء من بعدهم.

وكذا قولُ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ مستخلفُكم في الأرض**»، أي: من الأمم التي تهلكُ وتكونون أنتم خلفاءَ من بعدهم.

قالوا: وأمَّا قولُ الراعي؛ فقولُ شاعرٍ قال قصيدةً في غيبة الصدِّيق لا يُدرىٰ أبلغت أبا بكرٍ أم لا؟ ولو بلغته فلا يُعْلَمُ أنه أقرَّه علىٰ هذه اللفظة[1].

قلت: إن أريد بالإضافة إلىٰ الله أنه خليفةٌ عنه، فالصوابُ قولُ الطائفة المانعة منها.

وإن أريد بالإضافة أن الله ٱستخلفه عن غيره ممَّن كان قبله، فهذا لا يمتنعُ فيه الإضافة، وحقيقتُها: خليفةُ الله الذي جعله اللهُ خَلَفًا عن غيره. وبهذا يخرَّجُ الجوابُ عن قول أمير المؤمنين: «**أولئك خلفاءُ الله في أرضه**».

---

(١) راجع ما قدَّمناه قريبًا في شأن أبيات الراعي.

فإن قيل: هذا لا مدحَ فيه؛ لأنَّ هذا الاستخلافَ عامٌّ في الأمَّة، وخلافةُ الله التي ذكرها أميرُ المؤمنين خاصَّةٌ بخواصِّ الخَلْق.

فالجواب: أنَّ الاختصاصَ المذكور أفاد ٱختصاصَ الإضافة، فالإضافةُ هنا للتشريف والتخصيص، كما يضافُ إليه[1] عبادُه، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ونظائرها.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخلق عبادٌ له، فخلفاءُ الأرض كالعباد في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١]، وخلفاءُ الله كعباد الله في قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ ونظائره.

وحقيقةُ اللفظة: أنَّ الخليفةَ هو الذي يَخْلُفُ الذاهب، أي: يجيء بعده؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا.

وأصلُها: «خليفٌ» بغير هاء؛ لأنها فَعِيلٌ بمعنىٰ فاعل، كالعليم والقدير، فدخلت التاءُ للمبالغة في الوصف، كراوية وعلَّامة؛ ولهذا جُمِعَ جمعَ فَعِيل، فقيل: خُلفاء، كشُرفاء وظُرفاء وكُرماء[2]. ومن راعىٰ لفظَه بعد دخول التاء عليه جمَعَه علىٰ فعائل، فقال: خلائف، كعَقِيلة وعقائل، وطَرِيفة وطرائف[3]. وكلاهما ورد به القرآن.

---

(١) (ت): «يضاف لله».

(٢) (ت، ق، د): «كشريف وشرفاء وكرماء».

(٣) (ت): «وطريقة وطرائق». (ح، ن): «وظريفة وظرائف».

هذا قولُ جماعةٍ من النحاة(١).

والصوابُ أنَّ التاء إنما دخلت فيها للعَدْل عن الوصف إلىٰ الاسم؛ فإنَّ الكلمةَ صفةٌ في الأصل، ثمَّ أُجرِيَت مجرىٰ الأسماء، فأُلحِقَت التاءُ لذلك، كما قالوا: «نَطِيحة» بالتاء، فإذا أجروها صفةً قالوا: «شاةٌ نَطِيح» كما يقولون: «كفٌّ خَضِيب»، وإلا فلا معنىٰ للمبالغة في «خليفة» حتىٰ تلحقها تاءُ المبالغة، والله أعلم.

* وقولُه: «**ودعاتُه إلىٰ دينه**»؛ الدعاة: جمعُ داعٍ، كقاضٍ وقضاة، ورامٍ ورماة، وإضافتُهم إلىٰ الله للاختصاص، أي الدعاةُ المخصوصون به الذين يدعون إلىٰ دينه وعبادته ومعرفته و محبَّته، وهؤلاء هم خواصُّ خلق الله وأفضلُهم عند الله منزلةً وأعلاهم قدرًا.

يدلُّ علىٰ ذلك **الوجه الثلاثون بعد المئة**: وهو قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال الحسن: «هو المؤمنُ؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلىٰ ما أجابَ اللهَ فيه من دعوته، وعملَ صالحًا في إجابته؛ فهذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله»(٢).

فمقامُ الدعوة إلىٰ الله أفضلُ مقامات العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

---

(١) انظر: «التبيان» للعكبري (١/ ٤٧)، و«النهاية» (خلف).

(٢) أخرجه الطبري (٢١/ ٤٦٨).

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، جَعَل سبحانه مراتبَ الدعوة بحسب مراتب الخلق:

* فالمستجيبُ القابلُ الزَّكِيُّ[١] الذي لا يعاندُ الحقَّ ولا يأباه، يُدْعىٰ بطريق الحكمة.

* والقابلُ الذي عنده نوعُ غفلةٍ وتأخُّر، يُدْعىٰ بالموعظة الحسنة، وهي الأمرُ والنهيُ المقرونُ بالرغبة والرهبة.

* والمعاندُ الجاحدُ، يجادَلُ بالتي هي أحسن.

هذا هو الصحيحُ في معنىٰ هذه الآية، لا ما يزعمُ أسيرُ منطق اليونان أنَّ الحكمةَ قياسُ البرهان وهو دعوةُ الخواصِّ، والموعظةَ الحسنة قياسُ الخطابة وهو دعوةُ العوامِّ، والمجادلةَ بالتي هي أحسنُ القياسُ الجَدَلي وهو ردُّ شَغَب المشاغِب بقياسٍ جدليٍّ مسلَّم المقدِّمات!

وهذا باطل، وهو مبنيٌّ علىٰ أصول الفلسفة، وهو منافٍ لأصول المسلمين وقواعد الدِّين من وجوهٍ كثيرةٍ ليس هذا موضع ذكرها[٢].

وقال الله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]. قال الفرَّاء[٣] وجماعة: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ معطوفٌ علىٰ الضمير

---

(١) كذا في الأصول، عدا (ت) فهي ساقطة منها. وزكاء نفسه هو الذي جعله لا يعاند الحق. ولعلها بالذال، لمقابلة الذي عنده نوع غفلةٍ وتأخر.

(٢) انظر ما سيأتي (ص: ٤٩١).

(٣) في «معاني القرآن» (٢/ ٥٥).

في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، يعني: ومن اتبعني يدعو إلىٰ الله كما أدعو.

وهذا قولُ الكلبي[1]، قال: حقٌّ علىٰ كلِّ من اتبعه أن يدعو إلىٰ ما دعا إليه ويذكِّر بالقرآن والموعظة[2].

ويَقْوَىٰ هذا القولُ من وجوهٍ كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوزُ أن يتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثمَّ يبتدىء: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[3]. فيكونُ الكلامُ علىٰ قوله جملتين، أخبَرَ في أولاهما أنه يدعو إلىٰ الله، وفي الثانية بأنه وأتباعَه علىٰ بصيرة.

والقولان متلازمان؛ فلا يكونُ الرجلُ من أتباعه حقًّا حتىٰ يدعو إلىٰ ما دعا إليه. وقولُ الفرَّاء أحسنُ وأقربُ إلىٰ الفصاحة والبلاغة[4].

وإذا كانت الدعوةُ إلىٰ الله أشرفَ مقامات العبد وأجلَّها وأفضلَها، فهي لا تحصلُ إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلىٰ حدٍّ يصلُ إليه السَّعي[5].

ويكفي هذا في شرف العلم، أنَّ صاحبه يحوزُ به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء.

---

(١) محمد بن السائب بن بشر، أبو النضر، الإخباريُّ النَّسابة المفسِّر (ت: ١٤٦). انظر: «السير» (٦/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» (٥/ ٢٦٣)، و«البسيط» (١٢/ ٢٦٣). وأخرجه الطبري (١٦/ ٢٩٢) عن ابن زيد.

(٣) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٩٥).

(٤) راجع ما مضىٰ (ص: ٢١٦).

(٥) كذا في الأصول. أي: إلىٰ آخر حدٍّ يصلُ إليه السعي.

الوجه الحادي والثلاثون بعد المئة: أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُثْمِرُ اليقينَ الذي هو أعظمُ حياة القلب، وبه طمأنينتُه وقوَّتُه ونشاطُه وسائرُ لوازم الحياة لكفاه شرفًا وفضلًا[1].

ولهذا مدح الله سبحانه أهلَه في كتابه، وأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨][2]، وقوله في حقِّ خليله إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وذمَّ من لا يقين عنده، فقال: ﴿إِنَّ[3] ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري، عن سليمان التيمي[4]، عن خيثمة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «**لا تُرضِينَّ أحدًا بسخط الله، ولا تَحْمَدَنَّ أحدًا علىٰ فضله، ولا تَذُمَّنَّ أحدًا علىٰ ما لم يُؤْتِك الله؛ فإنَّ رزقَ الله لا يسوقُه [إليك] حرصُ حريص، ولا يردُّه عنك كراهيةُ كارِه، وإنَّ الله بعدله وقسطه جعل الرَّوْحَ والراحةَ والفرحَ في الرضا واليقين،**

---

(١) الجوابُ مستدركٌ في طرة (د)، وليس في باقي الأصول.

(٢) في الأصول: (كذلك نفصل الآيات لقوم يوقنون) وهو وهم؛ فليس ثم آيةٌ كذلك، وأنا متأثمٌ من إثباتها في المتن. وفي القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ويصلح للاستشهاد لما أراده المصنف ما أثبتُّه.

(٣) كذا قرأ أبو عمرو، وهي قراءة المصنف وأهل الشام لعهده.

(٤) كذا في الأصول و«الرسالة القشيرية»، وهي مصدر المصنف. وهو سليمان الأعمش، كما في المصادر التالية.

وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط»[1].

فإذا باشرَ القلبَ اليقينُ ٱمتلأ نورًا، وانتفىٰ عنه كلُّ ريبٍ وشك، وعُوفي من أمراضه القاتلة، وامتلأ شكرًا لله وذكرًا ومحبَّةً وخوفًا، فحَيِيَ عن بيِّنة.

واليقينُ والمحبةُ هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قِوامُه، وهما يُمِدَّان سائرَ الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تَصْدُر، وبضعفهما يكونُ ضعفُ الأعمال، وبقوَّتهما قوتها. وجميعُ منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تصحُّ بهما[2]، وهما يُثْمِران كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهدًى مستقيم.

قال شيخُ العارفين الجُنيد[3]: «اليقينُ هو ٱستقرارُ العلم الذي لا ينقلبُ ولا يتحوَّلُ ولا يتغيَّرُ في القلب»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢١٥)، والقشيري في «الرسالة» (٣١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١، ٧/ ١٣٠)، والبيهقي في «الأربعين الصغرىٰ» (٥١)، وغيرهم، بإسنادٍ شديد الضعف.
ورُوِي من وجهٍ آخر أحسن منه، إلا أنَّ فيه انقطاعًا. أخرجه البيهقي في «الشعب» (١/ ٥٢٧)، و«الأربعين» (٥٠).
ورُوِي موقوفًا علىٰ ابن مسعود، وهو أشبه، وإليه مال البيهقي، وإن كان في إسناده انقطاع. أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١/ ٥٢٨)، و«الأربعين» (٥٢).

(٢) (ت، ق): «تفتح بهما». ولم تحرر في (د).

(٣) الجُنَيد بن محمد البغدادي، شيخ الصُّوفية، صاحبُ علمٍ وتعبُّد (ت: ٢٩٧). انظر: «طبقات الصوفية» (١٥٥)، و«السير» (١٤/ ٦٦).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٣٢٠).

وقال سهل[1]: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يشمَّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلىٰ غير الله»[2].

وقيل: «من علاماته: الالتفاتُ إلىٰ الله في كلِّ نازلة، والرجوعُ إليه في كلِّ أمر، والاستعانةُ به في كلِّ حال، وإرادةُ وجهه بكلِّ حركةٍ وسكون»[3].

وقال السَّرِي[4]: «اليقينُ: سكونُكَ[5] عند جَوَلان الموارد[6] في صدرك؛ لتيقُّنك[7] أنَّ حركتك فيها لا تنفعُك ولا تردُّ عنك مقضيًّا»[8].

قلت: هذا إذا لم تكن الحركةُ مأمورًا بها، فأمَّا إذا كانت مأمورًا بها فاليقينُ في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع.

وقيل: «إذا ٱستكمل العبدُ حقيقةَ اليقين صار البلاءُ عنده نعمة، والمحنةُ مِنْحة»[9].

---

(١) سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي، أبو محمد، الزاهد، له كلماتٌ نافعة (ت: ٢٨٣). انظر: «طبقات الصوفية» (٢٠٦)، و«السير» (١٣/ ٣٣٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٣١٩).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٣٢٠).

(٤) السَّرِيُّ بن المغلِّس السَّقَطي، أبو الحسن، الإمام القُدوة (ت: ٢٥٣). انظر: «طبقات الصوفية» (٤٨)، و«السير» (١٢/ ١٨٥).

(٥) (ت، ح، د، ق): «السكون». والمثبت من (ن) و«الرسالة».

(٦) (ق): «المواد».

(٧) (ح): «ليقينك». «الرسالة»: «لتبينك».

(٨) «الرسالة القشيرية» (٣٢١).

(٩) أخرجه القشيري في «الرسالة» (٣٢٢) عن النهرجوري. وفيه: «والرخاء مصيبة» بدل: «والمحنة منحة».

فـالعلمُ أولُ درجـات اليقـين؛ ولهـذا قيـل: «العلـمُ يـستعملُك، واليقـينُ يَحْمِلُك»(١).

فاليقينُ أفضلُ مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبتُ قدمُ الرضا إلا علىٰ درجة اليقين.

قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قال ابنُ مسعود: «هو العبدُ تصيبُه المصيبة، فيعلمُ أنها من عند الله، فيرضىٰ ويسلِّم»(٢).

فلهذا لم تحصل له هدايةُ القلب والرضا والتسليمُ إلا بيقينه.

قال في «الصحاح»(٣): «اليقينُ: العلمُ وزوالُ الشك، يقال منه: يَقِنْتُ الأمرَ ـ بالكسر ـ يَقَنًا، واستيقنتُ وأيقنتُ وتيقَّنت، كلُّه بمعنًى واحد. وأنا علىٰ يقينٍ منه.

وإنما صارت الياءُ واوًا في «مُوقِن» للضمَّة قبلها، وإذا صغَّرتَه رددته إلىٰ الأصل، فقلتَ: مُيَيْقِن.

وربَّما عبَّروا عن الظنِّ باليقين، وعن اليقين بالظن(٤).

---

(١) قاله أبو سعيد الخراز. أخرجه القشيري في «الرسالة» (٣٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٥٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٣٦).

(٢) علَّقه البخاري في «الصحيح» (٦/ ١٩٣). ووصله سعيد بن منصور، كما في «الدر المنثور». (٦/ ٢٢٧). وهو مشهورٌ عن علقمة. انظر: «الفتح» (٨/ ٥٢٠)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٤٢).

(٣) (٦/ ٢٢١٩) (يقن).

(٤) (د): «وبالظن عن اليقين»، وصحِّحت في الطرَّة إلى: «وباليقين عن الظن».

قال[1]:

تَحَسَّبَ هوَّاسٌ وأيقَنَ أنني بها مُفْتَدٍ من واحدٍ لا أُغامِرُه

يقول: تَشَمَّمَ الأسدُ ناقتي، يظنُّ أنني أفتدي بها منه، وأستحيي نفسي فأتركها له، ولا أَقْتَحِمُ المهالكَ بمقاتلته[2]».

قلت: هذا موضعٌ ٱختلف فيه أهلُ اللغة والتفسير؛ هل يستعملُ اليقينُ في موضع الظنِّ، والظنُّ في موضع اليقين؟[3].

فرأىٰ ذلك طائفة، منهم الجوهريُّ وغيره، واحتجُّوا سوىٰ ما ذُكِر بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، ولو شكُّوا في ذلك لم يكونوا مؤمنين[4]، فضلًا عن أن يُمْدَحوا بهذا المدح، وبقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وبقول الشاعر[5]:

---

(١) أبو سِدْرة الأسدي، ويقال: الهُجَيْمي. انظر: «النوادر» لأبي زيد (١٨٩)، و«اللآلي» (١/ ٥٣٩)، و«الخزانة» (٢/ ١١٩).

(٢) (ق، د، ت): «لمقاتلته».

(٣) انظر: «الأضداد» لابن الأنباري (١٢)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٧)، و«الخزانة» (٩/ ٣١٤، ١١/ ٢٨٢).

(٤) (ق): «موقنين».

(٥) هو دريدُ بن الصِّمَّة، من حماسيَّةٍ أصمعية. انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي (٨١٢)، و«الأصمعيات» (٢٨)، وديوانه (٤٧). والمدجَّج: الكاملُ السلاح. وسَراتهم: أشرافُهم ورؤساؤهم. والفارسيُّ المسرَّد: الدِّرعُ الفارسيُّ المحكم النَّسج.

فقلتُ لهم: ظُنُّوا بألفَيْ مقاتلٍ   سَراتُهمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ

أي: ٱستيقِنوا بهذا العدد.

وأبىٰ ذلك طائفة، وقالوا: لا يكونُ اليقينُ إلا للعلم.

وأمَّا الظن، فمنهم من وافق علىٰ أنه يكونُ بمعنىٰ العلم.

ومنهم من قال: لا يكون[1] الظنُّ في موضع اليقين. وأجابوا عمَّا ٱحتجَّ به من جوَّز ذلك بأن قالوا: هذه المواضعُ التي زعمتم أنَّ الظنَّ وقع فيها موقعَ اليقين كلُّها علىٰ بابها؛ فإنَّا لم نجد ذلك إلا في علمٍ بمُغيَّب، ولم نجدهم يقولون لمن رأىٰ الشيء: «أظنُّه»، ولمن ذاقه: «أظنُّه»، وإنما يقالُ لغائبٍ قد عُرِفَ بالسَّمع والعقل[2]، فإذا صار إلىٰ المشاهدة ٱمتنع إطلاقُ الظنِّ عليه.

قالوا: وبين العِيان والخبر مرتبةٌ متوسِّطةٌ باعتبارها أُوقِعَ علىٰ العلم بالغائب الظنُّ؛ لفقد الحال التي تحصل لِمُدْرِكه بالمشاهدة.

وعلىٰ هذا أُخرِجَت[3] سائرُ الأدلَّة التي ذكرتموها.

ولا يَرِدُ علىٰ هذا قولُه: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ لأن الظنَّ إنما وقع علىٰ مُواقَعَتها[4]، وهي غيبٌ حال الرؤية، فإذا واقعوها لم يكن ذلك ظنًّا، بل حقُّ يقين.

---

(١) من قوله: «بمعنىٰ العلم» إلىٰ هنا، ساقط من (ح، ن).

(٢) في الأصول: «بالسمع والعلم». تحريف. انظر: «الصواعق» (٨٧٠).

(٣) (ت، د): «خرجت».

(٤) (ت، ن): «مواقعها». (ق): «مواقعوها».

قالوا: وأما قولُ الشاعر: «وأيقنَ أنني بها مُفْتَدٍ» فعلىٰ بابه؛ لأنه ظنَّ أنَّ الأسدَ لتيقُّنه شجاعتَه وجراءتَه موقنٌ بأنَّ الرجلَ يدعُ له ناقتَه يفتدي بها من نفسه.

قالوا: وعلىٰ هذا يخرَّجُ معنىٰ الحديث: «**نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم**»[1]، وفيه أجوبة[2]، لكنَّ بين العِيان والخبر رتبةً طلب إبراهيمُ زوالها بقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فعبَّر عن تلك الرتبة بالشكِّ، والله أعلم[3].

الوجه الثاني والثلاثون بعد المئة: ما رواه أبو يعلىٰ الموصلي في «مسنده»[4] من حديث أنس بن مالكٍ يرفعُه إلىٰ النبيِّ ﷺ قال: «**طلبُ العلم**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) عن أبي هريرة.

(٢) (ت): «وعنه أجوبة». وانظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٧٤).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

(٤) (٢٨٣٧)، وابن ماجه (٢٢٤)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا؛ حفص بن سليمان متروك، وقد أنكروا عليه حديثه هذا.
وللحديث طرقٌ أخرىٰ معلولةٌ من حديث أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي سعيد، وجابر، رضي الله عنهم.
وقد حكم بردِّ الحديث من جهة الإسناد جماعةٌ من أئمَّة النقد: أحمد - كما في «المنتخب من العلل للخلال» (١٢٨) -، وإسحاق بن راهويه - كما في «مسائل الكوسج» (٣٣١١) -، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٨، ٢٣٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٣)، وابن عبد الهادي في «جزء في الأحاديث الضعيفة...» (٣١).
وهو الحق. وانظر: «مسند البزار» (٩٤).
وقوَّاه بعض المتأخرين. انظر: «اللالىء المنثورة» للزركشي (٤٣)، و«المقاصد الحسنة» (٦٦٠)، وللسيوطي فيه جزءٌ مفرد.

فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم».

وهذا وإن كان في سنده حفصُ بن سليمان، وقد ضُعِّف، فمعناه صحيح؛ فإنَّ الإيمان فرضٌ علىٰ كلِّ واحد، وهو ماهيَّةٌ مركَّبةٌ من علمٍ وعمل، فلا يتصوَّرُ وجودُ الإيمان إلا بالعلم والعمل.

ثمَّ شرائعُ الإسلام واجبةٌ علىٰ كلِّ مسلم، ولا يمكنُ أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، واللهُ تعالىٰ أخرجَ عبادَه من بطون أمَّهاتهم لا يعلمون شيئًا، فطلبُ العلم فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم.

وهل تمكنُ عبادةُ الله التي هي حقُّه علىٰ العباد كلِّهم إلا بالعلم؟! وهل يُنالُ العلمُ إلا بطلبه؟!

ثمَّ إنَّ العلمَ المفروضَ تعلُّمه ضربان:

* **ضربٌ منه فرضُ عينٍ لا يسعُ مسلمًا جهلُه.** وهو أنواع:

النوع الأول: علمُ أصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ فإنَّ من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحقُّ ٱسمَ المؤمن؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ولمَّا سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**»، قال: صَدَقْتَ[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة. ومسلم (٨) من حديث عمر.

فالإيمانُ بهذه الأصول فرعُ معرفتها والعلم بها.

النوعُ الثاني: علمُ شرائع الإسلام، واللازمُ منها[1] علمُ ما يخصُّ العبدَ من فِعلها؛ كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحجِّ والزكاة، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوعُ الثالث: علمُ المحرَّمات الخمس؛ التي اتفقت عليها الرسلُ والشرائعُ والكتبُ الإلهيَّة؛ وهي المذكورةُ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه محرَّماتٌ علىٰ كلِّ أحد، في كلِّ حال، علىٰ لسان كلِّ رسول، لا تُباح قطُّ؛ ولهذا أتىٰ فيها بـ ﴿إِنَّمَا﴾ المفيدة للحصر مطلقًا، وغيرُها محرَّمٌ في وقتٍ مباحٌ في غيره، كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه، فهذه ليست محرَّمةً علىٰ الإطلاق والدوام، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق.

النوعُ الرابع: علمُ أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصلُ بينه وبين الناس خصوصًا وعمومًا، والواجبُ في هذا النوع يختلفُ باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجبُ علىٰ الإمام مع رعيَّته كالواجب علىٰ الرجل مع أهله وجيرته، وليس الواجبُ علىٰ من نَصَبَ نفسَه لأنواع التجارات من تعلُّم أحكام البِيَاعات كالواجب علىٰ من لا يبيعُ ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجةُ إليه[2].

---

(١) (ت): «وما يلزم منها».

(٢) (ن، ح): «تدعو حاجته إليه».

وتفصيلُ هذه الجملة لا ينضبط بحدٍّ؛ لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب. وذلك يرجعُ إلىٰ ثلاثة أصول: ٱعتقاد، وفعل، وترك.

* فالواجبُ في **الاعتقاد**: مطابقتُه للحقِّ في نفسه.

* والواجبُ في **العمل**: معرفةُ موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمرًا أو إباحة.

* والواجبُ في **التَّرك**: معرفةُ موافقة الكفِّ والسُّكون لمرضاة الله، وأنَّ المطلوبَ منه إبقاءُ هذا الفعل علىٰ عدمه المُسْتَصْحَب[1] فلا يتحركُ في طلبه، أو كفُّ النفس عن فعله، علىٰ الطريقتين[2].

وقد دخل في هذه الجملة علمُ حركات القلوب والأبدان.

* **وأما فرضُ الكفاية** فلا أعلمُ فيه ضابطًا صحيحًا؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ في ذلك ما يظنُّه فرضًا، فيُدْخِلُ بعضُ الناس في ذلك علمَ الطبِّ وعلمَ الحساب وعلمَ الهندسة والمِساحات، وبعضُهم يزيدُ علىٰ ذلك علمَ أصول الصِّناعات، كالفِلاحة والحِياكة والحِدادة والخِياطة ونحوها[3]، وبعضُهم يزيدُ علىٰ ذلك علمَ المنطق[4]، وربَّما جعله فرضَ عين، وبناه علىٰ عدم

---

(١) (ق): «اتقاء هذا الفعل على عدمه المستعمل».

(٢) **الأولىٰ**: أن الترك أمرٌ عدمي، **والثانية**: أنه وجودي. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٣)، و«شفاء العليل» (٤٨٨)، و«الداء والدواء» (٤٤٩).

(٣) انظر: «الإحياء» (١/ ١٦)، وهو مصدر المصنف هنا، و«الوسيط» (٧/ ٦، ٧)، و«روضة الطالبين» (١٠/ ٢٢٢، ٢٢٣)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢٩/ ١٩٤)، و«الطرق الحكمية» (٦٤٥).

(٤) انظر: «المستصفىٰ» (١/ ٤٥)، و«معيار العلم» (٦٠)، و«الرد علىٰ المنطقيين» (١٧٩).

صحَّة إيمان المقلِّد.

وكلُّ هذا هَوَسٌ وخَبْط، فلا فرضَ إلا ما فرضه[1] اللهُ ورسولُه.

فيا سبحان الله! هل فرضَ اللهُ علىٰ كلِّ مسلم أن يكون طبيبًا حجَّامًا حاسبًا مهندسًا، أو حائكًا أو فلَّاحًا[2] أو نجَّارًا أو خيَّاطًا؟! فإنَّ فرضَ الكفاية كفرض العين في تعلُّقه بعموم المكلَّفين، وإنما يخالفُه في سقوطه بفعل البعض[3].

ثمَّ علىٰ قول هذا القائل يكونُ اللهُ قد فرض علىٰ كلِّ أحد جملةَ هذه الصَّنائع والعلوم؛ فإنه ليس واحدٌ منها فرضًا علىٰ معيَّنٍ والآخرُ علىٰ مُعيَّنٍ آخر، بل عمومُ فرضيَّتها مشتركةٌ بين العموم، فيجبُ علىٰ كلِّ أحدٍ أن يكون حاسبًا حائكًا[4] خيَّاطًا نجَّارًا فلَّاحًا طبيبًا مهندسًا!

فإن قال: «المجموعُ فرضٌ علىٰ المجموع» لم يكن قولك: «إنَّ كلَّ واحدٍ منها فرض كفاية» صحيحًا؛ لأنَّ فرضَ الكفاية يجبُ علىٰ العموم.

وأمَّا المنطق، فلو كان علمًا صحيحًا كان غايتُه أن يكون كالمِسَاحة والهندسة ونحوها، فكيف وباطلُه أضعافُ حقِّه، وفسادُه وتناقضُ أصوله واختلافُ مبانيه توجبُ مراعاتُها للذِّهن أن يزيغَ في فكره؟!

---

(١) (ت): «افترضه». (ح): «فرض».

(٢) (ت): «فلاحا أو حدادا».

(٣) علىٰ أحد القولين في تعلُّق فرض الكفاية بعموم المكلَّفين أو ببعضهم، وهو خلافٌ مشهور، وما اختاره المصنفُ هو رأيُ الجمهور. انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٩٨)، و«الصلاة وحكم تاركها» (٤٥)، و«المحصول» (٢/ ١٨٦)، و«البحر المحيط» (١/ ٢٤٣).

(٤) في الأصول: «أو حائكًا». ولا يستقيم المعنىٰ بإثبات «أو» هنا.

ولا يؤمنُ بهذا إلا من قد عرفه وعرفَ فسادَه وتناقضه ومناقضةَ كثيرٍ منه للعقل الصريح.

وأخبرَ بعضُ من كان قد قرأه وعُنِيَ به[1] أنه لم يزل متعجِّبًا من فساد أصوله وقواعده، ومباينتها لصريح المعقول، وتضمُّنها لدعاوٍ محضةٍ غير مدلولٍ عليها، وتفريقه بين متساويَيْن، و جمعه بين مختلفَيْن؛ فيحكمُ علىٰ الشيء بحكمٍ وعلىٰ نظيره بضدِّ ذلك الحكم، أو يحكمُ علىٰ الشيء بحكمٍ ثمَّ يحكمُ علىٰ مضادِّه أو مناقِضه به!

قال: إلىٰ أن سألتُ بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيءٍ من ذلك، فأَفْكَرَ فيه[2]، ثمَّ قال: «هذا علمٌ قد صقلَته الأذهان، ومرَّت عليه من عهد القرون الأوائل ـ أو كما قال ـ، فينبغي أن نتسلَّمه من أهله»، وكان هذا أفضلَ من رأيتُ في المنطق.

قال: إلىٰ أن وقفتُ علىٰ ردِّ متكلِّمي الإسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه، فوقفتُ علىٰ مصنَّفٍ لأبي سعيد السِّيرافي النحوي[3] في ذلك[4]،

---

(١) أحسب المصنف يريد نفسه. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٠)، و«الصواعق المرسلة» (٩٩٥).

(٢) كذا في الأصول. فكَّر في الشيء وأَفْكَرَ فيه وتفكَّر، بمعنىٰ. «اللسان».

(٣) الحسن بن عبد الله، إمامٌ في العربية، صاحبُ تصانيف، وفيه دينٌ وورع (ت: ٣٦٨). انظر: «إنباه الرواة» (١/ ٣٤٨)، و«السير» (١٦/ ٢٤٧).

(٤) لعلَّه يقصد المناظرة التي جرت بينه وبين أبي بشر متَّىٰ بن يونس صاحب كتب المنطق، وقد دوَّنها أبو حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» (١/ ١٠٨ - ١٢٨). وانظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (١٧٨).

وعلىٰ ردِّ كثيرٍ من أهل الكلام والعربية عليهم، كالقاضي أبي بكر بن الطيِّب[1]، والقاضي عبد الجبار[2]، والجُبَّائي[3]، وابنه[4]، وأبي المعالي[5]، وأبي القاسم الأنصاري[6]، وخلقٍ لا يُحْصَوْنَ كثرة[7].

ورأيتُ [من] أستشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الإشكال، ومخالفتها [للعقل][8]، ما كان ينقدحُ لي كثيرٌ منه.

---

(١) الباقلاَّني، المتكلِّم، الأصولي، انتهت إليه رياسة المالكية في وقته (ت: ٤٠٣). انظر: «ترتيب المدارك» (٧/ ٤٤)، و«السير» (١٧/ ١٩٠).

(٢) عبد الجبار بن أحمد الهمداني، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف (ت: ٤١٥). انظر: «السير» (١٧/ ٢٤٤)، و«لسان الميزان» (٣/ ٣٨٦).

(٣) أبو علي، محمد بن عبد الوهاب البصري، المعتزلي، له تصانيف (ت: ٣٠٣). انظر: «طبقات المعتزلة» (٨٠)، و«السير» (١٤/ ١٨٣).

(٤) أبو هاشم، عبد السلام بن محمد، المعتزلي، له تصانيف (ت: ٣٢١). انظر: «طبقات المعتزلة» (٩٤)، و«السير» (١٥/ ٦٣).

(٥) عبد الملك بن عبد الله الجويني، إمام الحرمين، الشافعي، المتكلِّم (ت: ٤٧٨). انظر: «السير» (١٨/ ٤٦٨)، و«طبقات الشافعية» (٥/ ١٦٥).

(٦) سلمان بن ناصر النيسابوري، الصوفي، الشافعي، المتكلِّم، تلميذُ إمام الحرمين، وشارحُ كتابه «الإرشاد» (ت: ٥١١). انظر: «السير» (١٩/ ٤١٢).

(٧) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (١٥ - ١٩، ١٩٤)، و«نقض المنطق» (١٨٧)، و«صون المنطق والكلام» للسيوطي (٢٠٦)، و«الحاوي للفتاوي» (١/ ٢٥٥)، و«فتاوىٰ ابن الصلاح» (١/ ٢٠٩)، و«زغل العلم» للذهبي (٤٣).
والخلافُ بين المتكلمين والمناطقة هو في الفائدة من «الحدِّ»، وهي أهمُّ مسائل التصوُّرات؛ فالحدُّ عند المتكلمين: ما يُمَيِّزُ المحدود عن غيره، بينما هو عند المناطقة: المعرِّفُ للماهيَّة والموصلُ للحقيقة.

(٨) ما بين المعكوفات يقتضيه السياق، وليس في الأصول.

ورأيتُ آخر من تجرَّد للردِّ عليهم شيخَ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ، فإنه أتىٰ في كتابيه الكبير والصغير[1] بالعجب العُجاب، وكشفَ أسرارَهم وهتكَ أستارَهم، فقلتُ في ذلك:

واعجبًا لمنطقِ اليونانِ

كم فيه من إفكٍ ومن بهتانِ

مُخَبِّطٌ لجيِّدِ الأذهانِ

ومُفْسِدٌ لفطرة الإنسانِ

ومُبْكِمٌ للقلب واللِّسان

مضطربُ الأصولِ والمَباني

علىٰ شفا هارٍ بناه الباني

أحوجَ ما كان إليه العَاني

يخُونُه في السِّرِّ والإعلانِ

يمشي به اللِّسانُ في الميدان

مَشْيَ مُقَيَّدٍ علىٰ صَفْوانِ

متَّصلِ العِثَارِ والتَّواني

كأنه السَّرابُ بالقيعانِ

بدا لِعَيْنِ الظَّامىء الحَرَّانِ[2]

فأَمَّهُ بالظَّنِّ والحُسْبانِ

يرجو شفاء غُلَّةِ الظَّمآنِ

(١) «الرد علىٰ المنطقيين»، و«نقض المنطق». وكلاهما مطبوع.

(٢) العطشان. وفي (ت، ق): «الحيران». (د): «الظمإ الحيران».

فلـم يجـد ثَـمَّ سـوىٰ الحِرْمـانِ
فعـــادَ بالخيبـــةِ والخـــسران
يَقْـــرَعُ سِـــنَّ نـــادمٍ حـــيرانِ
قـد ضـاعَ منه العمـرُ في الأمـاني
وعـايَـنَ الخِفَّـةَ في المـــيزانِ

وما كان مِنْ هَوَس النفوس بهذه المنزلة فهو بـأن يكـونَ جهـلًا أولىٰ منه بأن يكون علمًا تعلُّمُه فرضُ كفايةٍ أو فرضُ عين.

وهذا الشَّافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمَّة الإسلام وتصانيفُهم، وأئمَّةُ العربية[1] وتصانيفُهم، وأئمَّةُ التفسير وتصانيفُهم، لمن نظر فيها؛ هل راعَـوا فيهـا حـدودَ المنطق وأوضاعَه؟ وهل صحَّ لهم علمُهم بدونـه أم لا؟! بـل هـم كـانوا أجـلَّ قدرًا وأعظمَ عقولًا من أن يشغلوا أفكارَهم بهذيان المنطقيِّين.

ومـا دخـلَ المنطـقُ عـلىٰ علـمٍ إلا أفـسدَه، وغـيَّر أوضـاعَه، وشَـوَّش قواعدَه[2].

ومن النـاس مـن يقـول: إنَّ علـومَ العربيـة مـن التـصريف والنحـو واللغـة والمعاني والبيان ونحوها تعلُّمها فرضُ كفاية؛ لتوقُّف فهم كـلام الله ورسـوله عليها.

---

(١) (ت، ق، د): «وسائر أئمة العربية». والمثبت مـن (ح، ن) أصـح؛ فالـسائر: البـاقي، لا الجميع، من السُّؤر. انظر: «تصحيح التصحيف» (٣٠٢)، و«خير الكـلام في التقـصي عن أغلاط العوام» (٣٤).

(٢) انظـر: «الـصواعق المرسـلة» (٨١٩)، و«بـدائع الفوائـد» (١٩٨)، و«إغاثـة اللهفـان» (٢/ ٢٦٠).

ومن الناس من يقول: تعلُّمُ أصول الفقه فرضُ كفاية؛ لأنه العلمُ الذي يُعْرَفُ به الدليلُ ومرتبتُه، وكيفيةُ الاستدلال.

وهذه الأقوالُ وإن كانت أقربَ إلىٰ الصواب من القول الأول، فليس وجوبُها عامًّا علىٰ كلِّ أحد، ولا في كلِّ وقت، وإنما تجبُ وجوبَ الوسائل في بعض الأزمان وعلىٰ بعض الأشخاص، بخلاف الفرض الذي يعمُّ وجوبُه كلَّ أحد؛ وهو علمُ الإيمان وشرائع الإسلام، فهذا هو الواجب، وأما ما عداه فإن توقَّفت معرفتُه عليه فهو من باب ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به، ويكونُ الواجبُ منه القدرَ الـمُوصِل إليه، دون المسائل التي هي فَضْلةٌ لا يفتقرُ معرفةُ الخطاب وفهمُه عليها.

فلا يُطلقُ القولُ بأنَّ علمَ العربية واجبٌ علىٰ الإطلاق؛ إذ الكثيرُ منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقَّفُ فهمُ كلام الله ورسوله عليها[1].

وكذلك أصولُ الفقه، القدرُ الذي يتوقَّفُ فهمُ الخطاب عليه منه تجبُ معرفتُه، دون المسائل الـمُقَدَّرة والأبحاث التي هي فَضْلة، فكيف يقال: إنَّ تعلُّمها واجب؟!

وبالجملة؛ فالمطلوبُ الواجبُ من العبد من العلوم والأعمال إذا توقَّف علىٰ شيءٍ منها كان ذلك الشيءُ واجبًا وجوبَ الوسائل، ومعلومٌ أنَّ ذلك التوقُّفَ[2] يختلفُ باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان؛

---

(١) لكنَّ ما يتوقَّفُ فهمُ الكلام عليه لا يوصلُ إليه إلا بتعلُّم كثيرٍ مما لا يُحتاجُ إليه، فصار الثاني مما لا يتمُّ الواجبُ إلا به. وللخليل بن أحمد عبارةٌ مشهورةٌ في هذا. انظر: «بهجة المجالس» (١/ ٦٧)، و«نصرة الثائر» للصفدي (٦٧).

(٢) (ت): «المتوقف».

فليس لذلك حدٌّ مقدَّر[1]، والله أعلم.

الوجه الثالثُ والثلاثون بعد المئة: ما رواه ٱبنُ حبان في «صحيحه»[2] من حديث أبي هريرة يرفعُه إلىٰ النبيِّ ﷺ قال: «**سأل موسىٰ ربَّه عن ستِّ خصالٍ كان يظنُّ أنها له خالصة، والسابعةُ لم يكن موسىٰ يحبُّها، قال: يا ربِّ، أيُّ عبادك أتقىٰ؟ قال: الذي يَذْكُرُ ولا ينسىٰ، قال: فأيُّ عبادك أهدىٰ؟ قال: الذي يتبعُ الهدىٰ، قال: فأيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكمُ للناس ما يحكمُ لنفسه، قال: أيُّ عبادك أعلم؟ قال: عالمٌ لا يشبعُ من العلم، يجمعُ علمَ الناس إلىٰ علمه، قال: فأيُّ عبادك أعزُّ؟ قال: الذي إذا قَدَرَ غفَر، قال: فأيُّ عبادك أغنىٰ؟ قال: الذي يرضىٰ بما أوتي، قال: فأيُّ عبادك أفقر؟ قال: صاحبٌ منقوص**»[3].

---

(١) (ن، ح): «حد مقدور».

(٢) (٦٢١٧)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٣٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦)، وغيرهم.
وفي إسناده دراج بن سمعان، وهو مختلفٌ فيه، كما تقدم (ص: ٢٠٣)، وليس حديثه هذا بالمحفوظ، وقد اضطرب في تسمية شيخه علىٰ وجهين، وأصل الحديث مشهورٌ مرويٌّ من وجوهٍ كثيرة عن جماعة من التابعين: عطاء، ومجاهد، وأبي عمرو الشيباني، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار، وميثم (شيخٌ لأبي إسحاق السبيعي، يروي أخبار بني إسرائيل. انظر: «الثقات» لابن حبان: ٥/ ٤٦٣، و«الزهد» لهناد: ١٣٠١، و«الدعاء» للضبي: ١٠٣) وغيرهم، مقطوعًا، وعن ابن عباس موقوفًا، من أخبار أهل الكتاب، وهو الأشبه.

(٣) قال ابن حبان عقب الحديث: «صاحبٌ منقوص: يريد به منقوصٌ حالتُه، يستقلُّ ما أوتي ويطلبُ الفضل».

فأخبر في هذا الحديث أنَّ أعلمَ عباده الذي لا يشبعُ من العلم، فهو يجمعُ علمَ الناس إلىٰ علمه؛ لنَهْمَته في العلم، وحرصه عليه.

ولا ريب أنَّ كون العبد أعلمَ عباد الله[1] من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسىٰ علىٰ الرِّحلة إلىٰ عالِم الأرض ليعلِّمه مما علَّمه الله. هذا وهو كليمُ الرحمن، وأكرمُ الخلق علىٰ الله في زمانه، وأعلمُ الخلق، فحمله حرصُه ونَهْمتُه في العلم علىٰ الرِّحلة إلىٰ العالِم الذي وُصِفَ له.

فلولا أنَّ العلمَ أشرفُ ما بُذِلَت فيه المُهَج، وأُنفِقَت فيه الأنفاس، لاشتغلَ موسىٰ عن الرِّحلة إلىٰ الخَضر بما هو بصدده من أمر الأمَّة، وعن مقاساة النَّصَب والتعب في رحلته وتلطُّفه للخَضر في قوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦]، فلم ير ٱتباعَه حتىٰ ٱستأذنه في ذلك وأخبره أنه جاء متعلِّمًا مستفيدًا.

فهذا النبيُّ الكريمُ كان عالمًا بقدر العلم وأهله، صلواتُ الله وسلامه عليه.

الوجه الرابع والثلاثون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ خلقَ الخلقَ لعبادته الجامعة لمحبَّته وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونَصَب للعباد عَلَمًا لا كمال لهم إلا به؛ وهو أن تكونَ حركاتُهم كلُّها واقعةً علىٰ وَفْقِ مرضاته ومحبَّته، ولذلك أرسل رسله، وأنزَل كتبه، وشرع شرائعه.

فكمالُ العبد الذي لا كمال له إلا به أن تكونَ حركاتُه موافقةً لما يحبُّه الله منه ويرضاه له.

---

(١) (ق): «أعظم عباد الله». وهو تحريف.

ولهذا جعل اتباعَ رسوله دليلًا على محبَّته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالمحبُّ الصادقُ يرى خيانةً منه لمحبوبه أن يتحرَّك بحركةٍ اختياريَّةٍ في غير مرضاته، وإذا فعل فعلًا مما أبيحَ له بمُوجَب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوبُ من الذَّنب، ولا يزالُ هذا الأمرُ يقوى عنده حتى تنقلبَ مباحاتُه[1] كلُّها طاعات، فيحتسبُ نَوْمَتَه[2] وفِطْرَه وراحتَه كما يحتسبُ قَوْمَتَه وصومَه واجتهادَه، وهو دائمًا بين سرَّاءَ يشكرُ اللهَ عليها وضرَّاءَ يصبرُ عليها؛ فهو سائرٌ إلى الله دائمًا في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: «الأكياسُ عاداتهم عبادات، والحمقى عباداتهم عادات»[3].

وقال بعضُ السَّلف: «حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم، يَغْبِنون[4] به سهرَ الحمقى وصومَهم»[5].

فالمحبُّ الصادقُ إنْ نَطَق نَطَق لله وبالله، وإن سَكَت سَكَت لله، وإن

---

(١) (ح): «مباحاته عنده».

(٢) (ق، د، ت): «نومه».

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) كذا في الأصول، وهو مستقيم. وفي طرة (د): «لعله: يسبقون». وتحرفت في بعض المصادر إلى: يعيبون.

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٣٧)، ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٢) ـ، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٧٥) ـ عن أبي الدرداء بإسنادٍ منقطع.

تحرَّكَ فبأمر الله، وإن سَكَنَ فسكونُه ٱستعانةٌ علىٰ مرضاة الله؛ فهو لله وبالله ومع الله.

ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هذا المقام أحوجُ خلق الله إلىٰ العلم؛ فإنه لا تتميَّز له الحركةُ المحبوبةُ لله من غيرها ولا السُّكونُ المحبوبُ له من غيره إلا بالعلم، فليست حاجتُه إلىٰ العلم كحاجة من طلبَ العلمَ لذاته ولأنه في نفسه صفةُ كمال، بل حاجتُه إليه كحاجته إلىٰ ما به قِوامُ نفسه وذاته.

ولهذا ٱشتدَّت وَصَاةُ شيوخ العارفين لـمُرِيديهم بالعلم وطلبه[1]، وأنه من لم يطلب العلمَ لم يُفلِح، حتىٰ كانوا يَعُدُّونَ من لا علم له من السِّفْلَة[2].

قال ذو النون[3]، وقد سئل: من السِّفْلة؟، فقال: «من لا يعرفُ الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ ولا يتعرَّفُه»[4].

وقال أبو يزيد[5]: «لو نظرتم إلىٰ الرجل وقد أُعطِي من الكرامات حتىٰ يتربَّع[6] في الهواء، فلا تغترُّوا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحِفظ الحدود ومعرفة الشريعة»[7].

---

(١) عقد القشيري في «الرسالة» بابًا في ذكر مشايخ الطريقة وما يدلُّ من سِيَرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة. وهو مصدر المصنف في الأقوال التالية.

(٢) السِّفْلة والسَّفِلة: أراذل الناس. «اللسان» (سفل).

(٣) ثوبان بن إبراهيم المصري، زاهد، واعظ (ت: ٢٤٥). «السير» (١١/ ٥٣٢).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٤٦). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٧٢).

(٥) طيفور بن عيسىٰ البِسْطامي، زاهدٌ يروىٰ عنه كلامٌ نافع وكلماتٌ مشكلة (ت: ٢٦١). «السير» (١٣/ ٨٦).

(٦) (ن): «يترفع». وفي بعض المصادر: «يرتفع»، «يرفع»، «يرتقى».

(٧) «الرسالة القشيرية» (٦٤). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٠)، والبيهقي في =

وقال أبو حمزة البزَّاز[1]: «من عَلِمَ طريقَ الحقِّ سَهُل عليه سلوكُه، ولا دليل علىٰ الطريق إلا متابعةُ الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله»[2].

وقال محمدُ بن الفضل الصوفي الزاهد[3]: «ذهابُ الإسلام علىٰ يدي أربعة أصنافٍ من الناس: صنفٍ لا يعملون بما يعلمون، وصنفٍ يعملون بما لا يعلمون، وصنفٍ لا يتعلَّمون ولا يعملون[4]، وصنفٍ يمنعونَ الناسَ من التعلُّم»[5].

قلتُ: **الصنفُ الأول**: من له علمٌ بلا عمل؛ فهو أضرُّ شيءٍ علىٰ العامَّة، فإنه حجَّةٌ لهم في كلِّ نقيصةٍ ومَبْخَسَة[6].

والصنفُ الثاني: العابدُ الجاهل؛ فإنَّ الناسَ يحسِّنون الظنَّ به؛ لعبادته وصلاحه، فيقتدون به علىٰ جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعضُ السَّلف في قوله: «آحذروا

= «الشعب» (٤/ ٤٤٩)، وغيرهم.

(١) محمد بن إبراهيم البغدادي، صوفي، عنده انحرافٌ وشَطْح، قال الذهبي: «له تأويل» (ت: ٢٦٠). انظر: «السير» (١٣/ ١٦٥).

(٢) «الرسالة القشيرية» (١٠٠). وأخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (٢٩٨).

(٣) أبو عبد الله، العلَّامة، واعظُ بَلْخ (ت: ٣١٧). «السير» (١٤/ ٥٢٣).

(٤) (ت): «لا يعملون ولا يعلمون». وفي «الرسالة» ومصادر التخريج: «لا يتعلمون ما لا يعلمون». وهو من تصرُّف المصنف.

(٥) «الرسالة القشيرية» (٨٨). وأخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (٢١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣٠).

(٦) البَخْس: النَّقص. وفي (ت، ق، ن): «ومنحسة»، والنَّحس: ضدُّ السَّعد.

فتنةَ العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتون»[1]؛ فإنَّ الناسَ إنما يقتدون بعلمائهم وعبَّادهم، فإذا كان العلماءُ فَجَرةً والعبَّادُ جَهَلةً عمَّت المصيبةُ بهما وعَظُمَت الفتنةُ علىٰ الخاصَّة والعامَّة.

والصنفُ الثالث: الذين لا علمَ لهم ولا عمل؛ وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنفُ الرابع: نُوَّابُ إبليس في الأرض؛ وهم الذين يثبِّطون الناسَ عن طلب العلم والتفقُّه في الدين، فهؤلاء أضرُّ عليهم من شياطين الجنِّ، فإنهم يحُولون بين القلوب وبين هدىٰ الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعةُ أصنافٍ[2] هم الذين ذكرهم هذا العارفُ رحمةُ الله عليه[3]، وهؤلاء كلُّهم علىٰ شفا جُرفٍ هار، وعلىٰ سبيلِ هَلَكة، وما يلقىٰ العالِمُ الداعي إلىٰ الله ورسوله ما يلقاه من الأذىٰ والمحاربة إلا علىٰ أيديهم، والله يستعملُ من يشاءُ في سخطه كما يستعملُ من يحبُّ[4] في مرضاته، إنه بعباده خبيرٌ بصير.

ولا ينكشفُ سرُّ[5] هذه الطوائف وطريقتُهم إلا بالعلم؛ فعاد الخيرُ بحذافيره إلىٰ العلم ومُوجَبه، والشرُّ بحذافيره إلىٰ الجهل ومُوجَبه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٠١).

(٢) (ح): «الأربعة الأصناف».

(٣) للذهبيِّ في «السير» (١٤/ ٥٢٥) تعليقٌ لطيفٌ علىٰ كلام هذا العارف.

(٤) (ت): «من يشاء».

(٥) (ق، ن): «شر»، بالمعجمة. والتعبير بانكشاف السرِّ مألوفٌ في كتب المصنف، وهو الأليق هنا.

الوجه الخامس والثلاثون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه جعل العلماءَ وكلاءَ وأمناءَ علىٰ دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذبِّ عنه، وناهيك بها منزلةً شريفةً ومنقبةً عظيمة، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٨ - ٨٩].

وقد قيل: إنَّ هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحابُ رسول الله ﷺ. وقيل: كلُّ مؤمن.

هذه أمَّهاتُ الأقوال، بعد أقوالٍ متفرِّعةٍ عن هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو: المهاجرون والأنصار، أو: قومٌ[1] من أبناء فارس.

وقال آخرون: هم الملائكة[2].

قال ٱبن جرير[3]: «وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سمَّاهم في الآيات قبل هذه الآية».

قال: «وذلك أنَّ الخبر في الآيات قبلها عنهم مضىٰ، وفي التي بعدها عنهم ذُكِر، فما بينها[4] بأن يكونَ خبرًا عنهم أولىٰ وأحقُّ من أن يكون[5]

---

(١) (ن): «أو هم».

(٢) انظر: «زاد المسير» (٣/ ٨١)، و«الدر المنثور» (٣/ ٢٨).

(٣) (١١/ ٥١٨).

(٤) في الأصول: «فما يليها». تحريف. والمثبت من كتاب ابن جرير.

(٥) في الأصول: «بأن يكون». وهو تحريف كذلك.

خبرًا عن غيرهم. فالتأويل: فإن يكفر قومُك من قريشٍ يا محمدُ بآياتنا، وكذَّبوا بها، وجحدوا حقيقتَها، فقد ٱستحفظناها وٱسترعينا القيامَ بها رسلَنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتَها ولا يكذِّبون بها، ولكنهم يصدِّقون بها ويؤمنون بصحتها».

قلت: السُّورة مكِّية، والإشارةُ بقوله: ﴿هَٰؤُلَآءِ﴾ إلىٰ من كفر به من قومه أصلًا، ومَنْ عداهم تبعًا، فيدخلُ فيها من كفر بما جاء به من هذه الأمَّة.

والقومُ الموكَّلون بها هم الأنبياءُ أصلًا، والمؤمنون بهم تبعًا، فيدخلُ فيها كلُّ من قام بحفظها والذبِّ عنها والدعوة إليها، ولا ريب أنَّ هذا للأنبياء أصلًا وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحقُّ من دخلَ فيهم من أتباع الرسول خلفاؤه في أمَّته وورثتُه، فهم الموكَّلون بها.

وهذا ينتظمُ الأقوالَ التي قيلت في الآية.

وأما قولُ من قال: إنهم الملائكة؛ فضعيفٌ جدًّا لا يدلُّ عليه السِّياق، وتأباه لفظة «قوم»؛ إذا الغالبُ في القرآن ـ بل المطَّرد ـ تخصيصُ القوم ببني آدم دون الملائكة. وأما قولُ إبراهيم لهم: ﴿قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، فإنما قاله لـمَّا ظنَّهم من الإنس.

وأيضًا؛ فلا يقتضيه فخامةُ المعنىٰ ومقصودُه، ولهذا لو ظهَر ذلك وقيل: «فإن يكفُر بها كفَّارُ قومك فقد وكَّلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها»، لم يَجِد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهُّلهم لها[1] والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنىٰ

(١) (ح، ن): «تأهيلهم لها».

عليهم لكونهم أحقَّ بها وأهلَها، والله أعلمُ حيث يضعُ هُداه[1] ويختصُّ به من يشاء.

وأيضًا؛ فإنَّ تحت هذه الآية إشارةً وبشارةً بحفظها، وأنه لا ضَيْعةَ عليها، وأنَّ هؤلاء وإن ضيَّعوها ولم يقبلوها فإنَّ لها قومًا غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويَرْعَونها ويذبُّون عنها، فكفرُ هؤلاء بها لا يضيِّعها ولا يُذْهِبُها ولا يضرُّها شيئًا؛ فإنَّ لها أهلًا ومستحِقًّا سواهم.

فتأمَّل شرفَ هذا المعنىٰ وجلالتَه وما تضمَّنه من تحريض عباده المؤمنين علىٰ المبادرة إليها والمسارعة إلىٰ قبولها، وما تحته من تنبيههم علىٰ محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة علىٰ أعدائه الكافرين، وما تحته من ٱحتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال[2] بهم، وأنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكَّلون بها سواكم كثير، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وإذا كان للمَلِك عبيدٌ قد عصوه وخالفوا أمرَه ولم يلتفتوا إلىٰ عهده، وله عبيدٌ آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره، فنظر إليهم وقال: «إنْ يكفُر هؤلاء نعمتي ويعصوا أمري ويضيِّعوا عهدي، فإنَّ لي عبيدًا سواهم وهم أنتم، تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدُّون حقِّي»؛ فإنَّ عبيدَه

(١) (ت): «رسالاته وهداه».

(٢) (ح): «والاهتبال».

المطيعين يَجِدُون في أنفسهم من الفرح والسُّرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون مُوجِبًا لهم المزيدَ من القيام بحقِّ العبودية، والمزيدَ من كرامة سيِّدهم ومالكهم. وهذا أمرٌ يشهدُ به الحِسُّ والعِيان.

وأمَّا توكيلُهم بها، فهو يتضمَّنُ توفيقَهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذبِّ عنها والنصيحة لها، كما يوكِّل الرجلُ غيرَه بالشيء ليقوم به ويتعهَّده ويحافظ عليه. و﴿بِهَا﴾ الأولىٰ متعلِّقةٌ بـ ﴿وَكَّلْنَا﴾، و﴿بِهَا﴾ الثانية متعلِّقةٌ بـ ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾، والباءُ في ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصحُّ أن يقال لأحد هؤلاء الموكَّلين: إنه «وكيلُ الله» بهذا المعنىٰ، كما يقال: «وليُّ الله»؟

قلت: لا يلزمُ من إطلاق فعل التوكيل[1] المقيَّد بأمرٍ ما أن يُصاغ منه ٱسمُ فاعلٍ مطلق، كما أنه لا يلزمُ من إطلاق فعل الاستخلاف المقيَّد أن يقال: «خليفة»، كقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يُوجِبُ هذا الاستخلافُ[2] أن يقال لكلٍّ منهم: إنه «خليفةُ الله»؛ لأنه ٱستخلافٌ مقيَّد.

ولـمَّا قيل للصدِّيق: يا خليفةَ الله، قال: «لستُ بخليفةِ لله، ولكنِّي خليفةُ رسول الله، وحسبي ذلك»[3].

---

(١) (ح، ن): «التوكل».

(٢) (ت): «الاستخلاف المقيد».

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٤٢٩).

ولكن يسوغُ أن يقال: هو وكيلٌ بذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾.

والمقصودُ أنَّ هذا التوكيلَ خاصٌّ بمن قام بها علمًا وعملًا، وجهادًا لأعدائها، وذبًّا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وأيضًا؛ فهو توكيلُ رحمةٍ وإحسانٍ وتوفيقٍ واختصاص، لا توكيل حاجةٍ كما يوكِّلُ الرجلُ من يتصرَّفُ عنه في غيبته لحاجته إليه.

ولهذا قال بعض السَّلف: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يقول: «رزقناها قومًا»[1]؛ فلهذا لا يقالُ لمن رُزِقَها[2] ورُحِمَ بها: إنه «وكيلُ الله».

وهذا بخلاف اشتقاق «وليِّ الله» من الموالاة؛ فإنها المحبةُ والقُرب، فكما يقال: عبد الله وحبيبُه، يقال: وليُّه، والله تعالىٰ يوالي عبدَه إحسانًا إليه وجبرًا له ورحمة، بخلاف المخلوق فإنه يوالي المخلوقَ لتعزُّزه به وتكثُّره بموالاته؛ لذلِّ العبد وحاجته، وأمَّا العزيزُ الغنيُّ ـ سبحانه ـ فلا يوالي أحدًا من ذلٍّ ولا من حاجة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم يَنْفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مطلقًا، بل نفىٰ أن يكون له وليٌّ من الذُّل، وأثبتَ في موضعٍ آخر أنَّ له أولياء، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذه موالاةُ رحمةٍ

---

(١) قاله أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٠٠).

(٢) (ح، ن): «رزق بها».

وإحسانٍ وجَبْر، والموالاةُ المنفيةُ موالاةُ حاجةٍ وذُل.

يُوضِّحُ هذا **الوجهُ السادسُ والثلاثون بعد المئة**: وهو ما رُوِي عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعدِّدة أنه قال: «**يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[1].

فهذا الحملُ المشارُ إليه في هذا الحديث هو التوكُّلُ المذكورُ في الآية، فأخبر ﷺ أن العلمَ الذي جاء به يحملُه عدولُ أمَّته من كلِّ خَلَف، حتىٰ لا يضيعَ ويذهب.

وهذا يتضمَّنُ تعديلَه ﷺ لحملة العلم الذي بُعِثَ به، وهو المشارُ إليه في قوله: «**هذا العلم**»، فكلُّ من حمَل العلمَ المشارَ إليه لا بدَّ وأن يكون عدلًا[2]، ولهذا ٱشتهر عند الأمَّة **عدالةُ** نَقَلته وحملته ٱشتهارًا لا يقبلُ شكًّا ولا ٱمتراءً[3].

ولا ريب أنَّ من **عدَّله** رسولُ الله ﷺ لا يُسْمَعُ فيه جرح؛ فالأئمةُ الذين ٱشتهروا عند الأمَّة بنقل العلم النبويِّ وميراثه كلُّهم عدولٌ بتعديل رسول الله ﷺ، ولهذا لا يُقبلُ قَدْحُ بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من ٱشتهر عند

---

(١) سيأتي تخريجه مفصَّلًا قريبًا.

(٢) فيكتفىٰ فيهم بالعدالة الظاهرة حتىٰ يأتي ما ينقضها. وإلىٰ هذا ذهب ابن عبد البر، وابن المواق، والذهبي، وابن سيد الناس، وابن الوزير، وغيرهم. وعليه العمل عند أهل الحديث فيمن تعذَّر العلم بعدالته الباطنة من الرواة. انظر: «فتح المغيث» (٢/ ١٨)، و«التمهيد» (١/ ٢٨)، و«جامع بيان العلم» (٢/ ١٠٩٣)، و«العواصم والقواصم» (١/ ٣٠٧)، وما مضىٰ (ص: ١٣١).

(٣) (ت): «مراء».

الأمَّة جرحُه والقدحُ فيه، كأئمة البدع ومن جرىٰ مجراهم من المتَّهمين في الدِّين، فإنهم ليسوا عند الأمَّة من حملة العلم.

فما حمَل علمَ رسول الله ﷺ إلا عَدْل، ولكن قد يُغْلَطُ في مسمَّىٰ العدالة، فيُظنُّ أنَّ المرادَ بالعدل من لا ذنب له، وليس كذلك، بل هو عدلٌ مؤتمنٌ علىٰ الدِّين، وإن كان منه ما يتوبُ إلىٰ الله منه، فإنَّ هذا لا ينافي العدالةَ كما لا ينافي الإيمانَ والوَلاية.

فصل

وهذا الحديثُ له طرقٌ عديدة:

* **منها**: ما رواه ٱبن عدي(١)، عن موسىٰ بن إسماعيل بن موسىٰ بن جعفر، عن أبيه، عن جدِّه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، عن النبيِّ ﷺ.

* **ومنها**: ما رواه العوَّام بن حوشب، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، عن النبيِّ ﷺ. ذكره الخطيبُ(٢) وغيره.

* **ومنها**: ما رواه ٱبن عدي(٣) من حديث الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سالم، عن ٱبن عمر، عن النبيِّ ﷺ.

---

(١) في «الكامل» (١/ ١٤٥). وإسنادُه شديدُ الضعف، والآفةُ فيه من الراوي عن موسىٰ، كما بيَّن ذلك ابنُ عدي في (٦/ ٣٠١).

(٢) في «شرف أصحاب الحديث» (١٤). وإسنادُه شديدُ الضعف، مسلسلٌ بالعلل، بدءًا بشيخ الخطيب المتَّهم بالكذب، إلىٰ الانقطاع بين شهرٍ ومعاذ.

(٣) في «الكامل» (١/ ١٤٥)، وتمام في «الفوائد» (٨٠ - الروض). وإسنادُه موضوع، كما شرحه ابنُ عدي في «الكامل» (٣/ ٣١).

* **ومنها**: ما رواه محمد بن جرير الطبري[1] من حديث ابن أبي كريمة، عن مُعان بن رفاعة السَّلامي، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد، عن النبيِّ ﷺ.

* **ومنها**: ما رواه حماد بن زيد، عن بقية بن الوليد، عن مُعان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري، قال: قال رسولُ الله ﷺ[2].

قال الدارقطني: حدثنا أحمد بن الحسن: حدثنا هاشم بن القاسم: حدثنا مثنىٰ بن بكر ومُبَشِّرٌ وغيرهما من أهل العلم، كلُّهم يقولون: حدثنا مُعان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن، عن النبيِّ ﷺ[3].

يعني أنَّ المحفوظ من هذا الطَّريق مرسل؛ لأنَّ إبراهيم هذا لا صحبة له[4].

---

(١) ومن طريقه الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديث» (٥٣)، والعلائي في «بغية الملتمس» (٣٤). وإسنادُه منكر؛ ابنُ أبي كريمة ضعيف، وقد خالف جماعةً من الثقات رووه عن معان بن رفاعة عن إبراهيم العذري مرسلًا، كما سيأتي. واشتبه ابنُ أبي كريمة علىٰ العلائي براوٍ آخر ثقة؛ فصحَّح الحديث.

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (٤/ ١٠)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١١٨)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٥)، وغيرهم.
ومُعان بن رفاعة مختلفٌ فيه، وقد خولف في حديثه هذا، فرواه الوليد بن مسلم ـ وهو ثقةٌ، وقد صرَّح بالسماع ـ عن إبراهيم العذري، عن الثقة من أشياخنا، عن النبي ﷺ. أخرجه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٢)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١٤٧).

(٣) أخرجه من هذا الوجه ابن عساكر (٧/ ٣٨). وانظر: «الجرح والتعديل» (٢/ ١٧).

(٤) وهذا هو الصواب، فالحديثُ إنما يحفظُ من هذا الطريق مرسلًا، وسائر الروايات المرفوعة معلولةٌ منكرةٌ لا تصلُح لتقويته. وإلىٰ هذا ذهب جماعةٌ من الحفَّاظ، =

وقال الخلال في كتاب «العلل»[1]: «قرأتُ علىٰ زهير بن صالح بن أحمد: حدثنا مهنَّا، قال: سألتُ أحمد عن حديث مُعان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُذْري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»، فقلتُ لأحمد: كأنه كلامٌ موضوع؟[2] قال: لا، هو صحيح. فقلت: ممَّن سمعته أنت؟ فقال: من غير واحد. قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين، إلا أنه يقول: عن مُعان، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد: ومُعان بن رفاعة لا بأس به».

* **ومنها**: ما رواه أبو صالح: حدثنا الليث بن سعد، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّب، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**يَرِثُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه**»[3].

= كالدارقطني، والعقيلي، وابن كثير، والعراقي، وغيرهم. انظر: «المقنع» لابن الملقن (١/ ٢٤٦)، و«الضعفاء» (٤/ ٢٥٦)، و«مختصر علوم الحديث» (١/ ٢٨٣ - الباعث الحثيث)، و«التقييد والإيضاح» (١١٦)، و«محاسن الاصطلاح» (٢٨٩).
وكلامُ الإمام أحمد الآتي لا يعارضُ هذا؛ لأنه إنما صحَّحه عن إبراهيم العذري، لا عن النبي ﷺ.
ومع إرسال هذه الرواية، فإبراهيمُ العذري لا يُدرىٰ من هو، كما قال الذهبي في «الميزان» (١/ ٤٥)، ولا يُعرَف في غير هذا الحديث. انظر: «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٤٠). وأشياخُه ـ علىٰ رواية الوليد بن مسلم السالفة، وهي أصح ـ مجهولون.

(١) وأخرج النصَّ من طريقه الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديث» (٥٦).

(٢) (ح، ن): «كأنه موضوع». والمثبت من (ت، د، ق) و«شرف أصحاب الحديث».

(٣) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٤). وإسنادُه ضعيفٌ مسلسلٌ بالعلل؛ فيه ثلاثةُ ضعفاء في نسق.

* **ومنها**: ما رواه أبو أحمد ابن عدي[1] من حديث رُزَيْق أبي عبد الله[2] الألهاني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي، قال: «قال رسولُ الله ﷺ». رواه عنه بقية.

* **ومنها**: ما رواه ابن عدي[3] أيضًا من طريق مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ.

* **ومنها**: ما رواه تمَّام في «فوائده»[4] من حديث الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي قَبِيل، عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة. رواه عنه خالد بن عمرو.

* **ومنها**: ما رواه القاضي إسماعيل[5] من حديث علي بن مسلم

---

(١) في «الكامل» (١/ ١٤٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٩). وإسنادُه ضعيف، وفيه اضطراب. انظر: «مشكل الآثار» للطحاوي (١٠/ ١٧).

(٢) (ح، ن): «رزيق بن عبد الله». وهو تحريف.

(٣) في «الكامل» (١/ ١٤٦). وإسناده ضعيف، وفي رواته من لم أعرفه، وقد أشار ابن عديٍّ إلىٰ غرابته. وأبو حازم هو سلمان الأشجعي صاحب أبي هريرة.

(٤) والبزار (١٤٣ - كشف الأستار)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٠). وإسناده موضوع. انظر: «الكامل» لابن عدي (٣/ ٣١). وقد تقدم هذا الإسناد من رواية ابن عمر، وهي التي أخرجها تمَّام في «الفوائد» (٨٠).

(٥) والطبراني في «مسند الشاميين» (١/ ٣٤٤) ـ ومن طريقه الخطيب في «الجامع» (١/ ١٩٣) ـ، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١٤٦) ـ ومن طريقه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٢) ـ، والهروي في «ذم الكلام» (٧٠٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٢٣٦). وإسناده ضعيفٌ جدًّا؛ فيه راوٍ متروك، وآخرُ لم أقف فيه علىٰ توثيق. وانظر: «ذخيرة الحفاظ» (٢٧٧٨).

البكري[1]، عن أبي صالح الأشعري، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ.

الوجه السابع والثلاثون بعد المئة: أنَّ بقاء الدِّين والدنيا في بقاء العلم، وبذهاب العلم تذهبُ الدنيا والدِّين، فقِوامُ الدِّين والدنيا إنما هو بالعلم.

قال الأوزاعي: قال ٱبن شهاب الزهري: «الاعتصامُ بالسُّنَّة نجاة، والعلمُ يُقْبَض قبضًا سريعًا، فَنَعْشُ العلم[2] ثباتُ الدِّين والدنيا، وذهابُ العلم ذهابُ ذلك كلِّه»[3].

وقال ٱبن وهب: أخبرني ٱبن يزيد[4]، عن ٱبن شهاب قال: «بلَغَنا عن رجالٍ من أهل العلم أنهم كانوا يقولون: الاعتصامُ بالسُّنَّة نجاة، والعلمُ يُقْبَض قبضًا سريعًا، فنَعْشُ العلم ثباتُ الدِّين والدنيا، وذهابُ العلم ذهابُ ذلك كلِّه»[5].

الوجه الثامن والثلاثون بعد المئة: أنَّ العلمَ يرفعُ صاحبَه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعُه المُلْكُ ولا المالُ ولا غيرهما، فالعلمُ يزيدُ الشريفَ

---

(١) في الأصول: «البلوي». تحريف. ترجمته في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٢٣٥)، ولم يحك فيه جرحًا أو تعديلًا.

(٢) أي: بقاؤه ورفعة شأنه. «اللسان» (نعش).

(٣) أخرجه الدارمي (٩٦)، واللالكائي في «السنة» (١٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦٩)، وغيرهم.

(٤) (د، ت، ق): «أخبرني يزيد». خطأ. وهو يونس بن يزيد الأيلي صاحبُ الزهري، وقد ورد مصرَّحًا به في مصادر التخريج.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٥٤٦)، والذهبي في «السير» (١٨/ ٣٤٣). وتابع ابنَ وهب: ابنُ المبارك في «الزهد» (٨١٧)، والليثُ بن سعد في «السنة» للالكائي (١٣٧)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٧٣).

شرفًا، ويرفعُ العبدَ المملوكَ حتىٰ يُجْلِسَه مجالسَ الملوك، كما ثبت في «الصحيح»[1] من حديث الزهري، عن أبي الطفيل، أنَّ نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعُسْفان ـ وكان عمر ٱستعمله علىٰ أهل مكة ـ فقال له عمر: من ٱستخلفتَ علىٰ أهل الوادي؟ قال: ٱستخلفتُ عليهم ٱبن أبزىٰ، فقال: ومن ٱبن أبزىٰ؟ فقال: رجلٌ من موالينا، فقال عمر: ٱستخلفتَ عليهم مولىٰ؟! فقال: إنه قارئٌ لكتاب الله عالمٌ بالفرائض، فقال عمر: أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «**إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضعُ به آخرين**».

قال أبو العالية: كنتُ آتي ٱبنَ عباس وهو علىٰ سريره[2] وحوله قريش، فيأخذُ بيدي فيجلسني معه علىٰ السرير، فتَغامَزُ بي[3] قريش، ففَطِنَ لهم ٱبنُ عباس فقال: كذا هذا العلم، يزيدُ الشريفَ شرفًا ويُجْلِسُ المملوكَ علىٰ الأسرَّة[4].

وقال إبراهيم الحربي: كان عطاءُ بن أبي رباح عبدًا أسود لامرأةٍ من أهل مكة، وكان أنفُه كأنه باقلَّاة.

قال: وجاء سليمانُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين إلىٰ عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلمَّا صلىٰ ٱنفتلَ إليهم، فما زالوا يسألونه عن

---

(١) «صحيح مسلم» (٨١٧).

(٢) قال الذهبي في «السير» (٤/ ٢٠٨): «هذا كان سرير دار الإمرَة، لما كان ابنُ عباس متولِّيها لعليٍّ رضي الله عنهما». يعني: إمارة البصرة.

(٣) (ت): «فتتغامز». وفي (ن): «فتغامزني».

(٤) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٣٩٨)، وغيره. وفي (ن): «ويجلس المملوك علىٰ أسرة الملوك».

مناسك الحجِّ وقد حَوَّل قفاه إليهم، ثمَّ قال سليمان لابنيه: قُوما، فقاما، فقال: يا بَنِيَّ، لا تَنِيا في طلب العلم؛ فإني لا أنسىٰ ذُلَّنا بين يدي هذا العبد الأسود.

قال الحربي: وكان محمدُ بن عبد الرحمن الأوقص[1] عنقُه داخلٌ في بدنه، وكان منكباه خارجَيْن كأنهما زُجَّان[2]، فقالت له أمُّه: يا بنيَّ، لا تكونُ في مجلس قومٍ إلا كنتَ المضحوكَ منه المسخورَ به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك. فوَلِيَ قضاءَ مكة عشرين سنة.

قال: وكان الخصمُ إذا جلس إليه بين يديه يَرْعُد حتىٰ يقوم.

قال: ومرَّت به ٱمرأةٌ يومًا وهو يقول: اللهمَّ أعتق رقبتي من النار، فقالت له: يا ٱبنَ أخي، وأيُّ رقبةٍ لك؟![3].

وقال يحيىٰ بن أكثم: قال الرشيد: ما أنبلُ المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرفُ أجلَّ منِّي؟ قلت: لا. قال: لكنِّي أعرفُه؛ رجلٌ في حَلْقةٍ يقول: حدثنا فلانٌ عن فلانٍ عن رسول الله ﷺ. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أهذا خيرٌ منك وأنت ٱبن عمِّ رسول الله ﷺ ووليُّ عهد المسلمين؟! قال: نعم، ويلك، هذا خيرٌ منِّي؛ لأنَّ ٱسمَه مقترنٌ باسم رسول الله، لا يموتُ أبدًا، ونحن نموتُ ونفنىٰ، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر[4].

---

(١) المخزومي القرشي (ت: ١٦٩). ترجمته في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ١٠٢)، و«أخبار القضاة» لوكيع (١/ ٢٦٤)، وغيرهما.

(٢) الزُّجُّ: الحديدة التي في أسفل الرمح. «اللسان» (زجج).

(٣) أخرج النصَّ بطوله (خبر عطاء، والأوقص) عن الحربي الخطيبُ في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٠).

(٤) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢١٩).

وقال خيثمة بن سليمان: سمعت ٱبن أبي الخناجر يقول: كنَّا في مجلس يزيد بن هارون، والناسُ قد ٱجتمعوا، فمرَّ أميرُ المؤمنين فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس أُلوفٌ، فالتفت إلىٰ أصحابه، وقال: هذا المُلْك[1].

وفي «تاريخ بغداد»[2] للخطيب: حدثني أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد، قال: سمعت الحسن بن علي المقرىء يقول: سمعت أبا الحسين بن فارس يقول: سمعت الأستاذ ٱبن العميد يقول: ما كنتُ أظنُّ أن في الدنيا حلاوةً ألذَّ من الرِّياسة والوزارة التي أنا فيها، حتىٰ شهدتُ مذاكرةَ سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجِعَابي بحضرتي، فكان الطبرانيُّ يغلبُ الجِعَابيَّ بكثرة حفظه، وكان الجِعَابيُّ يغلبُ الطبرانيَّ بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتىٰ ٱرتفعت أصواتُهما ولا يكادُ أحدُهما يغلبُ صاحبه، فقال الجِعَابي: عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليفة: حدثنا سليمانُ بن أيوب، وحَدَّثَ بالحديث، فقال الطبراني: أنا سليمانُ[3] بن أيوب ومنِّي سمعَ أبو خليفة، فاسمعْ منِّي حتىٰ يَعْلُوَ إسنادُك، فإنك تروي عن أبي خليفة عنِّي! فخَجِلَ الجِعَابيُّ وغَلَبه الطبراني.

قال ٱبن العميد: فوددتُ في مكاني أنَّ الوزارةَ والرِّياسةَ ليتها لم تكن لي

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢٢٠).

(٢) لم أره في مطبوعته. وهو في «الجامع» للخطيب (٢/ ٤١٣)، ومن طريقه رواه جماعة. والقصة في «التدوين في أخبار قزوين» (٢/ ٨١) في سياقٍ ممتع.

(٣) في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٢٤)، و«طبقات الحنابلة» (٣/ ٩٤): «أخبرنا سليمان»، وهو من تصرُّف النسَّاخ أو المحققين، ظنُّوا «أنا» في هذا الموضع ٱختصارًا لـ «أخبرنا». وهو مفسدٌ للمعنىٰ كما ترىٰ.

وكنتُ الطبراني، وفرحتُ مثل الفرح الذي فرح به الطبراني لأجل الحديث. أو كما قال.

وقال المزني: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «من تعلَّمَ القرآنَ عَظُمَت قيمتُه، ومن نظر في الفقه نَبُلَ مقدارُه، ومن تعلَّم اللغةَ رَقَّ طبعُه، ومن تعلَّم الحسابَ جَزُل رأيُه، ومن كتب الحديثَ قَوِيَت حُجَّتُه، ومن لم يَصُنْ نفسَه لم ينفعه علمُه»[1].

وقد رُوِي هذا الكلامُ عن الشافعيِّ من وجوهٍ متعدِّدة[2].

وقال سفيان الثوري: «من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم».

وقال عبد الله بن داود: سمعت سفيان الثوري يقول: «إنَّ هذا الحديثَ عِزٌّ، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرةَ وجدها»[3].

وقال النضر بن شُمَيْل: «من أراد أن يَشْرُفَ في الدنيا والآخرة فليتعلَّم العلم، وكفىٰ بالمرء سعادةً أن يوثقَ به في دين الله، ويكونَ بين الله وبين عباده»[4].

---

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٢٨٢)، و«المدخل» (٥١١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٧٦)، و«الفقيه والمتفقه» (١/ ١٥١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣).

(٢) من رواية الربيع بن سليمان، ويونس بن عبد الأعلىٰ، وغيرهما. انظر: «تاريخ بغداد» (١١/ ٦)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٩٥، ٥١/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥/ ١٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٦٦)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٣١).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٥/ ٢٠٨). ورُوِي آخره مرفوعًا في حديثٍ لا يصح. انظر: «الميزان» (٢/ ٦٠٥).

وقال حمزة بن سعيد المصري: لـمَّا حَدَّثَ أبو مسلم الكَجِّي[1] أول يوم حدَّث قال لابنه: كم فَضَلَ عندنا من أثمان غلَّاتنا؟ قال: ثلاث مئة دينار[2]، قال: فرِّقها علىٰ أصحاب الحديث والفقراء شكرًا أنَّ أباك اليوم شَهِدَ علىٰ رسول الله ﷺ، فقُبِلَت شهادتُه[3].

وفي كتاب «الجليس والأنيس»[4] لأبي الفرج المعافىٰ بن زكريا الجَرِيري: حدثنا محمد بن الحسن[5] بن دُرَيْد: حدثنا أبو حاتم، عن العُتْبي، عن أبيه، قال: ٱبتنىٰ معاويةُ بالأبطح مجلسًا، فجلس عليه ومعه ٱبنةُ قَرَظَة[6]، فإذا هو بجماعةٍ علىٰ رحالٍ لهم، وإذا شابٌّ منهم قد رفع عقيرتَه يتغنَّىٰ:

مَن يُساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا ... يملأُ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْدِ الكَرَبْ[7]

قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر، قال: خلُّوا له الطريق.

---

(١) (ت، ح): «اللخمي». وهو تحريف. وهو الإمام الحافظ، إبراهيم بن عبد الله، صاحب «السنن» (ت: ٢٩٢). انظر: «السير» (١٣/ ٤٢٣).

(٢) في «السير»، و«تاريخ بغداد» (٦/ ١٢٢) أنه تصدَّق بعشرة آلاف درهم.

(٣) أخرجه ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ٢٨٠). وفي «السير» (١٩/ ٢٧٧) خبرٌ آخر في هذا المعنىٰ.

(٤) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (٣/ ١٨١). وهو في «جمهرة نسب قريش» (٢/ ٧٨٨) بإسنادٍ آخر.

(٥) (ت، ح، ن): «الحسين». تحريف.

(٦) فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، زوج معاوية.

(٧) الكَرَب: الحبلُ الذي يُشَدُّ علىٰ الدَّلو. «اللسان» (كرب). والبيت للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب.

ثمَّ إذا هو بجماعةٍ فيهم غلامٌ يتغنَّىٰ:

بيـــنما يَـــذْكُرنني أبـــصرنني عند قِيـدِ الـمِيلِ يَسْعَىٰ بي الأغَرّ

قلـنَ: تعـرفنَ الفتـىٰ؟ قلـنَ: نعـم قـد عرفنـاهُ، وهـل يخفـىٰ القمـرْ

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة، قال: خلُّوا له الطريق، فليذهب.

قال: ثمَّ إذا هو بجماعة، وإذا فيهم رجلٌ يُسْأل، يقال [له]: رميتُ قبل أن أحلق؟ وحلقتُ قبل أن أرمي؟ في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحجِّ فقال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن عمر، فالتفت إلىٰ ٱبنة قَرَظَة، وقال: هذا وأبيكِ الشَّرف، هذا والله شرفُ الدنيا والآخرة.

وقال سفيان بن عيينة: «أرفعُ الناس منزلةً عند الله من كان بين الله وبين عباده؛ وهم الأنبياءُ والعلماء»(١).

وقال سهل التُّسْتَري: «من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء، يجيءُ الرجلُ فيقول: يا فلان، أيشٍ تقولُ في رجلٍ حلف علىٰ ٱمرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طَلُقَت ٱمرأتُه، ويجيءُ آخر فيقول: حلفتُ بكذا وكذا، فيقول: ليس تَحْنَثُ بهذا القول. وليس هذا إلا لنبيٍّ أو عالم، فاعرِفوا لهم ذلك»(٢).

الوجه التاسعُ والثلاثون بعد المئة: أنَّ النفوسَ الجاهلةَ التي لا علم عندها قد أُلبِسَت ثوبَ الذلِّ، والإزراءُ عليها والتنقُّصُ بها أسرعُ منه إلىٰ غيرها، وهذا أمرٌ معلومٌ عند الخاصِّ والعام.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٣٣٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٣١).

قال الأعمش: «إني لأرىٰ الشيخَ لا يروي شيئًا من الحديث فأشتهي أن ألطِمَه»(١).

وقال أبو معاوية: سمعتُ الأعمش يقول: «من لم يطلب الحديث أشتهي أن أصفَعه بنعلي»(٢).

وقال عَثَّامُ بن علي: سمعت الأعمش يقول: إذا رأيتَ الشيخَ لم يقرأ القرآنَ ولم يكتب الحديثَ فاصفَعْ له(٣)، فإنه من شيوخ القَمْراء. قال أبو صالح(٤): قلت لأبي جعفر: ما شيوخُ القَمْراء؟ قال: شيوخٌ دُهْرِيُّون(٥)، يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس، ولا يُحْسِنُ أحدُهم أن يتوضَّأ للصلاة(٦).

وكان سفيانُ الثوري إذا رأىٰ الشيخَ لم يكتب الحديثَ قال: «لا جزاك الله خيرًا عن الإسلام»(٧).

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٦).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٣١٩).

(٣) (ت): «فاصفعه». وكلاهما جائز. والصَّفعُ كلمةٌ مولَّدة، وهو ضربُ القفا بالكفِّ مبسوطةً. انظر بحثًا طريفًا حوله في «موسوعة العذاب» للشالجي (٢/ ١٥٩ - ٢١٦)، وتعليقه على «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٣/ ١٨٩).

(٤) الطرسوسي. وشيخه أبو جعفر محمد بن عقبة. من رجال إسناد هذا الخبر.

(٥) الدُّهريُّ - بضمِّ الدال -: الرجلُ المُسِنُّ. وبفتحها: المُلْحِد. «الصحاح».

(٦) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢٠٤)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٢).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٦٥)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤١)، والهروي في «ذم الكلام» (٩٠٧)، وغيرهم. والخبر ليس في (د٤ق، ت).

وقال المزني: «كان الشافعيُّ إذا رأىٰ شيخًا سأله عن الحديث والفقه، فإن كان عنده شيء، وإلا قال له: لا جزاك الله خيرًا عن نفسك ولا عن الإسلام؛ قد ضيَّعتَ نفسَك وضيَّعتَ الإسلام».

وكان بعضُ خلفاء بني العباس يلعبُ بالشِّطرنج، فاستأذن عليه عمُّه، فأذنَ له وغطَّىٰ الرُّقعة، فلما جلس قال له: يا عم، هل قرأتَ القرآن؟ قال: لا، قال: فهل كتبتَ شيئًا من السُّنَّة؟ قال: لا، قال: فهل نظرتَ في الفقه واختلاف الناس؟ قال: لا، قال: فهل نظرتَ في العربية وأيام الناس؟ قال: لا، فقال الخليفة: ٱكشِف الرُّقعة. ثمَّ أتمَّ اللعب، وزال ٱحتشامُه وحياؤه منه، فقال له مُلاعِبُه: يا أمير المؤمنين تكشفُها ومعنا من تحتشِمُ منه[1]؟! قال: ٱسكت، فما معنا أحد![2].

وهذا لأنَّ الإنسان إنما يتميزُ عن سائر الحيوان بما خُصَّ به من العلم والعقل والفهم، فإذا عَدِمَ ذلك لم يَبْقَ فيه إلا القَدْرُ المشتركُ بينه وبين سائر الحيوانات، وهو الحيوانيَّةُ البهيميَّة، ومثلُ هذا لا يستحيي منه الناسُ ولا يمتنعون بحضرته وشهوده مما يُسْتَحيىٰ منه مِنْ[3] أولي الفضل والعلم.

الوجه الأربعون بعد المئة: أنَّ كلَّ صاحب بضاعةٍ سوىٰ العلم إذا عَلِمَ

---

(١) (ق): «نحتشم منه». والحرف الأول مهمل في (ن، ت، ح).

(٢) القصة في أمالي يحيى بن الحسين الشجري (٢/ ٣١٢)، والخليفة فيها سليمان بن عبد الملك. ونسبت للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان ولي عهد خلافة هشام، في «الجليس والأنيس» (٤/ ٨٧)، و«عيون الأخبار» (٢/ ١٢٠)، و«التذكرة الحمدونية» (٣/ ٢٩٣)، و«تاريخ دمشق» (٦٨/ ٢٠٤)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٦٥)، وغيرها.

(٣) «من» ليست في (ت، ق).

أنَّ غيرَ بضاعته خيرٌ منها زَهِدَ في بضاعته ورَغِبَ في الأخرىٰ ووَدَّ أنها له عِوَض بضاعته، إلا صاحب بضاعة العلم، فإنه ليس يحبُّ أنَّ له بحظِّه منها خَطرًا أصلًا[(١)].

قال أبو جعفر الطحاوي: كنت عند أحمد بن أبي عمران[(٢)]، فمرَّ بنا رجلٌ من بني الدنيا، فنظرتُ إليه وشُغِلتُ به عما كنتُ فيه من المذاكرة، فقال لي: كأني بك قد فكَّرتَ فيما أُعطِي هذا الرجلُ من الدنيا. قلت له: نعم. قال: هل أدلُّك علىٰ خَلَّة؟ هل لك أن يحوِّل الله إليك ما عنده من المال ويحوِّل إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنيًّا جاهلًا ويعيش هو عالمًا فقيرًا؟ فقلت: ما أختارُ أن يحوِّل الله ما عندي من العلم إلىٰ ما عنده.

فالعلمُ غنًى بلا مال، وعزٌّ بلا عشيرة، وسلطانٌ بلا رجال.

وفي ذلك قيل:

العلمُ كنزٌ وذُخْرٌ لا نفادَ له ... نعمَ القرينُ إذا ما صاحبٌ صَحِبا
قد يجمعُ المرءُ مالًا ثمَّ يُحْرَمُه ... عمَّا قليلٍ فيلقىٰ الذُّلَّ والحَرَبا
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا ... ولا يُحَاذِرُ منه الفَوْتَ والسَّلَبا
يا جامع العلم نعمَ الذُّخر تجمعُه ... لا تَعْدِلَنَّ به دُرًّا ولا ذهبا[(٣)]

---

(١) أي: عِوَضًا ومثيلًا. «اللسان» (خطر). واستعمال الخطر بهذا المعنىٰ كثير الورود في كتب المصنف. وانظر التعليق على «طريق الهجرتين» (٨٦).

(٢) شيخ الحنفية، كان من بحور العلم، لازمه الطحاوي وتفقَّه به (ت: ٢٨٠). انظر: «السير» (١٣/ ٣٣٤).

(٣) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي، في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٧٥)، و«نور القبس» (١٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢١٠)، وغيرها. وهي في مستدرك ديوانه (٣٨٣). وتنسبُ لغيره.

الوجه الحادي والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرَهم بأحسن ما كانوا يعملون، وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم؛ وهذا يدلُّ على أنه من أحسن الجزاء.

* أما المقامُ الأول؛ ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، وهذا يتناول الجزاءين الدنيويَّ والأخروي.

* وأما المقامُ الثاني؛ ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

قال الحسن: «من أحسنَ عبادةَ الله في شبيبته لقَّاهُ الله الحكمةَ في شَيبته[1]، وذلك قولُه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾»[2].

ومن هذا قولُ بعض العلماء: «تقولُ الحكمة: من ٱلتمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبحَ ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني»[3].

---

(١) (د): «شيبه». «عيون الأخبار»: «سنه»، تحريف. (ح، ن) و«المجالسة»: «عند كبر سنه». «الموضح»: «في بلوغ أشده». والأثر ساقط من (ت).

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وهو مصدر المصنف. وأخرجه الخطيب في «الموضح» (٢/ ٢٥٣)، والدينوري في «المجالسة» (٣١٥، ٢٥٩٧).

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وأخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥١) عن يونس بن ميسرة.

الوجهُ الثاني والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه جعل العلمَ للقلوب كالمطر للأرض، فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر، فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم.

وفي «الموطأ»[1]: «قال لقمانُ لابنه: يا بنيَّ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإنَّ الله تعالىٰ يحيي القلوبَ الميتة بنُور الحكمة كما يحيي[2] الأرضَ بوابل المطر».

ولهذا، الأرض إنما تحتاجُ إلىٰ المطر في بعض الأوقات، فإذا تتابعَ عليها ٱحتاجت إلىٰ ٱنقطاعه، وأما العلمُ فيحتاجُ إليه القلبُ بعدد الأنفاس، ولا يزيدُه كثرتُه إلا صلاحًا ونفعًا.

الوجهُ الثالث والأربعون بعد المئة: أنَّ كثيرًا من الأخلاق التي لا تُحْمَدُ في الشخص، بل يُذَمُّ عليها، تُحْمَدُ في طلب العلم؛ كالمَلَق[3]، وترك الاستحياء، والذُّل، والتردُّد إلىٰ أبواب العلماء، ونحوها.

قال ابن قتيبة[4]: جاء في الحديث: «ليس المَلَقُ من أخلاق المؤمنين

---

(١) «موطأ مالك» (٢٨٥٩) بلاغًا. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٧)، والبيهقي في «المدخل» (٤٤٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٣٨، ٤٣٩) من طرقٍ عن جماعةٍ من السلف.

ورُوِي مرفوعًا عند الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٣٥) من حديث أبي أمامة بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

(٢) مهملة في (د). (ت، ن) وبعض المصادر: «تحيى».

(٣) وهو الزيادةُ في التودُّد والتلطُّف فوق ما ينبغي. «اللسان» (ملق).

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢).

إلا في طلب العلم»[1].

وهذا أُثِر عن بعض السلف.

وقال ٱبن عباس: «ذللتُ طالبًا فعززتُ مطلوبًا»[2].

وقال: «وجدتُ عامَّة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحيِّ من الأنصار، إن كنتُ لأَقِيلُ عند باب أحدهم، ولو شئتُ أُذِنَ لي، ولكن أبتغي بذلك طِيبَ نفسه»[3].

وقال أبو إسحاق: قال علي: «كلماتٌ لو رَحَلتُم المَطِيَّ فيهنَّ لأنضَيتُموهُنَّ[4] قبل أن تدركوا مثلهنَّ: لا يرجونَّ عبد إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبَه، ولا يستحي من لا يعلمُ أن يتعلَّم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلمُ أن يقول: الله أعلم[5]، واعلموا أنَّ منزلةَ الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأسُ ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبرُ ذهب

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨/ ١٥٩)، وغيرهما من حديث معاذ بن جبل بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.
وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٣٦).
ورُوِي من وجوهٍ أخرىٰ لا يصحُّ منها شيء. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٨٠، ٣٨١).

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٥). وهو في «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٤٧٤)، وغيره.

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وأخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١٣٣)، والدارمي (٥٦٧)، والبيهقي في «المدخل» (٦٧٤)، وغيرهم بإسنادٍ حسن.

(٤) أتعبتموهنَّ وأهزلتموهن. وتحرَّفت على أنحاء. «ح»: «لأنقيتموهن». (ت): «لأنطيتموهن». (ط): «لأفنيتموهن». «عيون الأخبار»: «لا تصيبوهن».

(٥) (ت، ن، ح): «لا أعلم». والمثبت من (د، ق) و«عيون الأخبار».

الإيمان»[1].

ومن كلام بعض العلماء: «لا ينالُ العلمَ مستحيٍ ولا متكبِّر»[2]؛ هذا يمنعُه حياؤه من التعلُّم، وهذا يمنعُه كِبْرُه.

وإنما حُمِدَت هذه الأخلاقُ في طلب العلم لأنها طريقٌ إلىٰ تحصيله، فكانت من كمال الرجل ومُفْضِيةً إلىٰ كماله.

ومِنْ كلام الحسن: «من ٱستتر عن طلب العلم بالحياء لَبِسَ للجهل سربالَه، فقطِّعوا سرابيلَ الحياء؛ فإنه من رَقَّ وجهُه رَقَّ علمُه»[3].

وقال الخليل: «منزلةُ الجهل بين الحياء والأنَفَة»[4].

ومن كلام عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنه: «قُرِنت الهيبةُ بالخيبة، والحياءُ بالحرمان»[5].

---

(١) «عيون الأخبار» (٢/ ١١٩). وأخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٣٠)، و«المصنف» (١٣/ ٢٨٣)، ومعمر في «الجامع» (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي عمر في «الإيمان» (١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥)، وغيرهم من طرقٍ بعضها حسن.

(٢) علَّقه البخاري في «الصحيح» (١/ ٤٣) عن مجاهد، ووصله أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٧)، والبيهقي في «المدخل» (٤١٠)، وغيرهم.
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٢٠) عن أبي العالية.

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣). وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٦). وهو في «العقد» (٢/ ٤١٥)، وغيره.

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣).

(٥) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣). وهو في «نهج البلاغة» (٤/ ٦)، و«أمالي القالي» (٢/ ٩٤)، و«تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٦٤)، وغيرها.

وقال إبراهيمُ لمنصور[1]: «سل مسألةَ الحمقىٰ، وٱحفَظ حِفظَ الأكياس»[2].

وكذلك سؤالُ الناس هو عيبٌ ونقصٌ في الرجل وذِلَّةٌ تنافي المروءة، إلا في العلم، فإنه عينُ كماله ومروءته وعزِّه، كما قال بعض أهل العلم: «خيرُ خصال الرجل السؤالُ عن العلم»[3].

وقيل: «إذا جلستَ إلىٰ عالمٍ فسَلْ تفقُّهًا لا تعنُّتًا»[4].

وقال رؤبة بن العجَّاج: أتيتُ النسَّابةَ البكري[5]، فقال: من أنت؟ قلت: أنا ٱبن العجَّاج، قال: قصَّرتَ وعرَّفت، لعلَّك كقومٍ إن سكتُّ لم يسألوني، وإن تكلَّمتُ لم يَعُوا عنِّي؟ قلت: أرجو أن لا أكون كذلك، قال: ما أعداءُ المروءة؟ قلت: تُخْبِرُني، قال: بنو عمِّ السُّوء؛ إن رأوا حسنًا ستروه، وإن رأوا سيِّئًا أذاعوه. ثمَّ قال: إنَّ للعلم آفةً ونكدًا وهُجْنةً؛ فآفتُه نسيانُه، ونكَدُه الكذبُ فيه، وهُجْنتُه نشرُه عند غير أهله[6].

---

(١) إبراهيمُ هو النخعي، ومنصورُ ابن المعتمر.

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وهو في «جمهرة الأمثال» (١/ ٧٩)، وغيره.

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣).

(٤) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣). وهو في «العقد» (٢/ ٢٢٤)، وغيره.

(٥) دَغْفَل بن حنظلة بن زيد، عالمٌ بالنَّسب، يقال: له صحبة (ت: ٧٠). انظر: «الإصابة» (٢/ ٣٨٠)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ٤٨٦).

(٦) «عيون الأخبار» (٢/ ١١٨). وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٨٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٤٩)، وغيرهم.

وأنشدَ ٱبنُ الأعرابي[1]:

ما أقربَ الأشياءَ حين يَسُوقُها قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تُقْدَرِ
فسَلِ الفقيهَ تكن فقيهًا مثله مَن يَسْعَ في علمٍ بِذُلٍّ يَمْهَرِ
فتدبَّر العلمَ الذي تُعنى[2] به لا خيرَ في علمٍ بغير تدبُّرِ
ولقد يَجِدُّ المرءُ[3] وهو مُقَصِّرٌ ويخيبُ جَدُّ المرء غير مُقَصِّرِ
ذَهَبَ الرجالُ المقتدىٰ بفِعَالهم والمنكِرون لكلِّ أمرٍ منكرِ
وبقيتُ في خَلْفٍ يُزيِّنُ بعضُهم بعضًا لِيَدْفَعَ مُعْوِرٌ[4] عن مُعْوِرِ

وللعلم ستُّ مراتب[5]:

أولها: حُسْنُ السؤال.

الثانية: حُسْنُ الإنصات والاستماع.

---

(١) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣). والأبيات الأربعة الأولىٰ في «لباب الآداب» (٣٦١) دون نسبة. والأول والأخيران في «بهجة المجالس» (١/ ١٨٢، ٨٠١) لعبدالله بن المبارك، وللحسن الأصفهاني في «إرشاد الأريب» (٨٧٥). والأخيران لأبي الأسود الدؤلي في «إرشاد الأريب» (١٤٧٣)، ومستدرك ديوانه (٣٩٧)، ولمرة بن عمرو الخزاعي في «معجم الشعراء» (٢٩٥)، وللحكم بن عبدل الأسدي في «المؤتلف والمختلف» (١٦١)، وللمرار بن حمويه الهمداني في «التدوين» (٤/ ٨٣). والأول ـ وحده ـ لعبد الله بن يزيد الهلالي في «حماسة البحتري» (٢٤٦).

(٢) في الأصول: «تفتي». والمثبت من «عيون الأخبار» و«لباب الآداب»، وهو أشبه بالصواب.

(٣) أي: يكون ذا حظوةٍ ورزق. من الجَدِّ.

(٤) قبيحُ السِّيرة، كأنه بادي العورة.

(٥) أصلها في «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وتصرَّف فيها المصنف.

الثالثة: حُسْنُ الفهم.

الرابعة: الحفظ.

الخامسة: التعليم.

السادسة ـ وهي ثمرتُه ـ: وهي العملُ به ومراعاةُ حدوده.

فمن الناس من يُحْرَمُه لعدم حُسْن سؤاله؛ إمَّا أنه لا يسألُ بحال، أو يسألُ عن شيءٍ وغيرُه أهمُّ إليه منه؛ كمن يسألُ عن فُضوله التي لا يضرُّ جهلُه بها، ويدعُ ما لا غنىٰ له عن معرفته. وهذه حالُ كثيرٍ من الجهَّال المتعالِمين[1].

ومن الناس من يُحْرَمُه لسوء إنصاته، فيكونُ الكلامُ والمماراةُ آثَرَ عنده من حُسْن الاستماع[2]. وهذه آفةٌ كامنةٌ[3] في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا ولو كان حَسَنَ الفهم.

ذكر ابنُ عبد البر[4] عن بعض السَّلف أنه قال: «من كان حسنَ الفهم رديءَ الاستماع لم يَقُمْ خيرُه بشرِّه».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب «العلل» له[5] قال: «كان عروةُ بن

---

(١) (ح، ن): «المتعلمين».

(٢) (ح، ن): «آثر عنده وأحب إليه من الإنصات».

(٣) (ق، د): «كاينة».

(٤) في «جامع بيان العلم» (١/ ٤٤٨) عن أنس بن أبي شيخ. وهو بليغٌ كاتب، قتله الرشيد سنة ١٨٧ علىٰ الزندقة. انظر: «لسان الميزان» (١/ ٤٦٨).

(٥) (١/ ١٨٦)، والأشبه أنه للإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله. وأخرجه أحمد أيضًا في «فضائل الصحابة» (١٨٦٩)، وأخرجه عنه ـ من غير طريق عبد الله ـ الخطيبُ في «الجامع» (١/ ٣١٧).

الزبير[1] يحبُّ مُمَاراةَ ٱبنَ عباس فكان يَخْزُنُ علمَه عنه، وكان عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة يَلْطُفُ له في السؤال فيَغُرُّه بالعلم غَرًّا[2]».

وقال ٱبن جريج: «لم أستخرج العلمَ الذي ٱستخرجتُ من عطاء إلا برفقي به»[3].

وقال بعضُ السَّلف: «إذا جالستَ العالم فكن علىٰ أن تسمع أحرصَ منك علىٰ أن تقول»[4].

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمَّل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتحُ مراعاتُـها للعبد أبوابَ العلم والهدىٰ، وكيف ينغلقُ بابُ العلم عنه من إهمالها وعدم

---

(١) كذا في الأصول. وهو وهم. وإنما هو أبو سلمة بن عبد الرحمن، كما في «العلل» والمصادر السابقة. وقد كان يماري ابنَ عباس، فحُرِم بذلك علمًا كثيرًا. انظر: «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٢٥٠)، و«التمهيد» (٧/ ٦٠، ٦١)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٧٥)، وغيرها. وصحَّ عنه أنه كان يقول: «لو رفقتُ بابن عباس لأصبتُ منه علمًا كثيرًا». أخرجه الدارمي (٤١٢، ٥٦٨) وغيره.

(٢) غَرَّ الطائرُ فرخَه: أطعمه بفمه. «اللسان» (غرر) و(زقق). والعبارة مهملة في (ق، ت، د)، وتحرفت في (ط) وكثير من المصادر، وهي مقتبسةٌ من حديثٍ مرفوع لا يصحُّ إسناده أنه ﷺ كان يغرُّ عليًّا بالعلم غرًّا، أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ١٧٠).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٢٣، ٥١٩).

(٤) «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٥٢١)، و«الأمالي» للقالي (٢/ ١٨٨).

مراعاتها؛ فإنه سبحانه ذكر أنَّ آياته المتلوَّة المسموعة والمرئيَّة المشهودة إنما تكونُ تذكرةً لمن كان له قلب؛ فإنَّ من عَدِمَ القلبَ الواعي عن الله لم ينتفع بكلِّ آيةٍ تمرُّ عليه ولو مرَّت به كلُّ آية، ومرورُ الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورِها علىٰ من لا بصر له، فإذا كان له قلبٌ كان بمنزلة البصير إذا مرَّت به المرئيَّات فإنه يراها.

ولكنَّ صاحبَ القلب لا ينتفعُ بقلبه إلا بأمرين:

* **أحدهما**: أن يُحْضِرَه ويُشْهِدَه لما يُلقىٰ إليه؛ فإذا كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفعُ به.

* فإذا أَحْضَرَه وأَشْهَدَه لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكلِّيَّته إلىٰ ما يُوعَظُ به ويُرْشَدُ إليه.

وها هنا ثلاثةُ أمور:

أحدها: سلامةُ القلب وصحتُه وقبولُه.

الثاني: إحضارُه وجَمْعُه ومنعُه من الشُّرود والتفرُّق.

الثالث: إلقاءُ السمع وإصغاؤه والإقبالُ علىٰ الذكر(١).

فذكرَ اللهُ تعالىٰ الأمورَ الثلاثة في هذه الآية.

قال ابن عطية(٢): «القلبُ هنا عبارةٌ عن العقل؛ إذ هو محلُّه، والمعنىٰ: لمن كان له قلبٌ واعٍ ينتفعُ به».

قال: «وقال الشِّبلي: قلبٌ حاضرٌ مع الله لا يغفلُ عنه طرفةَ عين.

---

(١) (ح، ن): «المذكر». وهي محتملة.

(٢) في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٥٦٨).

وقولُه: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صَرَف سمعَه إلىٰ هذه الأنباء الواعظة، وأثبته في سمعه[1]، فذلك إلقاءٌ له عليها، ومنه قولُه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، أي: أثبتُّها عليك.

وقولُه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعضُ المتأوِّلين: معناه: وهو شاهدٌ[2] مقبلٌ علىٰ الأمر غير معرضٍ عنه ولا مفكِّرٍ في غير ما يسمع».

قال: «وقال قتادة: هي إشارةٌ إلىٰ أهل الكتاب. فكأنه قال: إنَّ هذه العِبَر لتذكرةٌ لمن له فهمٌ فتدبَّرَ الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهدَ بصحَّتها لعلمه بها من كتاب التوراة[3] وسائر كتب بني إسرائيل».

قال: «فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ علىٰ التأويل الأول من المشاهدة، وعلىٰ التأويل الثاني من الشهادة».

وقال الزجَّاج[4]: «معنىٰ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ من صَرَف قلبَه إلىٰ التفهُّم، ألا ترىٰ أنَّ قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] أنهم لم يستمعوا ٱستماعَ متفهِّمٍ مسترشدٍ، فجُعِلوا بمنزلة من لم يسمع، كما قال الشاعر:

* أصَمُّ عمَّا ساءه سميعُ *[5]

---

(١) كذا في الأصول. وفي مطبوعة التفسير: «وانتبه في سماعها»، تحريف. وفي الطبعة المغربية (١٥/ ١٨٩): «وأثبته في سماعها».

(٢) في مطبوعتي التفسير: «وهو مشاهِد». وهو أصوب؛ لما سيأتي.

(٣) (ت، د، ح، ن): «كتابه التوراة».

(٤) في «معاني القرآن» (٥/ ٤٨).

(٥) شطرٌ يجري مجرىٰ الأمثال، في «أسرار البلاغة» (٧٩)، و«شرح الحماسة» =

ومعنىٰ ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: ٱستَمَع ولم يَشْغَل قلبَه بغير ما يستمع، والعربُ تقول: ألقِ إليَّ سمعَك، أي: ٱستمِعْ منِّي.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: قلبُه فيما يسمع».

قال: «وجاء في التفسير[1] أنه يعني به أهلَ الكتاب الذين عندهم صفةُ النبيِّ ﷺ. فالمعنىٰ: أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيدٌ أنَّ صفةَ النبيِّ ﷺ في كتابه».

وهذا هو الذي حكاه ٱبن عطية عن قتادة، وذكرَ أنَّ شهيدًا فيه بمعنىٰ شاهد، أي: مُخْبِر.

وقال صاحب «الكشاف»[2]: «﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ واعٍ؛ لأنَّ من لا يعي قلبُه فكأنه لا قلب له. وإلقاءُ السمع: الإصغاء.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضرٌ بفطنته؛ لأنَّ من لا يُحْضِرُ ذهنَه فكأنه غائب. أو هو مؤمنٌ شاهدٌ علىٰ صحته وأنه وحيٌ من الله. أو هو[3] بعضُ الشهداء في قوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وعن قتادة: وهو شاهدٌ علىٰ صدقه من أهل الكتاب؛ لوجود نعته عنده».

= للمرزوقي (١٤٥٠)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١٤٠)، وغيرها دون نسبة. وتحرَّفت في (د، ت، ق) «ساءه» إلىٰ «شاءه».

(١) أي: التفسير المأثور. ولعله يريد أثر قتادة. وقد روىٰ الزجاجُ تفسير الإمام أحمد عن ابنه عبد الله إجازةً، كما في «معاني القرآن» (٤/ ٨)، وذكر في (٤/ ١٦٦) أن أكثر ما روىٰ في كتابه من التفسير فهو من كتاب التفسير للإمام أحمد.

(٢) (٤/ ٣٩١).

(٣) في الأصول: «وهو». والمثبت من «الكشاف»، وهو الصواب.

فلم يُختَلف في أنَّ المراد بالقلب القلبُ الواعي، وأنَّ المرادَ بإلقاء السمع إصغاؤه وإقبالُه علىٰ الذكر[1]، وتفريغُ سمعه له.

واختلف في الشهيد علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهدة، وهي الحضور. وهذا أصحُّ الأقوال، ولا يليقُ بالآية غيرُه.

الثاني: أنه شهيدٌ من الشهادة[2].

وفيه علىٰ هذا ثلاثةُ أقوال:

أحدها: أنه شاهدٌ علىٰ صحَّته بما معه من الإيمان.

الثاني: أنه شاهدٌ من الشهداء علىٰ الناس يوم القيامة.

الثالث: أنها شهادةٌ من الله عنده علىٰ صحَّة نبوَّة رسول الله ﷺ بما عَلِمَه من الكتب المنزَّلة.

والصوابُ القولُ الأول؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جملةٌ حاليَّة، والواو فيها واو الحال، أي: ألقىٰ السمعَ في هذه الحال. وهذا يقتضي أن يكون حالَ إلقائه السمعَ شهيدًا، وهذا من[3] المشاهدة والحضور.

ولو كان المرادُ به الشهادةَ في الآخرة أو في الدنيا لمَا كان لتقييدها بإلقاء السمع معنىٰ؛ إذ يصيرُ الكلام: إنَّ في ذلك لآيةً لمن كان له قلبٌ أو

(١) (د، ح، ن): «المذكر».

(٢) (ق): «من المشاهدة». وهو تحريف.

(٣) (د، ن): «وهذا هو من». (ق): «وهذا أهون».

ألقىٰ السمعَ حال كونه شاهدًا بما معه في التوراة، أو حال كونه شهيدًا يوم القيامة. ولا ريب أنَّ هذا ليس هو المراد بالآية.

وأيضًا؛ فالآيةُ عامَّةٌ في كلِّ من له قلبٌ أو ألقىٰ السمع، فكيف يُدَّعىٰ تخصيصُها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادةٌ من كتبهم علىٰ صفة النبيِّ ﷺ؟!

وأيضًا؛ فالسورةُ مكيَّة، والخطابُ فيها لا يجوزُ أن يختصَّ بأهل الكتاب، ولا سيما مثلُ هذا الخطاب الذي عُلِّق فيه حصولُ مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟!

فإن قيل: المختصُّ بهم قولُه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فهذا أفسدُ وأفسد؛ لأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يرجعُ الضميرُ فيه إلىٰ جملة من تقدَّم، وهو: من له قلبٌ أو ألقىٰ السمع، فكيف يُدَّعىٰ عَوْدُه إلىٰ شيءٍ غايتُه أن يكون بعض المذكور أوَّلًا، ولا دلالةَ في اللفظ عليه؟! فهذا في غاية الفساد[1].

وأيضًا؛ فإنَّ المشهودَ به محذوف، ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المرادُ به: وهو شاهدٌ بكذا، لذكر المشهودَ به؛ إذ ليس في اللفظ ما يدلُّ عليه، وهذا بخلاف ما إذا جُعِلَ من الشُّهود ـ وهو الحضور ـ فإنه لا يقتضي مفعولًا مشهودًا به، فيتمُّ الكلامُ بذكره وحده.

وأيضًا؛ فإنَّ الآيةَ تضمنَّت تقسيمًا وترديدًا بين قسمين:

أحدهما: من كان له قلب.

---

(١) «فهذا في غاية الفساد» ليست في (ت، ح، ن).

والثاني: من ألقىٰ السمعَ وحَضَرَ بقلبه ولم يَغِب، فهو حاضرُ القلب شاهِدُه لا غائبُه.

وهذا ـ والله أعلم ـ سرُّ الإتيان بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو؛ لأنَّ المنتفِعَ بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الزَّكيِّ الذي يكتفي بهدايته بأدنىٰ تنبيه، ولا يحتاجُ أن يَسْتَجْلِبَ قلبَه ويُحْضِرَه ويجمعه من مواضع شَتاته، بل قلبُه واعٍ زكيٌّ قابلٌ للهدىٰ غير معرضٍ عنه؛ فهذا لا يحتاجُ إلا إلىٰ وصول الهدىٰ إليه فقط؛ لكمال ٱستعداده وصحَّة فطرته، فإذا جاءه الهدىٰ سارع قلبُه إلىٰ قبوله، كأنه كان مكتوبًا فيه، فهو قد أدركه مجملًا ثمَّ جاء الهدىٰ بتفصيل ما شهدَ قلبُه بصحَّته مجملًا. وهذه حالُ أكمل الخلق ٱستجابةً لدعوة الرسل، كما هي حالُ الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه.

النوع الثاني: من ليس له هذا الاستعدادُ والقبول؛ فإذا وردَ عليه الهدىٰ أصغىٰ إليه بسمعه، وأحضَرَ قلبَه وجَمَعَ فكرتَه عليه، وعلم صحَّته وحُسْنَه بنظره واستدلاله. وهذه طريقةُ أكثر المستجيبين، ولهم نُوِّعَ ضربُ الأمثال، وإقامةُ الحُجَج، وذِكْرُ المعارضات والأجوبة عنها.

والأوَّلون: هم الذين يُدْعَوْنَ بالحكمة، وهؤلاء: يُدْعَوْنَ بالموعظة الحسنة. فهؤلاء نوعا المُستجيبين.

وأمَّا المعارضون الدافعون للحقِّ(١)، فنوعان: نوعٌ يُدْعَوْنَ بالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن ٱستجابوا وإلا فالمُجَالَدة؛ فهؤلاء لا بدَّ لهم من جدالٍ

---

(١) (ح، ن): «المدعون للحق».

أو جِلَاد[1].

ومن تأمَّل دعوةَ القرآن وجدها شاملةً لهؤلاء الأقسام، متناولةً لها كلِّها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهؤلاء المدعوُّون بالكلام.

وأمَّا أهلُ الجِلَاد، فهم الذين أمر اللهُ بقتالهم حتىٰ لا تكون فتنةٌ ويكون الدِّينُ كلُّه لله.

وأمَّا من فسَّر الآيةَ بأنَّ المرادَ بـ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ هو المستغني بفطرته عن علم المنطق، وهو المؤيَّدُ بقوَّةٍ قُدسيَّة ينالُ بها الحدَّ الأوسط بسرعة؛ فهو لكمال فطرته مُسْتَغْنٍ عن مراعاة أوضاع المنطق، والمرادَ بـمَنْ ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ من ليست له هذه القوَّة؛ فهو محتاجٌ إلىٰ تعلُّم المنطق ليوجبَ له مراعاتُه وإصغاؤه إليه أن لا يزيغ في فكره، وفسَّر قولَه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أنها القياسُ البرهاني، و﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ القياس الخَطابي، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ القياس الجَدَلي= فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحدٍ من أئمَّة التفسير، بل ولا من تفاسير المسلمين، وهو تحريفٌ لكلام الله تعالىٰ، وحملٌ له علىٰ ٱصطلاح المنطقيَّة المبخوسة الحظِّ من العقل والإيمان[2].

---

(١) فالنوع الأول: أهل الجدال. والثاني: أهل الجِلاد. وانظر: «الصواعق المرسلة» (١٢٧٦)، و«الفروسية» (٨٣، ٨٤)، و«هداية الحيارىٰ» (٢١).

(٢) ذكر هذا التفسير ابنُ رشد في «فصل المقال» (١٧).

وهـذا مـن جـنس تفاسـير القرامطـة والباطنيـة وغـلاة الإسـماعيلية لِـمَا يفسِّرونه من القرآن وينزِّلونه علىٰ مذاهبهم الباطلـة، وكـذلك تفسيرُ الجهمية والمعتزلة والرافضة للآيات التي ينزِّلونها علىٰ أقوالهم الباطلة[1] والقرآن بريءٌ من ذلك كلِّه، منزَّهٌ عن هذه الأباطيل والهذيانات.

وقد ذكرنا بطلانَ ما فسَّر به المنطقيُّون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرىٰ في موضعٍ آخر من وجوهٍ متعدِّدة، وبيَّنَّا بطلانَه عقلًا وشرعًا ولغةً وعُرفًا، وأنه يتعالىٰ كلامُ الله عن حمله علىٰ ذلك[2]. وبالله التوفيق.

والمقصودُ بيانُ حرمان العلم من هذه الوجوه الستة:

أحدها: تركُ السؤال.

الثاني: سوءُ الإنصات وعدمُ إلقاء السمع.

الثالث: سوءُ الفهم.

الرابع: عدمُ الحفظ.

الخامس: عدمُ نشره وتعليمه؛ فإنَّ من خَزَنَ علمَه ولم ينشره ولم يعلِّمه ٱبتلاه الله بنسيانه وذهابه منه؛ جزاءً من جنس عمله، وهذا أمرٌ يشهدُ به الحسُّ والوجود.

---

(١) من قوله: «وكذلك تفسير الجهمية» إلىٰ هنا ليس في (ح، ن).

(٢) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (٤٤١، ٤٤٤ - ٤٤٧، ٤٦٧ - ٤٦٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٤٢، ٤٤ - ٤٦، ١٩/ ١٦٤).

ولم أجد الموضع الذي أشار إليه المصنف هنا في كتبه، وقد أشار إليه كذلك في «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٦).

السادس: عدمُ العمل به؛ فإنَّ العملَ به يوجبُ تذكُّرَه وتدبُّرَه ومراعاتَه والنظرَ فيه، فإذا أهملَ العملَ به نسيه.

قال بعضُ السلف: «كنا نستعينُ علىٰ حفظ العلم بالعمل به»[1].

وقال بعضُ السَّلف أيضًا: «العلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه حَلَّ وإلا ٱرتحل».

فالعملُ به من أعظم أسباب حفظه وثباته، وتضييعُ العمل به إضاعةٌ له؛ فما ٱستُدِرَّ العلمُ ولا ٱستُجلِبَ بمثل العمل، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأما قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلَّتان: طلبيَّة؛ وهي الأمرُ بالتقوىٰ، وخبريَّة؛ وهي قولُه تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: والله يعلِّمُكم ما تتقون. وليست جوابًا للأمر، ولو أريد بها الجزاءُ لأُتِيَ بها مجزومةً مجرَّدةً عن الواو، فكان يقول: «واتقوا الله يعلِّمْكم»، أو: «إن تتقوه يعلِّمْكم»، كما قال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فتدبَّره[2].

الوجه الرابع والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه نفىٰ التسويةَ بين العالِم وغيره، كما نفىٰ التسويةَ بين الخبيث والطيِّب، وبين الأعمىٰ والبصير،

---

(١) تقدم تخريجه والذي يليه (ص: ٢٧٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٨/ ١٧٧)، و«الموافقات» (٥/ ٢٨٣)، و«البرهان» للزركشي (٤/ ١٤٣).

وبين النُّور والظُّلمة، وبين الظِّلِّ والحَرُور، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبين الأبكم العاجز الذي لا يَقْدِرُ علىٰ شيءٍ ومن يأمُرُ بالعدل وهو علىٰ صراطٍ مستقيم، وبين المؤمنين والكفار، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، وبين المتَّقين والفجَّار.

فهذه عشرةُ مواضع في القرآن[1] نفىٰ فيها التسويةَ بين هؤلاء الأصناف، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ منزلة العالِم من الجاهل كمنزلة النُّور من الظُّلمة، والظِّلِّ من الحَرُور، والطيِّب من الخبيث، ومنزلة كلِّ واحدٍ من هذه الأصناف مع مُقابِله.

وهذا كافٍ في شرف العلم وأهله.

بل إذا تأمَّلتَ هذه الأصنافَ كلَّها وجدتَ نفيَ التسوية بينها راجعًا إلىٰ العلم ومُوجَبه؛ فبه وقع التفضيلُ[2] وانتفت المساواة.

الوجه الخامس والأربعون بعد المئة: أنَّ سليمان لما تواعَدَ[3] الهدهدَ بأن يعذِّبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم، وأقْدَمَ عليه في خطابه

---

(١) وهي ـ علىٰ التوالي ـ: الزمر: ٩، المائدة: ١٠٠، فاطر: ١٩، ٢٠، ٢١، الحشر: ٢٠، النحل: ٧٦، السجدة: ١٨، ص: ٢٨.

(٢) (ح، ن): «التفصيل».

(٣) (ق، ح، ن): «توعد». والمثبت من (د، ت). أي: تهدَّده. وهي لغةٌ فصيحةٌ أخلَّت بها المعاجم، ووردت كثيرًا في كلام الصدر الأول فمن بعدهم. انظر: «موطأ مالك» (١٠٠٩)، و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٧٨٨، ١٧١٠٣)، و«أخبار مكة» للفاكهي (١٦٥٩، ٢١٦٢)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٢٠٩)، و«عون المعبود» (٣/ ٩٩ – الطبعة الهندية)، وغيرها. وكذلك وقعت بخط المصنف في «طريق الهجرتين» (٦٣٠).

له بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وهذا الخطابُ إنما جرَّأه عليه العلم، وإلا فالهدهدُ مع ضعفه لا يتمكَّنُ في خطابه لسليمان مع قوَّته بمثل هذا الخطاب لولا سلطانُ العلم.

ومن هذا الحكايةُ المشهورة أنَّ بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمُها، فقال أحدُ تلامذته: أنا أعلمُ هذه المسألة، فغضبَ الأستاذُ وهَمَّ به، فقال له: أيها الأستاذ، لستَ أعلمَ من سليمان بن داود ولو بلغتَ في العلم ما بلغت، ولستُ أنا أجهلَ من الهدهد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ فلم يعتب عليه ولم يعنِّفه[1].

الوجه السادس والأربعون بعد المئة: أنَّ من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم.

وتأمَّل ما حصلَ لآدم من تمييزه[2] علىٰ الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماءَ كلَّها، ثمَّ ما حصلَ له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنىٰ الجنة بما هو خيرٌ له منها= بعلم الكلمات التي تلقَّاها من ربِّه.

وما حصلَ ليوسف من التمكين في الأرض والعزَّة والعظمة بعلمه بعبارة تلك الرُّؤيا، ثمَّ عِلْمه بوجوه ٱستخراج أخيه من إخوته بما يقرُّون به ويحكمون هم به، حتىٰ آل الأمرُ إلىٰ ما آل إليه من العزِّ والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصَّل إليها بالعلم، كما أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» (٥/ ١٣٤)، و«ثمار القلوب» (٢/ ٧٠٦).

(٢) (د، ت، ح، ن): «تميزه».

﴿كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، جاء في تفسيرها: «نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ بالعلم، كما رفعنا درجةَ يوسف علىٰ إخوته بالعلم»(١).

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ فهذه رفعةٌ بعلم الحجَّة، والأولُ رفعةٌ بعلم السِّياسة.

وكذلك ما حصلَ للخَضِر بسبب علمه من تَلْمَذَةِ كليم الرحمن له(٢)، وتلطُّفه معه في السؤال، حتىٰ قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وكذلك ما حصلَ لسليمان من عِلْم منطق الطَّير حتىٰ وصلَ إلىٰ مُلْك سبأ، وقَهَرَ مَلِكتَهم، واحتوىٰ علىٰ سرير مُلْكها، ودخولِها(٣) تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك ما حصلَ لداود من عِلْم نَسْج الدُّروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدَّدَ سبحانه هذه النِّعمة بهذا العلم علىٰ عباده(٤)، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٢٧)، و«فتح القدير» (٣/ ٤٣).

(٢) (ت، ح، ن): «تلميذه كليم الرحمن له».

(٣) (ن): «وأدخلها». وفي (د، ت، ق): «ودخولهم». وهي محتملة.

(٤) أي: أحصاها وعرَّفهم قدرها. واستعمال (عدَّد) للمفرد في مثل هذا السياق يقع في كتب المصنف. انظر: «الصواعق المرسلة» (٧٧٦).

وكذلك ما حصلَ للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه اللهُ به إليه وفضَّله وكرَّمه.

وكذلك ما حصلَ لسيِّد ولد آدم ﷺ من العلم الذي ذكَّره[1] اللهُ به نعمَه عليه[2]؛ فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه السابعُ والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه أثنىٰ علىٰ إبراهيم خليله بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].

فهذه أربعةُ أنواعٍ من الثناء:

ٱفتتحها بأنه أمَّة. والأمَّةُ هو القدوة الذي يُؤتَمُّ به؛ قال ٱبن مسعود: «والأمَّةُ المعلِّم للخير»[3]، وهي فُعْلةٌ من الائتمام، كقُدوة، وهو الذي يقتدىٰ به.

والفرقُ بين الأمَّة والإمام من وجهين:

أحدهما: أنَّ «الإمام» كلُّ ما يؤتَمُّ به، سواءٌ كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمِّي الطريقُ: إمامًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾

---

(١) (ت): «وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم ﷺ الذي ذكر».

(٢) (ق): «نعمة عليه».

(٣) علَّقه البخاري في «الصحيح» (٥/ ٢٢٣)، ووصله الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٠)، وغيرهم من طرق. وصححه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٧٢)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٣٨).

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨ - ٧٩]، أي: بطريقٍ واضحٍ لا يخفىٰ علىٰ السالك. ولا يسمَّىٰ الطريقُ: أمَّة.

الثاني: أنَّ «الأمَّة» فيه زيادةُ معنىٰ؛ وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فردًا وحده، فهو الجامعُ لخصالٍ تفرَّقت في غيره، فكأنه بايَنَ غيره باجتماعها فيه وتفرُّقها أو عدمها في غيره.

ولفظُ «الأمَّة» يُشْعِرُ بهذا المعنىٰ؛ لِمَا فيه من الميم المُضعَّفة الدَّالَّة علىٰ الضمِّ بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضَمُّ أوله؛ فإنَّ الضَّمة من الواو، ومخرجُها ينضمُّ عند النطق بها، وأتىٰ بالتاء الدَّالَّة علىٰ الوَحْدَة كالغُرفة واللُّقمة، ومنه الحديث: «**إنَّ زيد بن عمرو بن نفيلٍ يُبعثُ يوم القيامة أمَّةً وحده**»[(١)].

فالضمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنىٰ «الأمَّة»، ومنه سمِّيت «الأمَّة» التي هي آحادُ الأمم؛ لأنهم الناسُ المجتمعون علىٰ دينٍ واحدٍ أو في عصرٍ واحد[(٢)].

الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، قال ٱبن مسعود: «القانت المطيع»[(٣)]. والقنوتُ يفسَّر بأشياء كلها ترجعُ إلىٰ دوام الطاعة.

---

(١) رُوِي من وجوهٍ كثيرة. من أحسنها ما أخرجه أبو يعلىٰ في «المسند» (٩٧٣)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤١٧) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه.
وانظر: مسانيد أحمد (١/ ١٨٩)، والبزار (١٣٣١)، والطيالسي (٢٣١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٢٦).

(٢) (ق، د): «علىٰ دين واحد وفي عصر واحد أو علىٰ دين واحد».

(٣) جزءٌ من الأثر السابق في تفسير «الأمة».

الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، والحنيفُ الـمُقْبِلُ علىٰ الله. ويلزمُ هذا المعنىٰ ميلُه عمَّا سواه، فالـمَيْلُ لازمُ معنىٰ الـحَنَف، لا أنه موضوعُه لغةً[1].

الرابع: قولُه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، والشكرُ للنِّعم مبنيٌّ علىٰ ثلاثة أركان:

* الإقرارُ بالنعمة.

* وإضافتُها إلىٰ الـمُنْعِم بها.

* وصرفُها في مرضاته، والعملُ فيها بما يُحِبُّ.

فلا يكونُ العبدُ شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة[2].

والمقصودُ أنه مدح خليلَه بأربع صفاتٍ كلها ترجعُ إلىٰ العلم، والعمل بمُوجَبه، وتعليمه ونشره؛ فعاد الكمالُ كلُّه إلىٰ العلم والعمل بمُوجَبه ودعوة الخلق إليه.

الوجه الثامن والأربعون بعد المئة: قولُه سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣١].

قال سفيانُ بن عيينة: «﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال: معلِّمًا للخير»[3].

---

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (٣٠٦).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٤)، و«الوابل الصيب» (٥، ٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٨/ ١٩١).

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ تعليمَ الرجل الخيرَ هو البركةُ التي جعلها اللهُ فيه[1]؛ فإنَّ البركة حصولُ الخير ونماؤه ودوامه. وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء، وتعليمه.

ولهذا يسمِّي سبحانه كتابَه: مباركًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، ووصف رسولَه بأنه مبارك، كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]؛ فبركةُ كتابه ورسوله هي سببُ ما يحصلُ بهما[2] من العلم والهدىٰ والدعوة إلىٰ الله.

الوجه التاسع والأربعون بعد المئة: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتَفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، رواه مسلم في «الصحيح»[3].

وهذا من أعظم الأدلة علىٰ شرف العلم وفضله وعِظَم ثمرته؛ فإنَّ ثوابَه يصلُ إلىٰ الرجل بعد موته ما دام يُنتَفعُ به، فكأنه حيٌّ لم ينقطع عملُه، مع ما له من حياة الذِّكر والثناء؛ فجريانُ أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانية.

وخصَّ النبيُّ ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب منها إلىٰ الميِّت

---

(١) انظر: «الوابل الصيب» (٩٩، ١٧٧)، و«جلاء الأفهام» (١٧٩)، و«رسالة ابن القيم إلىٰ بعض إخوانه» (٣).

(٢) (ح): «هي بسبب ما يحصل بهما».

(٣) (١٦٣١).

لأنه سببٌ لحصولها، والعبدُ إذا باشر السببَ الذي يتعلَّقُ به الأمرُ والنهيُ ترتَّب[1] عليه مسبَّبه وإن كان خارجًا عن سعيه وكسبه؛ فلما كان هو السببَ في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرىٰ عليه ثوابُه وأجرُه لتسبُّبه فيه؛ فالعبدُ إنما يثابُ علىٰ ما باشره أو علىٰ ما تولَّد منه[2].

وقد ذكر تعالىٰ هذين الأصلَيْن في كتابه في سورة براءة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهذه الأمورُ كلُّها متولِّداتٌ عن أفعالهم، غير مقدورةٍ لهم، وإنما المقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها.

ثمَّ قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ فالنفقةُ وقَطْعُ الوادي أفعالٌ مقدورةٌ لهم.

وقال في القسم الأول: ﴿كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾؛ لأن المتولِّدَ حاصلٌ عن شيئين: أفعالهم وغيرها، فليست أفعالُهم سببًا مستقلًّا في حصول المتولِّد، بل هي جزءٌ من أجزاء السبب، فيُكتَبُ لهم من ذلك ما كان مقابلًا لأفعالهم.

وأيضًا؛ فإنَّ الظَّمأ والنَّصَب وغَيْظَ العدوِّ ليس من أفعالهم، فلا يُكتَبُ

---

(١) (ح، ن): «يترتب».

(٢) انظر: «التقريب لعلوم ابن القيم» (١٧٢).

لهم نفسُه، ولكن لـمَّا تولَّد عن أفعالهم كُتِبَ لهم به عملٌ صالح.

وأما القسمُ الآخر، وهو الأفعالُ المقدورةُ نفسُها، كالإنفاق وقَطْع الوادي، فهو عملٌ صالح، فيكتبُ[1] لهم نفسُه؛ إذ هو مقدورٌ لهم حاصلٌ بإرادتهم وقدرتهم.

فعاد الثوابُ إلىٰ الأسباب المقدورة والمتولِّد عنها، وبالله التوفيق.

الوجه الخمسون بعد المئة: ما ذكره ٱبن عبد البر[2] عن عبد الله بن داود[3]، قال: «إذا كان يوم القيامة عَزَل اللهُ تبارك وتعالىٰ العلماءَ عن الحساب، فيقول: ٱدخلوا الجنةَ علىٰ ما كان فيكم، إني لم أجعل علمي فيكم إلا لخيرٍ أردتُه بكم».

قال ٱبن عبد البر: وزاد غيرُه في هذا الخبر: «إنَّ الله يحبِسُ العلماء يوم القيامة في زُمرةٍ واحدة حتىٰ يقضي بين الناس ويدخلَ أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النار، ثم يدعو العلماء فيقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريدُ أن أعذِّبكم، قد علمتُ أنكم تَخلِطون من المعاصي ما يَخْلِطُ غيرُكم، فسترتُها عليكم وغفرتُها لكم، وإنما كنتُ أُعْبَدُ بفُتْياكم وتعليمكم عبادي، ٱدخلوا الجنةَ بغير حساب». ثمَّ قال: «لا معطي لما منع اللهُ ولا مانع لما أعطىٰ».

قال: ورُوِي نحو هذا المعنىٰ بإسنادٍ متصلٍ مرفوع[4].

---

(١) (ت، ق): «فكتب».

(٢) في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٤).

(٣) الخُرَيبي الهمداني، الحافظ الزاهد (ت: ٢١٣). «السير» (٩/ ٣٤٦).

(٤) ثم ذكر حديث أبي موسىٰ الأشعري، وتقدم تخريجُه وبيانُ ضعفه (ص: ٣٤٣).

وقد روىٰ حرب الكرماني في «مسائله» نحوه مرفوعًا(١).

وقال إبراهيم: بلغني أنه إذا كان يومُ القيامة توضعُ حسناتُ الرَّجُل في كفَّةٍ وسيئاتُه في الكفَّة الأخرىٰ، فتَشِيلُ حسناتُه(٢)، فإذا يئس فظنَّ أنها النارُ جاء شيءٌ مثلُ السحاب حتىٰ يقعَ مع حسناته، فتَشِيلُ سيئاتُه. قال: فيقال له: أتعرفُ هذا مِنْ عملك؟ فيقول: لا. فيقال: هذا ما علَّمتَ الناس من الخير فَعُمِلَ به من بعدك(٣).

فإن قيل: فقواعدُ الشرع تقتضي أن يُسامَحَ الجاهلُ بما لا يُسامَحُ به العالِم، وأنه يُغْفَرُ له ما لا يُغْفَرُ للعالِم؛ فإنَّ حُجَّةَ الله عليه أقْومُ منها علىٰ الجاهل، وعلمُه بقُبْح المعصية وبُغْض الله لها وعقوبته عليها أعظمُ من علم الجاهل، ونعمةُ الله عليه بما أودعه من العلم أعظمُ من نعمته علىٰ الجاهل.

وقد دلَّت الشريعةُ وحكمُ الله علىٰ أنَّ من حُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثمَّ أسامَ نفسَه مع هَمَل الشهوات، فأرتَعَها في مراتع الهَلَكات، وتجرَّأ علىٰ ٱنتهاك الحرمات، واستخفَّ بالتَّبِعات والسيئات= أنه يقابَلُ من الانتقام والعَتْب بما لا يقابَلُ به من ليس في مرتبته.

وعلىٰ هذا جاء قولُه تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

ولهذا كان حدُّ الحُرِّ ضعفي حدِّ العبد في الزِّنا والقذف وشُرْب الخمر؛

(١) تقدم (ص: ٣٤٣).

(٢) أي ترتفع كفَّتها، لخفَّتها.

(٣) أخرجه ابن عبد البر (١/ ٢٠٩، ٢١١). وإبراهيم هو النخعي.

لكمال النعمة علىٰ الحُر.

ومما يدلُّ علىٰ هذا الحديثُ المشهورُ الذي ثبَّته أبو نعيمٍ وغيرُه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه الله بعلمه»[1].

وقال بعضُ السَّلف: «يُغفَرُ للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يُغفرَ للعالِم ذنب»[2].

وقال بعضُهم أيضًا: «إنَّ الله يعافي الجهَّال ما لا يعافي العلماء»[3].

فالجواب: أنَّ هذا الذي ذكرتموه حقٌّ لا ريب فيه، ولكنَّ من قواعد الشرع والحكمة أيضًا أنَّ من كَثُرَت حسناتُه وعَظُمَت، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهر، فإنه يُحْتَمَلُ له ما لا يُحْتَمَلُ لغيره، ويُعفىٰ عنه ما لا يُعفىٰ عن غيره؛ فإنَّ المعصية خَبَث، والماءُ إذا بلغ قلَّتين لم يحمل الخَبَث[4]، بخلاف الماء القليل فإنه يَحْمِلُ أدنىٰ خَبَثٍ يقعُ فيه.

---

(١) تقدم تخريجه وبيانُ ضعفه (ص: ٣١٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٠)، والبيهقي في «المدخل» (٥٦٣) عن الفضيل بن عياض.

(٣) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٦٠٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٢)، والبيهقي في «المدخل» (٥٦٥)، والضياء في «المختارة» (١٦٠٩)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك مرفوعًا.
قال عبد الله بن أحمد - في رواية أبي نعيم والبيهقي والضياء -: «قال أبي: هو حديثٌ منكر. ما حدَّثني به إلا مَرَّة».

(٤) كما في الحديث المشهور الذي أخرجه أصحاب السنن، وفي سنده خلافٌ كثير، والأشبهُ صحته مرفوعًا، وعليه جمهور المحدثين. انظر: «البدر المنير» (١/ ٤٠٤)، و«الإحسان» للحويني (٢/ ١٣). وللعلائي جزءٌ في تصحيحه والكلام عليه.

ومن هذا قولُ النبيِّ ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعلَّ الله ٱطلعَ علىٰ أهل بدرٍ فقال: ٱعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**»[1].

وهذا هو المانعُ له ﷺ من قتل من جَسَّ عليه وعلىٰ المسلمين وارتكبَ مثل ذلك الذَّنب العظيم[2]، فأخبر ﷺ أنه شهدَ بدرًا؛ فدلَّ علىٰ أنَّ مقتضي عقوبته قائمٌ لكنْ منع من ترتُّب أثره[3] عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السَّقْطةُ العظيمةُ مغتفرةً في جنب ما له من الحسنات[4].

ولـمَّا حضَّ النبيُّ ﷺ علىٰ الصدقة، فأخرج عثمانُ رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: «**ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِل بعدها**»[5].

وقال لطلحة لـمَّا تطأطأ للنبيِّ ﷺ حتىٰ صعدَ علىٰ ظهره إلىٰ الصخرة: «**أَوْجَبَ طلحة**»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١٥٣٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ١١٥، ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧).

(٣) (ت): «من ترتبه».

(٤) (ق، د، ت): «الصدقات».

(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٥/ ٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٨٧)، وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن سمرة.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (٣/ ١٠٢) ولم يتعقبه الذهبي.
ورُوِي من وجوهٍ أخرىٰ تزيدُه قوَّة.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٣٨)، وأحمد (١/ ١٦٥)، والبزار (٩٧٢)، وغيرهما من حديث الزبير بن العوام.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب»، وصححه ابن حبان (٦٩٧٩)، =

وهذا موسىٰ كليمُ الرحمن عز وجل: ألقىٰ الألواحَ التي فيها كلامُ الله الذي كتبه له، ألقاها علىٰ الأرض[1] حتىٰ تكسَّرت، ولَطَمَ عينَ ملَك الموت ففَقأها[2]، وعاتبَ ربَّه ليلة الإسراء في النبيِّ ﷺ، وقال: «**شابٌّ بُعِثَ بعدي يدخلُ الجنةَ من أمَّته أكثرُ ممن يدخلُها من أمَّتي**»[3]، وأخذَ بلحية هارون وجَرَّه إليه[4] وهو نبيُّ الله، وكلُّ هذا لم يُنْقِص من قَدْرِه شيئًا عند ربِّه، وربُّه تعالىٰ يُكْرِمُه ويحبُّه؛ فإنَّ الأمرَ الذي قام به موسىٰ، والعدوَّ الذي بَرَز له، والصبرَ الذي صَبَره، والأذىٰ الذي أُوذِيَه في الله= أمرٌ لا تؤثِّرُ [فيه] أمثالُ هذه الأمور، ولا يُغَبِّرُ به في وجهه[5]، ولا يخفضُ منزلتَه[6].

وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناس مستقرٌّ في فِطَرهم: أنَّ من له أُلوفٌ من الحسنات فإنه يُسامَحُ بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتىٰ إنه ليَخْتَلِجُ داعي عقوبته علىٰ إساءته، وداعي شكره علىٰ إحسانه، فيغلبُ داعي الشكر لداعي

= والحاكم (٣/ ٣٧٣) ولم يتعقبه الذهبي.

(١) كما في سورة الأعراف: ١٥٠.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٤) كما في سورة طه: ٩٤.

(٥) «به» ليست في (ت، ح، ن)، فيكون الفعل للمعلوم، أي: لا يعيبه ولا ينقص من قدره. كما قال البديع في «المقامات» (١٢٣): «غبَّر في وجهه الفقر»، أي: أثَّر فيه. ويجوز أن يكون من قولهم: «غبَّر في وجه فلان» إذا سبقه. «الأساس» و«التاج» (غبر). أي: أن هذا الأمر ليس مما يؤخِّر رتبة موسىٰ ومنزلته من ربه.

(٦) انظر: «الرد علىٰ البكري» (٢/ ٧١٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٥٦)، وما سيأتي (ص: ٨٥١).

العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيبُ أتىٰ بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنُه بألفِ شفيع[1]

وقال آخر[2]:

فإنْ يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا ... فأفعالُه اللَّائي سَرَرْنَ كثيرُ

والله سبحانه يوازنُ يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غَلَبَ كان التأثيرُ له، فيَفعَلُ مع أهل[3] الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابَّه ومَراضِيه وغلَبَتْهم دواعي طبعهم أحيانًا من العفو والمسامحة ما لا يفعلُه مع غيرهم.

وأيضًا؛ فإنَّ العالمَ إذا زلَّ فإنه يُحْسِنُ إسراعَ الفيئة[4] وتداركَ الفارِط ومداواةَ الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإنَّ زوالَه علىٰ يده أسرعُ من زواله علىٰ يد الجاهل.

وأيضًا؛ فإنَّ معه من معرفته بأمر الله، وتصديقه بوعده ووعيده، وخشيته

---

(١) كثير الورود في المصادر دون نسبة، وأقدمها: «لطائف الإشارات» للقشيري (ت: ٤٦٥) (١/ ٣٤)، وضمَّنه أبو البركات التكريتي (ت: ٥٩٩) في أبيات، في ترجمته من «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (٧).

(٢) وهو المتنبي في ديوانه (٢٤١) من أبياتٍ فائيةٍ رقيقة. والروايةُ فيه وفي جمهرة المصادر: «ألوف».

(٣) (ن، ح): «بأهل».

(٤) كُتِبَ في (ق) بخطٍّ دقيق بين السطرين ـ تفسيرًا للكلمة ـ: «الرجوع».

منه، وإزرائه علىٰ نفسه بارتكابه[1]، وإيمانه[2] بأنَّ الله حرَّمه، وأنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به، إلىٰ غير ذلك من الأمور المحبوبة للربِّ= ما يَغْمُرُ الذنب، ويُضْعِفُ ٱقتضاءه، ويزيلُ أثرَه، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس معه إلا ظلمةُ الخطيئة وقُبْحُها وآثارُها المُرْدِية، فلا سواءٌ[3] هذا وهذا.

وهذا فصلُ الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبيَّنُ أنَّ الأمرين حق، وأنه لا منافاة بينهما، وأنَّ كلَّ واحدٍ من العالم والجاهل إنما زاد قبحُ الذنب منه علىٰ الآخر بسبب جهله، وتجرُّد خطيئته عمَّا يقاومها، ويُضْعِفُ تأثيرَها، ويزيلُ أثرها؛ فعاد القبحُ في الموضعين إلىٰ الجهل وما يستلزمُه، وقلَّتُه وضعفُه إلىٰ العلم وما يستلزمُه؛ وهذا دليلٌ ظاهرٌ علىٰ شرف العلم وفضله، وبالله التوفيق.

الوجه الحادي والخمسون بعد المئة: أن العالِم المشتغلَ بالعلم والتعليم لا يزالُ في عبادة، فنفسُ تعلُّمه وتعليمه عبادة.

قال ٱبن مسعود: «لا يزالُ الفقيهُ يصلِّي». قالوا: وكيف يصلي؟ قال: «ذِكرُ الله علىٰ قلبه ولسانه». ذكره ٱبنُ عبد البر[4].

وفي حديث معاذٍ مرفوعًا وموقوفًا: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلُّمَه لله خشية، وطلبَه عبادة، ومذاكرتَه تسبيح»، وقد تقدَّم[5]، والصوابُ أنه موقوف.

---

(١) أي: الذنب.

(٢) (ت): «وعلمه».

(٣) كذا في الأصول، وهو فصيح. وغيِّرت في (ط) إلى: «فلا يستوي».

(٤) في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٣٣) معلَّقًا.

(٥) (ص: ٣٣٧).

وذكر ابنُ عبد البر[1] عن معاذٍ مرفوعًا: «لأنْ تَغدُو فتتعلَّمَ بابًا من أبواب العلم خيرٌ لك من أن تصلِّي مئة ركعة»، وهذا لا يثبتُ رفعُه.

وقال ابنُ وهب: كنتُ عند مالك بن أنس، فحانت صلاةُ الظُّهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظرُ في العلم بين يديه، فجمعتُ كتبي وقمتُ لأركع، فقال لي مالك: ما هذا؟ فقلت: أقومُ إلىٰ الصلاة، فقال: إنَّ هذا لعجب! ما الذي قمتَ إليه أفضلَ من الذي كنتَ فيه إذا صحَّت في النيَّة[2].

وقال الربيع: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «طلبُ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة»[3].

وقال سفيانُ الثوري: «ما مِنْ عملٍ أفضلُ من طلب العلم إذا صحَّت فيه النيَّة».

وقال رجلٌ للمعافىٰ بن عمران[4]: أيما أحبُّ إليك؛ أقومُ أصلِّي الليلَ كلَّه أو أكتبُ الحديث؟ فقال: «حديثٌ تكتبه أحبُّ إليَّ من قيامك من أول الليل إلىٰ آخره»[5].

---

(١) في «الجامع» (١/ ١٢٠)، وابن ماجه (٢١٩)، وابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (٥٤) ـ كلُّهم عن أبي ذر، ولم أجده عن معاذ ـ بإسنادٍ فيه ضعف. وضعَّفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٦).

(٢) تقدم الكلام عليه (ص: ٣٣٤).

(٣) تقدم تخريج قول الشافعي والثوري (ص: ٣٣٢).

(٤) أبو مسعود الأزدي، الحافظ، ياقوتة العلماء، من أئمة العلم والعمل (ت: ١٨٥). انظر: «السير» (٩/ ٨٠).

(٥) أخرجه ابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (٢٦)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٨٤)، وغيرهما.

وقال أيضًا: «كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من قيام ليلة»[1].

وقال ٱبن عباس: «تذاكرُ العلم بعض ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها»[2].

وفي «مسائل إسحاق بن منصور»[3]: قلتُ لأحمد بن حنبل: قولُه: «تذاكرُ بعض ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها»، أيَّ علمٍ أراد؟ قال: هو العلمُ الذي ينتفعُ به الناسُ في أمر دينهم. قلت: في الوضوء والصلاة والصوم والحجِّ والطلاق ونحو هذا؟ قال: نعم.

قال إسحاق: وقال لي إسحاق بن راهويه: هو كما قال أحمد.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لأنْ أجْلِسَ ساعةً فأفْقَهَ في ديني أحبُّ إليَّ من إحياء ليلةٍ إلىٰ الصباح»[4].

وذكر ٱبنُ عبد البر[5] من حديث أبي هريرة يرفعُه: «**لكلِّ شيءٍ عِماد، وعِمادُ هذا الدِّين الفقه، وما عبد اللهُ بشيءٍ أفضل من فقهٍ في الدِّين**» الحديث، وقد تقدم.

وقال محمد بن علي الباقر: «عالمٌ يُنْتفَعُ بعلمه أفضلُ من ألف عابد»[6].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٣٩).

(٣) (٣٣٠٩، ٣٣١٠)، وتقدم طرفٌ منه (ص: ٣٣٩).

(٤) تقدم تخريجه (ص: ١٨٦).

(٥) في «الجامع» (١/ ١٢٧) معلَّقًا. وتقدم تخريجه (ص: ١٨٦).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٣)، وعلَّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٣١).

وقال أيضًا: «رواية الحديث وبثُّه في الناس أفضلُ من عبادة ألف عابد»(١).

ولمَّا كان طلبُ العلم والبحثُ عنه وكتابتُه والتفتيشُ عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال، ومنزلتُه من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكُّل والمحبة والإنابة والخشية والرِّضا ونحوها من الأعمال الظاهرة.

فإن قيل: فالعلمُ إنما هو وسيلةٌ إلىٰ العمل ومرادٌ له، والعملُ هو الغاية، ومعلومٌ أنَّ الغايةَ أشرفُ من الوسيلة، فكيف تُفَضَّلُ الوسائلُ علىٰ غاياتها؟

قيل: كلٌّ من العلم والعمل ينقسمُ قسمين: منه ما يكونُ وسيلة، ومنه ما يكونُ غاية.

فليس العلمُ كلُّه وسيلةً مرادةً لغيرها؛ فإنَّ العلمَ بالله وأسمائه وصفاته هو أشرفُ العلوم علىٰ الإطلاق، وهو مطلوبٌ لنفسه مرادٌ لذاته.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فقد أخبر سبحانه أنه خلقَ السموات والأرض ونزَّل الأمرَ بينهنَّ ليَعْلَم عبادُه أنه بكلِّ شيءٍ عليم، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قدير؛ فهذا العلمُ هو غايةُ الخلق المطلوبة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]؛ فالعلمُ بوحدانيَّته تعالىٰ وأنه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاته، وإن كان لا يُكتفىٰ به وحده، بل لا بدَّ معه من عبادته وحده لا شريك له؛ فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعْرَفَ

---

(١) علَّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٣٢) عن جعفر بن محمد.

الـربُّ تعـالىٰ بأسـمائه وصـفاته وأفعالـه وأحكامـه، وأن يُعْـبَد بمُوجَبهـا ومقتضاها؛ فكما أنَّ عبادتَه مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها، فكذلك العلمُ به ومعرفتُه.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ من أفضل أنواع العبادات ــ كما تقدَّم تقريره ــ؛ فهو متضمِّنٌ للغاية والوسيلة.

وقولُكم: «إنَّ العمل غاية»، إمَّا أن تريدوا به العملَ الذي يدخلُ فيه عملُ القلب والجوارح، أو العملَ المختصَّ بالجوارح فقط.

فإن أريدَ الأول، فهو حق، وهو يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبة؛ لأنه من أعمال القلب ـ كما تقدم ـ.

وإن أريدَ به الثاني ـ وهو عملُ الجوارح فقط ــ، فليس بصحيح؛ فإنَّ أعمالَ القلوب مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتها، بل في الحقيقة أعمالُ الجوارح وسيلةٌ مرادةٌ لغيرها؛ فإنَّ الثوابَ والعقابَ والمدحَ والذمَّ وتوابعَها هو للقلب أصلًا وللجوارح تبعًا، وكذلك الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلًا صلاحُ القلب واستقامتُه وعبوديتُه لربِّه ومليكه، وجُعِلَت أعمالُ الجوارح تابعةً لهذا المقصود مرادةً له، وإن كان كثيرًا[1] منها يرادُ[2] لأجل المصلحة المترتِّبة عليه، فمن أجلِّها: صلاحُ القلب وزكاؤه وطهارتُه واستقامتُه.

فعُلِمَ أنَّ الأعمال منها غايةٌ ومنها وسيلة، وأنَّ العلمَ كذلك.

وأيضًا؛ فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلىٰ العمل فقط إذا تجرَّدَ عن العمل لم ينتفع به صاحبُه؛ فالعملُ أشرفُ منه.

---

(١) كذا في الأصول، بالنصب.

(٢) (ن): «مرادا».

وأما العلمُ المقصودُ الذي تنشأ ثمرتُه المطلوبةُ منه من نفسه فهذا لا يقال: إنَّ العمل المجرَّد أشرفُ منه.

فكيف يكونُ مجرَّدُ العبادة البدنيَّة أفضلَ من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره، ومن العلم بأعمال القلوب، وآفاتِ النفوس، والطرقِ التي تُفسِدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولها من القلب إلىٰ الله، والمسافاتِ التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والربِّ تعالىٰ وبم تُقْطَعُ تلك المسافات، إلىٰ غير ذلك من علم الإيمان وما يقوِّيه وما يُضْعِفُه؟!

فكيف يقال: إنَّ مجرَّد التعبُّد الظاهر بالجوارح أفضلُ من هذا العلم؟! بل من قام بالأمرين فهو أكمل، وإذا كان في أحدهما فضلٌ ففضلُ هذا العلم خيرٌ مِنْ فضل العبادة، فإذا كان في العبد فَضْلةٌ عن الواجب كان صرفُها إلىٰ العلم الموروث عن الأنبياء أفضلَ من صرفها إلىٰ مجرَّد العبادة.

فهذا فصلُ الخطاب في هذه المسألة والله أعلم.

الوجه الثاني والخمسون بعد المئة: ما رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنما الدنيا لأربعة نفر:**

*** عبد رزقه الله مالًا وعلمًا، فهو يتقي[1] في ماله ربَّه، ويَصِلُ فيه رَحِمَه، ويعلمُ لله فيه حقًّا؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله.**

*** ورجلٍ آتاه اللهُ علمًا ولم يُؤْتِه مالًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ بعمل فلان؛ فهو بنيَّته، فهما[2] في الأجر سواء.**

---

(١) (ت): «يبغي».

(٢) (ن، ح): «وهما».

* **ورجلٍ آتاه اللهُ مالًا ولم يُؤْتِه علمًا، فهو يَخْبِطُ في ماله، ولا يتقي فيه ربَّه، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلمُ لله فيه حقًّا؛ فهذا بأسوأ المنازل عند الله.**

* **ورجلٍ لم يُؤْتِه اللهُ مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ فيه بعمل فلان؛ فهو بنيَّته، وهما في الوزر سواء»**[1]، حديثٌ صحيح؛ صحَّحه الترمذيُّ والحاكمُ وغيرهما.

فقسَّم النبيُّ ﷺ أهلَ الدنيا أربعة أقسام:

* خيرُهم من أوتي علمًا ومالًا؛ فهو محسنٌ إلىٰ الناس وإلىٰ نفسه بعلمه وماله.

* ويليه في المرتبة من أوتي علمًا ولم يُؤتَ مالًا، وإن كان أجرُهما سواءً فذلك إنما كان بالنيَّة، وإلا فالمنفقُ المتصدِّق فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة، والعالِمُ الذي لا مال له إنما ساواه في الأجر بالنيَّة الجازمة المقترنِ بها مقدورُها، وهو القولُ المجرَّد.

* **الثالث**: من أوتي مالًا ولم يَصْرِفه في مصارف الخير[2]، ولم يُؤتَ علمًا؛ فهذا أسوأ الناس منزلةً عند الله؛ لأنَّ مالَه طريقٌ إلىٰ هلاكه، فلو عَدِمَه لكان خيرًا له، فإنه أُعطِيَ ما يتزوَّدُ به إلىٰ الجنة فجعله زادًا له إلىٰ النار.

* **الرابع**: من لم يؤتَ مالًا ولا علمًا، ومِنْ نيَّته أنه لو كان له مالٌ لعمل

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وغيرهم من طرقٍ وقع فيها بعضُ الاختلاف. وقال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح». ولم أقف عليه في «مستدرك الحاكم».

(٢) قوله: «ولم يصرفه في مصارف الخير» من (ت).

فيه بمعصية الله؛ فهذا يلي الغنيَّ الجاهل في المرتبة ويساويه في الوِزْر بنيَّته الجازمة المقترن بها مقدورُها، وهو القولُ الذي لم يَقدِر علىٰ غيره.

فقسَّم السعداءَ قسمين، وجعل العلمَ والعمل بمُوجَبه سببَ سعادتهما، وقسَّم الأشقياءَ قسمين، وجعل الجهلَ وما يترتَّبُ عليه سببَ شقاوتهما؛ فعادت السعادةُ بجملتها إلىٰ العلم ومُوجَبه، والشقاوةُ بجملتها إلىٰ الجهل وثمرته.

الوجه الثالث والخمسون بعد المئة: ما ثبتَ عن بعض السَّلف أنه قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستِّين سنة»(١).

وسأل رجلٌ أمَّ الدرداء عن أبي الدرداء ـ بعد موته ـ عن عبادته؟ فقالت: كان نهارَه أجمَع في ناحيةٍ يتفكَّر(٢).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في «العظمة» (٤٣)، ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٢٧) ـ من حديث أبي هريرة مرفوعًا بإسنادٍ شديد الضعف. وانظر: «السلسة الضعيفة» (١٧٣).
وأخرج أبو الشيخ (٤٨) عن عمرو بن قيس الملائي قال: «بلغني أن تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عمل دهرٍ من الدهر».

(٢) في الأصول: «بادية التفكر». والكلمة الأولىٰ مهملة في (د، ق). وهو تحريف عن المثبت. وفي «الإحياء» (٤/ ٤٢٤) وهو مصدر المصنف هنا: «في ناحية البيت يتفكر». وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٤) عن أم ذرٍّ أنها سئلت السؤال نفسه عن أبي ذر؛ فقالت: «كان النهارَ أجمع خاليًا يتفكر»، وفي مختصره «صفة الصفوة» (١/ ٥٩١): «في ناحية يتفكر».
وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٧٠٣)، وهناد (٩٥٨)، وابن المبارك (٢٨٦، ٨٧٢)، وأحمد (١٣٥) جميعُهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» =

وقال الحسن: «تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة»[1].

وقال الفُضيل: «التفكُّر مرآةٌ تريك حسناتك وسيِّئاتك»[2].

وقيل لإبراهيم: إنك تطيلُ الفكرة؟ فقال: «الفكرةُ مخُّ العقل»[3].

وكان سفيانُ بن عيينة[4] كثيرًا ما يتمثَّل:

إذا المرءُ كانت له فِكرة ... ففي كلِّ شيءٍ له عِبرة[5]

وقال الحسنُ في قوله تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: «أمنعُهم التفكُّرَ فيها»[6].

= (١/ ٢٠٨، ٤/ ٣٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٥، ٤٦)، وغيرهم من طرقٍ عن أم الدرداء أنها سئلت: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ فقالت: «التفكُّر». زاد بعضُهم: «والاعتبار».

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٧)، وأحمد في «الزهد» (٢٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٧١). وورد كذلك عن أبي الدرداء.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٣) عن الفضيل عن الحسن البصري.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٩) بلفظ: «مخ العمل». والمذكور هنا لفظ «الإحياء» (٤/ ٤٢٤). وإبراهيم هو ابن أدهم، الإمام الزاهد الثقة (ت: ١٦٢). ترجمته في «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٧٧)، و«السير» (٧/ ٣٨٧).

(٤) (ح، ن): «سفيان الثوري». وهو خطأ.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠٦). والبيت في «المدهش» (٣٦٨) دون نسبة. وانظر: «البصائر والذخائر» (٩/ ٨٠).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥٦٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١) عن السُّدِّي. وورد نحوه عن ابن عيينة وغيره. وعزو المصنف القول للحسن سهوٌ سببه سياق الكلام في «الإحياء».

وقال بعض العارفين[1]: «لو طالعَت قلوبُ المتقينَ بفِكْرها إلىٰ ما قُدِّرَ[2] في حُجُب الغيب من خير الآخرة، لم يَصْفُ لهم في الدنيا عَيْش، ولم تَقَرَّ لهم فيها عين».

وقال الحسن[3]: «طولُ الوحدة أتمُّ[4] للفكرة، وطولُ الفكرة دليلٌ علىٰ طريق الجنة».

وقال وهب[5]: «ما طالت فكرةُ أحدٍ قطُّ إلا عَلِمَ، وما عَلِمَ ٱمرؤٌ قطُّ إلا عَمِل»[6].

وقال عمر بن عبد العزيز: «الفكرةُ في نِعَم الله من أعظم[7] العبادة»[8].

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه[9]، وقد رآه مفكِّرًا: أين

---

(١) امرأة كانت تسكن البادية قريبًا من مكة، كما في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٤)، وقال الزبيدي في شرحه (١٣/ ٣١١): «رواه ابن أبي الدنيا». ولعله في كتاب «التفكر»، ولم يعثر عليه بعد.

(٢) «الإحياء»: «قد ادُّخِر لها».

(٣) كذا في الأصول. وفي «الإحياء» (٤/ ٤٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢٥): «لقمان».

(٤) «الإحياء»: «أفهم». «تفسير ابن كثير»: «ألهمُ».

(٥) وهب بن منبِّه الصنعاني؛ تابعيٌّ ثقة، كثير الرواية عن بني إسرائيل (ت: ١١٤). انظر: «السير» (٤/ ٥٤٤).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٦).

(٧) «الإحياء»، و«الحلية»: «أفضل».

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣١٤).

(٩) «الإحياء»: «لسهل بن علي».

بَلَغْت؟ قال: الصِّراط[1].

وقال بِشْر[2]: «لو فكَّر الناسُ في عظمة الله ما عصوه»[3].

وقال ٱبنُ عباس: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ بلا قلب»[4].

وقال أبو سليمان[5]: «الفكرُ في الدنيا حجابٌ عن الآخرة، وعقوبةٌ لأهل الوَلاية، والفكرُ في الآخرة يورثُ الحكمةَ ويحيي القلوب»[6].

وقال ٱبنُ عباس: «التفكُّرُ في الخير يدعو إلىٰ العمل به»[7].

وقال الحسن: «إنَّ أهلَ العلم[8] لم يزالوا يعودون بالذِّكر علىٰ الفكر وبالفكر علىٰ الذِّكر، ويُناطِقونَ القلوب، حتىٰ نَطَقَت[9] بالحكمة»[10].

---

(١) عزاه الزبيدي في شرحه (١٣/ ٣١٢) إلىٰ «الحلية»، ولم أره فيه.

(٢) بشر بن الحارث الحافي، الإمام الرباني، العابد الزاهد (ت: ٢٢٧). انظر: «السير» (١٠/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨، ١١٤٧)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (١٤٩ - مختصره)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٤).

(٥) الداراني، الإمام الزاهد (ت: ٢١٥). انظر: «السير» (١٠/ ١٨٢).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٧٨).

(٧) عزاه في شرح الإحياء (١٣/ ٣١٣) إلىٰ «التفكر» لابن أبي الدنيا. وانظر: «البصائر والذخائر» (١/ ٢٢١).

(٨) «الإحياء»: «أهل العقل».

(٩) «الإحياء»: «حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت».

(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩)، وابن أبي الدنيا في «التفكر» كما في شرح =

ومن كلام الشافعي: «آستعينوا علىٰ الكلام بالصمت، وعلىٰ الاستنباط بالفكرة»[1].

وهذا[2] لأنَّ الفكر عملُ القلب، والعبادةَ عملُ الجوارح، والقلبُ أشرفُ من الجوارح؛ فكان عملُه أشرفَ من عمل الجوارح.

وأيضًا؛ فالتفكُّرُ يُوقِعُ صاحبَه من الإيمان علىٰ ما لا يُوقِعُه عليه[3] العملُ المجرَّد؛ فإنَّ التفكُّرَ يوجبُ له من آنكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتمييزها[4] في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاومُ تلك الأسبابَ ويدفعُ مُوجَبَها، والتمييز بين ما ينبغي السعيُ في تحصيله وما ينبغي السعيُ في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من آنتهاز الفُرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقةً[5] فيشتغلُ به دون الأول، فما قطعَ العبدَ عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطعٌ أعظمُ من الوهم الغالب علىٰ النفس والخيال الذي هو مَرْكبُها، بل بَحْرُها الذي لا تنفكُّ

= الإحياء (١٣/ ٣١٣). وبنحوه في «المجالسة» (٢٦٧٢).

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٢٥)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٢٥٣). ونسبه الجاحظ في «البيان والتبين» (١/ ٣٢٧) إلىٰ قسامة بن زهير.

(٢) أي: كون تفكر ساعةٍ خيرًا من عبادة ستين سنة. وهو الوجه الثالث والخمسون بعد المئة من أوجه تفضيل العلم وأهله.

(٣) (د، ت، ق): «ما لا يوقع».

(٤) (ن، ح): «وتميز مراتبها».

(٥) (ت، ح، ن): «حقيقته».

سابحةً فيه، وإنما يُقْطَعُ هذا العارضُ بفكرةٍ صحيحةٍ وعزمٍ صادقٍ يميِّزُ به[1] بين الوهم والحقيقة.

وكذلك إذا فكَّر في عواقب الأمور وتجاوزَ فكرُه مَبَاديها؛ وَضَعها[2] مواضعَها، وعلم مراتبَها.

فإذا وردَ عليه واردُ الذنب والشهوة، فتجاوزَ فكرُه لذَّتَه[3] وفرحَ النفس به إلىٰ سوء عاقبته وما يترتبُ عليه من الألم والحزن الذي لا يقاومُ تلك اللذَّة والفرحة؛ ومن فكَّر في ذلك فإنه لا يكادُ يُقْدِمُ عليه.

وكذلك إذا وردَ علىٰ قلبه واردُ الراحة والدَّعة والكسل والتقاعُد عن مشقَّة الطَّاعات وتعبها، حتىٰ عبَر بفكره إلىٰ ما يترتبُ عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تنغمرُ[4] تلك الآلام التي في مَبَاديها بالنسبة إلىٰ كمال عواقبها، وكلَّما غاص فكرُه في ذلك ٱشتدَّ طلبُه لها، وسَهُل عليه معاناتُها، واستقبلها بنشاطٍ وقوَّةٍ وعزيمة.

وكذلك إذا فكَّر في منتهىٰ ما يستعبِدُه من المال والجاه والصُّوَر، ونظرَ إلىٰ غاية ذلك بعين فكره، ٱستحيىٰ من عقله ونفسه أن يكون عبدًا لذلك، كما قيل:

لو فَكَّرَ العاشقُ في منتهىٰ ... حُسْنِ الذي يَسْبِيه لم يَسْبِهِ[5]

---

(١) (د، ق): «فيه».

(٢) (ت): «ووضعها».

(٣) (ق، د): «فكرة لذته». وهو تحريف.

(٤) (ح، ن): «تغمر».

(٥) البيت للمتنبي، في ديوانه (٥٧٣).

وكذلك إذا فكَّر في آخر الأطعمة الـمُفْتَخَرة[1] التي تفانت عليها نفوسُ أشباه الأنعام، وما يصيرُ أمرُها إليه عند خروجها؛ ٱرتفعت همَّتُه عن صرفها إلىٰ الاعتناء بها، وجَعْلِها معبودَ قلبه[2] الذي إليه يتوجَّه، وله يرضىٰ ويغضب، ويسعىٰ ويكدح، ويوالي ويعادي؛ كما جاء في «المسند»[3] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله جَعَل طعامَ ٱبن آدم مَثَل الدنيا وإنْ قَزَحَه[4] ومَلَّحَه فإنه يعلمُ إلىٰ ما يصير**» أو كما قال ﷺ؛ فإذا وقع فكرُه علىٰ عاقبة ذلك وآخر أمره، وكانت نفسُه حُرَّةً أبيَّة، ربأ بها أن يجعلها عبدًا لما آخرُه أنتنُ شيءٍ وأخبثُه وأفحشُه.

فصل[5]

إذا عُرِفَ هذا، فالفكرُ هو إحضارُ معرفتين في القلب، ليستثمر[6] منهما معرفة ثالثة.

ومثالُ ذلك: إذا أَحْضَرَ في قلبه العاجلةَ وعيشَها ونعيمَها وما يقترنُ به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثمَّ أَحْضَرَ في قلبه الآخرةَ ونعيمَها ولذَّتها

---

(١) أي: الفاخرة، من الافتخار. تعبيرٌ مولَّد.

(٢) (ت): «معبودة قلبه».

(٣) (٥/ ١٣٦) من زوائد عبد الله، و«الحلية» لأبي نعيم (١/ ٢٥٤)، وغيرهما من حديث أبي بن كعب.

وصححه ابن حبان (٧٠٢)، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٢٤٥).

ورُوِي موقوفًا من وجهٍ أصح. انظر: «المرسل الخفي» (٢/ ٦٣٢).

(٤) أي: جعل فيه الأقزاح (جمع قِزْح)، وهي التوابل والأبازير. «اللسان».

(٥) مستفاد من «الإحياء» (٤/ ٤٢٥).

(٦) (ت): «تستثمر».

ودوامَه وفضلَه علىٰ نعيم الدنيا، وجَزَم بهذين العِلمَين= أثمرَ له ذلك علمًا ثالثًا، وهو أنَّ الآخرةَ ونعيمَها الفاضلَ الدائمَ أولىٰ عند كلِّ عاقلٍ بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغَّصة.

ثمَّ له في معرفة الآخرة حالتان:

إحداهما: أن يكون قد سمع ذلك من غيره، من غير أن يُباشِرَ قلبَه بَرْدُ اليقين به، ولم يُفْضِ قلبُه إلىٰ مُكافَحة[1] حقيقة الآخرة. وهذا حالُ أكثر الناس.

فيتجاذبُه داعيان:

* أحدهما: داعي العاجلة وإيثارها، وهو أقوىٰ الداعيَيْن؛ لأنه مُشاهَدٌ له محسوس.

* وداعي الآخرة، وهو أضعفُ الداعيَيْن عنده؛ لأنه داعٍ عن سماع، لم يُباشِر قلبَه اليقينُ به، ولا كافحَه حقيقتُه العلمية.

فإذا تركَ العاجلةَ للآخرة تُرِيه نفسُه بأنه قد تركَ معلومًا لمظنون، أو متحقِّقًا لموهوم، فلسانُ الحال ينادي عليه: لا أدعُ ذَرَّةً مَنْقودةً لدُرَّةٍ موعودة[2].

وهذه الآفةُ هي التي منعت النفوسَ من الاستعداد للآخرة وأن تسعىٰ لها سعيَها، وهي مِنْ ضعف العلم بها وتيقُّنها، وإلا فمع الجزم التامِّ الذي لا

---

(١) كافحه مكافحةً وكفاحًا: لقيه مواجهةً. «اللسان» (كفح).

(٢) انظر: «شرح مقامات الحريري» (٥/ ٣٣٨)، و«الداء والدواء» (٧٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٣٥٠)، و«عدة الصابرين» (٤٦٦).

يتخالجُ القلبَ فيه شكٌّ لا يقعُ التهاونُ بها وعدمُ الرغبة فيها.

ولهذا لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غاية الطِّيبة[1] واللذَّة، وهو شديدُ الحاجة، ثمَّ قيل له: إنه مسموم؛ فإنه لا يُقْدِمُ عليه؛ لعلمه بأنَّ سوء ما تجني عاقبةُ تناوله[2] تُرْبِي في المضرة علىٰ لذَّة أكله[3]، فما بالُ الإيمان بالآخرة لا يكونُ في قلبه بهذه المنزلة؟! ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب، وعدم ٱستقرارها فيه.

وكذلك إذا كان سائرًا في طريق، فقيل له: إنَّ بها قُطَّاعًا ولصوصًا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعَه؛ فإنه لا يسلكها إلا علىٰ أحد وجهين: إمَّا أن لا يصدِّق المُخْبِر، وإمَّا أن يَثِقَ من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم؛ وإلا فمع تصديقه للمُخْبِر تصديقًا لا يتمارىٰ فيه، وعلمه مِنْ نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم، فإنه لا يسلكها.

ولو حصلَ له هذان العِلْمان فيما يرتكبُه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يُقْدِم علىٰ ذلك؛ فعُلِمَ أنَّ إيثاره للعاجلة[4] وتركَ ٱستعداده للآخرة لا يكون قطُّ مع كمال تصديقه وإيمانه أبدًا.

الحالة الثانية: أن يتيقَّنَ ويجزمَ جزمًا لا شكَّ فيه بأنَّ له دارًا غير هذه الدار، ومعادًا له خُلِق، وأنَّ هذه الدَّار طريقٌ إلىٰ ذلك المعاد ومنزلٌ من منازل السائرين إليه، ويعلمُ مع ذلك أنها باقية، ونعيمَها وعذابها لا يزول، ولا نسبة

---

(١) كذا في الأصول. وهو صحيح. طاب الشيء يطيب طيبًا وطيبةً. «اللسان».

(٢) (ت): «عاقبته بتناوله».

(٣) انظر ما مضىٰ (ص: ٢٤٢).

(٤) (ت، ق): «للدنيا». (د): «للآخرة»، وفي الطرَّة: «لعله: الدنيا».

لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يُدْخِلُ الرجلُ إصبعَه في اليمِّ ثمَّ ينزعُها، فالذي يَعْلَق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلىٰ الآخرة؛ فيثمرُ له هذا العلمُ إيثارَ الآخرة وطلبها، والاستعدادَ التامَّ لها، وأن يسعىٰ لها سعيها.

وهذا يسمَّىٰ: تفكُّرًا، وتذكُّرًا، ونظرًا، وتأمُّلًا، واعتبارًا، وتدبُّرًا، واستبصارًا. وهذه معانٍ متقاربةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتفترقُ في آخر.

* فيسمَّىٰ: تفكُّرًا؛ لأنه ٱستعمالُ الفكرة[1] في ذلك وإحضارُه[2] عنده.

* ويسمَّىٰ: تذكُّرًا؛ لأنه إحضارٌ للعلم الذي يجبُ مراعاتُه بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

* ويسمَّىٰ: نظرًا؛ لأنه ٱلتفاتٌ بالقلب إلىٰ المنظور فيه.

* ويسمَّىٰ: تأمُّلًا؛ لأنه مراجعةٌ للنظر[3] كرَّةً بعد كرَّة، حتىٰ يتجلىٰ له وينكشفَ لقلبه.

* ويسمَّىٰ: ٱعتبارًا، وهو ٱفتعالٌ من العبور؛ لأنه يَعْبُرُ منه إلىٰ غيره، فيعبرُ من ذلك الذي قد فكَّر فيه إلىٰ معرفةٍ ثالثة، وهي المقصودُ من الاعتبار.

ولهذا يسمَّىٰ: عِبْرة؛ وهي علىٰ بناء الحالات، كالجِلْسة والرِّكْبة والقِتْلة، إيذانًا بأنَّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يعبرُ منه إلىٰ المقصود به، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]،

---

(١) (ت): «استعمل الفكر».

(٢) كذا في الأصول. أي: الفكر.

(٣) (ت): «النظر». (ح): «إلى النظر».

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣، النور: ٤٤].

* ويسمَّىٰ: تدبُّرًا؛ لأنه نظرٌ في أدبار الأمور وهي أواخرُها وعواقبُها. ومنه: تدبُّر القول، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وتدبُّرُ الكلام أن ينظرَ في أوَّله وآخره، ثمَّ يعيدَ نظره مرَّةً بعد مرَّة؛ ولهذا جاء علىٰ بناء التفعُّل، كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن.

* ويسمَّىٰ: ٱستبصارًا؛ وهو ٱستفعالٌ من التبصُّر، وهو تبيُّنُ الأمر(١) وانكشافُه وتجلِّيه للبصيرة.

وكلٌّ من التذكُّر والتفكُّر له فائدةٌ غيرُ فائدة الآخر؛ فالتذكُّر يفيدُ تكرارَ القلب علىٰ ما علمه وعرفه ليرسَخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهبَ أثرُه من القلب جملة، والتفكُّرُ يفيدُ تكثيرَ العلم واستجلابَ ما ليس حاصلًا عند القلب؛ فالتفكُّرُ يحصِّلُه والتذكُّرُ يحفظُه(٢).

ولهذا قال الحسن: «ما زال أهلُ العلم يعودون بالتذكُّر علىٰ التفكُّر، وبالتفكُّر علىٰ التذكُّر، ويُناطِقون القلوب، حتىٰ نَطَقَت بالحكمة»(٣).

فالتفكُّرُ والتذكُّرُ بِذارُ العلم، وسَقْيُه مطارحتُه، ومذاكرتُه تلقيحُه، كما

---

(١) (ق، ح): «تبيين الأمر». خطأ.

(٢) (ق، د): «فالتفكر تحصيلُه والتذكر تحفُّظه».

(٣) تقدَّم تخريجه قريبًا.

قال بعض السَّلف: «ملاقاةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها»[١]؛ فالمذاكرةُ به لِقاحُ العقل.

فالخيرُ والسعادةُ في خزانةٍ مفتاحُها التفكُّر؛ فإنه لا بد من تفكُّرٍ وعلمٍ يكونُ نتيجة الفكر[٢]، وحالٍ يحدثُ للقلب من ذلك العلم؛ فإنَّ كلَّ من عَلِمَ شيئًا من المحبوب أو المكروه لا بدَّ أن يبقىٰ لقلبه حالةٌ[٣] وينصبغَ[٤] بصبغةٍ من علمه، وتلك الحالُ توجبُ له إرادة، وتلك الإرادةُ توجبُ وقوعَ العمل.

فهاهنا خمسةُ أمور: الفكر، وثمرتُه العلم، وثمرتُهما الحالةُ التي تحدثُ للقلب، وثمرةُ ذلك الإرادة، وثمرتُها العمل.

فالفكرُ إذًا هو المبدأ والمفتاحُ للخيرات كلِّها.

وهذا يكشفُ لك[٥] عن فضل التفكُّر وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، حتىٰ قيل: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»[٦].

فالفكرُ هو الذي ينقلُ من موت الغفلة إلىٰ حياة اليقظة، ومن المكاره

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٩٢٤) عن الأحنف بن قيس. وهو في «بهجة المجالس» (١/ ٥٤)، وغيره.

(٢) (ق): «التفكر».

(٣) (د): «حاله».

(٤) (ت): «لا بد أن يبقى بقلبه وينطبع».

(٥) ليست في (ق، ت).

(٦) من كلام السَّري السقطي. ويروىٰ مرفوعًا، ولا يصح. انظر: «المغني عن حمل الأسفار» (١١٩٣)، و«المصنوع» (٨٢)، و«السلسة الضعيفة» (١٧٣).

إلىٰ المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلىٰ الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلىٰ فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلىٰ سَعة العلم ورَحْبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلىٰ هذه الدار إلىٰ شفاء الإنابة إلىٰ الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمىٰ والصَّمَم والبَكَم إلىٰ نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلىٰ بَرْد اليقين وثَلَج الصَّدر.

وبالجملة؛ فأصلُ كلِّ طاعةٍ إنما هو الفكر.

وكذلك أصلُ كلِّ معصيةٍ إنما يحدثُ من جانب الفكرة؛ فإنَّ الشيطانَ يصادفُ أرضَ القلب خاليةً فارغة، فيَبْذُرُ فيها حَبَّ الأفكار الرديَّة، فيتولَّدُ منه الإراداتُ والعُزوم[1]، فيتولَّدُ منها العمل. فإذا صادفَ أرضَ القلب مشغولةً ببَذْر الأفكار النافعة فيما خُلِقَ له وفيما أُمِرَ به وفيما هُيِّيء له وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبَذْره موضعًا، وهذا كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوىٰ ... فصادفَ قلبًا فارغًا فتمكَّنا[2]

فإن قيل: فقد ذكرتم الفكرَ ومنفعته وعِظَمَ تأثيره في الخير والشر، فما متعلَّقُه الذي ينبغي أن يُوقَعَ عليه ويجري فيه؟ فإنه لا يتمُّ المقصودُ منه إلا بذكر متعلَّقه الذي يقعُ الفكرُ فيه، وإلا ففكرٌ في غير[3] متفكَّرٍ فيه محال.

---

(١) جمع عزم. محدثة.

(٢) البيت ليزيد بن الطثرية في «أخبار أبي تمام» (٢٦٤)، و«الموازنة» (١/ ٦٩)، وترجمته من «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٧٠). ولمجنون بني عامر في ديوانه (٢١٩) عن «البيان والتبين» (٢/ ٤٢)، و«الحيوان» (١/ ١٦٩، ٤/ ١٦٧)، وغيرهما. ولعمر بن أبي ربيعة في «عيون الأخبار» (٣/ ٩).

(٣) (ن): «ففكر بغير».

قيل: مجرىٰ الفكر ومتعلَّقُه أربعةُ أمور:

أحدُها: غايةٌ محبوبةٌ مرادةُ الحصول.

الثاني: طريقٌ موصلةٌ إلىٰ تلك الغاية.

الثالث: مضرَّةٌ مطلوبةُ الإعدام مكروهةُ الحصول.

الرابع: الطريقُ المفضي إليها الـمُوقِعُ عليها.

فلا تتجاوزُ أفكارُ العقلاء هذه الأمورَ الأربعة، وأيُّ فكرٍ تخطَّاها فهو من الأفكار الرديَّة والخيالات والأماني الباطلة، كما يُمثِّلُ الفقيرُ الـمُعْدِمُ نفسَه من أغنىٰ البشر وهو يأخذُ ويعطي ويُنعِمُ ويحرِم، وكما يُمثِّلُ العاجزُ نفسَه من أقوىٰ الملوك وهو يتصرَّفُ في البلاد والرعيَّة، ونظائرُ ذلك من أفكار القلوب الباطوليَّة[1] التي من جنس أفكار السَّكران والـمَحْشوش[2] والضعيف العقل.

فالأفكارُ الرديَّةُ هي قُوتُ الأنفس الخسيسة[3] التي هي في غاية الدناءة؛ فإنها قد قَنِعَت بالخيال ورضيت بالـمُحال، ثمَّ لا تزالُ هذه الأفكارُ تقوىٰ بها وتتزايدُ حتىٰ تُوجِبَ لها آثارًا رديَّةً ووساوسَ وأمراضًا بطيئةَ الزوال.

وإذا كان الفكرُ النافعُ لا يخرجُ عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها، فله

---

(١) راجع ما تقدم (ص: ١١٠).

(٢) من الحشيش (وهو نباتٌ مخدِّر)، كقولهم: «مخمور» من الخمر. انظر: «المعجم الكبير» لتيمور (٢/ ١١٠). ووقع مثله في «الداء والدواء» (٣٥٩).

(٣) (ت): «الخبيثة».

أيضًا محلّان ومنزلان: **أحدهما**: هذه الدار، **والآخر**: دار القرار.

* فأبناءُ الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة مِنْ خَلاقٍ عمَّروا بيوتَ أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار، فأثمرت لهم أفكارُهم فيها ما أثمرت، ولكن إذا حَقَّت الحقائق، وبطلت الدنيا، وقامت الآخرة؛ تبيَّن الرابحُ من المَغْبون، وخسر هنالك المبطلون.

* وأبناءُ الآخرة الذين خُلِقوا لها عمَّروا بيوتَ أفكارهم علىٰ تلك الأقسام الأربعة فيها.

ونحن نفصِّلُ ذلك بعون الله وفضله، فنقول: كلُّ طالبٍ لشيءٍ فهو محبٌّ له، مُؤْثِرٌ لقُربه، ساعٍ في طريق تحصيله، متوصِّلٌ إليه بجهده، وهذا يوجبُ له تعلُّقَ أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته[1] التي يُحَبُّ لأجلها، وتعلُّقها بما ينالُه به من الخير والفرحة والسرور.

ففكرُه في حال محبوبه دائرٌ بين الجمال والإجمال[2]، والحُسْن والإحسان، فكلَّما قويت محبَّتُه له ٱزدادَ هذا الفكرُ وقَوِيَ وتضاعف، حتىٰ يستغرقَ أجزاءَ القلب فلا يبقىٰ فيه فضلٌ لغيره، بل يصيرُ بين الناس بقالبه، وقلبُه كلُّه في حضرة محبوبه.

فإن كان هذا المحبوبُ هو المحبوبَ الحقَّ الذي لا تنبغي المحبةُ إلا له، ولا يُحَبُّ غيرُه إلا تبعًا لمحبَّته، فهو أسعدُ المحبِّين به، وقد وضعَ الحبَّ موضعَه، وتهيَّأت نفسُه لكمالها الذي خُلِقَت له الذي لا كمال لها بدونه

---

(١) (ت): «وكمال صفاته».

(٢) انظر: «المدارج» (٣/ ٢٨٨)، و«القوانين الفقهية» لابن جزي (٢٨٥).

بوجه.

وإن كانت تلك المحبةُ لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التي تفنىٰ وتبقىٰ حزازاتُ النفوس[1] بها علىٰ حالها، فقد وضعَ المحبةَ في غير موضعها، وظلمَ نفسَه أعظمَ ظلمٍ وأقبحَه، وتهيَّأت بذلك نفسُه لغاية شقائها وألمها.

وإذا عُرِفَ هذا عُرِفَ أنَّ تعلُّقَ المحبة بغير الإله الحقِّ هو عينُ شقاء العبد وخسرانه، فأفكارُه المتعلِّقةُ بها كلُّها باطلة، وهي مضرَّةٌ عليه في حياته وبعد موته.

والمحبُّ الذي قد ملكَ المحبوبُ أفكارَ قلبه لا يخرجُ فكرُه عن تعلُّقه بمحبوبه أو بنفسه.

ثمَّ فكرُه في محبوبه لا يخرجُ عن حالتين:

إحداهما: فكرتُه في جماله وأوصافه.

الثانية: فكرتُه في أفعاله وإحسانه وبِرِّه ولطفه الدالَّة علىٰ كمال صفاته.

وإن تعلَّقَ فكرُه بنفسه لم يخرج ـ أيضًا ـ عن حالتين:

* إمَّا أن يفكِّر في أوصافه المسخوطة التي يبغضُها محبوبُه ويمقتُه عليها ويُسْقِطُه من عينه، فهو دائمًا يتوقَّعُ بفكره عليها ليجتنبها ويبعدَ منها.

* والثانية: أن يفكِّر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقرِّبُه منه وتحبِّبه إليه حتىٰ يتصفَ بها.

---

(١) (ح، ن): «القلوب».

فالفكرتان الأوَّلتان[1] توجبُ له زيادةَ محبَّته وقوَّتها وتضاعُفَها، والفكرتان الآخرتان[2] توجبُ محبةَ محبوبه له، وإقبالَه عليه، وقربَه منه، وعطفَه عليه، وإيثارَه علىٰ غيره.

فالمحبةُ التامَّةُ مستلزمةٌ لهذه الأفكار الأربعة.

فالفكرةُ الأولىٰ والثانيةُ: تتعلَّقُ بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود ـ سبحانه ـ وأفعاله، والثالثةُ والرابعةُ: تتعلَّقُ بالطريق الموصلة إليه وقواطعها وآفاتها وما يمنعُ من السَّير فيها إليه.

فتفكُّره في صفات نفسه يميِّزُ له المحبوبَ لربِّه منها من المكروه له.

وهذه الفكرةُ توجبُ ثلاثةَ أمور:

أحدها: أنَّ هذا الوصفَ هل هو مكروهٌ مبغوضٌ لله أم لا؟

والثاني: إذا كان مكروهًا، فهل العبدُ متصفٌ به أم لا؟

والثالث: إذا كان متصفًا به، فما طريقُ رفعه[3] والعافية منه؟ وإن لم يكن متصفًا به فما طريقُ حفظ الصِّحة وبقائه علىٰ العافية والاحتراز منه؟

وكذلك الفكرةُ في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثةَ أمور:

هل هي محبوبةٌ لله مرضيَّةٌ له أم لا؟

الثاني: هل العبدُ متصفٌ بها أم لا؟

---

(١) (ت): «الاوليتان». وتقدم التعليق عليها (ص: ٢٩٨).

(٢) كذا في الأصول، مثنىٰ آخرة. انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٨٩).

(٣) (ح، ن): «دفعه».

الثالث: أنه إذا كان متصفًا بها، فما طريقُ حفظها ودوامها؟ وإن لم يكن متصفًا بها فما طريقُ ٱجتلابها والتخلُّق بها؟

ثمَّ فكرتُه في الأفعال علىٰ هذين الوجهين أيضًا سواء.

ومجاري هذه الأفكار ومواقعُها كثيرةٌ جدًّا لا تكادُ تنضبط، وإنما يحصرها ستةُ أجناس: الطاعاتُ الظاهرةُ والباطنة، والمعاصي الظاهرةُ والباطنة، والصفاتُ والأخلاقُ الحميدة، والأخلاقُ والصفاتُ الذميمة. فهذه مجاري الفكرة في صفات نفسه وأفعالها[1].

وأمَّا الفكرةُ في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتوجبُ له التمييزَ بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الربِّ عمَّا لا يليقُ به، ووصفه بما هو أهلُه من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبُّرُ كلامه، وما تعرَّف به سبحانه إلىٰ عباده علىٰ ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسَه عنه مما لا ينبغي له ولا يليقُ به سبحانه، وتدبُّرُ أفعاله وأيامه في أوليائه وأعدائه التي قَصَّها علىٰ عباده وأشهدهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها علىٰ أنه إلههم الحقُّ المبينُ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ويستدلُّوا بها علىٰ أنه علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وأنه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنه شديدُ العقاب، وأنه غفورٌ رحيم، وأنه العزيزُ الحكيم، وأنه الفعَّالُ لما يريد، وأنه الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأنَّ أفعالَه كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرحمة، والعدل والمصلحة، لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلك.

وهذه الثمرةُ لا سبيل إلىٰ تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه والنظر في آثار أفعاله.

---

(١) (ت): «وأفعاله».

وإلىٰ هذين الأصلين(١) نَدَبَ عباده في القرآن:

* فقال في الأصل الأول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

* وقال في الأصل الثاني: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٥].

---

(١) تدبُّر كلامه، والنظر في آثار أفعاله.

ونوَّع سبحانه الآيات في هذه السورة[1]:

* فجَعَل خلقَ السموات والأرض واختلافَ لغات الأمم وألوانهم آياتٍ للعالمين كلِّهم؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

* وجعل خَلْقَ الأزواج التي يسكنُ إليها الرجالُ وإلقاءَ المودَّة والرحمة بينهم آياتٍ لقومٍ يتفكرون؛ فإنَّ سكونَ الرجل إلىٰ ٱمرأته وما يكونُ بينهما من المودَّة والتعاطف والتراحم أمرٌ باطنٌ مشهودٌ بعين الفكرة والبصيرة، فمتىٰ نظر بهذه العين إلىٰ الحكمة والرحمة والقدرة التي صدرَ عنها ذلك، دَلَّه فكرُه علىٰ أنه الإله الحقُّ المبين الذي أقرَّت الفِطرُ بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

* وجعل المنامَ بالليل والنهار والتصرُّفَ[2] في المعاش وابتغاءَ فضله آياتٍ لقوم يسمعون، وهو سمعُ الفهم وتدبُّر هذه الآيات وارتباطها[3] بما جُعِلَت آيةً له مما أخبرت به الرسلُ من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرُّف في معاشهم؛ فهذه الآيةُ إنما ينتفعُ بها من سمع ما جاءت به الرسل، وأصغىٰ إليه، واستدلَّ بهذه الآية عليه.

* وجعل إراءتَهم البرقَ[4] وإنزالَ الماء من السماء وإحياءَ الأرض به آياتٍ لقومٍ يعقلون؛ فإنَّ هذه أمورٌ مرئيَّةٌ بالأبصار مشاهدةٌ بالحِسِّ، فإذا نظر فيها ببصرِ قلبه ـ وهو عقلُه ـ ٱستدلَّ بها علىٰ وجود الربِّ تعالىٰ وقدرته

---

(١) سورة الروم.

(٢) (ح، ن): «للتصرف». وهو تحريفٌ ظاهرٌ من سياق الآية.

(٣) (ح): «ارتباطها».

(٤) قال ابن الأعرابي: «أَرَيتُه الشيءَ إراءةً وإرايةً وإرءاءةً». «اللسان».

وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

وهذه أمورٌ لا تُدْرَكُ إلا ببصر القلب ـ وهو العقل ـ؛ فإنَّ الحِسَّ دلَّ علىٰ الآية، والعقلَ دلَّ علىٰ ما جُعِلَت آيةً له، فذكر سبحانه الآيةَ المشهودةَ بالبصر، والمدلولَ عليه المشهودَ بالعقل، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

فتباركَ الذي جعل كلامَه حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور.

وبالجملة؛ فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكُّل والرضا والتفويض والشكرَ والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فسادُ القلب وهلاكُه.

فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتىٰ مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّم خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان وذَوْقِ حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السَّلف، يردِّدُ أحدُهم الآيةَ إلىٰ الصباح[1]، وقد ثبت

---

(١) انظر: مختصر «قيام الليل لمحمد بن نصر» (١٤٨ - ١٥١)، و«نتائج الأفكار» لابن حجر (٣/ ١٩١ - ١٩٥).

عن النبيِّ ﷺ أنه قام بآيةٍ يردِّدُها حتىٰ الصباح[1]؛ وهي قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءةُ القرآن بالتفكُّر هي أصلُ صلاح القلب.

ولهذا قال ٱبن مسعود: «لا تَهُذُّوا القرآنَ هَذَّ الشِّعر، ولا تنثروه نثرَ الدَّقَل، وقِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب»[2].

وقال ٱبن مسعود ـ أيضًا ـ: «ٱقرؤوا القرآن، وحرِّكوا به القلوب، لا يكن همُّ أحدكم آخرَ السورة»[3].

وروىٰ أيوب، عن أبي جمرة، قال: قلت لابن عباس: إني سريعُ القراءة، إني أقرأ القرآنَ في ثلاث. قال: «لأنْ أقرأ سورةً من القرآن في ليلةٍ فأتدبَّرها وأرتِّلها أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآنَ كما تقرأ»[4].

والتفكُّرُ في القرآن نوعان:

* تفكُّرٌ فيه ليقع علىٰ مراد الربِّ تعالىٰ منه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩)، والنسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وغيرهم من حديث أبي ذر.
وصححه الحاكم (١/ ٢٤١) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٧١)، و«مسند البزار» (٩/ ٤٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٥٢١، ١٠/ ٥٢٥).
والدَّقَل: رديء التمر ويابسُه. «اللسان».

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٤٨٩)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢/ ٣٩٦).

* وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَه إلىٰ التفكُّر فيه.

فالأول: تفكُّرٌ في الدليل القرآني، **والثاني:** تفكُّرٌ في الدليل العِياني. **الأول:** تفكُّرٌ في آياته المسموعة، **والثاني:** تفكُّرٌ في آياته المشهودة.

ولهذا أنزل اللهُ القرآن ليُتَدَبَّر ويُتَفكَّرَ فيه ويُعْمَلَ به، لا لمجرَّد تلاوته مع الإعراض عنه.

قال الحسنُ البصري: «أُنزِل القرآنُ ليُعْمَلَ به، فاتَّخَذوا تلاوتَه عملًا»![1].

---

(١) «تلبيس إبليس» (١٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ١١٩). وأخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١١٦) عن الفضيل. وأورده مكي في «القوت» (١/ ١٢٢)، والغزالي في «الإحياء» (١/ ٦٤، ٢٧٥) عن ابن مسعود.